تاريخ الكتابة التاريخية

تأليف

هارى إلمر بارنز

ترجمة

ا.د. محمد عبد الرحمن برج

مراجعة

ا.د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

الجزء الثانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

تاريخ الكتابة التاريخية

الإخراج الفنى : سهير معطى شنودة

المراجعة والإشراف الفنى : عفــاف توفيق

تاريخ الكتابة التاريخية

تأليف

هارى إلمر بارنز

ترجمة

ا.د. محمد عبد الرحمن برج

مراجعة

ا.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الجزء الثانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

الفصل التاسع

الكتابة القومية تحت تأثير التحرر والقومية
القومية والكتابة التاريخية

لم يقتصر أثر حركة التوسع الأوربي على كونها عاملاً كبيراً فى إثارة الاهتمام بتاريخ الشعوب غير الأوربية وكونها دافعاً قوياً على تطور العلم الطبيعى الحديث ، وما صاحبه من فلسفة الشك ، بل كانت كذلك القوة الرئيسية التى ساعدت على خلق الدول القومية الحديثة التى قامت على أنقاض الملكيات الإقطاعية التى وجدت فى أواخر العصور الوسطى . هذا إلى أن حركة التوسع الأوربى هذه أسهمت فى زيادة رؤوس الأموال ومصادر المادة التى غدت تحت تصرف الملوك ، كما ساعدت على خلق طبقة متوسطة موالية لهم مما مكن الملوك من تكوين جهاز من الموظفين الحكوميين وإقامة قوة عسكرية ثابتة استطاعوا بهما سحق معارضة طبقة النبلاء الاقطاعيين وإدخال نظام الدولة القومية .

ولم تلبث أن أدت الحماسة الوطنية فى الدول الحديثة إلى زيادة انتاج الكتب التى تمجد ماضى كل دولة وتاريخها القومى . وهكذا حدث نشاط هائل فى جمع الوثائق التى لا تقدر بثمن والتى تسجل تاريخ كل دولة منذ ماضيها البعيد . وعلى الرغم من أن المرحلة المبكرة لحركة الجمع والنشر هذه كانت قد بدأت فى القرن السادس عشر ، فإنها أخذت شكلها الحديث بعد أن أسهمت الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وحركة بعث روسيا بدرجة كبيرة فى خلق شعور قومى قوى فى معظم الدول الأوربية ثم ازداد هذا الشعور القومى قوة بفعل الحركة الرومانسية وهى التى أكدت دائماً أهمية الشخصية القومية و « عبقرية الشعب التى لا تندثر أبداً » .

وكان لمذهب التحرر كذلك أثر كبير على كتابة التاريخ خاصة فى تلك البلاد التى لم يكن النظام الملكى ولا الاتجاهات الاستبدادية ، المطلقة على درجة كبيرة من القوة . وازداد الاتجاه التحررى قوة وعمقاً بفعل الثورات الإنجليزية فى القرن السابع عشر والثورة الأمريكية والثورة الفرنسية وحرب التحرير فى بروسيا فضلاً عن ثورات سنة ١٨٣٠ ، سنة ١٨٤٨ م .

ويتضح أثر مذهب التحرر على نشأة التاريخ القومى فى كتابات عديد من المؤرخين أمثال روتيك ، جرفينوس ، ودهلمان ، وثيرى ، ومشيليه ، وكوينت ، وماكولى ، فريمان ، وبانكروفت ، وموتلى .

وفى منتصف القرن التاسع عشر ازداد الدافع القومى عمقاً وقوة نتيجة لرد الفعل القوى لكتاب ظهر سنة ١٨٥٤ بعنوان « بحث حول عدم تكافؤ الأجناس البشرية » بين فيه مؤلفه الكونت جوزيف أرثر جوبنيو Joseph Arthur of Gobineau (١٨١٦ - ١٨٨٢ م) تأثير السلالات على التطور التاريخى ، وأكد سمو الجنس الآرى على بقية الأجناس ، وأعلن رأيه الخاص بأن تدهور هذه السلالة جاء نتيجة اختلاطها بسلالات أخرى أقل منها شأناً . وكان أن لقيت هذه الآراء غير المستساغة الآن قبولاً وانتشاراً فى ذلك الوقت لدى جماهير المؤرخين والساسة القوميين فى ألمانيا[1] . وبلغت هذه العقيدة ذروتها فى ملاحم هوستون ستيورات شامبرلين ، وأعمال موريس بايه وأناشيد النصر السكسونية ، التى نظمها كبلنج وهو مرلى . وهكذا لم يلبث أن أدى هذا الاعتقاد إلى إذكاء روح التعصب الوطنى خاصة عند الأمم والأسر الحاكمة مما ترتب عليه اضطهاد الأمم التى كانت أقل شأناً وهو الاضطهاد الذى كان سبباً فى إذكاء عواطفها القومية ومشاعرها الوطنية[2] .

---

(١)على عكس ما كان معتقداً ، ولم يكن لجوبينه اتباع كثيرون فى فرنسا ، اذ كان ينظر إليه على أنه نيتشه الفرنسى أى شخص غير متدين يقف ضد العقيدة وضد القومية والديمقراطية . ولم يظهر أول تاريخ لجوبينه بالفرنسية إلا حديثا (المؤلف) .

(2) CF.F.H.Hankins, The Racial Basis of Civilizatoin (Knopf 1926) Chaps I- V and Theophile Simar, The Race Myth (Boni 1925).

الكتابة التاريخية القومية فى ألمانيا

بدأت البذور الأولى لكتابة التاريخ على أسس قومية فى ألمانيا على عهد المدرسة الإنسانية وعهد الإمبراطورية القديمة . ذلك أن الإمبراطور المثقف مكسميليان الأول (١٤٩٣ - ١٥١٩ م) سار على نفس نهج شارلمان فى جمع بعض كبار علماء المدرسة الألمانية فى بلاطه فى فينا . ثم جاء من بعده كونراد كلتس الذى عمل على إحياء الاهتمام بكتاب « جرمانيا » الذى ألفه تاكيتوس ، وبهذا أطلق الشرارة الأولى لجدل استمر قرابة أربعة قرون .

أما يوحنا سبسمر (١٤٧٣ - ١٥٢٩ م) المعروف باسم كوسبنيان Cuspinian فقد قام بدراسة ناقدة للأعمال التاريخية لكل من جوردان ، واوتو فريزنج . أما ايرنيكوس ، بويتبنجر ، بيتوس ريناموس ، فهم يعكسون نفس روح بلوندوس فى أبحاثهم الخاصة بالآثار الألمانية ، وان كان نشاطهم سرعان ماطغى عليه الجدل الخاص بحركة الإصلاح الدينى ، مما أدى إلى فتور اهتمامهم بالتاريخ العلمانى والقومى .

أما حركة جمع مصادر التاريخ الألمانى فقد بدأها سيمون سكارديوس (١٥٣٥ - ١٥٧٣) ويوحنا بيستوريوس (١٥٤٦ - ١٦٠٨) وماركارد فريهر (١٥٦٥ - ١٦١٤) . ولم يلبث ملكوار جولداست (١٥٧٨ - ١٦٣٥) أن جمع فى كتابه عن أباطرة الدولة الرومانية عدداً كبيراً من الوثائق التى تتعلق بتاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى فضلاً عن تاريخ القانون العام . وظل هذا الكتاب يمثل خير مجموعة لوثائق التاريخ الألمانى حتى ظهر كتاب « الوثائق الخالدة » Monumenta الذى تناول نفس الفترة وحوى نفس المادة ولكن بطريقة أكثر اتقاناً .

ثم كان أن ظهر الفيلسوف البارز جوتفريد ويلهلم ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) وكان على درجة عالية من الطموح دفعت به إلى محاولة جمع مصادر التاريخ الألمانى فى كتاب يمكن أن ينافس الكتب الفرنسية التى وضعها دوشزن فى هذا الشأن . لكن ليبنتز لم يحصل على المساعدة المرجوة من الإمبراطور حتى يتمكن من إتمام مشروعه الكبير . ومن ثم فقد تخلى عنه واقتصر إنتاجه على كتابة تاريخ الجلفيين وذلك فى كتابه « حوليات برونزويك الخاصة بالإمبراطورية الغربية » وهو الكتاب الذى ظهر ما بين ١٧٠٧ - ١٧١١ م . وهو مستخلص مما كتبه ليبنتز عن أسرة برونزويك . وأكد ليبنتز ضرورة نسخ المصادر كما هى دون إدخال أى تعديل أو تصحيح عليها .

أما المجموعة الكبرى الحديثة عن مصادر التاريخ الألماني وهي التي تحمل اسم « الوثائق الخالدة عن التاريخ الألماني Monumenta Germaniae Historia فهي جديرة فعلاً بهذا الاسم ذلك أنها كانت إنتاجاً طبيعياً لروح حرب التحرير وبدأ كتابتها رجل من أبرز رجال السياسة في عصره وهو هنريك فردريك كارل بارون فوم شتين . وقد تأثر شتين بالاتجاهات الرجعية التي سادت الفترة التي أعقبت مؤتمر فينا ، ومن ثم فقد كرس كل طاقته لإثارة الاهتمام بالتاريخ الألماني مدفوعاً إلى ذلك بعاطفة الحب الجياش نحو الأرض التي نشأ عليها أجداده وآباؤه .

ولما فشل في الحصول على معونة حكومية تساعده على جمع مصادر التاريخ الألماني ، فإنه استطاع أن يجمع المال اللازم لهذا المشروع من موارده الشخصية ومن أصدقائه ، حتى أنشأ مركز الوثائق التاريخية الخاصة بألمانيا . وشاء حسن حظه أن يلتقى بزميل له على جانب كبير من غزارة المعرفة والمقدرة على العمل ، وهو جورج هنريك برتز Pertz (١٧٩٥ - ١٨٧٦ م) الذي كان يعمل في دار المحفوظات بهانوفر . وقد تحمل برتز عبء العمل في كتاب « الوثائق الخالدة » مدة نصف قرن وساعده كثير من العلماء الألمان على رأسهم جورج وتيز . وأخيراً جاء هذا الكتاب شاملاً لكل مصادر المعرفة الهامة عن التاريخ الألماني منذ عهد الكتاب الرومان الذين تناولوا موضوع الغزو والفتوحات حتى العصور الوسطى . ولم يكتمل الكتاب إلا سنة ١٩٢٥ بعد أن توالى ظهوره في ١٢٠ جزءاً . ويعتبر هذا الكتاب نقطة تحول رئيسية في تطور الكتابة التاريخية العلمية حيث انه فتح الطريق أمام أجيال من المؤرخين تميزوا بوفرة الإنتاج ودقته . ثم أضيف إلى هذا العمل القومي العظيم أعمال أخرى تناولت تاريخ العديد من الولايات الألمانية فضلاً عن تاريخ ألمانيا الديني وعلاقتها الخارجية ، وأعمال القادة البارزين فيها . ومن أمثلة ذلك ما قام به إردمانز درفر Erdmansdorffer من تجميع لتاريخ ألمانيا في عهد الناخب الأعظم فردريك وليم .

وفي مجال كتابة التاريخ القومي في ألمانيا لم يقف الجهد عند حد جمع المصادر ، وإنما وجد منطلقاً هائلاً في القصص الممتع الذي اتخذ من أمجاد ألمانيا في ماضيها ومن أعمال أسرة هوهنزلرن العظيمة موضوعاً له . ذلك أن أسرة هوهنزلرن قامت بجهد كبير ساعد على خلق اتجاهات حماسية لإحياء أمجاد إمبراطورية بروسيا في العصور الوسطى . وكان يوحنا مولر أحد كبار المفكرين الذين كان لهم دور في نشأة التاريخ القومي الألماني ، فكتب عن ألمانيا العصور الوسطى بأسلوب رومانسي مؤثر أما شميدت — كما سبق أن رأينا — فقد كتب تاريخاً عن ألمانيا من وجهة نظر المدرسة العقلانية ، ولكن نظرة شميدت العالمية جعلت عمله غير مقبول لدى جماهير ألمانيا الوطنيين المتحمسين .

اما فردريك ويلكن فقد لجأ إلى كتابة القصص القومية التى تمجد بسالة الألمان فى الحروب الصليبية وذلك فى كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » والذى ظهر ما بين ١٨٠٧ - ١٨٣٢ م . وهناك أيضاً هنريك لودن (١٧٨٠ - ١٨٤٧) الذى ألف كتاباً طويلاً بعنوان « تاريخ الشعب الألمانى (حتى ١٢٣٥) » وفيه يظهر تأثره بآراء يوحنا مولر عن العصور الوسطى . وحاول لودن فى هذا الكتاب أن يثير حماسة قومه تجاه عظمة ألمانيا فى العصور الوسطى .

ويأتى بعد ذلك المؤرخ يوحنا فواجت Johannes Voiget (١٧٨٦ - ١٨٦٣) صاحب كتابى « تاريخ بروسيا » و« تاريخ مارينبرج » وهما عبارة عن ملحمة عالجت فتح بروسيا ونشر الديانة المسيحية فيها على أيدى الفرسان التيوتون . كذلك استعرض فردريك فون رومر (١٧٨١ - ١٨٧٣ م) ما أنجزته أسرة هوهنشتاوفن ، وبذلك اذاع شهرة أبطال العصور الوسطى الألمان . هذا فى حين عالج المؤرخ جوستاف ستانزل (١٧٩٢ - ١٨٥٤) أعمال أباطرة فرانكونيا بمهارة ناقدة وعاطفية وطنية . أما المؤرخ ويلهلم فون جيزبرخت (١٨١٤ - ١٨٨٩) فقد حلل عوامل تكوين الإمبراطوية الألمانية فى العصور الوسطى فى كتابه الذى اسماه « تاريخ عصر الإمبراطورية الألمانية » وفيه استعرض علمه الغزير بصورة لا تقل بروزاً عن مقدرته الأدبية النادرة وتحمسه وتعقبه للتيوتونية .

وعلى الرغم من أن التاريخ الذى كتبه ليوبولدفون رانكه عن حركة الإصلاح الدينى كان كبير الأثر فى جعل لوثر بطلاً قومياً ألمانياً عظيماً ، فإنه يجب الاعتراف بأن رانكه والرعيل الأول من تلاميذه كانوا يشاركون المتعقلين نظرتهم العالمية . ولكن مع نشأة « المدرسة البروسية » أصبح التاريخ القومى فى ألمانيا أكثر تعصباً وأكثر تركيزاً على الأسر الحاكمة . بل ان فون رانكه نفسه الذى كان يتصف بالتحكم فى عواطفه لم يستطع أن يقلل أو يخفف من إعجابه ببروسيا وبأسرة هوهنزلون ، وبذلك جاءت كتبه العديدة عن التاريخ البروسى أقرب من غيرها من كتاباته لتكون تاريخاً قومياً . كذلك كتب لودفيج هوسر (١٨١٨ - ١٨٦٧ م) قصة ممتعة عن حرب الثلاثين سنة والإمارات الجرمانيه فضلاً على ملحمة طويلة صاغها عن حرب التحرير فى كتابه « تاريخ ألمانيا من ١٧٨٦ - ١٨١٥ م » وركز فى كتابه هذا على دور بروسيا فى تحرير ألمانيا وتوحيدها . أ. ما كسيليان دنكر (١٨١١ - ١٨٨٦) مؤرخ العصور القديمة الذى نهض بمهمة نشر الأوراق الرسمية الخاصة بملوك بيت هوهنزلرن ومن ثم ازداد إعجابه بهذه الأسرة وأصبح مقتنعاً بقدرتها على إحياء أمجاد الإمبراطورية الألمانية القديمة وجاء مدح لبروسيا كذلك فى كتاب أدولف شميدت

(١٨١٢ - ١٨٨٧) الذى سماه « سياسة بروسيا الألمانية » وكذلك فى كتابه « تاريخ محاولات الوحدة منذ عهد فردريك الكبير » . وقد أكد شميدت اخلاص بروسيا الذى لا يتزعزع لقضية الوحدة الألمانية .

أما أول الأعمال الكبرى التى تثنى على بروسيا فهو كتاب « تاريخ السياسة البروسية » الذى ألفه يوحنا جوستاف درويسن Johannes Gustav Droysen (١٨٠٤ - ١٨٨٤ م) وقد تخلى فيه عن مذهبه الحر ليصبح مادحاً إلى درجة النفاق لأسرة هوهنزلرن . ولذلك جاء كتابه الخالد مشوباً بتحيز مؤسف لهذه الأسرة وما سماه بالرسالة التى جاءت هذه الأسرة من أجل تحقيقها . وبالإضافة إلى ذلك اقتصر كتابه على دراسة سطحية لسياسة بروسيا الخارجية واهتم اهتماماً ضئيلاً بالسياسة الداخلية . وأغفل أثر العوامل الاقتصادية والظروف الاجتماعية .

ثم بدأ المؤرخ هنريك فون تريتشك (١٨٣٤ - ١٨٩٦) من حيث توقف درويسن ويرقى كتابه « تاريخ ألمانيا فى القرن التاسع عشر إلى مستوى مؤلفات ميشليه ، ماكولى ، فرود ، حتى أنه يعتبر إحدى التحف الأدبية فى الكتابة التاريخية الحديثة . وعلى الرغم مما امتلأ به هذا الكتاب من حماسة واضحة للدور القيادى لبروسيا البروتستانتية وهى الشىء الذى يفيض به كتاب درويسن — فإن كتاب ترتيشك قد أعطى كثيراً من الاهتمام للجوانب الثقافية الأساسية فى تطور ألمانيا القومى .

أما هنريك فون سيبل (١٨١٧ - ١٨٩٥ م) فهو آخر الرواد الثلاثة فى المدرسة البروسية . وقد بدأ سيبل عمله متتلمذاً على فون رانكه فوضع كتاباً ممتازاً عن الحملة الصليبية الأولى وقام بدراسة عميقة عن الملكية فى ألمانيا . ولكن الأحداث السياسية المثيرة التى شهدها منتصف القرن التاسع عشر جعلته يبتعد عن نهج أستاذه وأصبح يؤيد بقوة الوحدة الألمانية عن طريق القوة العسكرية البروسية . وجاء كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » حواراً كبيراً مضاداً لحركة الثورة الفرنسية . وكان موضوعه الرئيسى هو الاعتقاد الرومانسى السابق الذى يذهب إلى أن الفرنسيين يفتقرون إلى المقدرة السياسية . ثم تحول من هذه الدراسة إلى دراسة ما توهم أنه الشيء الذى يثبت قدرة أمته الفائقة فى الأمور السياسية ، وهو قيام الإمبراطورية الألمانية على يد بسمارك . وكشف كتابه الكبير ، قيام الإمبراطورية الألمانية على يد وليم الأول ، عن قدرة هائلة على سرد كثير من التفاصيل السياسية والدبلوماسية بصورة واضحة . ولكن منهجه كان الدفاع المتميز عن سياسة بسمارك ودبلوماسيته .

وبانتهاء سيبل من كتابه أصبح التاريخ فى ألمانيا أداة أضعف من أن تخدم الأمانى القومية . ولم يلبث أن حل محل التاريخ الإنتاج الأدبى لبيترز Peters ، تاتنبرج وسائر الكتاب من مؤيدى حركة التوسع الألمانى ، هذا فضلاً عن برنهاردى Bernhardi ، وكبار العسكريين وشامبرلين وكبار المتحمسين للتيوتونيه ، وهم الذين اتصفت أعمالهم بالصخب . ولقد أوضح جويلاند[1] الدور الذى لعبته مدرسة المؤرخين البروسية فى خلق هذه الحالة من الاعتزاز بالقومية والفخار بها . أما أوتوهنتز فقد بين فى كتابه الكبير ، ملوك أسرة هوهنزلرن وأعمالهم ، الذى صدر سنة ١٩١٥ والذى بلغت مجلداته المائة كيف انتصرت الدراسة العلمية التاريخية على تيار القومية المتحمسة حتى عصر الحرب العالمية وذلك فى أوساط المؤرخين المحترفين هذا وان كان هذا الكتاب يتصف بالاتزان والبعد عن التطرف . ومع ذلك فإن الفترة حتى عصر الحرب العالمية الأولى شهدت نكوصاً عارضاً فى كتابة التاريخ القومى فى ألمانيا . ولعل آخر المؤرخين القوميين من الألمان كان ويتريش شافر (١٨٤٥ - ١٩٢٩) الذى كان قوياً فى تأييده للملكية متطرفاً فى مشاعره الوطنية مما جعل كتبه « تاريخ العالم » و « تاريخ ألمانيا » تحظى بشهرة هائلة بين الوطنيين الألمان .

أما مصادر التاريخ النمساوى فقد جمعت لأول مرة بواسطة جيروم بيز (١٦٨٥ - ١٧٦٢) وهو العلامة الراهب فى كتابه عن « ملوك أوستريا » ولم يقف الأمر فى القرن التاسع عشر عند حد جمع وثائق التاريخ النمساوى فى كتاب « الوثائق الخالدة » Monmnenta وهو الكتاب الذى أسهم فيه تيودور سيكل (١٨٢٦ - ١٩٠٨) بجهد كبير ، وإنما صدرت مجموعات قومية مستقلة . جمع فيه هذه المصادر القومية واصدرتها أكاديمية فينا فى أكثر من سبعين جزءاً . كذلك ساهم سيكل فى إصدار الطبعة الجديدة لكتاب بوهمر المعروف باسم « السجل الإمبراطورى » والذى أشرف على تحريره جوليامس فون فيكر (١٨٢٦ - ١٩٠٢) وصدر فى اينسبروك بعد سنة ١٨٧٧ م .

وبالإضافة إلى أن المؤرخ سيبل كان علامة عظيم الشأن ، فإنه أول من خلق اهتماماً كبيراً بتاريخ النمسا فى العصور الوسطى من خلال مؤلفاته وكتاباته عن الأباطرة السكسون . وينتمى فيكر هو الآخر إلى مدرسة كبار علماء عصره وقد دفعته دراساته فى القانون المقارن إلى تناول العلاقة بين الشعوب الجرمانية المتعددة . أما أعظم تاريخ قومى عن النمسا فهو الكتاب الخالد الذى وصفه الفريد فون ارنت (١٨١٩ - ١٨٩٧ م) الذى تناول عهد ماريا تيريزا . كذلك عالج

(١) Antoine Guilland, Modern Germany and Her Historians (London 1915)

المؤرخ أونو كلوب (١٨٢٢ - ١٩٠٣) بطولات الإمبراطورية النمسوية فى حرب الثلاثين سنة وشن هجوماً على فردريك الكبير فى الوقت الذى كان أعظم مدافع عن أسرة هابسبورج . أما المؤرخ هلفرت فقد تولى الدفاع عن السياسة المضادة للثورة التى سار عليها فترنج ، فى حين عرض فريدزنج (١٨٥١ - ١٩٢٠) بطريقة تتسم بالدقة قضية النمسا ضد بروسيا فى السنين الأخيرة من الصراع بينهما أى قبل سنة ١٨٦٦ وكانت وجهة نظره متحيزة لألمانيا ضد الإمبراطورية النمسوية المجرية .

التاريخ القومى فى فرنسا

بدأ الفرنسيون يتجهون نحو تحليل وجمع مصادر تاريخهم القومى بعد حوالى قرن من نشأة الكتابة التاريخية القومية فى ألمانيا فى بلاط الإمبراطور ماكسيليان . ذلك أن هذه الحركة بدأت فى فرنسا سنة ١٥٧٤ عندما صدر كتاب (غاليا الفرنجية) Franco Gallia للمؤرخ الفرنسى فرانسوا هوتمان . على ان هناك أعمالاً أخرى مبتكرة توضح بداية كتابة التاريخ القومى فى فرنسا مثل كتاب كلود فوشيه Claude Fauchet الآثار الغالية والفرنسية ، الذى صدر سنة ١٥٧٩ وكتاب بطرس بيثو Pierre Pithou الذى صدر سنة ١٥٨٨ بعنوان (الحوليات الفرنجية) ، وكتاب أبحاث عن فرنسا الذى صدر سنة ١٦١١ لمؤلفه إتين باسكوير هذا فضلاً عما تضمنه كتاب جاك بونجارز عن الحروب الصليبية فى كتابه « منجزات الرب على أيدى الفرنجة » .

أما البداية الحقيقية للجمع الناقد لمصادر التاريخ الفرنسى فقد ظهرت فى أعمال اندريه دوشزن (١٥٤٨ - ١٦٤٠) الذى وضع كتاب تاريخ النورمان كما ورد فى المخطوطات القديمة ، وقد صدر سنة ١٦١٩ ، وكتاب تاريخ الفرنجة كما ورد فى المخطوطات ، وقد صدر بعد ١٦٣٩ م . كذلك تبدو هذه البداية لجمع مصادر التاريخ الفرنسى فى أعمال إخوة سانت مارث وأهمها كتاب الأنساب ، وكتاب (غاليا المسيحية) وقد صدرت فى سنوات ١٥٧٢ - ١٦٥٠ - ١٦٥٥ م ، كما تبدو فى الطبعات التى أصدرها شارل دى فرنز دى كانج لأعمال فيلهار دوان . وكذلك تضمن نفس الشيء كتاب إتين بالوز (١٦٣٦ - ١٧١٨) Etienne Baluze والمعروف باسم زعماء مملكة الفرنجة .

واستمر العمل فى جمع مصادر التاريخ الفرنسى خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر على يد الرهبان البندكتيين الذين كانوا ينتمون إلى مجمع سانت مور والذين أقاموا فى دير سانت جرمان دى بريه فى باريس وهو المجمع الذى أسسه الأب مارتن ترنيير والأب جريجوار تاريز بين سنتى ١٦١٨ ، ١٦٣٠ م . وكان رائد البحث التاريخى فى هذه الجماعة حنا مابيلون (١٦٣٢ - ١٧٠٧) المعروف بجهوده التى لا تعرف الكلل أو الملل .

ولا يمكننا فى هذا المقام أن نتعرض لكافة أعمال هذه الجماعة ، وإنما نكتفى بذكر أبرز هذه الأعمال ، فنجد فى المقام الأول الطبعة الناقدة التى أخرجها الأب تيرى رونارت Dom Thierry Ruinart (١٦٥٧ - ١٧٠٩ م) لأعمال جريجورى التورى وفر يدجاريوس ويليه أدموند مارتين (١٦٥٤ - ١٧٤٩ م) الذى أصدر موسوعات ومجموعات عن أعمال السابقين وما دونوه من مخطوطات وأصدر الأب برنارد مونتفسون (١٦٥٥ - ١٧٤١) كتابه الشهير (آثار الملكية الفرنسية) فى حين أصدر الاب مارتن بوكيه (١٦٨٥ - ١٧٤٩) مجموعة المخطوطات عن الشئون الغالية والفرنجية ، الذى لايزال يستكمل تحت عنوان (مجموعة مؤرخى غاليا وفرنسا) . وهناك أيضاً الأب أنطوان ريفيه دى لاجرانج (١٦٨٣ - ١٧٤٩) الذى كان قد بدأ فى وضع كتاب تاريخ الأدب فى فرنسا بمعاونة كل من ديكو ، بونست ، كولومب . ونهض المعهد الفرنسى وأكاديمية المخطوطات باتمامه حتى وصلا به فى الوقت الحاضر إلى القرن الرابع عشر .

كذلك اهتم الرهبان من جماعة سانت مور بالكتابة عن تاريخ المقاطعات الفرنسية وظهرت لهم كتب عديدة فى هذا الشأن أشهرها ذلك الذى وضعه الأب فيست والأب فيك بعنوان التاريخ العام للمقاطعات الجنوبية من فرنسا وقد صدر فيها بين ١٧٣٠ - ١٧٤٩ وهو الكتاب الذى راجعه أخيراً مولنيير .

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر عاد المؤرخون العلمانيون إلى الصدارة وكان مركز نشاطهم فى أكاديمية الفنون والآداب التى أسسها كولبرت فى سنة ١٦٦٣ . وخير ما أصدره هؤلاء المؤرخون هو ذلك الكتاب الذى جمع مادته أج لوريير ، دنيس سيكوز ، ل.ج دى بركوينى تحت عنوان (مراسيم ملوك فرنسا) . وقد صدر ما بين سنتى ١٧١٤ ، ١٧٩٤ م . كذلك نهض هؤلاء المؤرخون أنفسهم بدور بارز فى اتمام كل من كتاب (تاريخ الأدب) وكتاب (غاليا المسيحية) . ثم أخذت الكتابة التاريخية دفعة جديدة إلى الأمام عندما عين نابليون العلامة ب . س . ف دونو P.C.F. Daunou أمينا للمخطوطات القومية . ذلك أن دونو جلب كثيراً من السجلات الأجنبية إلى باريس وساهم هو أيضاً فى إكمال تاريخ الأدب ، وغيره من كتب الرهبان البندكتيين .

وقام جوردان ، ودى كروس ، واسامبر بوضع كتاب عن تاريخ القوانين فى فرنسا بعنوان (مجموعة القوانين الفرنسية القديمة) وقد صدر هذا الكتاب فى ٢٨ جزءاً فيما بين ١٨٢٢ - ١٨٢٣ . أما القرن التاسع عشر فشهد أول خطوة كبرى نحو جمع مصادر التاريخ الفرنسى فى كتاب بعنوان (مجموعة كاملة للمذكرات الخاصة بتاريخ فرنسا) . وقد قام بجمع مادته بيتو ، ومونمركيه فى ١٣٠ جزءاً (١٨٣٩ - ١٨٢٩) وتناول الفترة من عهد فيليب أوغسطس حتى سنة ١٧٦٣ م .

ويقدر ما تدين به ألمانيا للبارون فوم شتين فى جمعه لمصادر التاريخ القومى بها تدين فرنسا للسياسى العلامة فرانسوا جيزو الذى لم يقتصر جهده على مجرد تنظيم حركة علمية لجمع وتحرير مصادر التاريخ الفرنسى ، بل كان هو نفسه عالماً متبحراً فى التاريخ له عدد من الكتب التاريخية القيمة . وقبل أن يعتزل كتابة التاريخ ويتفرغ للنشاط السياسى كان جيزو قد أصدر مجموعة من الكتب تقع فى ثلاثين مجلداً تناولت التاريخ الفرنسى حتى القرن الثالث عشر . كذلك نظم فى سنة ١٨٣٣ الجمعية الفرنسية وكان برانت أول رئيس لها ، ومنذ ذلك الحين وهذه الجمعية تضم فى عضويتها أشهر المؤرخين الفرنسيين . وقد وصل عدد المؤلفات المطبوعة لهذه الجمعية إلى أكثر من ٣٥٠ مؤلفاً تحوى قدراً هائلاً من المادة المتعلقة بمصادر التاريخ الفرنسى .

وكان أهم ما فعله جيزو هو حثه لويس فيليب على إنشاء لجنة فرعية فى وزارة التربية والتعليم تشرف على نشر ما لم ينشر حتى ذلك الحين من المادة المتعلقة بمصادر التاريخ الفرنسى . وبدأ هذا العمل العظيم فى سنة ١٨٣٦ بصدور سلسلة تاريخية بعنوان (مجموعة الوثائق غير المنشورة عن تاريخ فرنسا) وقد تم حتى الآن صدور ٢٩٠ مجلداً من هذه السلسلة .

وكان أول من ساعد جيزو فى هذا المشروع مينيه Mignet ، وثيرى ،وجيرار ، رينوارد ، وعندما تأسست الجمعية العامة لمدرسة الوثائق فى سنة ١٨٢٩ صار من المستطاع إيجاد علماء ممتازين فى علم الوثائق لأن مدرسة الوثائق هذه صارت من أكبر معاهد دراسة التاريخ فى العالم ، وتقوم بتدريب الطلاب على استخدام الوثائق وعلاجها . ويعتبر كتاب الوثائق غير المنشورة مناظراً لكتاب Monumenta فى ألمانيا إذ إن كليهما يقتصر على عرض مادة لم يسبق نشرها من قبل ، ومنذ سنة ١٨٨١ أخذت الأجزاء الخاصة بهذا الكتاب الفرنسى تصدر تحت إشراف لجنة الأعمال التاريخية والعلمية . كذلك تجدر الإشارة إلى مجموعة المصادر التى أصدرتها مكتبة مدرسة الدراسات العليا .

كذلك خطا الفرنسيون خطوة أبعد من أى أمة أخرى وذلك بجمع مجموعات ضخمة من مادة المصادر التى تساعد على دراسة تاريخهم فى العصور الحديثة . ويرجع ذلك أساساً إلى أنه لا توجد دولة أوربية أخرى يحتوى تاريخها الحديث على حدث أو حركة قومية قرينة بالثورة الفرنسية بكل ما فيها من متعة وخيال مثيرين للاهتمام . ولذلك نجح رجل الدولة والمؤرخ الاشتراكى جنا جوريه Jean Jures فى حث الحكومة على أن تنشأ لجنة فى وزارة التعليم العام تقوم بالإشراف على إصدار ما لم يسبق إصداره من الوثائق التى تتعلق بالتاريخ الاقتصادى للثورة الفرنسية ، واشتراك كبار المؤرخين الفرنسيين فى متابعة هذا العمل العظيم . ومنذ سنة ١٩٠٦ بدأت مجموعة الوثائق غير المنشورة الخاصة بالتاريخ الاقتصادى للثورة الفرنسية تظهر فى أجزاء متعاقبة حتى صدر منها حتى الآن حوالى مائة جزء . كذلك قامت بلدية مدينة باريس بإصدار سلسلة من الكتب بعنوان (الوثائق المتعلقة بتاريخ مدينة باريس خلال الثورة الفرنسية) وبدأ صدور هذه السلسلة منذ سنة ١٨٨٨ .

وهناك مجموعة أخرى من المراجع ضمت مصادر التاريخ الخاص بمراحل معينة من الثورة ، وأشرف على هذه المجموعة عدد من العلماء البارزين كان أكثرهم نشاطاً فى هذا المجال (الفونس أولارد) وتلامذته وكان لأولارد دور بارز فى إصدار مجموعة الوثائق المتعلقة بتاريخ باريس الذى سبقت الإشارة إليه .

كذلك نافس الفرنسيون الألمان فى مجال إنتاج القصص التاريخى القومى . ذلك أن نشر الكتاب الذى ألفه شاتوبريان سنة ١٨٠٢ عن عبقرية المسيحية أضفى على ماضى فرنسا فى العصور الوسطى ثوباً رومانسياً براقاً . وتشبه كتابة شاتوبريان فى هذا المجال كتابات سبتلر ، وجوهانز مولر فى ألمانيا . ولكتاب شاتوبريان المعروف باسم الشهداء ، نفس ما لكتابه السابق من تأثير . أما كلودفوريل Claude Fauriel (١٧٧٢ - ١٨٤٤) فقد جاءت آراؤه فى كتاب تاريخ جنوب غاليا تحت حكم الغزاة الجرمان ، سابقة على آراء كل من فوستيل دى كولانج وجوليان عندما عارض الرأى القائل بأولوية تأثير الثقافة الرومانية والغالية على تأثير الثقافة الافرنجية فى تكوين حضارة العصور الوسطى .

كذلك استطاع يوسف ميشو Joseph Michaud (١٧٦٧ - ١٨٣٩) أن يرسم صورة واضحة لأمجاد فرنسا فى عصر الحروب الصليبية فى كتابه الذى راج وذاع صيته بشكل كبير والمعروف باسم تاريخ الحروب الصليبية (١٨١٢ - ١٨١٧) وكتب فرانسوا رينوارد (١٧٦١ - ١٨٣٦) كتابى (أبحاث فى تاريخ اللغة الرومانية القديمة) (والقواعد اللغوية المقارنة)ورسم

فيها صورة زاهية لشعراء التروبادور ، كما اعرب عن اعتقاده بتفوق اللغة الفرنسية على سائر اللغات الرومانية . أما نوما ديثيس فوستيل دى كولانج (١٨٣٠ - ١٨٩٩) فيعتبر رائد الدراسات الخاصة بالعصور الوسطى فى فرنسا ، وقد ساعد على إذكاء العنصر الوطنى فى الكتابة التاريخية الفرنسية وذلك بأن دافع عن نظرية الأصل الرومانى للثقافة والنظم الفرنسية ، وهاجم العقائد التيوتونية والجرمانية السائدة التى كانت شائعة فى ذلك الحين . وبعد كولانج بفترة من الوقت قام كل من هانوتو ، فاجنيز Fagniez وشيرويل Cheruel بتحليل ناقد يعتمد على سعة الاطلاع والمعرفة ويصطبغ بصبغة وطنية لمركزية السلطة فى عهد الملكية الفرنسية فى القرن السابع عشر عن طريق كبار رجال الدولة .

أما الفونس دى لامارتين (١٧٩٥ - ١٨٦٩) فقد عرض أمجاد الثورة الفرنسية فى إعجاب بالغ بهذه الأمجاد وخاصة مآثر الجيروند ، وذلك فى كتابه الذى نافس به كارليل فى مجال كتابة التاريخ بأسلوب أدبى . على أن عمله كان مثل عمل كارليل عملاً غير علمى من الناحية التاريخية . وقام ميشليه بتفسير الثورة فى صورة ملحمة للحرية وحملة مقدسة لتحرير الشعب .

وهناك من المؤرخين الفرنسيين كذلك لويس بلان Louis Blanc الذى دافع عن فكرة أن الغرض الأساسى من الثورة كان نشر الإخاء وذلك فى كتابيه تاريخ الثورة الفرنسية ١٧٨٩ ، وتاريخ عشر سنوات ، وقد صدر سنة ١٨٤١ . وفى هذا الكتاب الأخير عالج الفترة من سنة ١٨٣٠ - سنة ١٨٤٠ . ويعتبر فرانسوا مينيه Mignet (١٧٩٦ - ١٨٨٤) أكثر مؤرخى النصف الأول من القرن التاسع عشر علماً . وقد ضمن كتابه (تاريخ الثورة الفرنسية) هجوماً على إعادة اسرة البوربون للحكم . وأوضح أن الثورة الفرنسية كانت النتاج الطبيعى الحتمى لاتجاهات العصر وصورها فى صورة فجر عهد جديد عظيم فى تاريخ العالم . ويأتى بعد ذلك لويس أدولف تيير Thiers (١٧٩٧ - ١٨٧٧) الذى وضع تاريخاً مطولاً وشعبياً للثورة الفرنسية من وجهة نظر المذهب الليبرالى فى القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أنه تناول الإمبراطورية الفرنسية بالنقد فى كتابه تاريخ القنصلية والإمبراطورية إلا أنه أثنى على القنصل الأول بونابرت وصوره فى صورة منقذ فرنسا والحضارة الأوربية .

أما فردريك ماسون فقد أثنى على نابليون بونابرت وعلى ما حققه بالنسبة للإمبراطورية الفرنسية ، وفعل نفس الشىء كل من إلبرت فاندال ، هنرى هوسارى ، وأرثر ليفى . وقد مس ماسون حياة نابليون الخاصة عن بعد وهاجم تفاهة وخيانة جوزفين وشخصية أسرة بونابرت التافهة وهى الأسرة التى كانت دون المستوى والتى كان نابليون يدين لها بعاطفة وولاء زائدين .

أما فاندال فقد صور نابليون على أنه انسان محب للسلام دفعته الغيرة من الإنجليز نحو الحرب . كذلك دافع هوساى Houssaye عن عبقرية نابليون العسكرية فى شتى مراحلها حتى فى معركة واترلو وأدان بشدة إعادة أسرة البوربون . أما ليفى فصور نابليون على أنه شخص فوق مستوى البشر منزه عن الخطأ .

وهكذا لعبت الأسطورة التى أحاطت بنابليون دوراً كبيراً فى الكتابة التاريخية القومية الفرنسية حتى يومنا هذا ، ودافع عن عديد من وجهات النظر المرتبطة بتلك الأسطورة كل من تاين Taine أولارد ، وماثييز ، ماديلين ، سييه See ويعبر المؤرخ بولس ثيورو دانجن Paul Thureau Dangin (١٨٣٧ - ١٩١٣) فى كتابه عن تاريخ ملكية يوليو عن أسفه لما لأسطورة نابليون من أصل شعبى ، وإن كان يدافع فى ذلك الكتاب عن ملكية يوليو ذاتها . أما المؤرخ بطرس لاجورس Pierrede La Gorce (١٨٤٦ - ١٩٣٤) صاحب كتاب تاريخ الإمبراطورية الثانية ، فقد دافع عن الملكية والاكليروسية ، كما أنه يعتبر ممن دافعوا عن نابليون الثالث . كذلك حرص أميل اوليفر (١٨٢٥ - ١٩١٣) فى كتابه ، الإمبراطوريات الحرة أن يعرض للاتجاهات الحرة فى العقد الأخير من حياة الإمبراطورية مبديا إعجابه بهذه الاتجاهات . وأخيراً يأتى اسم جابريل هانوتو ، الذى كتب واحداً من أبرز وأشهر كتب التاريخ المعاصر القومى لفرنسا وهو تاريخ فرنسا المعاصرة وصف فيه قيام الجمهورية الثالثة ودافع عنها .

ولم يكن رصيد فرنسا فى كتب التاريخ العام التى كتبت من وجهة النظر القومية بالشىء القليل . فهناك شارل هينولت (١٦٨٥ - ١٧٧٠) الذى وضع أول تاريخ عام لفرنسا تحت عنوان تقويم مختصر لتاريخ فرنسا وقد ظل هذا الكتاب الذى صدر سنة ١٧٤٤ هو الوحيد من نوعه إلى أن ظهر كتاب آخر أطول منه وأكثر شمولاً وضعه المؤرخ سيسموندى فى بداية القرن التاسع عشر ، وكتبه من وجهة نظر مؤرخ غيور على مذهبه التحررى ، فانتقد الملوك والأساقفة ، وأشاد بالاتجاهات التحررية فى مجتمعات العصور الوسطى وينتمى سيسموندى إلى مدينة جنيف ويمثل إلى حد ما عقلانية روسو المعتدلة ، فضلاً عن أنه لم يقصد من وراء كتابه إثارة حماسة وطنية قوية . ولا يختلف الكتاب الفذ الذى كتبه ميشليه تماماً عن كتاب سيسموندى اللهم إلا من ناحية عدم تعلق ميشليه بالمذهب التحررى . ذلك أن ما عمله ميشليه لم يكن كبيراً فى مجال الأدب الفرنسى فحسب بل كان عظيم الأثر فى إذكاء الاعتزاز بالوطنية خاصة لدى الفرنسيين من أنصار المذهب التحررى . أما كتاب المؤرخ هنرى مارتن « تاريخ فرنسا » الذى بدأ ظهوره سنة ١٨٨٣ فهو أقل كفاءة مما كتبه ميشليه وإن كان أغزر منه فى مادته وعلمه . ولكنه ظل أشهر كتاب تاريخى عن فرنسا

لمدة نصف قرن وذلك لترتيبه المنطقى وعرضه الواضح السهل الفهم وما به من تعبير مهذب عن وجهة النظر البورجوازية المتمسكة بالمذهب التحررى . هذا فضلاً عن أن موضوعه الرئيسى كان النمو المضطرد لحركة الوحدة الوطنية الفرنسية وقد روجع هذا الكتاب عدة مرات وأدخلت عليه الكثير من الإضافات والتحسينات . كذلك لاقى كتاب « تاريخ فرنسا » للمؤرخ فيكتور دورى رواجاً كبيراً برغم أنه لم يركز كثيراً على الاتجاه القومى . أما الجهد التعاونى العظيم الذى أشرف عليه أرنست لافيس فى سبيل إخراج الكتاب الذى عرف باسم تاريخ فرنسا فهو يتسم بسعة العلم وينتمى إلى المدرسة الناقدة أكثر من انتمائه إلى الكتابة التاريخية القومية . ومع ذلك فإن هـذا الكتاب يجيش بكثير من الإحساس بالوطنية .

وزاد من تدعيم الشعور القومى فى فرنسا تلك الهزيمة والخسائر التى لحقت بها سنة ١٨٧٠ . وعلى الرغم من أن بعض الأساتذة من المؤرخين الفرنسيين أمثال لاجورس ، سورل Sorel ، تناولوا حرب سنة ١٨٧٠ بطريقة بعيدة عن التحيز ، وهو الأمر الذى فضح دفاع فون سيبيل المتحيز ، فإنه كانت هناك حماسة قومية مندلعة من جانب الوطنيين المتطرفين . وكان أن انعكست هذه الاتجاهات فيما كتبه بولس ديروليد Paul Dèroulede الذى دعا للأخذ بالثأر من ألمانيا . وعبر عن ذلك الاتجاه فى أشعاره وكتيباته التى حوت قدراً كبيراً من المديح والحوار موريس باريه Mauriee Barres الكاتب الغالى الأصل وزعيم الوطنيين المتحمسين . وكان موريس باريه شديد الإعجاب بديروليد . وقد أقنعته دراسته للتاريخ الفرنسى بأن الفرنسيين يقومون بالحرب بوصفها واجباً دينياً ، وعلى هذا فإن ديروليد وباريه كانا أول من صاغا فكرة الحرب المقدسة وعبرا عن الاعتقاد بأن فرنسا لا تدخل أى حرب بغرض التدمير والإفساد وإنما تدخلها « من أجل تنفيذ أوامر الله ، لتقوم بدور الفارس المدافع عن العدالة . »

وعلى الرغم من أن الفرنسيين أبدوا من التحفظ بعد سنة ١٨٧٠ أكثر مما فعل الألمان فإن الآية انقلبت بعد سنة ١٩١٨ . ففى ألمانيا تضاءل الاهتمام بالإمبراطورية وبيروسيا تضاؤلاً وقتياً فى حين احتلت حوادث النصر والقومية فى فرنسا مكان الصدارة . ومن أمثلة ذلك ما نلمسه فى كتابه المؤرخ فرانز فنك برنتانو وذلك فى إعداد السلسلة التى أصدرها بعنوان « تاريخ فرنسا القومى » . ففى هذه الاعداد يظهر حماسة وطنية وكراهية واحتقاراً كاملاً لألمانيا . ولم تغب هذه النغمة الوطنية المتحمسة كذلك عن كتاب « تاريخ الأمة الفرنسية » وهو ذلك العمل التعاونى الكبير الذى ظهر بعد الحرب وأشرف عليه جابريل هانوتو .

التاريخ القومى فى انجلترا

لم تقم فى انجلترا محاولة لبذل أى جهد منظم لجمع مصادر تاريخها القومى قبل بداية القرن التاسع عشر . وكان جيبون قبل وفاته قد أوصى بشدة بضرورة إنشاء لجنة تقوم بجمع ونشر أعمال مؤرخى انجلترا فى العصور الوسطى ، ورشح جيبون لرئاسة اللجنة حنا بنكرتون . ولكن شيئا من هذا القبيل لم يتم بعد وفاته . ثم كان ان أنشئت فى انجلترا سنة ١٨٠٠ لجنة حفظ الوثائق . ومع ذلك فلم يشترك فى أعمالها من يمكن اعتباره مؤرخاً حقيقياً حتى عين بها فى سنة ١٨٢٥ السير جيمس ماكينتوش Mackintosh .

وفى سنة ١٨٢٥ اشار نيقولاس هارس نيقولاس Harris Nicholas إلى الحالة المؤسفة التى كانت عليها مصادر التاريخ الإنجليزى ، ونتج عن نقده أن انبثقت سنة ١٨٣٦ من لجنة الوثائق لجنة أكثر نشاطا ونقدا . وكان من بين ما أنتجته نشر المحاضر البرلمانية على يد (بالجرين) .

وفى سنة ١٨٣٧ حلت لجنة حفظ الوثائق وأصبحت الوثائق التاريخية فى عهدة أمين السجلات . ومن ثم لم تكن هناك بداية حقيقية نشطة لجمع مصادر التاريخ الإنجليزى إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر عندما تعرض وليم ستوبز وفينوجرادوف الروسى الأصل بالنقد المر للوضع الذى عليه مصادر التاريخ الإنجليزى . واستطاع روميلى Romily أمين السجلات بعد ذلك وعلى وجه التحديد فى سنة ١٨٥٧ أن يحصل على تفويض من الحكومة لطبع مصادر التاريخ الإنجليزى فى العصور الوسطى ، وعهد إلى أستاذ مشهود له بدقة عمله هو توماس دفس هاردى Thomas Duffus Hardy (١٨٠٤ - ١٨٧٨) بالإشراف على هذا المشروع . أما عملية نسخ هذه المصادر فقد قام بها عدد من العلماء المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى ومنهم برور Brew-er ، جايردنر Gairdner، كانون ، روبرتسون ، جيلز Giles، ديموك Dimock. وشارك فى ذلك العمل الأسقف وليم ستوبز (١٨٢٥ - ١٩٠١) وهو أشبه بالمؤرخ الألمانى ويتز Waitz وكرس ستوبز لهذا العمل معظم سنى عمره فى فترة زادت عن ربع قرن بعد سنة ١٨٦٣ . وأخيراً انتهت عملية تجميع مصادر تاريخ انجلترا فى العصور الوسطى سنة ١٩١١ وتمت فى ٢٤٣ مجلدا وهى المعروفة باسم وثائق وسجلات تاريخ بريطانيا العظمى وإيرلندا فى العصور الوسطى . وأحياناً تعرف باسمها المختصر « مجموعة السجلات » وهو الاسم المستمد من حقيقة نشر هذه الوثائق تحت إشراف أمين السجلات .

وتعتبر هذه السلسلة النظير الرسمى للوثائق الألمانية المعروفة باسم Monumenta ومجموعة الوثائق الفرنسية . هذا كله بالإضافة إلى ما تم فى انجلترا من عمل تقاويم لأوراق الدولة الرسمية والسجلات البرلمانية ومحاضر الجلسات وسجلات مجلس البلاط وما شابه ذلك .

ثم إن هناك أعمالاً مماثلة أقل شأنا قامت بها جمعيات علمية مثل جمعية كامدن ، جمعية النصوص الإنجليزية القديمة ، فضلا عن جمعية سلدن التى قامت بجمع مصادر تاريخ القانون الإنجليزى .

ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المجال طبع الأصول المخطوطة للرحلات والكشوف الهامة ، وهو العمل الذى أشرفت عليه جمعية هاكلويت Hakluyt Society .

ولم تكن كتابة التاريخ القومى فى انجلترا أقل شأنا من مثيلتها فى كل من ألمانيا وفرنسا . وهنا يبدو أن السمة الرئيسية للكتابة القومية فى انجلترا كانت مغايرة لنغمة الأساطير الآرية والنوردية لأنها أكدت التفوق السياسى للشعوب الأنجلو ساكسونية وهى النغمة التى شاعت فى القرن التاسع عشر . وقام هذا الاعتقاد على أساس فكرة أن الغزاة التيوتون الذين غزوا انجلترا طردوا أمامهم سكان الجزيرة الأصليين من البريطان والكلت وخلقوا من هذه الجزيرة بلدا ذا ثقافة جرمانية بحتة وجنس جرمانى صرف . وقد تضمن الكتاب المعروف الذى ألفه حنا ميتشل كمبل Kemble (١٨٠٧ - ١٨٥٧) وهو كتاب (السكسون فى انجلتره) الذى صدر سنة ١٨٤٩ تعبيراً صريحا قويا عن وجهة النظر هذه . ولم يقتصر أثر هذا الكتاب على بث هذه العقيدة الأنجلو ساكسونية فى عقول الإنجليز بل إنه لاقى رواجا كبيرا فى ألمانيا وساعد على تزويد الوطنيين الألمان بمثل آخر يؤكد عقيدتهم فى (رسالة الشعوب الجرمانية) . كذلك اعتقد كمبل Kemble أن النظم الإنجليزية فى القرن التاسع عشر مستمدة بصورة غير مباشرة من مصادر جرمانية .

واستمر النقاش حول هذه المسألة فى الكتاب الذى ألفه أدوارد أغسطس فريمان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) واسمه (تاريخ الغزو النورماندى لانجلتره) . ذلك أن فريمان لم يقف عند حد قبول النظرية الانجلو سكسونية بل تتبع الأصول الحقيقية للحرية السياسية لدى المجتمعات الجرمانية وخاصة فى صورتها الإنجليزية . ومهما يكن من أمر فإن الأصول الأولى لهذه النظرية الخاطئة الخاصة بتمجيد الأصل الجرمانى ، إنما ترجع إلى كتابات رابين ثوراس ومونتسكييه ، فى حين

لم يأخذ بها وفندها كل من فوستيل دى كولانج ، برونر Brunner وتشكل هذه النظرية فى حد ذاتها أحد الأخطاء الكبرى التى لحقت بالدراسات التاريخية فى مرحلة سابقة علـى الدراسـات الأنثروبولوجية ولم ينج من هذا الخطأ أكثر المؤرخين هدوءاً وحرصاً وهو الأسقف ستبس Stubbs وكذلك أكثرهم إبداعا وهو جون ريتشارد جرين . ولكن ظهر بعد ذلك من تصدى لهذه الفكرة مثل سيبْهم Seebohim . ومن وجد الجرأة على إدخال تعديلات عليها مثـل متيلوند ، وفينـو جرادوف Maitland and Vinogradoff .

على أن النظرية الجرمانية صادفت دفعة قوية فى ذلك الكتاب السيء السمعة الذى ألفـه المؤرخ الشاعر شارلز كينجزلى سنة ١٨٦٤ تحت عنوان (الرومان والتيوتون) . ومع أن هـذا الكتاب جاء على قدر كبير من الإثارة ، إلا أنه لم يكن علميا على الإطلاق ، فضلا عن أنه ليس كتابا تاريخيا . وكان له أثر كبير فى إحداث انحرافات فى تفسير تاريخ العصور الوسطى فى مراحلها الأولى . ذلك أن كينجزلى مجد إلى حد كبير من أطلق عليهم « الشبان الأشداء ، أبناء الغـابة التيوتونية » . وأثنى عليهم بنفس الحماسة التى صورهم بها لاس كاساس ، على عكس الرومان الذين وصفهم بأنهم كانوا ضعاف الروح والجسم ، لأنهم « أبناء إمبراطورية كانت محتضرة » . كذلك عبر عن رضاه بسقوط هذه الإمبراطورية الرومانية والدمار الذى لحق بها بفضل (الطوفان البشرى) الذى اكتسحها من الشمال . ويكفى دليلا على مدى بعد الكتاب عن الدقة أن كل علماء التاريخ المتخصصين فى دراسة العصور الوسطى قد استبعدوا كافة ما جاء فيه . ومع ذلك فان هذا الكتاب لاقى رواجا كبيرا ولا يمكن لمواطن إنجليزى أن يقرأه قراءة جيدة دون أن تتملكه رغبة فى أن يرجع آباءه وأجداده إلى سلالة ارمنيوس وألريك .

وإذا ما تركنا العصور الوسطى حيث وضع التيوتون جذور النعرة والافتخار بالقومية فى بريطانيا فإننا نجد أكثر المؤرخين الإنجليز تعصبا للقومية وهو جيمس أنتونى فرود Froude الذى وصف أمجاد الثورات الإنجليزية منذ عهد الإمبراطورية الرومانية . ويليه كارليل الذى أشـاد بفضائل كرومويل ورفاقه فى الكومنولث . وبعد ذلك يأتى المؤرخون لسان حزب الأحرار وهم جيمس ماكينتوش ، هالام ، توماس بابنجتون ماكولى . وقد جعلوا ثورة (١٦٨٨ - ١٦٨٩) مصدر وأساس الحريات فى دول العالم . ويعتبر كتاب ماكولى ، تاريخ إنجلتره (١٨٤٨ - ١٨٦١) هو النظير الإنجليزى لأعمال ترتيشك ، ميشليه ، فضلا عن أنه أروع ما أسهمت به إنجلترا فى الكتابة التاريخية حيث انه مرجع قيم من مراجع التاريخ على الرغم مما يشوبه من تحيز .

وهناك كتاب مطول لإيرل ستانهوب بعنوان (تاريخ إنجلترا منذ صلح أوترخت حتى صلح فرساى) وهو يعالج تاريخ إنجلترا فى القرن الثامن عشر من وجهة نظر محافظة مؤيدة للسياسة البريطانية فى ذلك الوقت . أما الجنرال وليم نابيير فقد أشاد ببسالة الإنجليز فى شبه جزيرة إيبريا وذلك فى كتابه (تاريخ الحرب فى شبة الجزيرة) . وقد صدر الكتاب ما بين سنتى ١٨٥٤ - ١٨٤٠ ، ويبرر فيه المؤلف فكرة الحرب بوصفها أن لها دوراً فى المجتمع البشرى ، وهذا الرأى هو نفس ما رآه برناردى بعد ذلك بنصف قرن أو أكثر . أما السير هربرت ماكسويل فقد أثنى على ولنجتون (الدوق الحديدى) فى كتابه (حياة ويلنجتون) الذى صدر سنة ١٨٩٩ . كذلك عالجت هاريت مارتينو Martineau فى كتابها (تاريخ إنجلتره) الذى صدر ما بين ١٨٧٧ - ١٨٧٩ النصف الأول من القرن التاسع عشر بطريقة تؤكد أهمية تفوق حزب الأحرار فى هذه الفترة . وأخيرا هناك السيرجون ر .سيلى Seeley (١٨٣٤ - ١٨٩٥) الذى جمع بين ميوله القومية وعلمه الغزير فى مجال الكتابة التاريخية . ذلك أنه كتب بكثير من الفخر والاعتزاز عن نمو الإمبراطورية البريطانية فى كتابيه (التوسع الإنجليزى) و (نمو السياسة البريطانية) . ولم يكن سيلى مدافعا عن القومية متعصبا لها وداعية للاستعمار فحسب ، بل يرجع إليه وإلى فريمان ما اتجهت إليه الكتابة التاريخية فى إنجلترا من حيث حصرها داخل نطاق التاريخ السياسى وحده . وأما أعظم كتب التاريخ القومى فى إنجلترا فهو كتاب (مختصر تاريخ الشعب الإنجليزى) الذى صدر سنة ١٨٧٤ والذى ألفه جون ريتشارد جرين . وتضمن الكتاب دراسة للعقائد الجرمانية مع توضيح أثرها الأساسى فى تطور الحضارة الإنجليزية بوصفها ثقافة رفيعة سادت وانتشرت . وأعطى هذا الكتاب لتطور الحياة الشعبية فى بريطانيا مجالا أكبر من المعتاد ، مما جعله من الكتب الرفيعة التى حازت إعجاب الأحرار فى بريطانيا . ثم أعاد جرين كتابته على نطاق واسع تحت عنوان (تاريخ الشعب الإنجليزى) . وقد صدر هذا الكتاب المطول سنة ١٨٨٠ ولكنه لم يلق رواجا كبيرا .

وبالإضافة إلى ذلك كله كان للحماسة القومية التى صاحبت أعمال سيسل رودس وحرب البوير أثر كبير فى إنتاج مزيد من الكتابة التاريخية القومية فى انجلترا ، ولكنها كتابات لم تلتزم بما التزم به سيلى من غزارة علم ومعرفة ، مما جعلها أشبه بكتابة برنهاردى التى لم تلتزم بمنهج فون سيبل . لقد وجد برنهكردى نظيره الإنجليزى فى شخص الأستكذ ج . أ . كرامب J. A. Cramb الذى قال عن حروب انجلترا الماضية إنها أتت بمبدأ رئيسى هو ما للبطولة من مكانة وسلطان أعلى من سلطان العقل والمنطق .

ومن عجائب الصدف أنه كما أن تمجيد الجرمانية والاتجاه الجرمانى جاء على يد مواطن إنجليزى منشق على قومه : هـ . س تشامبرلين ، فكذلك قام مواطن أمريكى هو : هومرلى HomerLea بربط خلاص العالم فى المستقبل بانتصار البريطانيين عن طريق تدعيم تلك الدائرة القرمزية القوية التى أحاط بها السكسون الأرض بطريقة لم يسبق إليها جنس اخر .

كتابة التاريخ القومى فى بقية الدول الأوربية

حظيت إيطاليا بشرف مزدوج فى مجال كتابة التاريخ القومى ، إذ بينما كانت أول أمة توصلت إلى ما يمكن اعتباره تجميعا كاملا لمصادر تاريخها القومى ، فضلا على أنها أنجبت من جهة أخرى أكثر المؤرخين دأبا فى تجميع مصادر التاريخ القومى وهو لودفيكو انطونيو موراتورى (١٦٧٢ - ١٧٥٠ م) وقد نجح موراتورى منذ عام ١٧٢٣ حتى وفاته سنة ١٧٥٠ فى جمع مصادر تاريخ إيطاليا من الماضى البعيد أى منذ سنة ٥٠٠ ميلادية حتى سنة ١٥٠٠ وتم ذلك فى كتاب صدر فى ٢٥ جزءا بعنوان (مادة المخطوطات الإيطالية) . وجاء عمله متقنا لدرجة أنه لم تصدر طبعة جديدة له إلا حديثا عندما أصبح ذلك ضروريا . وقد بدأ إعداد الطبعة الجديدة سنة ١٩٠٠ فى أول الأمر تحت إشراف جيوزى كارودسى Gosue Carducci ، فيتوريو فيوريني Vitorio Fiorini ثم تحت إشراف الجميعة التاريخية الإيطالية وفى سنة ١٨٣٣ ساهم شارلز إلبرت بجهده فى مساعدة حركة جمع مصادر التاريخ القومى الإيطالى ، وتم طبع ٢٢ جزءا من هذه المصادر بعنوان ، وثائق التاريخ القومى Monumenta Historiae Patriae . كما نشرت الجمعية التاريخية الإيطالية الكثير عن تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى تحت عنوان « مصادر تاريخ إيطاليا »[١] .

وعلى الرغم من أن كتابة التاريخ القومى شأنه شأن جميع المصادر يرجعان فى إيطاليا إلى عهد أبعد مما عليه الحال فى أية دولة أوربية أخرى ، إذ ترجع هذه الحركة فى إيطاليا على وجه التحديد إلى عصر الحركة الإنسانية ، فإنه يمكن القول أن المرحلة الحديثة من التاريخ القومى بدأت بظهور

---

(١) تقع فى ٥٨ مجلداً بدأ صدوره منذ سنة ١٨٨٧ وما بعدها (المؤلف)

كتاب (تاريخ ثورة نابلى فى سنة ١٧٩٩) وهو الكتاب الذى وضعه فيسنزو كوشو cucco (١٧٧٠ - ١٨٢٣) وتناول المؤلف فيه أسباب فشل هذه الثورة وعبر عن اعتقاده بأن الوحدة الإيطالية لا يمكن أن تتحقق إلا على أيدى الإيطاليين أنفسهم وأنه من الضرورى خلق وعى قومى فى إيطاليا وجو ذهنى مناسب لقيام الثورة . ويشابه هذا الكتاب فى جوهره وروحه كتاب المؤرخ كارلو بوتا Carlo Botta (١٧٦٦ - ١٨٣٧) بعنوان تاريخ إيطاليا خلال حروب الثورة ونابليون . ويفيض هذا الكتاب بآراء ومعتقدات المذهب الحر المتطرف التى شقت طريقها فى السياسة الإيطالية فى ذلك الحين بفضل نشاط كاربونارى .

أما عن تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى فقد عالجه كارلوترويا Carlo Troya (١٧٨٥ - ١٨٥٣) فى كتابه ــ إيطاليا فى العصور الوسطى ، وكذلك عالجه لويجى توستى (١٨١١ - ١٨٩٧) فى كتابيه (العصبة اللومباردية) (وبونيفس الثامن) وتتناول هذه الكتب تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى بحثا عن أدلة تؤيد فكرة أن الزعامة البابوية كان لها دورها الكبير فى خلق الوحدة الإيطالية . كما أثنت على دانتى والكنيسة والبابوات . أما دازجليو D'azeglio فإنه تناول التاريخ المعاصر إلى جانب تاريخ العصور الوسطى ليثبت افتقار البابوية إلى الكفاية والمقدرة ، ولكى يلفت الأنظار إلى الآمال القوية فى زعامة آل سافوى . ويؤكد سيزار بالبو فى كتابه (تاريخ إيطاليا) الذى صدر سنة ١٨٤٦ أن البابا وبيت سافوى يمكنهما التعاون معا من أجل تحقيق اتحاد إيطاليا فى صورة تحالفية وهناك أيضا جويسيب فيرارى Guiseppe Ferrari (١٨١٢ - ١٨٧٦) صاحب كتاب تاريخ الثورات فى إيطاليا الذى مجد فيه النضال والعنف وسفك الدماء ، وهى الأمور التى صاحبت المعركة من أجل الحرية السياسية فى إيطاليا فى العصور الوسطى ، وألمح إلى أن الثورة فى عصره تستطيع أن تؤدى نفس ذلك الدور البناء . كذلك نجد فيرارى فى كتاب آخر له بعنوان « نظرية الدورات السياسية » قد تشبع بآراء فيكو وحاول ان يضع فلسفة التاريخ فى خدمة حركة البعث الإيطالية .

أما المؤرخ جينو كابونى Gino Capponi فقد حاول أن يجد فى عصر النهضة لمسة قومية ، ووضع كتابا سنة ١٨٧٥ يتسم بالقدرة والاسهاب عنوانه « تاريخ جمهورية فلورنسا » هذا فى حين كرس المؤرخ باسكال فيلارى (١٨٢٧ - ١٩١٧) كتابته بوجه خاص لعلاج تاريخ فلورنسا فى العصور الوسطى وعصر النهضة والإشادة بأعلامها أمثال سافوناورلا ميكافللى ، مستغلا الحديث عن ذكرى هؤلاء الأعلام لإذكاء حركة الوحدة الإيطالية . وجاء كتابه عن فلورنسا تحفة رائعة حقاً

لأنه من المعروف عنه أنه فعل الكثير من أجل إضفاء أهمية خاصة على تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى . وثمة مؤرخ فى إيطاليا عرف أنه قام بدور شبيه بالدور الذى قام به مارتن فى فرنسا من حيث ترويجه للتاريخ القومى وتقريبه من أذهان الجماهير وميولهم . وهذا المؤرخ هو قيصر كانتو (١٨٠٤ - ١٨٩٥) الذى وضع أول تاريخ قومى كامل عن إيطاليا . أما المؤرخ بطرس كوليتا pietro Colletta(١٧٧٥ - ١٨٣١) فقد انتقد فى عنف وقوة الحكم البوربونى وفساده ؛ فى صقلية وذلك فى كتابه (تاريخ نابولى) الذى حث فيه على التمرد على الحكم الأجنبى . وأخيراً فإن أشعار جويزى كاردوكى Carducci وجابريل دى انيونزو تمثل التعبير المتطرف عن العاطفة الوطنية الإيطالية . وبظهور الفاشية فى إيطاليا لم تعد القومية مجرد فلسفة تاريخية بل انمحت على مستوى العقيدة والديانة .

أما فى أسبانيا فان أول تجميع لمصادر التاريخ الأسبانى لم تكن من عمل الأسبان وإنما من إنتاج عالم انجليزى رحالة هو روبرت بيل Robert Beal الذى توفى سنة ١٦٠١ وأصدر كتاب (المخطوطات الأسبانية) وذلك فيما بين سنتى ١٥٧٩ ، ١٥٨١ . أما ج . أ . س برتودانو فأصدر موسوعته الجامعة عن مصادر التاريخ الدبلوماسى وهى المجموعة التى صدرت فيما بين ١٧٤٠ - ١٧٥٢ م. على أنه يمكن القول بأن حركة جمع المصادر الكبرى للتاريخ القومى الأسبانى لم تبدأ إلا قرب منتصف القرن التاسع عشر عندما شرع بيدال Pidal وسلفا Salvaوآخرون فى وضع كتاب (مجموعة الوثائق غير المنشودة عن تاريخ أسبانيا) وهى المجموعة التى بلغ عدد أجزائها ١١٢ جزءا ، صدرت بين سنتى ١٨٤٢ - ١٨٩٥ . ويركز هذا الكتاب الحديث بصفة أساسية على القرن السادس عشر . وبالإضافة إلى ذلك فان أكاديمية التاريخ الملكيه فى مدريد أخذت على عاتقها منذ سنة ١٨٥١ نشر مصادر التاريخ الأسبانى فى كتاب بعنوان (سجل التاريخ الأسبانى) . ومع ذلك فان مصادر التاريخ الأسبانى فى العصور الوسطى لم تجمع أو تدون أو تنشر بطريقة منتظمة .

أما مؤرخ أسبانيا القومى العظيم فهو مودستو لافوينت Lafuente (١٨٠٦ - ١٨٦٦) الذى أصدر كتابه العظيم (تاريخ أسبانيا العام) فى ثلاثة أجزاء بين سنتى ١٨٥٠ وسنة ١٨٧٦ وكان القصد من هذا الكتاب أن يكون امتدادا لما كتبه ماريانا . وتناول فيه تاريخ أسبانيا حتى ١٨٣٣ ، ثم قام بإكماله بعد وفاته المؤرخ جوان فالبرا . وثمة مؤرخ أسبانى هو أنطونيو

كانوفاس Canovas ربط فى كتابه تاريخ اضمحلال أسبانيا ، بين عظمة واضمحلال كل من أسبانيا وروما . وقام بيرزجالدوس Perez Galdos فى قصصه التاريخية الشعبية المشهورة بنفس ما قام به والترسكوت بالنسبة لاسكتلنده وانجلترا وفرنسا .

أما فى بوهيميا فلم تفلح القومية التشيكية فى خلق اهتمام بالتاريخ مثلما كان الحال فى دول أوربية أخرى ، بل على العكس كان التاريخ هو الذى يذكى القومية فى أول الأمر . والواقع أن الروح القومية التشيكية الحديثة تدين لكتاب (تاريخ بوهيميا) أكثر مما تدين لشىء آخر ، وهو الكتاب الذى صدر ما بين سنتى ١٨٣٦ – ١٨٧٦ والذى وصفه الوطنى المتحمس فرانتيسك بالاكى Frantisek Palacky . وعلى الرغم من عدم وجود معونة حكومية كحركة جمع مصادر التاريخ التشيكى قبل سنة ١٩١٩ فقد تمت أعمال كافية فى هذا الشأن . ذلك أن بالاكى وآخرين من بعده نشروا الوثائق التشيكية والمورافية القديمة الخطية فى ٣٢ جزءا (١٨٤٠ – ١٩١٨) . وكان انطون جندلى أقدر المؤرخين البوهميين ، وقد نشر مجموعة أخرى من الوثائق التاريخية باسم آثار بوهيميا التاريخية فيما بين سنى ١٨٦٤ ، ١٨٦٩ . هذا كله بالاضافة إلى ما كان هنكك من اهتمام خاص بجمع المادة المتعلقة بالتاريخ الدينى لبوهيميا فكتب الكونت فرانز فون لونزو كتابا صدر قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة عن حنا هس John Huss وصوره فى صورة بطل بوهيميا القومى .

على أن خير ما كتب عن تاريخ بوهيميا القومى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر هو كتاب (تاريخ بوهيميا ومورافيا فى العصور الحديثة) (١٨٩٢ – ١٨٩٧) الذى اشترك فى تأليفه كل من أنتال ريزيك Antal Rezek ويوسف سفاتيك Josef Svatek كذلك شارك كل من العالم الفرنسى ابرنست دينيس والأمريكى روبرت ج . كرنر Robert YKerner بأبحاث فى التاريخ التشيكى وأبديا عطفا كبيرا على آمال بوهيميا القومية .

أما فى المجر فقد أخذت الحكومة على عاتقها منذ سنة ١٨٥٧ عبء نشر وثائق التاريخ المجرى فى بودابست ولكن ظهر من هذه الوثائق أكثر من مائة جزء حتى الآن . ولكن من يريد دراسة المصادر التاريخية البحرية القديمة عليه الرجوع إلى عمل أصغر هو (المصادر الوطنية للتاريخ المجرى) وهى المجموعة التى أصدرها بين سنة ١٨٨١ ، ١٨٨٥ المؤرخ ما تياس فلوريانوس . والواقع أن الظروف التاريخية كانت عاملا فى إثارة الشعور القومى فى المجر لدرجة أن أعظم علماء التاريخ المجريين غلبت عليهم الروح الوطنية . وكان أول تاريخ كبير للمجر هو

كتاب تاريخ المجر ، للمؤلف اجناس فيسلر Ignacz Fessler (١٧٥٦ - ١٨٣٩) الذى وصل بتاريخ المجر حتى سنة ١٨١١ . ثم وصل السرد التاريخى للمجر حتى سنة ١٨٤٨ فى كتاب لاحق للمؤرخ جانوس ج . فون ميلات Janos G. Von Mailath ولم يكن هناك فى أوربا قاطبة من جمع بين الأستاذية فى علم التاريخ والوطنية المتحمسة مثلما فعل المؤرخ المجرى هنربك مارشزالى Henrik Marczali فى كتاب (المجر فى القرن الثامن عشر) الذى صدر سنة ١٩١٠ وكتاب (تاريخ المجر) وقد صدر فى العام التالى سنة ١٩١١ . أما التاريخ القومى الرسمى للمجر فقد جاء فى كتاب صدر سنة ١٩٠٤ للمؤرخ أجناسز اكسادى Ignacez Acsady بعنوان (تاريخ الإمبراطوريه المجرية) وكانت أعظم الأعمال المهمة فى هذا الشأن كتاب (تاريخ الأمة المجريه) الذى صدر ما بين سنتى (١٨٩٥ - ١٨٩٨) فى عشره أجزاء وقد اشترك فى تأليفه مجموعه من المؤرخين تحت إشراف الكسندر سزيلاجى Alexander Szilagyi .

وعلى الرغم من أن بولندا المعاصرة لم يكن لها حكومة مستقلة حتى سنه ١٩١٩ حتى يمكنها أن تسهم ماديا فى عملية جمع مصادر التاريخ القومى البولندى ، فان أكاديمية العلوم فى كراكو بذلت جهداً منظماً فى جمع المصادر فى السبعينات من القرن الماضى . ومن بين الأعمال الأكثر أهمية فى هذا المضمار مجموعة « المخطوطات البولندية » التى صدرت فى ٢٢ جزءا ومجموعه (وثائق أعلام التاريخ البولندى فى العصور الوسطى ، التى صدرت فى ١٨ جزءا) ، كذلك (وثائق تاريخ أعمال البولنديين) وقد صدرت فى ١٢ جزءا . ولا تخفى علينا ان تقسيم بولندا وما نجم عنه من تحمس البولنديين لتحرير بلادهم كل ذلك أدى إلى الاتجاه إلى كتابة التاريخ القومى فى بولندا . ويعتبر المؤرخ يواقيم لليويل joachim Lolewel (١٧٨٦ - ١٨٦١) أول مؤرخ قومى بولندى على جانب من الأهمية . وقد وضع كتابيه (تاريخ بولندا فى العصور الوسطى) و (بولندا وتاريخها) . وعلى الرغم من أنه كان ديموقراطى النظرة وينتمى إلى المدرسة العقلانية ، إلا أنه كتب تاريخ بولندا طبقا للفكرة الرومانسيه الخاصة بالروح القوميه وعبقرية الشعب الجماعية . أما المؤرخ كارول شازنوخا Karol Szajnocha (١٨١٨ - ١٨٦٨) فقد اكتسب شهرة وشعبية كبيره . بما كتبه عن عهد جاجيلوس jagiellos كذلك تناول أكبر شعراء بولندا الوطنى البارز ادم ميكويتش Adam Mickiucz (١٧٩٨ - ١٨٥٥) فى كتابه تاريخ بولندا الشعبى الجانب الذى قصده من عنوان كتابه ، مما جعل هذا الكتاب يساعد على إثارة الحماسه العامه لماضى الشعب البولندى . أما خير ما كتب عن تاريخ بولندا القومى فهو كتاب (تاريخ بولندا) الذى صدر ما بين سنتى ١٨٦٢ , ١٨٦٦ للمؤرخ يوسف سوزسكى Josef Szujski وكان عمله ذا قيمة أدبية عالية أثنى فيه

كثيرا بصفة خاصة على الجمهورية البولندية القديمة . كذلك ظهر فى أوكرانيا مؤرخ قومى لايبارى وهو فايشزلاف لايبنسكى Vyacheslov Lipinsky (١٨٢٢ - ١٩٣١) الذى أعطى اهتماما خاصا للدور التاريخى لطبقة النبلاء فى أوكرانيا . وقد نظر إلى التاريخ الأوكرانى على أنه سلسلة متصلة من النضال لاستعادة استقلال أوكرانيا ، مؤكدا دور طبقة النبلاء القيادى فى هذا الشأن .

أما فى روسيا فعلى الرغم من السياسة الرجعية للحكومة الروسية وما كان من أمر الرقابة على المطبوعات والإنتاج الأدبى ، فإن الكتابة التاريخية القومية أحرزت تقدما كبيرا فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . والواقع أن هذا النوع من الكتابة كان الوحيد الذى نَعِم بقدر كبير من الأمان فى ظل القيصرية وقد نهضت بمسئولية جمع مصادر التاريخ الروسى بصفة رئيسية لجنة (الآثار الروسية) التى أنشئت فى سنة ١٨٣٥ والتى جمعت السجلات التاريخية الروسية القديمة فى مجموعة ظهرت فى ٢٣ جزءا ما بين سنتى ١٨٤١ ، ١٩١٦ . كذلك أصدرت مجموعة أخرى عن مصادر التاريخ الروسى بين سنتى ١٨٧٢ ، ١٨٩٤ فى ٣٧ جزءا وتناولت كل من هاتين المجموعتين الفترة المسكوفية . هذا إلى أن تلك اللجنة قامت بأعمال أقل شأنا عن تاريخ روسيا القانونى والاقتصادى والكنسى . أما أعظم عمل فى سبيل تجميع المادة المتعلقة بالسياسة الخارجية فهو ما قام به فيودور دى مارتنز Feodor de Martens تحت إشراف وزارة الخارجية فأصدر (مجموعة المعاهدات والاتفاقيات) فى ١٥ جزءا بين سنتى ١٨٧٤ - ١٩٠٩ . ومنذ قيام ثورة ١٩١٧ تم نشر الكثير عن تاريخ الحركات الثورية فى روسيا .

أما أول تاريخ شامل لروسيا يتسم بالروح العلمية فى البحث والدقة فهو كتاب (التاريخ الروسى منذ أقدم العصور) الذى وضعه ميخائيل شيربوتوف Michael Scherbotov (١٧٢٣ - ١٧٩٠) وقد تناول التطور القومى لروسيا بطريقة حماسية متوهجة . وركز حديثة بصفة خاصة على دور القادة البارزين فى تحقيق هذا التطور . وثمة عمل آخر أكثر إحكاما من سابقه وأكثر متعة للقارىء هو كتاب (تاريخ الدولة الروسية) الذى كتبه نيقولا كارامازين (١٧٦٦ - ١٨٢٦) ووصل فيه بأحداث التاريخ الروسى حتى سنة ١٦١١ أى حتى ظهور الرومانوف على مسرح الاحداث . وجاء هذا الكتاب رومانسيا فى طريقته ، كما كان يركز دائماً على العبقرية القومية للشعب الروسى . ويعتبر هذا الكتاب الثقافة القومية الروسية أرقى من ثقافة الغرب بسبب مالها من تراث شرقى وكنيسة لها طابعها الخاص ونظم سياسية ارستقراطية . هذا إلى أن كارامازين فعل مثل شيربوتوف من حيث تمجيد الحكام الروس وتصويرهم فى صورة الأبطال

القوميين . ثم كان ان تناول المؤرخون الروس من أنصار المدرسة الغربية القومية الروسية بشيء من التمجيد والإطراء ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه سيرجيوس سولفيف فى كتابه تاريخ روسيا منذ أقدم العصور ، وصدر هذا الكتاب فى واحد وعشرين جزءا بين سنتى ١٨٢٠ ، ١٨٧٩ ، وتناول التاريخ الروسى حتى سنة ١٧٢٤ فى إسهاب كبير حتى انه فاق فى تعمق بحثه أى كتاب آخر قبله . وكان حريصا على النظر إلى روسيا بوصفها دولة غربية ، ولذا فإنه مجد أعمال بطرس الأكبر . ولكن نظرا لطول الكتاب بكون تحفة شعبية . على أن سولفيف حاز شهرته الواسعة بفضل كتاب المختصر الذى صدر فى مجلد واحد وهو (مجمل التاريخ الروسى) .

أما نظرة رجال المذهب الحر الروسى إلى تاريخ روسيا القومى وتحمسهم له فقد بدأها المؤرخ نيقولا كوستوماروف (١٨١٧ - ١٨٨٥) فى كتابه الذى جاء بعنوان (رسائل وأبحاث تاريخية) . وبينما ركز الكتاب السابقون حديثهم على الحكام فان كوستاماروف اهتم بحياة وسلوك وعادات الشعب الروسى فى مراحل تطوره القومى ، مما جعل كتابه من أحسن المؤلفات عن دراسة تطور الشعب الروسى . هذا إلى أنه اهتم بدراسة الجهات التى تقع على التخوم الروسية ، وخاصة أوكرانيا .

أما المؤرخ الروسى فاسليف كلوشفسكى (١٨٤١ ١٩١١) فقد قام بدور بالنسبة للتاريخ الروسى مثل الدور الذى قام به جنا ريتشاردجرين بالنسبة للتاريخ القومى الإنجليزى ، ذلك أن كلوشفسكى تتبع تطور الحياة الشعبية فى روسيا وتطور النظم والجنسية الروسية حتى جاء عمله تحفة علمية رائعة من أعظم ما أنتجته الكتابة التاريخية الحديثة . كذلك اهتم المؤلف بحركة التوسع والاستعمار الروسى على الرغم من أنه لم يكن من أنصار الحركة السلافية ورجالها المحترفين . ومنذ ثورة سنة ١٩١٧ صار هناك اتجاه عام للاقلال من شأن مكاسب روسيا فى ظل الحكم القيصرى لكن المؤرخ بوكروفسكى كتب بحثا عاما عن التاريخ الروسى كما تصوره من وجهة النظر الماركسية .

أما فى بلجيكا فقد بدأت الحماسة لجمع مصادر التاريخ القومى بعد أن حصلت بلجيكا على استقلالها سنة ١٨٣٠ . ولعل أعظم ما تم من تجميع لمصادر التاريخ القومى هو ذلك العمل الذى صدر منذ سنة ١٨٣٦ فى بروكسل تحت إشراف الجمعية التاريخية الملكية فى ١٧٩ جزءا تحت عنوان (مجموعة الوثائق البلجيكية غير المنشورة) كذلك قامت جمعية المناظرات فى بروج ، بنشر ٥٦ جزءا من مجموعة السجلات التاريخية والمحفوظات ، والوثائق الاخرى المرتبطة بتاريخ وآثار الفلاندرز الغربى .

أمـا الفونس ووتـرز Wauters (١٨١٧ - ١٨٩٨) فقام بنشـر مجموعـة من مـواثيق الكومونات ، كما قام لويس جاشارد Louis Gachard (١٨٠٠ - ١٨٨٥) بنشـر محتويـات أرشيف الخارجية عن الفترة التى تبدأ من القرن الخامس عشر ، فى حين قام بوليس فردريك بنشر وثائق مكتب الادعاء فى بلجيكا وهولندا ، كما كتب ووترز Wauters باسلوب يفيض بالمشاعر عن المجتمعات الصغيرة فى بلجيكا فى العصور الوسطى . أما جاشارد فقد كتب منذ عهد شارل الخامس وفيليب الثانى . وثمة عمل صدر فى بلجيكا من وجهة نظر كاثوليكية ويعتبر نظيرا لما قام به موتلى وبرنسترر Prinsterer فى هولندا هـو ما قـام به يـوسف كيرفـين دى ليتنهوف Lettenhove (١٨١٧ - ١٨٩١) وعالج فيه القرن السادس عشر تحت عنوان تاريخ الفلاندرز . وقد أدان ليتنهوف Lettenhove وليم الصامت ومؤيديه من البروتستانت ودافع عن موقف أسبانيا والحزب الكـاثوليكى . والـواقع أن كتـابـات بـولس فـردريـك النـاقـدة وكتـابـات هنـرى بيـرين (١٨٦٢ - ١٩٣٥) ، فاقت كتابات ليتنهوف التى شابها التعصب الـوطنى الاعمى ، هذا وإن كانت كتابات فردريك مليئة بنغمة فلمنكية قومية قوية .

وعلى الرغم من أن هولندا لم تزود التاريخ بمجموعة كاملة لمصادر تاريخها القومى مثلما فعلت بلجيكا ، فإن الجمعية التاريخية فى أوترخت أخذت فى نشر مصادر التاريخ الهولنـدى منذ سنـة ١٨٦٣ . كما قام المؤرخ الهولندى برنسترر Prinsterer بنشر محتوى الأرشيف ذى المجلدات العديدة الخاص ببيت اورانج . وفى سنة ١٩٠٢ أنشئت لجنة ملكية ضمت أبرز المؤرخين الهولنديين لتتخذ الترتيبات اللازمة لنشر وثائق ومخطوطات التاريخ الهولندى نشرا منظما وتولى رئاسة هذه اللجنة هـ . ت كولنبراندر H. T. Colenbrander فاصدرت ٢٢ جزءا تحوى مصادر التاريخ الهولندى من سنة ١٧٩٥ ــ حتى سنة ١٨٤٠ . أما أكثر الكتابات التاريخية حماسة من الناحية القومية فى هولندا فقد وردت فى كتاب عن تاريخ هولندا الذى ألفه وليم جروين برنسترر Wil-liame Groen Van Prinsterer الذى دأب فى كتابه هذا وفى كتاب له آخر اسمه مـوريس وبارنفلت ، على مدح المذهب البروتستانتى فضلا عن بيت أورانج . على أن كتب برنسترر صارت عديمة القيمة بعد صدور الأبحاث العلمية التى دونها روبرت فروين (١٨٣٣ - ١٨٩٩) ، وهو واحد من أقدر المؤرخين الهولنديين . وبالإضافة إلى هذه الأبحاث العلمية لفروين Fruin هناك بحث للمؤرخ بطرس بلوك (١٨٥٥ - ١٩٢٩) عن تاريخ هولندا العام . وهو بحث يتميز بالدقة والاتزان .

أما بالنسبة للشعوب الاسكندنافية فانها هى الأخرى لم تكن فقيرة فى مجال الكتابة التاريخية القومية إذ جمعت مصادر تاريخها فى عديد من السلاسل من بينها مجموعة المخطوطات المتعلقة بتاريخ الدانمرك فى العصور الوسطى ، وهى المجموعه التى أصدرها يعقوب لانجبك Langebek وخلفاؤه . وهناك كذلك الوثائق الدبلوماسية النرويجية التى أصدرها س . أ . لانج والوثائق الخطية السويديه التى أشرف على نشرها أرلك جوستاف جيجر (١٧٨٣ - ١٨٤٧) ورفاقه .

وكان أول من أدخل الكتابة التاريخية القومية فى الدانمرك هو المؤرخ وُرساى Worsaae وفى النرويج المؤرخان كيزار ، منخ ، وفى السويد جيجز ، كارلسون ، فريكل ، أما عن يوحنا يعقوب وورساى (١٨٢١ - ١٨٨٥) فقد اهتم بصفة خاصه بتاريخ الدانمرك القديم فى كتاب (آثار الدانمرك القديمة) وكتابه الشمال فى عصر ما قبل التاريخ ، وذلك بالإضافه إلى كتاباته عن موضوع الدانمركيين فى انجلترة . كذلك اهتم المؤرخ يعقوب رودلف كيزار Keyser (١٨٠٣ - ١٨٦٣) برسم صورة رومانسية وإبراز الجوانب المشرقة عن أصل النرويج وذلك فى كتابه تاريخ الشماليين ، هذا إلى أن كيزار أبدى اهتماما كبيرا فى تاريخ النرويج الدينى . لكن الكتاب الذى ألفه بطرس اندرياس منخ Munch (١٨١٠ - ١٨٦٣) كان أكثر شهرة وأوسع نطاقا ، اذ صدر تحت عنوان تاريخ الشعب النرويجى ، وفى السويد كان لكتاب المؤرخ جيجر تاريخ السويديين (حتى عهد شارل العاشر) فضل فى زيادة الاهتمام بتاريخ السويد القديم والفنون الشعبية فيها . وقام بإكمال هذا العمل العظيم المؤرخ فردريك كارلسون (١٨١١ - ١٨٧٧) . أما اندرياس فريكول (١٧٩٥ - ١٨٨١) فقد كتب بحثا من عشرة أجزاء بعنوان (دراسة عن تاريخ السويد) وهو البحث الذى حاز شهرة واسعة . ولم تلبث أن تتابعت الأبحاث المتسمة بالصفة العلمية عن التاريخ القومى للدول الاسكندنافية فكتب المؤرخ يوحنا ستين ستروب ورفاقه عن الدانمرك . وكتب يوحنا سارز ، كنت جرسرت Kunt Gjerest الكسندر بيج Alex-ander Bugge عن النرويج وكتب هارولد هارن ، اميل هيلدبراند عن السويد .

ولو أن لدينا مجالا أفسح لأمكننا أن نوضح كيف أثرت دراسة أمجاد الماضى على نشأة الآمال القومية لشعوب البلقان منذ ١٨٢٠ ولعل أحسن مثال لذلك كتاب المؤرخ الكسندر أكزوبول وعنوانه (تاريخ الرومانيين فى إقليم راشيا تراجان) History of Roumanians of Trajan Dacia وهو الكتاب الذى صدر فيما بين سنتى ١٨٨٨ - ١٨٩٣ ويعتبر نموذجا لأثر الكتابة التاريخيه فى إذكاء الروح القوميه فى البلقان

القومية اليهودية

من المؤكد أن عرضنا للعلاقة بين القومية وكتابة التاريخ فى العصور الحديثة فى أوربا لن يكون كاملاً إلا إذا أشرنا إلى الكتابة التاريخية القومية الخاصة باليهودية والصهيونية . إن ظهور القومية اليهودية فى القرن الماضى جاء مرتبطا بالتطور العام للروح القومية فى أوربا فى نفس الفترة . وهو التطور الذى ساعد على تقوية الروح القومية اليهودية من خلال التقليد المباشر للحركات القومية الأخرى من ناحية . ومن خلال اضطهاد اليهود الذى جاء نتيجة للحماسة الوطنية المتزايدة فى أوربا بعد سنة ١٨٧٠ من ناحية أخرى . ولم يلبث أن أصبح واضحاً أثر نمو العاطفة القومية اليهودية على تطور اهتمام اليهود بتاريخهم القومى ، فأنشئت الجميعات التاريخية اليهودية فى معظم الدول الكبرى ، مثل جمعية الدراسات اليهودية التى ظهرت سنة ١٨٨٠ ، ثم الجمعية التاريخية لاتحاد الطوائف الألمانية اليهودية التى ظهرت بعد ذلك بخمس سنين ، وفى سنة ١٨٩٥ قامت الجمعية التاريخية الإنجليزية اليهودية . وقبل ذلك بثلاث سنوات أنشئت الجمعية التاريخية الأمريكية اليهودية . والواقع أن هذه الجمعيات قامت بعمل ضخم فى جمع مصادر التاريخ اليهودى وخلق الاهتمام بدراسته . ونخص بالذكر فى هذا المقام ما نشرته الجمعية التاريخية الأمريكية اليهودية سنة ١٨٧٧ من بحث كبير يحوى دراسة عن اضطهاد اليهود فى العصور الوسطى بقصد استثارة السخط القومى لليهود على ما لاقوه من اضطهاد فى ماضيهم وحاضرهم . ومما أثار عند اليهود شعور الحماسة لقوميتهم ما كتبه أحد المؤرخين القوميين وهو هنريك جريتز Graedtez (١٨١٧ ــ ١٨٩١) . أما المؤرخ إسحاق م . جوست (١٧٩٧ ــ ١٨٦٠) فقد كتب كتابين هما (تاريخ اليهودية) (وتاريخ بنى اسرائيل) ، وكانت آراؤه تتسم بالصبغة الليبرالية العقلانية غير المتحيزة إلى الحد الذى يجعل منه مؤرخا قوميا ، وتختلف أعماله كثيرا عن أعمال جريتز الذى يشبه أحيانا بالمؤرخ تريتشك فيقال عنه (تريتشك اليهود) ذلك أن جريتز فى كتابه تاريخ اليهود منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر يحرص على نظرته المحافظة وآرائه المتعصبة كما يفيض حماسة لماضى قومه مستقبلهم وقد تتبع بأسلوب فصيح تاريخ اليهود منذ نشأتهم حتى سنة ١٨٤٨ . واهتم بصفة خاصة بتطورهم الأدبى والروحى ــ أى بالعناصر التى أسهمت بأكبر قسط فى تطور ثقافة اليهود القومية وبقائها . ثم انه نظر إلى اليهود على أنهم (نمط روحى قائم بذاته) وبذلك جاء كتابه متمشيا مع تطور (الصهيونية) وأفكارها . وكان يصر على أن المسيح المنتظر بالنسبة لليهود هو

إذكاؤهم للروح القومية ، وعارض فكرة بقاء اليهود على وضعهم انتظاراً لمجيء المسيح لتخليصهم مما فيه . أما المؤرخ س . م . دبنو S. M. Dubnow صاحب كتاب (التاريخ العالمى للشعب اليهودى منذ بدايته حتى الوقت الحاضر) فتتصف كتابته بالموضوعية وغزارة المعرفة مما جعلها تعلو على النزعة القومية وإن كان الكتاب لا يخلو تماما من تلك النزعة . وإلى جانب التاريخ العام الذى أخرجه جريتز ودنبو ، هناك كتابات تاريخية عالجت بشىء من الشمول تاريخ اليهود فى دول أوربية متعددة . وفى مقدمة هذه الكتابات (دائرة المعارف اليهودية) التى جمعت بين النغمة القومية والمنهج العلمى فى البحث . ثم كان أن أدى اضطهاد اليهود على يد هتلر والنازيين إلى إذكاء القومية اليهودية بصورة أقوى مما حققه أى عامل آخر فى العصور السابقة . فمنذ سنة ١٩٣٣ ظهرت مؤلفات عديدة كتبها موريس صمويل وآخرون عالجت مختلف الأطراف والمظاهر للقومية واليهودية ولم تلبث أن ازدادت هذه الدراسات قوة وكثرة بعد (اغتصاب) أرض فلسطين وإقامة دولة (مزعومة) لليهود بعد سنة ١٩٤٧ .

مادة دور المحفوظات

وفى عرضنا المختصر هذا لأثر القومية على كتابة التاريخ فى أوربا لابد أن نشير ولو بطريقة عابرة إلى نمو وتكدس الوثائق فى دور المحفوظات (الأرشيف) وزيادة اعتماد الدارسين عليها . وذلك أن تطور الدول القومية وما صحبها من النظم البيروقراطية أدى إلى وجود قدر هائل من التقاليد الرسمية والقواعد الروتينية ، فضلا عن نمو وتطور نظام المراسلات الديبلوماسية . ولم تكد تحل سنة ١٨٠٠ إلا نتج عن هذا كله رصيد هائل من الأوراق التى حوت معلومات متعددة وحفظت فى دور الحفظ القومية والدينية فضلا عن الخاصة . ولكن قبل أن يتمكن المؤرخون من الاستفادة من وثائق دور الحفظ كان لابد من أن تصنف تلك الأوراق وتنظم وتوضع تحت تصرف المؤرخين الحقيقيين . وحتى القرن التاسع عشر كان هناك اتجاه عام واضح لعدم فتح أبواب دور الحفظ أمام المؤرخين .

كانت فرنسا الدولة الرائدة فى مجال تصنيف مادتها الأرشيفية . ولعل ذلك راجع أساسا إلى وجود عدد كبير من أمناء المحفوظات المدربين تدريبا عاليا والذين تخرجوا من مدرسة الوثائق

الفرنسية . وتعتبر انجلترا فى الوقت الحاضر الدولة الأوربية الوحيدة المتخلفة كثيرا فى مجال تصنيف المادة الأرشيفية وترتيبها وتنظيمها .

ومن نواحى النقص الرئيسية التى توجد حتى فى أدق دور الحفظ تنظيما هو افتقارها إلى ركن هام من أدق أركان الوثائق ونعنى به الخطابات والمذكرات الشخصية الخاصة ، وذلك لحرص رجال الدولة والديبلوماسيين على رفعها من الملفات . ولهذا السبب أعلن بسمارك ذات مرة أن المادة الأرشيفية تعتبر ضئيلة القيمة لمن يريد أن يكتب تاريخا ديبلوماسيا واقعيا . وكان أن بدأ السير ادوارد جراى تقليداً حميدا عندما ترك معظم أوراقه الخاصة فى وزارة الخارجية عندما اعتزل منصبه كوزير للخارجية

وكما أدى الاعتزازبالقومية إلى التنافس بين الدول فى جمع مصادر التاريخ القومى الخاص بها ، كذلك حدث بنفس الطريقة أن دفع التنافس بين الدول الأوربية المختلفة فى فترات متعددة من القرن التاسع عشر كثيراً منها إلى فتح أبواب دور الحفظ القومية فيها والسماح للمؤرخين القوميين باستخدامها . بل إن البابا ليو الثالث عشر وكان متحرر الفكر فتح أرشيف الفاتيكان سنة ١٨٨١ وحصل العلماء من غير رجال الدين على امتياز فحص ودراسة الكنوز التى احتوتها دور الحفظ فى الفاتيكان والتى كان الكاردينال بارونيوس أول من استخدمها .

ومع ذلك فقد ظل الوضع حتى الحرب العالمية الأولى وليست هناك حرية كاملة فى أى مكان فى استخدام المادة الأرشيفية ، فضلا عن أن الوثائق الحديثة حجبت عن أنظار العلماء والباحثين . من ذلك مثلا أنه لم يكن من الممكن الاطلاع على الأوراق المحفوظة فى أرشيف الفاتيكان والتى ترجع إلى ما بعد سنة ١٨١٥ ، كما أنه سمح للمؤرخين فى فرنسا بالاطلاع على الأوراق الرسمية حتى سنة ١٨٣٠ ، وفى روسيا سمح لهم بالاطلاع على الأوراق المحفوظة بدور الحفظ والتى ترجع إلى ما قبل سنة ١٨٥٤ ، وفى انجلترا حتى سنة ١٨٦٠ . أما بالنسبة لأمريكا فقد حاول العلماء امثال جيلارد هنت أن يصل بتنظيم المادة الأرشيفية وجمعها إلى نفس المستوى الراقى الذى وصلت اليه معظم الدول الأوربية .

وكان أن بدأ عهد جديد فى فتح أبواب دور المحفوظات على مصاريعها أما الباحثين بعد الحرب العالمية الأولى ، وذلك بدافع الرغبة فى إلغاء الديبلوماسية السرية وتحديد المسئول الحقيقى عن الحرب العالمية . وكان البلاشفة هم البادئون فى هذا الاتجاه وتبعهم بسرعة كل من الالمان والنمسويين ، وبعد ذلك وجد الإنجليز والفرنسيون أنفسهم مضطرين إلى السير فى نفس

الطريقة . ولم يقتصر الأمر على مجرد فتح أبواب دور الحفظ بل نشرت على نطاق لم يسبق له مثيل الوثائق الدبلوماسية الهامة والخاصة بالجيل السابق للحرب العالمية الأولى مباشرة . وبعد الحرب العالمية الثانية استولى الحلفاء على كميات ضخمة من الوثائق الألمانية وقاموا بنشرها جميعا ولكن لم تكن لديهم أية رغبة فى نشر وثائقهم هم . وأظهر الروس بصفة خاصة عسكنا بسرية الوثائق ، بدلا من أن يستحثوا حلفاءهم الغربيين على نشر وثائقهم مثلما حدث عقب سنة ١٩١٨ .

كتابة التاريخ القومى فى الولايات المتحدة الامريكية

لم تبذل الولايات المتحدة الامريكية أى جهد رسمى فى سبيل جمع مصادر تاريخها القومى يمكن أن يقارن بالجهود العظيمة التى بذلتها الدول الأوربية الأخرى . ولعل هذا يرجع من ناحية إلى الخصائص الموروثة المتأصلة فى النظام الفدرالى الأمريكى ومن ناحية أخرى إلى حقيقة أن الحكومة الفيدرالية شغلتها التشريعات الروتينية ومطالبات السياسة الحزبية بحيث حال ذلك دون أن تركز انتباهها على تدعيم مجالات الفكر واهتمامه .

وإذا بحثنا عن محاولة أمريكية يمكن أن تعتبرها نظيرة لحركة جمع مصادر التاريخ القومى فى أوربا — وهى الحركة التى ارتبطت بأسماء مورتورى برتز ، جيزو ، نفولا ، هاردى ، ستابز stubbs ، فليس أمامنا سوى تلك المحاولة التى طغت عليها الصبغة الوطنية والتى قام بها بطرس فورس Peter Force (١٧٩٠ — ١٨٦٨) فى الثلاثينات من القرن الماضى ، بقصد الحصول على معونة حكومية كافية ، لنشر محتويات دور الحفظ الأمريكية ، وكانت الخطة الأصلية لهذا المشروع هى ضم كل مصادر تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ عهد اكتشافها حتى عهد وضع الدستور . ويتضح ارتباط هذا المشروع تاريخيا ونفسيا بالحركة الأوربية مما قاله فورس نفسه عن أهداف هذه الخطة (ان هذا العمل الذى أقدمنا عليه هو فى المحل الأول عمل قومى فى مداه وهدفه) . وبعد عقبات شديدة حصل فورس على معونة فدرالية مكنته من أن يبدأ نشر محتويات دور الحفظ سنة ١٨٣٧ ، لكن هذه المعونة الحكومية سرعان ما سحبت . واتضح أن ما تم عمله لم يكن سوى قشرة بسيطة من الخطة الكبيرة التى كان ينوى النهوض بها .

والواقع أن فورس لم يكن أكثر من جامع لمادة التاريخ القديمة وآثارها أكثر من عالم ناشر على مستوى ويتز Waitz ، ومينيه Mignet ، وجيرارد Guerard ، وستابز فى أوربا . ويرجع ذلك الى

أن حركة البحث التاريخى تأخرت ما يقرب من جيل كامل عن مثيلتها فى أوربا ، ولذلك فان الخسارة التى نجمت عن عدم استمراره فى تنفيذ مشروعه أقل بكثير مما لو حدث وتوقف نشر الوثائق الانجليزية أو الألمانية أو الفرنسية .

ولم يتعد ما صدر فى الولايات المتحدة الامريكية من جمع لمصادر التاريخ القومى عمل الأفراد وشركات النشر والجمعيات التاريخية فى مختلف الولايات . وكان فى مقدمة ما نشر على هذه الصورة عمل بعنوان (المراسلات الديبلوماسية للثورة الأمريكية) لجيرد سبارك Jered Spark . وقد ظهرت هذه المراسلات فى ١٢ جزءا ما بين سنتى ١٨٢٩ ، ١٨٣٠ . كما كان هناك إنتاج آخر لنفس المؤلف صدر فى ١٢ جزءا أيضا بعنوان : حياة واشنجتون وكتاباته وقد صدر ما بين سنتى ١٨٣٤ - ١٨٣٧ .

أما أكثر المحاولات طموحا لجمع مصادر التاريخ القومى فى الولايات المتحدة الأمريكية فهى محاولة المؤرخ هيوبرت هاوبانكروفت Howe Bancroft (١٨٣٢ - ١٩١٨) فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ذلك أنه قام بجمع مصادر تاريخ الولايات الباسفيكية ثم استخدم هذه المادة فى تأليف كتابه (تاريخ الولايات الباسفيكية) المكون من ٣٩ جزءا ولسوء الحظ فإنه لم يتبع نهج شتين ولم يسترشد بعمل برتز ، بل اعتمد فى تنفيذ مشروعه على قدراته الخاصة مما ترتب عليه أن افتقر عمله إلى الدراسة الناقدة وصحة النشر . وهناك عمل أكثر عمقا فى البحث هو ذلك الجهد التعاونى الذى قام به عدد من الكتاب تحت إشراف جستين وينسور Justin Winsor الذى عرف بـ Narrative and critical history of America وعلى الرغم من أن هذا الكتاب احتوى قدرا كبيرا من مادة المصادر فإنه عمل يتضمن عرضا ناقدا للمصادر أكثر من استهدافه تجميع هذه المصادر ونشرها .

ومضت مع هذه الحركة جنباً إلى جنب حركة نشر مصادر تاريخ كل ولاية من الولايات الأمريكية وهى المهمة التى قام بها فى أغلب الأحوال جماعة من علماء الآثار لا ناشرين من علماء التاريخ الناقدين ، مما أدى إلى عدم وجود تجانس فى الطريقة التى اتبعت فى هذا الشأن . ومع ذلك فإن بعضاً من هذه الأعمال جاءت على درجة عالية من التنظيم والدقة ، ولعل أبرزها تلك السلسلة المطولة التى تناولت اكتشاف الجزء الأوسط من أقاليم الغرب فى الولايات المتحدة الامريكية واستعماره . وقد اشرف على اخراج هذه السلسلة روبن ج . تويتس أوف ويسكونسن G.Ro-ber Thwaites of Wisconsin كذلك ظهرت مجموعة الوثائق المتعلقة بولاية نيويورك التى

نشرها الكسندر س . فليك Flick . يضاف إلى هذا كله نشاط الجمعيات التاريخية المحلية العديدة وهى الجمعيات التى كان لها دور كبير فى جمع مصادر التاريخ المحلى ، فضلا عن دورها فى مساعدة الجمعيات المركزية على مستوى الدولة لتتمكن من إنجاز أعمالها .

ومن الاتجاهات الأخرى فى تجميع المصادر الخاصة بتاريخ الولايات المتحدة نشر الرسائل والأوراق الخاصة برؤساء الجمهوريات فضلا عن مكاتبات رجال الدولة وهو العمل الذى قام به عدد من علماء التاريخ ، وإن كانت هنا الأعمال قد تفاوتت من حبث المستوى . وقد بلغت هذه الأعمال ذروتها فى كتاب و . س . فورد V. C. Ford الذى صدر تحت عنوان كتابات واشنجتون ، وكتاب جلارد هنت « مكاتبات جيمس ماديسون » وكتاب ب . ل . فورد مكاتبات جيفرسون ، وكتاب ج . ب . مور ــ أعمال جيمس باكانان The Works of James Buchanan .

ولم تكن الولايات المتحدة الامريكية مفتقرة إلى الإمكانيات الضخمة لإعداد الوثائق ونشرها ، إذ كان لديها من العلماء أمثال واشنجتن . س . فورد ، جون فرانكلين جيمسون ، بولس ليكستر فورد ، جوبلارد هنت ، وهؤلاء جميعا لايقلون فى مقدرتهم عن برتز ، ويتز ، جويزو ، ستابز . ولكن ما كانت تحتاج اليه الولايات المتحدة هو التخطيط المشترك . والحصول على معونة حكومية كافية ومستمرة . ومع ذلك فقد كانت هناك بداية مبشرة بأن فجرا جديدا سيبدأ فى كتابة التاريخ القومى للولايات المتحدة ، وذلك عندما نشر و . س . فورد أوراق الكونجرس ومحاضر جلساته ما بين سنتى (١٧٧٤ ــ ١٧٨٩) وعندما نشر ماكس فاراند الوثائق الخاصة بالاتفاق الفدرالى المعقود سنة ١٧٨٧ . هذا بالإضافة إلى ما نشرته ، مؤسسة كارنيجى تحت إشراف جون فرانكلين جيمسون .

وقد بذل حنا باسيت مور جهدا صادقا وشافا لنشر المجموعة التذكارية الخاصة بوثائق تاريخ الديبلوماسية الأمريكية . وهنا ينبغى الإشارة إلى ذلك التجميع القيم للمصادر الخاصة بتاريخ العمل والعمال فى أمريكا ، وهو ما قام به الأستاذ حنا . كومانز Commons ورفاقه ، كذلك كانت الآنسة أديليدهاس Adelade Hase بإنتاج سلسلة من الكتب فى وصف وتصنيف مصادر تاريخ أمريكا الاجتماعى والاقتصادى . ومع ذلك فإنه يمكن القول عموما بأن الولايات المتحدة الامريكية تعتبر متخلفة إلى حد كبير فى مجال جمع مصادر تاريخها القومى ، ولا يمكن تبرير ذلك التخلف بإرجاعه إلى الافتقار إلى العواطف القومية الجامحة ، أو إلى عدم وجود موارد مالية كافية لهذا الغرض .

وإذا كانت الولايات المتحدة الامريكية لم تستطع أن تساير الدول الاوربية فى تطور حركة جمع مصادر تاريخها القومى فان لها أن تفخر بأنها أنجبت مؤرخين لا يقلون وطنية فياضة عن تريتشك ، ميشليه ، وفرود Froude . وكان من الطبيعى أن تدور السياسة التاريخية القومية فى أمريكا حول الفترة التى شهدت انطلاقة الأحلام والآمال وهى فترة الاستعمار الأجنبى للولايات المتحدة الأمريكية ونضال الأمريكيين من أجل حصولهم على الاستقلال . ذلك أن المؤرخين الأمريكيين أحاطوا هذه الفترة بهالة تشبه تلك الهالة التى أضفاها يوحنا مولر على ألمانيا فى عصرها المبكر أو تلك التى أضفاها شاتوبريان على فرنسا .

ويعتبر جورج بانكروفت (١٨٠٠ ـــ ١٨٩١) الشخصية الرئيسية التى ابتكرت ملحمة قومية عن فترة النضال الأمريكى وتخليص أمريكا من الاستعمار ، ذلك أن بانكروفت نفسه عاش فى فترة الأيام التى شهدت ازدهار الحماسة القوية وسادت فيها الديمقراطية وهى فترة الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضى . وأخرج كتابا مطولا بعنوان (تاريخ الولايات الأمريكية منذ اكتشاف أمريكا) . ويلاحظ أن بانكروفت كان أحد الأمريكيين الأوائل الذين تلقوا تعليمهم فى حلقات الدرس الألمانية وأعتقد بأن تاريخ إنشاء الجمهورية الأمريكية ليس جهدا عاديا تحقق فى دنيا البشر ولكنه كان على حد تصويره ملحمة فرجيلية قام فيها واشنجتون بدور أوغسطس . وتعرض هذه الملحمة فى مناظرها المتلاحقة « حركة القوة الإلهية وهى تضفى على الكون وحدته وعلى الحوادث تتابعها وارتباطها . » .

كذلك صور بانكروفت فى أسلوب بلاغى منمق العملية التى قام بها الأمريكيون بالاستيطان فى الولايات الجديدة على أنها هروب الأرواح الباسلة من الاضطهاد وصور الثورة الأمريكية فى صورة حملة صليبية يقودها فرسان وطنيون متحمسون من أجل حصول الإنسانية المتحضرة على حريتها . ويصف الدستور الأمريكى بأنه نتاج لأفكار عملاقة لم ولن يوجد لها مثيل ، واعتبر أن ما انتجته هذه الأفكار أعظم قيمة من صانعها . ويتضح مدى ما فى معتقدات بانكروفت من مبالغة إذا قورنت بالدراسة العميقة الواعية لنفس هذه الفترة التى تناولها بانكروفت والتى قام بها كل من جورج لويس بير ، ك . هـ . فان تين . وكارل بيكر ، ك . م . اليوت ، م . ك . تايلر ، هـ . ل . اوزجود ، ك . و . الفورد ، ك . م . اندروس ، س . ج . فيشر ، وماكس فراند ، ك . أ . بيرد ، أ . م . شلزنجر وآخرون . وكانت نظرة بانكروفت للتاريخ الأمريكى هذه النظرة المقدسة سببا فى ضرر بالغ وإن لم يكن من المتعذر علاجها . ذلك أن هذه النظرة الخرافية المصطبغة بصبغة دينية

انتقلت من بانكروفت إلى ما كتبه جون . و . بالفرى Palofrey (١٧٩٦ ـ ١٨٨١) فى كتابه (تاريخ انجلترا الجديدة) ثم تكررت مرة أخرى بصورة أقل قوة فى كتاب هنرى كابوت لودج (تاريخ المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا) . وكان لهذا الكتاب فضل إثارة الاهتمام بفترة استعمار الإنجليز لأمريكا . أما جون لوثرب موتلى فكان مؤمنا بدور أمريكا فى نصرة الحرية والديمقراطية ولذا اتجه إلى عمل دراسة مقارنة بين دور أمريكا ودور هولندا عندما قضت على الاستعمار الأسبانى وأقامت الجمهورية .

أما فرانسيس باركمان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٣) فلم يسر على منهج بانكروفت فى تمجيد العنصر الانجلو سكسونى فى بادىء الأمر ، واثنى على فرنسا فى دورها الذى قامت به فى استعمار العالم الجديد وأوضح فى كتاباته أن أمجاد المستعمرين ليست قصرا على الإنجليز والألمان وحدهم . وإذا كان باركمان قد ركز بحثه على الفرنسيين فى شمال أمريكا وغربها فإن وليم . هـ بريسكوت (١٧٩٦ ـ ١٨٥٩) الشهير بمؤرخ أسبانيا فى أوائل العصر الحديث قد أوضح دور الأسبان فى استعمار وسط أمريكا وجنوبها ذلك أنه وصف وصفاً رائعاً عظمة الحضارة التى كانت للمواطنين الأصليين الأمريكيين فى المكسيك وبيرو . وأفاض فى شرح ذلك فى كتابيه « تاريخ المكسيك » و « تاريخ فتح بيرو » ويعتبر هذان الكتابان من أروع الكتابات وإن كانا يحتاجان إلى تعديل فى ضوء الأبحاث الأركيولوجية اللاحقة . أما الفريد ت . ماهان (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) فكان متأثرا بدور الأسطول الأمريكى الذى لم يكن قد بلغ درجة كبيرة من النضج فى الثورة ، فضلا عن دوره فى حرب سنة ١٨١٢ مما دفعه إلى دراسة الدور الذى لعبته البحرية فى الماضى . وكان أن كتب كتابين أولهما : (تأثير القوة البحرية ودورها فيها بين سنتى ١٦٦٠ ـ ١٧٨٣) وثانيهما (دور القوة البحرية فى الثورة والإمبراطورية الفرنسية فيها بين سنتى (١٧٩٣ ـ ١٨١٢) . وكان لهذين الكتابين باستثناء كتب أخرى قليلة أكبر الأثر فى لفت الأنظار نحو ضرورة الاهتمام بالتسلح البحرى الحديث .

ونجد تمجيدا لدور الاتحاديين فى تقوية دعائم الوحدة الوطنية الأمريكية فى أعمال المؤرخين ريتشارد هيلدرث (١٨٠٧ ـ ١٨٦٥) وحنا تشرش هاملتون (١٧٩٢ ـ ١٨٨٢) ولما كان هيلدرث من المعارضين للبيوريتانية ، فإنه تولى الرد على بالفرى فى هذا الصدد ، وامتدح النظام الفدرالى وانتقد جيفرسون . أما هاميلتون فهو ابن أحد كبار الساسة الفدراليين ، ولهذا تولى الدفاع عن سياسة أبيه فى كتاب (تاريخ الجمهورية) ونجد فى مقالات وكتابات بانكروفت ثناء

وإطراء على الديمقراطية التى لم تشبها شائبة فى عهد جاكسون وذكر بانكروفت أنه كان يحس بتصفيق وهتافات أتباع جاكسون وكأن السماء تصفق معهم وتباركهم .

أما تيودور روزفلت (١٨٥٨ ــ ١٩١٨) فقد وصف فى كتابه (انتصار الغرب) عملية التوسع الأمريكى غربا وصفا ينم عن إعجابه وتحمسه ، بصورة غير مستترة لهذه المناطق من غرب أمريكا وتبدو فيه وطنيته الطاغية وإعجابه بحركة الاستعمار التى قامت بها بلاده . وكان لروزفلت الفضل فى أن حاز عمل ما هان رواجا وشعبية كبيرة . أما المؤرخ الأمريكى ــ الألمانى الأصل ــ هرمان فون هولست (١٨٤١ ــ ١٩٠٤) فيصور فى كتابه « التاريخ الدستورى والسياسى للولايات المتحدة الأمريكية » الانتصار على الرق بوصفه مظهرا هاما من مظاهر الصراع الأبدى بين الحق والباطل ، كما تأثر كثيرا بانتصار القومية فى الولايات المتحدة الأمريكية ورأى فى ذلك درسا لبنى وطنه الأول الألمان فى صراعهم من أجل الوحدة . وهناك الأستاذ حنا وليم برجيس johne Willian Burgess (١٨٤٤ ــ ١٩٣١) صاحب كتاب « الفترة الوسيطة » وكتاب (الحرب الأهلية والدستور) وكتاب « الدستور وإعادة بناء الوطن » وقد رأى بيرجس فى نجاح أهل الشمال فى الحرب الأهلية تبريرا لفلسفة السياسة القومية ودليلا أكيدا على العبقرية التيوتونية فى مجال التنظيم والوحدة السياسية .

وجملة القول أنه ما إن أصبحت فترات الحرب الأهلية وإعادة بناء الوطن الأمريكى موضوعات للتحليل التاريخى والدراسة الجادة حتى بدأت الدراسة الموضوعية الناقدة ذات الطابع العلمى تسود تماما بفضل جهود الأستاذ وليم أ . دانتج ، وهكذا بدأت الملحمة الأمريكية ، تختفى من الأعمال العلمية ، وإن بقيت فى صورة كتب للنصوص المدرسية للأجيال المتعاقبة وكان أن تحمل المؤرخ الفيلسوف حنا فيسك (١٨٤٢ ــ ١٩٠١) عبء إعطاء ملحمة بانكروفت إطارا تعقليا يجعلها تتناسب مع الاتجاهات السائدة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولما كان هذا المؤرخ يؤيد مذهب سبنسر التعقلى وتمجيده لقيام الطبقة المتوسطة ، فإنه استطاع رسم صورة واضحة للروح السائدة للأمريكيين المثقفين فى عصره . وكان أن نجح بأسلوبه الواضح الجذاب وإلمامه الكبير بفترة الكشوف والاستعمار والثورة فى جذب جمهور كبير إليه مما جعله من أوائل المرشحين للقب « أشهر مؤرخ قومى » فى الجيل الماضى . ذلك أنه رسول العهد الجديد فى فهم العلاقات الأنجلو أمريكية وتفسيرها ، فأتى بدلا من ملحمة بانكروفت ذات الصبغة الدينية الأمريكية بملحمة جديدة عن نشأة الطبقة المتوسطة فى كل من انجلترا وأمريكا وانتصار تلك

الطبقة ، وهي ملحمة جديرة بأن تكون « ملحمة الشعوب الناطقة بالإنجليزية » ثم إن فيسك كان مقتنعا تماما مثل بيرجس ــ بما كان عليه الفرع التيوتونى من الجنس الأمريكى من مقدرة سياسية فائقة ، وأوضح أن أول مثال عرف عن الحكم الديمقراطى كان فى نظام مجتمع القرية التيوتونية ، وهو نظام يعتبر تراثا للجنس الآرى من عهد ما قبل التاريخ ، هذا إلى اعتقاده فى أن التاريخ الأمريكى سار فى سلسلة متصلة الحلقات من أيام ارمنيوس القوى الذى كان يعيش فى غابات شمال ألمانيا والذى تحدى بنجاح قوة الإمبراطورية الرومانية وعظمتها . ثم أن فيسك قال مؤكدا أن عنصر الحرية هو أكثر العوامل المحركة للمقدرة السياسية بدلاً من عناصر النظام والسلطة التى وضعها بيرجس فى المقام الأول . كذلك رأى فيسك أن انجلترا فى عهد جلادستون تعطى مثلا للحرية السياسية الكاملة أكثر مما تعطى ألمانيا فى عهد بسمارك ، ومن ثم فإن النظرية العامة القائلة بان انجلترا ــ ذات صيغة تيوتونية بحتة والنقاش الذى دار حول ذلك الرأى ــ إنما كان نقاشا اثنولوجيا يؤيد وجهة نظر فيسك . ولذلك فبدلا من أن يستلهم قبس الحرية مباشرة من « رجل الغابة الألمانى فى عهد ما قبل التاريخ » ثم يصل إلى الاتفاق الدستورى الفدرالى فى سنة ١٧٨٧ ، نجد فيسك يغير من خط سير هذا القبس ويجعله يهتدى وهو فى طريقه إلى العالم الجديد « بثورة ١٦٨٨ المجيدة » ويرى فيسك فى هذه الثورة أن الحرية السياسية والدينية سواء قامتا على أساس متين راسخ لا يمكن أبدا أن يهتز أو ينال منه أى تهديد طالما أن لغة لوك ، ميلتون سيدنى ستظل حية على « ألسنة الناس » .

والواقع أن عمل فيسك وبالإضافة إلى عمل جورج أوتو تريفليان كان محاولة لتوضيح أن الثورة الأمريكية كانت تحقيقا تاما لروح ثورة ١٦٨٨ ، إذ صور هذه الثورة على أنها من عمل الأحرار على كل من جانبى الأطلنطى وانها محاولة بطولية لصد وسحق الميول الأوتوقراطية للنظام الإقطاعى المحافظ فضلا عن سحق طغيان لا يستند على أساس دستورى « لملك جرمانى » وبفضلها تمت صيانة حريات العالم بالصورة التى نصت عليها وثيقة الحقوق الإنجليزية . وقد استرسل فيسك فى زهو فى عرض لقيام الجمهورية الأمريكية الاتحادية واعتبرها من أكبر ما أسهم به العالم الغربى فى سبيل حل المشاكل السياسية . ذلك أن هذه الجمهورية الاتحادية استطاعت أن توفق بين حرية الاجتماعات فى المدن الأمريكية وبين الحشود السياسية الكبيرة . كذلك تتبع فيسك فى نشوة بالغة تقدم الطبقة المتوسطة وانتصاراتها السياسية والاقتصادية فى القارة الأمريكية فى القرن التاسع عشر وأحس فيسك قبل وفاته . أى فى مستهل القرن العشرين .

بالرضا التام عندما رأى بلاده تنهض فى تحمل (أعباء الرجل الأبيض) وتحتفظ بسيادتها على الفيلبين . وعلى الرغم من أنه لم يكن عسكريا على الإطلاق ، إلا أنه كان يعتبر هذا العمل أهم خطوة فى عملية وضع العالم تحت السيطرة السلمية « للفرعين العظيمين للجنس الإنجليزى اللذين يضطلعان برسالة إقامة حضارة عظيمة على الجزء الأكبر من سطح الارض ، وإقامة نظام سياسى أكثر دوما من أى نظام سابق » .

وإذا كان فيسك هو الذى أدخل الأسطورة الجرمانية والانجلو ساكسونية فى التاريخ الشعبى للولايات المتحدة ، فان هر برت باكستر آدمز (١٨٥٠ ــ ١٩٠١) وجون وليم برجس (١٨٤٤ ــ ١٩٣١) هما اللذان أدخلا هذه الاسطورة فى دائرة الدراسة التاريخية الأكاديمية . ذلك أن كلا من هذين المؤرخين تلقى تعليمه فى ألمانيا ــ وآدمز هو صاحب الفضل فى انشاء قسم الدراسات التاريخية المشهور فى جامعة جون هوبكنز وتخرج منه على يديه عدد كبير من المؤرخين البارزين وعلماء السياسة ، ومن بينهم ودرو ويلسون . وكان أحد تلاميذ آدمز جورج إليوت هيوارد هو خير من طبق النظم الجرمانية على النظم الأمريكية ، وذلك فى كتابه (مقدمة للتاريخ الدستورى المحلى للولايات المتحدة الأمريكية » والذى ظهر سنة ١٨٨٩ . أما بيرجس فقد بدأ عمله فى كلية أمهرست وأنشأ بعد ذلك مدرسة العلوم السياسية الشهيرة فى جامعة كولومبيا . ولكن تلامذته كانوا على درجة كبيرة من الدقة والحرص والتحرى فى أبحاثهم الأمر الذى حال بينهم وبين نقل الأسطورة التيوتونية والتشبع بها . وعلى هذا فإن هذه النظرية الجرمانية انتشرت أساسا فى كتاباته هو فضلا عن محاضرات نيقولا مورى بتلر العامة .

ولعل أحسن تعبير عن القومية الأمريكية المختالة بنفسها اليوم هو الذى أطلقه ديلبور كورتز آبوت عندما أطلق على الأمريكان اسم « البرابرة الجدد » . ثم إن الكتابة التاريخية للتاريخ القومى ظهرت فى أماكن أخرى من العالم الجديد ، فجمعت المصادر الخاصة بتاريخ كندا بطريقة طيبة ووضعت فى أرشيف الدومنيون فى أوتاوا فضلا عن دور المحفوظات العديدة فى إقليم كندا . كذلك تناول المؤرخ فرانسوا جارنو تاريخ كندا بكثير من الإسهاب من وجهة النظر الفرنسية الكندية ، وفعل المؤرخ وليم كنجزفورد نفس الشيء ولكن من وجهة نظر موالية لكندا . ثم ظهر من الكتب ما فاق عمل كل من المؤرخين السابقين ، وتمثل هذه الكتب الدراسات التاريخية التى انتهجت منهجا علميا ، ونتجت عن جهد شارك فيه كل من جورج م . رونج Wrong ، هيو . هـ . لانجتون Langton ، آدم شورت Short، أرثر ج . دوهتى . أما خير تاريخ لكندا ظهر فى مجلد واحد فهو كتاب (الكنديون) للمؤرخ جورج م . رونج .

أما مصادر تاريخ أمريكا اللاتينية فقد جمعت من دور الحفظ الأسبانية فضلا عن دول أمريكا اللاتينية . ونخص بالذكر هنا وثائق الأرجنتين التى تم جمعها ونشرها تحت إشراف كلية الفلسفة والآداب فى جامعة بيونس أيرس ، ووثائق شيلى التى تم نشرها تحت إشراف جوزى ميدنيا Jose Medina ووثائق المكسيك التى أشرف على نشرها م . أ . ى . بيرا M. O. Y. Berra. وهناك كتب تناولت التاريخ العام لأمريكا اللاتينية ألفها المؤرخون جوان أورتيجاى ربيو Juan Ortegay Rubio وداِيجو باروس آرانا Diego Barros Arana وفرانسسكو جراسيا كالديرون وكارلوس نافان لاماركا Carlos Navany Lamarco وآخرون . وعن الفترة المليئة بالأحداث المثيرة من أجل تحقيق الاستقلال تبرز أعمال المؤرخ بارتولومى Mitre Bartolome وهناك كتب خاصة بتاريخ دول معينة من بينها كتب عن تاريخ البرازيل بأقلام فرانسسكو أدلفو فارنهاجن وجوامانويل بيريرا داسيلفا وجوزى فرانسسكو داروشا بومبو ، ومانويل دى اوليفيرا ليما ، وفيليزبلو فيرمو دى اوليفبرد فرير أما تاريخ الأرجنتين فهناك كتب بأقلام ميتر ، ماريا نوبيلزا ، ومارتن جارسيا مييرو ، فيسنت جامبون ، فيسنت نيدل لوبيز ، ريكاردو ليفين .

وعن تاريخ شيلى هناك الكتب التى ألفها بنيامين فيكونا ماكينا ، جوسيه توربيدميدينا ، وميجويل لويس أما نتجوى ، وديجو باردس آرنا ، ودينجو أما نتجوى دى سولار ، وجونز ألو بالنس أما عن تاريخ بيرو فهناك كتب من وضع ماريانو فيليب سولدان ، سيباستين لورنت ، ونيمسيو فارجاس . وهناك كذلك كتب تاريخية عن تاريخ أمريكا الوسطى ألفها لوزنزو مرنوفارى ريفيرا ماستر ، انطونيو باتريس جارجوى ، بدرو زامورا كاستيلانوس ، جوزى ن . رودرجويز ، و لدينا عن تاريخ المكسيك كتب من تأليف لويز بيريز فيرديا ، ليز جونز اليزا أوبرجون ، نيكيتودى زاماكوا ، انريك سنتبانز santibanez ، امبليورابسا Rabasa ، جريجو رو كنتيرو Gregorio Quintero.

التاريخ والقومية

كان لنمو القومية تأثير متعدد الجوانب على الكتابة التاريخية كما أنه جاء نعمة ونقمة ويبدو الجانب الطيب لهذا التأثير فى تيسير إعداد مجموعات من المصادر التى لم يكن من الممكن توفيرها لولا ذلك الدافع القومى . يضاف إلى ذلك ما صاحب عملية جمع المصادر من تدريب كثير من

المؤرخين على أعمال جمع ونشر المصادر التاريخية . أما الجانب السيىء من ذلك التأثير فيتركز حول خلق التحيز الخطير والمتطرف للوطنية . ولم يقتصر أثر ذلك على مجرد عدم إمكان تناول الحقائق التاريخية تناولا موضوعيا هادئا دقيقا ، حتى عند أرقى المؤرخين مستوى وتدريبا ، وإنما أسهم بقدر غير ضئيل فى إشعال روح التعصب والحماسة الوطنية ، الأمر الذى أدى إلى كارثة سنة ١٩١٤ . ويوضح الاستاذ هـ. مورس ستيفانز Stephense مسئولية المؤرخين عن هذا الشـأن فيقول : الويل لنا نحن المؤرخين المحترفين ودارسى التاريخ ومدرسيه المحترفين . ويل لنا إذا لم نر النتيجة المفزعة للتعصب للقومية وقد كتبت بالدماء وسط مظاهر الحضارة الأوربية المتداعية . وهذه النتيجة هى ما تمخضت عنه كتب التاريخ الوطنى التى كتبها نفر من أكثر المؤرخين بلاغة فى القرن التاسع عشر .

وربما هان الأمر لو اقتصر عمل مؤرخين وطنيين أمثال تريتشك ، وميشليه ، قرود وبانكروفت ، لكن هناك مؤرخون بسطاء من الدرجة الثالثة فاضت كتبهم التى وضعوها لأغراض الدراسة بالحقد والكراهية ، ذلك أن هذا النفر من المؤرخين حاكوا أساتذتهم الكبار دون أن تكون لديهم نفس فضائلهم . وتتضح طبيعة كتاباتهم وتأثيرها على الجيل الماضى مما كتبه شارل التشول Altschul ، والآنسة بيسى ل. بيرسPierce بالنسبة للولايات المتحدة ، والأستاذ ج.ف. سكوت بالنسبة لفرنسا وألمانيا . أما انجلترا فإنها لم تكن أقل من هذه الدول نشاطا فى ذلك المجال ، إذ ترتب على قيام الحكم المستبد فى كل البلدان الفاشستية والشيوعية ومجىء الحرب العالمية الثانية أن عادت النغمة القديمة والتحيز والتعصب للوطنية إلى انجلترا على نطاق لم يسبق له مثيل فى العصور الحديثة .

التاريخ الكنسى

وأخيرا فإنه لا ينبغى ألا تفوتنا الإشارة إلى أن الحماسة لجمع المصادر التاريخية لم تقتصر على مصادر التاريخ العلمانى بل شملت أيضا مصادر التاريخ الكنسى . وبنفس الطريقة التى بدأها دوشزن فى جمع مصادر التاريخ القومى فى القرن السابع عشر بدأت فى نفس الفترة جهود منظمة لجمع مصادر التاريخ الكنسى ومازالت هناك جهود تبذل فى هذا السبيل حتى الوقت الحاضر . وكان أول تجميع كامل لكتابات آباء الكنيسة من عمل جاك بن Jacques Migne الذى أصدر مجموعة فى ٣٨٢ مجلدا بين سنتى ١٨٤١ ، ١٨٦٤ وتشمل الكثير من مصادر تاريخ الكنيستين الشرقية

والغربية . على أن عمله هذا كان مثل كتاب بانكروفت « تاريخ الدول الباسفيكية » مشروع ناشر أكثر منه مشروع علاّمة ومع ذلك ظلت له قيمته العظيمة لدارس التاريخ الكنسى . ولكن نجم عن فشل ميجن فى استخدام أفضل المصادر والنصوص إلى وجود محاولة أفضل لتجميع الكتابات الدينية . من ذلك أن أكاديمية فينا أخذت منذ سنة ١٨٦٦ فى نشر مجموعات جديدة لكتابات آباء الكنيسة الغربية . وفى سنة ١٨٩٧ أخذت أكاديمية برلين فى نشر طبعة من كتابات آباء الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية . أما عملية جمع المادة الخاصة بحياة القديسين وأعمالهم فقد بدأت فى منتصف القرن السابع عشر على يد بولاند ومازالت مستمرة حتى الآن . كذلك ظهر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر كتاب جمع فيه مؤلفاه (لاب ، وكوسارت) قرارات المجامع الكنسية ، وقام اتين بالوز باتمامه فى سنة ١٧٨٣ . وفى سنة ١٦٨٥ بدأ حنا هاردوين Hardouin فى جمع مجموعة أخرى . وفى منتصف القرن الثامن عشر أنتج جبان مانسى Mansi Gian ما يعتبر أكمل ما جمع عن مجامع الكنيسة وكان عنوانه « المجموعة الجديدة لقرارات المجامع المقدسة » . وقد صدر فى واحد وثلاثين جزءا . كذلك صدرت طبعة جديدة منه فى ستة وخمسين جزءا فى باريس سنة ١٩٢٤ . وفى نفس الوقت الذى كان مانسى يجمع مادته عن المجامع الكنسية ، أصدر ميناردى كتابه عن المراسيم البابوية . وفى النصف الثانى من القرن ١٩ أخرج فيليب جافيه أوغسط بوتاست كتابا علميا يحوى عددا كبيرا من الوثائق البابوية حتى سنة ١٣٠٤ وقد أكمل بولس كيهر Paul Kehr حديثا مجموعة مشابهة لنفس هذه المادة .

وخلاصة القول إن جمع مصادر تاريخ الكنيسة تم على وجه لا يقل كمالا عن جمع مصادر التاريخ العلمانى فى أوربا . وكانت الرغبة فى تمجيد الكنيسة دافعا لدى المؤرخين الدينيين مثلما كانت الرغبة فى تمجيد القومية دافعا لدى المؤرخين العلمانيين . فالكاردينال هبرجنرونر ٣١٠٠فقلقفحقاقف كتب عن الكنيسة الكاثوليكية بنفس الشعور الذى كتب به نريتشك عن بروسيا والأمة الألمانية بوصفه أحد أبنائها . وكان أن جمعت دائرة المعارف الكاثولبكبة ، الآراء الرسمية للكنيسة الكاثوليكية فيما يختص بالمسائل التاريخية . أما البروتستانت فكانت لهم كتابات مماثلة ، وقد سبق أن أشرنا إلى كتاباتهم من قبل . وثمة كاتب من كتابهم هو ميرل دوبنيه D'Aubigne لم تكن حماسته فيما كتب أقل من أى كاتب كاثوليكى ذكرناه آنفا . لقد أبدى العلامه دافيد شاف Schaff تحيزا واضحا إلى جانب البروتستانت . هذا إلى أن وجهة النظر البروتسنانتية تمثلت فى دائرة معارف شان ــ هيرزج .

المراجع :

A HISTORY OF HISTORICAL WRITING

SELECTED REFERENCES

C. J. H. Hayes, *The Historical Evolution of Modern Nationalism.* Long and Smith, 1931.

Fueter, *Histoire de L'historiographie moderne,* pp. 608, 629 - 87.

Gooch, *History and Historians in the Nineteenth Century,* chaps. V, viii, Xi - Xv, Xvii - Xviii, XXi - XXii.

Michael Kraus, *A History of American History.* Farrar and Rinehart, 1938.

the Writing of American History, chaps. iv - vi, X. University of Oklahoma press, 1953.

H. H. Bellot, *American History and Historians.* University of Oklahoma Press, 1952.

Harvey Wish, *The American Historian.* Oxford University Press, 1960.

David Levin, *History as Romantic Art.* Stanford University press, 1959.

R. R. Ergang, *Herder and the Foundations of German Nationalism-* . Colombia- bia University Press, 1931.

Milton Berman, *John Fiske: The Evuolution of a popularizer.* Harvard Univer sity Press, 1961.

p. M. Hammer, ed., *A Guide to Archives and Manuscripts in the United States.* Yale Univefsity press, 1961.

D. H. Thomas and L. M. Case, *Guide to the Archiues of Western Europe.* University of Pennsylvania press, 1959.

Thomas pressly, *Americans Interprent Their Cuirl War.* Princeton University Press, 1954.

D. R. Van Tassel, *Recording American's Past, 1607 - 1884.* University of chicago press, 1960.

peardon, *The Transition in English Historical Writing.*

Wegele,*Geschichte der deutschen Historiographie,*Books IV - V.
Antoine Guilland, Modern Germany and Her Historians.London, 1915.
Gustav Wolf, Dietrich Schafer and Hans Delbruck,*Nationale Ziele der deut schen Geschichtsschreibung seit der franzosischen Revolution-*.Gotha, 1918.
Louis Halphen, L Histoire en France depuis cent ans.Paris, 1914.
Benedetto croce,*Storia della storiographia italiana nel seclo decimo nono-*.Bari, 1921. 2 vols.
P. J. Blok,*Geschichsschreibung in Holland.*Leiden, 1924.
J. F. Jameson,*Historical Writing in America*Houghton, Mifflin, 1891.
J. S. Bassett,*The Middle Group of American Historians.*Macmillan, 1917.
Thompson, History of Historical Writing, Vol. II, chaps. Xliii Xlv, Xlviii.
T.Hutchinson ed.,The Marcus W. Jernegan Essays in American Histori- ography.University of Chicago Press, 1937.
John Fiske,*American Political Ideals.*Harper, 1885.
Wilgus, Histories and Historians of Hispanic - America.
B. L. Pierce,*Civic Attitudes in American School Textbooks.*University of Chicago Press, 1930.
J. F. Scott,*Patriots in the Making.*Appleton, 1916.
*The Menace of Nationalism in Education.*Macmillan, 1926.
Bell and Morgan,*The Great Historians.*

الفصل العاشر

نشأة المدرسة التاريخية الناقدة

أوضح الأستاذ جورج بيبودى جوخ فى بحثه الذى اتسم بعمق الدراسة وسعة الاطلاع والخاص بتطور الكتابة التاريخية فى القرن التاسع عشر أنه كانت هناك أربعة عوائق اعترضت تقدم علم التاريخ هى :

١ - فكرة أن التاريخ يأتى وليد الأحداث والكوارث Catastrophic theory of historical causation والنظرة إلى العصور الوسطى باحتقار وازدراء شديدين وهى النظرة التى حمل لواءها رجال المدرسة العقلانية .

٢ - عدم وجود تجميع جاهز للمصادر الأصلية وعدم وجود تنظيم لمادة دور الحفظ .

٣ - عدم اتباع المناهج الناقدة عند تداول المادة التاريخية .

٤ - عدم توافر التعليم المنتظم والكفء سواء بالنسبة لموضوعات التاريخ أو مناهجه .

وقد سبق لنا أن أوضحنا كيف صحح رجال المدرسة الرومانسية بعض مثالب المدرسة التعقلية وذلك حين اصروا على أن التطور التاريخى خاضع لسنة التطور والاستمرار وحين نظروا إلى العصور الوسطى بوصفها من أخصب عصور البحث التاريخى . كذلك سبق لنا أن أوضحنا كيف أدى الاعتزاز بالقومية اعتزازاً فياضا إلى حصيلة دسمة من مادة المصادر التاريخية وذلك فى جميع الأمم الحديثة الكبرى . وبقى الآن أن نتبع نشأة المدرسة الناقدة فى مجال التاريخ وأن نوضح كيف انتشرت المناهج العلمية وظلت على الدوام مما ينبغى أن يتحلى به رجل التاريخ المحترف وأستاذه .

وقد أوضحنا فى فصول سابقة كيف بدأت المناهج النافدة بدايه مشرقه وهو الأمر الذى جاء عرضا خلال نشاط المدرسة الإنسانية . وكان مثال ذلك ما تضمنته أعمال بلونـدس ، بيتوس ريناتوس ، فادبانوس ، زورنتا . ثم كان أن تعرقلت حركه هذه المناهج النافده وضاق النطاق من حولها خلال الجدل الدينى الضعيف الذى صحب حركه الإصلاح الدينى والحركات المضاده لها . ومع ذلك فإنه مع بداية القرن الثامن عشر ، بدأ نطاق المنازعات الدينية يضيق وأصبح من الممكن مرة ثانية إلى حد ما ان يعود الاتجاه إلى اتباع الموضوعية فى الكتابه التاريخية وأن يبدأ من جديد البحث المتزن النزيه عن الحقيقة التاريخية .

لقد مر المنهج العلمى للتاريخ عبر مرحلتين طبيعيتين وعاديتين : الأولى نشأة العلوم المساعده مثل العلوم السياسية ، علم تقويم التاريخ ، علم المخطوطات ، علم النقوش ، علم المعاجم ، وكلها علوم من شأنها أن تساعد المؤرخ على الوقوف على مدى ما فى الوثائق من أصالة . وأما المرحلة الثانية فهى تمضى أبعد من مجرد الوقوف عند أصالة الوثيقه لتبحث حول صاحبها ومدى الاعتماد عليه كشاهد لحدث أو حقيقة تاريخية .

وظلت الكتابات التاريخية السابقة موضع تقدير كبير ، حتى خلال الأيام الأولى لنشأة هذه المدرسة الناقدة من ذلك مثلا إن كتابات دى بولى De Pouilly ودنكر تحوى نقدا لا يخلو من الإطراء على الكتابة التاريخية عن أحداث الشرق القديم . واهتم جروت Grote وآخرون غيره بدراسة عمل كبار المؤرخين الإغريق . وتناول دى بولى ، وبيريزنيوس ، بوفر Beaufort ، نيبهر Neibuhr دراسة مؤرخى روما أما الرهبان من أتباع القديس سانت مور ورجال الدين الجزويت البلجيكيين المعروفين باسم البولانديين وموشيم وتليمونت ، فقد تناولوا جميعا مؤرخى الكنيسة . ومن جولداست إلى ويتز ، ومن فوريل إلى فوسيل ومن شارون تبرنر إلى ستبس نجد اهتماما بنقد أعمال مؤرخى العصور الوسطى . أما فون رانكه فقد ذاع صيته واشتهر نتيجه لتحليله الرفيع لمؤرخى المدرسة الإنسانية خاصه فيلانى ، وميكافللى ، وجويكاردينى . وأما فوريل Fauriel ، موراتورى وليبنتز ومحررو الموسوعات الكبرى فقد تناولوا دراسه مصادر التاريخ القومى . وهكذا نجد نشاط علماء المدرسة الجديده وقد امتد إلى كل مجال .

أما أول الخطوات الهامة التى خطاها علم التاريخ ليصبح علماً بالمعنى الحديث فجاءت أساسا فى عمل تلك الفئة من الرهبان البندكتيين المعروفين باسم رجال القديس سانت مور وهم الذين

نشطوا فى الدور الأول من مراحل النقد التاريخى فى تجميع مصادر التاريخ الفرنسى . ولم يكن قيام هؤلاء الرهبان بذلك العمل لأنهم منظمة عسكرية وهبت نفسها للدفاع عن الكاثوليكية وإنما جاء سبقهم فى المدرسة الناقدة لأنهم امتازوا بما امتاز به العلماء العلمانيون من عدم الالتزام بتمجيد مدينة معينة أو إقليم أو أسرة أو بيت بذاته . وفى مكتبة ديرهم الهادىء رسموا الخطوط العريضة لما ينبغى أن يكون عليه المؤرخ الحديث وبدءوا التطبيق .

وكان رائد هؤلاء العلماء المؤرخين المنتمين لهذا الدير دوم حنا مابيلون (١٦٣٢ـ١٧٠٧) الذى وضع مع لوك داشرى Luc d'Achery أسس علم الوثائق السياسية أو الطريقة الناقدة للتحقق من صحة الوثائق . وفى سنة ١٦٧٥ أعلن المؤرخ اليسوعى دانيل فون بابيروش Daniel Von Papebroch أن معظم الوثائق التى اعتمد عليها رجال القديس مور لا قيمة لها . وكانت نتيجة ذلك أن وهب مابيلون جهده فى السنوات التالية للرد على هذا الاتهام . وفى سنة ١٦٨١ تمكن مابيلون من تفنيد حجج خصمه بفضل ما حواه بحثه الذى سماه « الوثائق التاريخية » وظل هذا البحث هو الحجة فى موضوعه حتى حلت محله حديثا تلك الأبحاث التى كتبها سيكل Sickel وفيكر Ficker ، جيرى Giry .

أما أسس علمى المخطوطات والآثار فقد وضعها الأب برنارد مونتفاكون Don Bernard Montfaucon (١٦٥٥ـ١٧٤١) وذلك فى كتابه « علم النسخ عند اليونانيين » وكتابه « الآثار كما توضحها وتشرحها الأرقام» . وعلى الرغم من أن شارل دى فرزن دى كانج Charles du Fresne du Cange كان رجلا علمانيا فإنه وضع أسس علم المعاجم التاريخية وذلك فى معجمه الذى أصدره سنة ١٦٧٨ . كما كان للرهبان البندكتيين دورهم فى هذه الناحية فقام الأب كاربنتير Carpentier سنة ١٦٧٨ فى مراجعة وإطالة عمل (دى كانج) . وأخيرا فإنه بفضل العمل المشترك الذى بدأه دانتين Dantine ، ديران Durand وأتمه سنة ١٧٩٠ دوم كلمنت وظهر بعنوان « فن التحقق من تواريخ الأحداث » غدت عملية التقويم التاريخى تقوم على أساس علمى سليم يختلف عما كانت عليه طريقة أورزيوس وجيروم . أما كلمنت فقد مضى أبعد من سكاليجر فى تحليله المنتظم لعملية تأريخ الأحداث تأريخا منظما . ولم يقصر الرهبان البندكتيون جهدهم على تطوير مناهج البحث للبلوغ بها إلى مرحلة الكمال ولكنهم التزموا بهذه المناهج فيما أخرجوه من كتب عديدة وخاصة تلك المجموعات الخاصة بالتاريخ الكنسى والتاريخ القومى التى أشرنا إليها فى مكان آخر من هذا الكتاب .

وليس من المبالغة في شيء أن نذكر لرهبان سانت مور من فضل على تقدم المنهج العلمي في كتابة التاريخ إذ لم تكن هناك قبلهم أية محاولة للإشارة إلى مراجع البحث وإذا وجدت إشارةٌ فإنها كانت من النوع العقيم الذي يربك القارىء ولا يفيده . ولم يكن من اليسير على القارىء الرجوع إلى المادة الأصلية للتحقق منها ، كذلك لم تحدث محاولات لتحسين الأسلوب عن طريق ادخال تعديل أو تغيير على مادة الوثيقة . ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى ليبنتز . ولكنه على عهد رهبان سانت مور صارت الوثائق تفحص للتعرف على مدى صحة مادتها وتم تناول المادة بدقة بالغة كما صار من المتبع إحالة القارىء إلى المراجع المختلفة التي استخدموها بدقة متناهية .

وعلى الرغم من ذلك وحتى لا نكون مبالغين فيما قلناه عن جهد هؤلاء الباحثين من رجال سانت مور ، فإنه يمكن القول إنهم أقرب إلى تيماوس منهم إلى فون رانكه أوجارنر . لقد اقتصر معظم جهدهم في النقد على النقد الخارجي أي فحص مدى صحة الوثيقة وأصالتها وعدم تزويرها . ولكنهم كانوا دون مدرسة فولتير في فحص مدى صدق المراجع المعاصرة ، وكانوا يعتبرون المادة التي يحتويها أي مصدر أصلي وكأنها حقيقة مسلم بها غير قابلة للطعن هذا إلى أنه لم يكن لديهم شيء من نظرة الرومانسيين تجاه التطور الثقافي فكانوا أقرب إلى علماء التاريخ القدامى منهم إلى المؤرخين الملتزمين بالمنهج العلمي في العصر الحديث . ثم إن هؤلاء الباحثين لم يتشككوا في مادة التاريخ الكنسي وإنما كان يحدد عملهم روح الورع التي تدفعهم إلى البحث عن الحقائق التي تخدم قضايا الكنيسة . وهكذا فإنهم خدموا بمسلكهم معاصريهم من المتعقلين ومن جاءوا بعدهم لأنهم أمدوهم بالمزيد من المادة والمعرفة التي مكنت أولئك المتعقلين وغيرهم من مواجهة رجال الدين واقتلاع نفوذهم .

وخير من يمثل المنهج البندكتي هو أحد أتباع المذهب الينسيني واسمه لويس سبستيان دى تيلمونت (١٦٣٧ـ١٦٩٨) وقد أنتج كتابين مرموقين عن الكنيسة والامبراطورية الرومانية حتى سنة ٥١٥ م . ذلك أنه توخى الموضوعية في عمله إلى حد كبير ، وجمع بصورة منمقة ما اختاره من مصادر راعى أن يكون فيها تنسيق وبعد عن التضارب حتى جاءت أعماله واحدة من أحدث الجهود في الدراسة الناقدة للمصادر الرئيسية بكل فترة . وكان هذا العمل الذي قام به تيلمونت تدعيما كبيرا للمسيحية ، كما كانت أبحاثه إحدى المصادر الرئيسية التي استخدمها المؤرخ الشهير جيبون المعروف بدقته وتشككه .

ومن أوائل الكتب الألمانية التى تعتبر مثلا للمناهج الناقدة الجديدة ، كتاب عن تاريخ القانون الألمانى كتبه الطبيب والعلامة الألمانى المبدع هرمان كونرنج Conring (١٦٠٦ـ١٦٨١) وأسماه (بحث تاريخى عن أصول القانون الرومانى) ويرى كثيرون أن هذا الكتاب هو البداية الحقيقية للدراسة العلمية لأصول التشريع الألمانى . وهناك كتاب آخر كتبه الفيلسوف الألمانى جوتفريد ويلهلم ليبنتز (١٦٤٦ـ١٧١٦) أسماه (حوليات برونزويك عن الإمبراطورية الغربية) وتناول فيها تاريخ الجلفيين . وقد نشر ليبنتز مقالا سنة ١٦٧٩ أى قبل أن ينشر مابيلون آراءه الناقدة بعامين ـ ضمنه نفس الأسس التى سبق أن وضعها رهبان سانت مور . ولقيت آراء ليبنتز استجابة على نطاق واسع لأول مرة فى الكتاب الذى أصدره يوحنا يعقوب ماسكوف Mascov (١٦٨٩ـ١٧٦١) واسمه « تاريخ الجرمان فى العصر الميروفنجى » ذلك أن يوحنا استخدم مراجعه استخداما ناقدا ورفض الأخذ بالأساطير الدارجة ، ثم اختتم بحثه التاريخى بدراسة ناقدة عن امبراطورية العصور الوسطى . ويعتبر كتابه خير تاريخ عن الجرمان الأوائل ظهر قبل بحث شميدت .

ثم كان أن تمت خطوة أبعد من ذلك فى مجال النقد الجوهرى لمادة الوثيقة نفسها ، وهو الأمر الذى تم على يد الإيطالى الدؤوب لودفيكو موراتورى الذى قطع شوطا كبيرا فى مجال بلوغ النهج العلمى حتى فاق أستاذه مابيلون . ذلك أنه انتقد مبدأ وجود الخوارق شأنه شأن بلوندوس ، ولكنه مضى أبعد مما وصل إليه الرهبان البندكيتيون وهم الذين نظروا إلى المصادر المعاصرة للحدث وكأنها حقيقة منزهة عن الخطأ أما رابين تويراس Thoyras فقد جمع بين مناهج مابيلون ، مورتوراى فاتصف بنظرة رومانسية بسيطة بالنسبة للتطور التاريخى ، وظل كتابه (تاريخ إنجلترا) المصدر الرئيسى فى القارة الأوربية بأسرها عن تاريخ إنجلترا فى القرن السابع عشر . ثم إنه شارك مونتسكييه رأيه الخاص بأن الحريات الإنجليزية إنما نبعت من الغابات والأحراش الجرمانية . وأخيرا صدر أول كتاب متكامل يتصف بغزارة المادة عن التاريخ العالمى ، هو ذلك الإنتاج المشترك المسمى « التاريخ العالمى » الذى أنتجه بعض العلماء الإنجليز وهم كامبل ، سال Sale ، سوينتون ، بور ، بزالمانزر Psalmanazer .

وعلى الرغم من أن هذا العمل جاء مصطبغا بالصبغة الدينية ، فإنه جدير بما وصفه به فبوتر ــ وهو حجة فى النقد ــ اذ قال عنه « إنه كتاب جدير بأن يحمل لقب أول كتاب عن تاريخ العالم » .

وإذا كان ماريانوس ، موارتورى ، توبراس قد أبدوا على الأقل نظرة أولية فاحصة فى مدى صحة المصادر المعاصرة ، فإن الآباء اليسوعيين هم الذين بدءوا نقد الوثائق سواء فى جوهرها أو فى مادتها ، ذلك أنهم اضطروا إزاء هجوم البروتستانت عليهم إلى فحص مصادر التاريخ الكنسى لمعرفة ما إذا كانت الأساطير والأشياء المأثورة عن القدماء تستطيع أن تتصدى للاختبار العلمى الدقيق . وكان هدفهم من ذلك هو الحد من حدة النقد الهدام الذى تعرضت له الكنيسة والذى حمل لواءه المؤرخون البروتستانت فسخروا له كثيراً من تلك الأساطير الخاصة بماضى الكاثوليك وهى أساطير ليس من السهل تقبلها أو تصديقها . وخير نموذج لجهد اليسوعيين فى ذلك السبيل هو كتاب « العمل المقدس » والذى بدأه اليسوعيون البلجيك تحت إشراف بولاند Bolland سنة ١٦٤٣ ، وفيه رتبت المصادر المتعلقة بحياة القديسين طبقا لتاريخ كل مصدر ومدى صحته . ثم استطاع بطرس بول Pierre Baule (١٦٤٣-١٧٠٦) أن يمضى بالحركة الناقدة فى صورة أسلم وأشمل ظهرت فى كتابه « المعجم التاريخى الناقد » فضلا عما كتبه من نقد لتاريخ مامبورج عن مذهب كالفن . والواقع أن بول كان يجد لذة خاصة فى توضيح التناقض العميق بين وجهات نظر وآراء المصادر المعاصرة فضلا عن أنه لم يتردد فى أن يطبق منهجه هذا عند تناوله للتاريخ الكنسى . وهكذا حطم بول فكرة أن هناك ما يمكن تسميته بالتاريخ المقدس . أما الإنجليزى الربوبى كونرز ميدلتون Conyers Middleton (١٦٨٣-١٧٥٠) فكان من اكبر من أسهموا فى التطاول على ما جاء به رجال القديس مور من مثاليات . ذلك أنه أكد فى كتبه « مقدمة بحث » « استفتاء حر » عدم الاعتماد على مارواه آباء الكنيسة الأوائل عن نشأة المسيحية . وأكد أن ذلك العصر المسيحى الأول كان عصر اختلاق الأكاذيب والتلفيق .

أما الكتابات التاريخية القديمة فقد لقيت على عهد الحركة الإنسانية ما لقيه التاريخ الدينى ، إذ سبق أن رأينا كيف كان فالا يدقق ويبحث عن مدى صحة ما جاء به ليفى . على أن أول باحث ناقد عن الآثار الرومانية كان كارل سونيو Carlo Sigonio الشهير بسونيوس Signoius (١٥٢٤-١٥٨٤) إذ أنه فى حقيقة الأمر يحظى بنفس مكانة سكاليجر ، كاسوبون . ذلك أنه تناول كل جوانب تاريخ الرومان وقوانينهم وآثارهم ودرسها دراسة قائمة على التشكك فيما سبق ذكره عن هذه النواحى ، بحيث انه تعمق أكثر من بلوندوس . أما الهولندى يعقوب فوربرك Vourbrock المعروف بريزنيوس Perizonius (١٦٥١-١٧١٥) مؤلف كتاب (قواعد اللغة اللاتينية) وكتاب (الروايات التاريخية) فقد قام بدراسة ناقدة لمصادر التاريخ الرومانى المبكر

وتحدى القطع بصحتها وصدقها . وثمة مؤرخ من أصحاب النظرة المثالية كان أكثر قسوة فى نقده فهو المؤرخ لويس ليفسك دى بولى (١٦٩٧-١٧٥٠) الذى تناول المؤرخين فى العصر الرومانى المبكر بالنقد اللاذع ، فكان أكثر تجريحا لهم من كل من بوفرت وينبور فيما بعد . ذلك أنه نادى بعدم إمكان الاعتماد على ماسبقت صياغته عن تاريخ روما فى دوره الأول ، كما هاجم صحة المصادر التقليدية عن التاريخ الأشورى . ولم تلبث ان تعرضت دراسة التاريخ الرومانى فى دوره الأول لنقد أكبر من الفحص الدقيق على يد لويس بوفورت (ت ١٧٩٥) وذلك فى كتابه (أبحاث عن التشكك فى صحة التاريخ الرومانى فى القرون الأولى) . ذلك أنه اثبت فى اسهاب مدى التناقض بين المصادر الكبرى الخاصة بالعصر الرومانى الأول وخلص إلى أن ذلك يوضح أن تاريخ روما قبل القرن الثالث قبل الميلاد يعتمد على الأساطير . من هذا يبدو أن عمل (بوفر) يعتبر مناقضا لحركة الإنسانية فى منهجها وأسلوبها . ولقد تناول ينبور تاريخ روما من حيث توقف به بوفر .

أما المؤرخون الفرنسيون — من اتباع المدرسة الناقدة الجديدة . فقد التزموا بمنهجهم عند دراسة تاريخ بلادهم . ففى كتاب « تاريخ فرنسا » الذى أصدره سنة ١٧١٣ شارك جبريل دانيل Daniel مع المؤرخ ماسكوف فى نقده اللاذع للاساطير والخرافات التاريخية الخاصة بالعصر الميروفنجى . أما أبرز عضو فى المدرسة النافدة فى أيامها الأولى بل أقدر رجال هذه المدرسة قبل بنيبور فهو حنابابتست ديبو Jean Baptiste Dubos (١٦٧٢-١٧٤٠) صاحب كتاب « نقد لتاريخ قيام الملكية الفرنسية فى غاليا » وهو الكتاب الذى يعبر عن أول محاولة للاتجاه بالأساليب الناقدة الجديدة إلى دراسة النظم . ذلك أنه فحص المصادر الوثائقية للتاريخ المباشر لفرنسا فى دوره الأول دراسة موضوعية ، مثل دراسة فون رانكه ، وسبق فوريل وفوستيل دى كولانج فى القول بأن الميروفنجيين تبنوا الثقافة الرومانسية فى غاليا ولم يحلوا محلها . كذلك سبق أصحاب المذهب الرومانسى حين أشار إلى أن هناك تطورا تدريجيا وأصيلا للحضارة . وجاءت نظرته هذه أرقى بكثير من نظرة معاصريه من العقلانيين القائلين بأن تطور التاريخ رهن بما يحدث من كوارث ونكبات .

أما جوسطس موزر Justus Moser (١٧٢٥-١٨٠٧) فيعتبره كثيرون أول مؤرخ للتاريخ الدستورى ، بسبب ما كشف النقاب عنه بالنسبة للأنظمة السياسية وتوضيحه أن تطورها مرتبط بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية السائدة فى الدولة على أن يوحنا ستيفن بوتر Putter (١٧٢٥-١٨٠٧) كان أكثر كفاءة وهو خير من أخرج دراسة تاريخية متكاملة عن القانون الألمانى

العام والنظم الإمبراطورية فى تحليل اتسم بالدقة والمهارة الفائقة فى تحديد تطور هذا القانون وتلك النظم . أما بارثولد جورج بنيبور (١٧٧٦ـ١٨٣١) وهو تلميذ موزر فيعتبر أب الكتابة التاريخية الحديثة .

وإذا ما أردنا أن نخلص بشىء مما سبق لنا ذكره ، فإننا نستطيع القول بأنه ما من شخصية ما أو مدرسة من المدارس استطاعت أن تسبق ينبور فى خلق علم التاريخ الحديث . كان ينبور هذا مواطنا دانمركيا استدعاه هامبولدت إلى جامعة برلين سنة ١٨١٠ حيث تكشفت مواهبه فصار خير من تجمعت عنده القدرة ليكون بوتقة جامعة لكل السابقين من أصحاب المذاهب الناقدة والتقدمية . ذلك أنه شابه فى عمله أعمال برونزيوس ، دى بولى ، بوفر فى نقده وتشككه فى صحة مصادر التاريخ الرومانى المبكر ، ومن ناحية أخرى فإنه تأثر بالروح الرومانسية لسافينى فى دراسته لتطور الأنظمة التشريعية والسياسية ، كما سار على نهج موزر فى تحليله المتعمق لتطور هذه الأنظمة . وأخيرا فإنه طبق على مصادر التاريخ الرومانى المبكر المناهج الناقدة التى سبق لولف تطبيقها فى دراسته لمعرفة أصول أشعار هومر . هكذا جاء كتاب ينبور « التاريخ الرومانى » أول كتاب يجمع بين أحسن المناهج الناقدة وبين الأسس البناءة فى دراسة تاريخ النظم ، الأمر الذى جعل من نيبهر الملهم الأول لخلفائه العظام وخاصة فون رانكه وتيودور مومسن .

وقبل أن نتناول الثورة التى أدخلها فون رانكه على كتابة التاريخ علينا أن نتوقف قليلا لنشير إلى عملين كبيرين قدمتهما المدرسة الناقدة لعلم التاريخ ومنهجه . أما العمل الأول فهو ما قام به العالم الألمانى يوحنا مارتين خالديتى من أتباع بودان صاحب كتاب (طريقة لتفهم التاريخ فى سهولة) وعلى نمط هذا الكتاب جاء كتاب خالديتى Chaldini (التاريخ العام) الذى صدر سنة ١٧٥٢ وقد تناول فيه بعض المسائل بطريق ذكية ناقدة مثل خصائص الحجة التاريخية والمادة التاريخية ، دور الشخصيات ، الفروض والسببية فى التاريخ ، والتأويلات التاريخية . وأما العمل الثانى الذى له نفس الأهمية فينسب إلى يعقوب دانيل وجلين Weglin (١٧٢١ـ١٧٩١) صاحب كتاب (تخطيط عقلانى للتاريخ العالمى) Rational Plan for Universal history وفى هذا الكتاب فحص يعقوب وجلين المشاكل الخاصة بالمؤرخ مثل نقده للمراجع تبويب حقائق المادة وتنظيمها ، ومشاكل الجمع بين أحداث التاريخ العالمى وطبيعة التطور الاجتماعى والثقافى . ثم طبق وجلين أخيرا هذه النظريات على عمله الكبير الذى أسماه « تاريخ أوربا العالمى » .

ليوبولدفون رانكه والمدرسة الألمانية

بدأ اهتمام فون رانكه (١٧٩٥ ــ ١٨٨٦) بالتاريخ عند دراسته للأدب الكلاسيكى ولآراء المدرسة الرومانسية فضلا عن قراءاته لأعمال نيبهر . ثم بدأ نشاطه العلمى كمؤرخ عندما كشف عن التناقض الكبير بين ما رددته المصادر المعاصرة فى القرن الخامس عشر عن تاريخ إيطاليا فى ذلك القرن . وكان أن نشر سنة ١٨٢١ كتابه «تاريخ الشعوب الرومانية والجرمانية ١٤٩٤ ـ ١٥٣٥» وأبرز جزء فى هذا الكتاب هو الملحق الذى عنونه باسم (نقد كتاب التاريخ فى العصر الحديث) وفيه تناول تحليل المصادر الخاصة بالفترة التى كتب عنها ونقدها نقدا جوهريا باطنيا خلاف النقد الظاهرى الذى قام به مابيلون فى بحثه عن الوثائق التاريخية . وبعبارة أخرى فان فون رانكه أدى خدمة كبرى لمنهج البحث التاريخى وذلك بإصراره على أن المؤرخ لا ينبغى عليه أن يقف عند حد استخدام المصادر المعاصرة للفترة التى يبحثها بل عليه أن يجرى دراسة لشخصية (ميول) ونشاط وظروف صاحب هذا المصدر . ومعنى هذا أنه على المؤرخ أن يتعرف بقدر الامكان على «الجانب الشخصى» عند سرده للأحداث . هذا إلى أن فن الكتابة التاريخية عند فون رانكه يتصف بخاصتين أساسيتين الأولى هى نظرته المستقاة من الرومانسية والتى تنادى بأن لكل أمة أو عصر مجموعة من الأفكار التى تسودها والتى سماها رانكه روح العصر . والثانية هى العقيدة القائلة بأن المؤرخ ينبغى عليه أن ينظر إلى الماضى خلوا من فكر الحاضر بمعنى أنه لا يصح أن ننظر إلى الماضى بمنظار الحاضر ، وإنما على المؤرخ أن يقص أحداث الماضى كما حدثت بالفعل .

أما الأخطاء التى وقع فيها رانكه فقد حددها الكتاب الذين جاءوا من بعده فى أربعة أمور :

١ - فشله فى مناقشة المصادر الخاصة بالموضوع الذى يكتب عنه مناقشة دقيقة .

٢ - اهتمامه الرئيسى بالأحداث السياسية والشخصيات الكبرى وإهماله الجوانب الهامة الاخرى الاقتصادية والاجتماعية ، بل إنه أهمل جانبا هاما فى الناحية السياسية وهى الأنظمة .

٣ - تأييده لنظرية أن الله هو صانع التاريخ وأن القوة الإلهية هى التى توجهه .

٤ - ولاؤه الذى لا حد للوثر ولأسرة الهوهنزلرن فى بروسيا وإذا كان فون رانكه قد جال عبر التاريخ الأوربى بل التاريخ العالمى وترك اثرا مسرقا فى كل جانب من جوانبه ، فان ما قام به بالنسبة للمنهج التاريخى وتدريس التاريخ ترك أثرا خطيرا فى السطور الحديث لعلم كتابة التاريخ . أما بالنسبة للمنهج التاريخى فإن أهمية الدور الذى نهض به رانكه تكمن فى وضع أسس النقد الخاص بمادة الوثيقة وإصراره على خروج المعالجة الموضوعية الكاملة للماضى .أما الأثر الذى تركه على تدريس علم التاريخ فربما فاق الأثر السابق ، لأن فون رانكه أسس ما يعرف بالسمنار — أى حلقات البحث والدرس — مستهدفاً أن يبلغ فن التدريس لمادة التاريخ مرحلة علمية سياسية وقد بدأت حلقات البحث هذه (السمنار) على يد رانكه سنة ١٨٣٣ ولم يجعلها وقفا على المؤرخين الألمان البارزين فحسب ، بل رحب فيها بالدارسين الذين جاءوا من كل أنحاء العالم للدراسة فى تلك الحلقات التى أشرف عليها رانكه طوال نصف قرن .

وعندما تقدم العمر بفون رانكه بحيث لا يقوى على الإشراف على حلقات البحث هذه بنفس النشاط خلفه تلميذه الأول جورج وايتز ليكمل رسالة استاذه فى جامعة جوتنجن . وهكذا تم وضع أسس المدرسة التاريخية العلمية الحديثة على يد فون رانكه . ومنذ أيامه سار علم التاريخ قدما فى تطبيق المناهج النافدة وتطويرها بعد أن شاع تداولها على يد مجموعة متزايده من علماء التاريخ . ويرجع سر اتساع مجال البحث التاريخى على أسس علميه إلى الأخذ المباشر بمناهج فون رانكه ، نتيجة لأن تلامذه حاكوه بطريقة مباشرة من ناحيه ، ولتطور البحث ‍ ‍ ‍ ة البلاد مما هيأ السبيل أمام علماء التاريخ أن يتبعوا مناهج فون رانكه من ناحية أخرى .

ففى ألمانيا كان تطور المدرسة الناقده الخاصه بعلم كتابه التاريخ من عمل فون رانكه بصفه أساسيه . وظهر من بين تلاميذه كوبك Kopke، وجافيه Jaffi ، دوبز ، وفون جسبر خت Von Giesebrecht، وفون سيبل ، وعلى يديهم وفى كتاباتهم ومحاضراتهم ساعت وانتشرت مناهج أستاذهم فون رانكه . ونخص بالذكر ويتز بالذات لأنه يمكن القول أنه فاق أستاذه فون رانكه فى اتقانه ودقة بحثه . أما تيودور مومسن (١٨١٧ - ١٩٠٣) فإنه أعطى للمدرسه النافده قوه دفع جديدة مستقلة عن الدفعة التى قدمها فون رانكه . وكانت نتيجة جهده أن قلبت دراسة التاريخ الرومانى رأسا على عقب .

ومهما يكن من أمر ، فإن الرواد من تلاميذ فون رانكه كانوا : ويتز ، فون سيبل ، فون جشبرخت . ومنذ عهدهم صار المؤرخون الألمان يتبعون مناهج فون رانكه ويلتزمون بها[1] . أما هتريك جرد Henrich Gerdes وكارل هامب Karl Hampe فقد عالجا تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى كما عالج برنارد كوجلر Bernhard Kugler تاريخ الحروب الصليبية فى دقة بالغة كذلك كتب مولر بحثا يعتبر من أعظم ما كتب عن التاريخ السياسى للعالم الإسلامى وعالج روبرت دافدسون ومعه كل من فردريك فون بيزولد جورج فون بيلو Von Below عصر النهضة وحركة الإصلاح الدينى . كما تناول نفس هذه الفترات كارل براندى ، وأوتوشيل Scheel ، ويلى اندرياس ، جورج فتبر ، أدولف هوسراث Hausrath . ويعتبر هوسراث هذا خير من كتبوا عن سيرة مارتن لوثر وحياته . أما كتاب مورتزريتر Ritter عن الحركة المضادة للاصلاح الدينى وحرب الثلاثين سنة فيعتبر عملاً نموذجيا عن تلك الأحداث . وثمة عمل رائع يشبه سابقه هو ما قام به برنهارد اروماند سدورفر Bernhard Erdmannsdorffer وتناول فيه الفترة ما بين ١٦٤٨ - ١٧٤٠ م .

أما الأعمال التى قام بها كل من هانز بروتز ، رينولد كوسر Reinhoid Koser ، أوتو هينتز عن تاريخ بروسيا ، فانها تبين مدى التقدم الذى طرأ على البحث التاريخى والأهمية التى صارت للأسلوب العلمى منذ درويسن . وعن حياة فردريك الأكبر أخرج كوسر أحسن التراجم لهذه الشخصية العظيمة . كذلك نجح كوسر Koser رغم حبه لفردريك فى أن يزيل الهالة التى أضفاها عليه كل من كارليل ودرويسن . أما أيوجين جوجليا فقد كتبت عن ماريا تيريزا ، فى حين تناول كارل فون هيجل الفترة منذ فردريك حتى نابليون بالبحث التاريخى .

أما أعظم الدراسات التاريخية العامة عن ألمانيا فى القرن التاسع عشر فهى الفترة التى نهض بها البرت وهل Albert Wehl. أما ويلهلم اونكن ، ماكس لهمان ، فردريك مينك Meinecke،

(١) فى بقية هذا الفصل لن نفيض فى ذكر تواريخ الكتب او المؤلفين اقتصادا فى المسافة ومن يريد الإفاضة يمكنه الرجوع إلى الكتاب المسمى باسم (A Guide to Historical Literature ألفه G. M. Putcher ومعه W. H. Allison وآخرون (ماكيلان ١٩٣١) .
وقد صدرت طبعة جديدة على يد G. F. Howe صدرت سنة ١٩٦١ (المؤلف) .

هانزدلبروك Hans Delbruck، جرهارد ريتر فقد تناولوا حرب التحرير وحركات الإصلاح التى شهدتها كل من مفاطعتى شتين وهاردنبرج . ويعتبر ريتر واحدا من أوسع المؤرخين الألمان اطلاعا وأغزرهم معرفة . أما الفترة التالية من تاريخ ألمانيا حتى سنة ١٨٧٠ فقد عالجها كل من ايرخ ماركس Erich Marcks ارنولد ميار Meyer ، هرمان اونكن Oncken . وكتب فيت فالنتين أحسن البحوث عن ثورة ١٨٤٨ . وهناك كتابات عديدة عن بسمارك والصراع من أجل الوحدة الألمانية وتكوين الإمبراطورية ، أهمها تلك التى كتبها وليم موررنبرخر Maurenbrecher، ويلهم أونكن اريخ براندنبرج ، جوهان زيكورش ، ماكس لينز ، اوتو بيكر ، اريخ ماركس Erich Marcks ارنخ ايك Erich Eyck.

أما أعظم التراجم عن بسمارك فهى التى وضعها ماركس وايك ارنولد ماير Meyer . ويعتبر ما كتبه ايك نقدا جارحا من وجهة نظر رجال المذهب التحريرى . أما عن الفتره من سنة ١٨٧٠ ـ ١٩١٤ وقد عالجها كل من جرهارد ريتر Gerhard Ritter ، هرمان اونكن ، براندنبرج ، زيكورش Ziekursch ، جوتلوب إجلهاف Gottlub Egelhaaf. أما اريخ ايك فقد كتب أحسن المؤلفات التاريخية عن جمهورية فيمارWeimar . كذلك أمدنا هانس جريم وأرفست فون سالومون بأحسن الدراسات والأحكام الأولية عن هتلر والاستراكية القومية . أما فردريك مينك Meinecke فيعتبره كثيرون أقدر مؤرخ ألمانى ظهر منذ فون رانكه وينظرون إليه بوصفه صاحب أحسن الدراسات فى مجال المذاهب السياسية . وتعتبر أبحاث فرتيز هارونج أحسن الأبحاث فى تاريخ الدستور الألمانى . ويقال نفس الشيء عن أبحاث فرنر werner سومبارت Sombartt عن الرأسمالية اذ انها عمل مرموق فى مجال التاريخ الاقتصادى . وفاق عمل هانز دلبروك كل عمل آخر فى التاريخ الحربى لألمانيا . وأما تاريخ السياسة الألمانة الخارجيه منذ عصر بسمارك حتى سنة ١٩١٤ فقد تناولها تناولا شاملا كل من اوتو بيكر ، فيت فالنتين Veit Valentin، اريخ براندنبرج . وأما عن أسباب قيام الحرب العالمية الأولى فان أحسن الأبحاث فى هذا المجال هى التى كتبها الفرد فون فجرر Von Wegerer. أما فردريك شبم فهو أعظم ناشر للدراسات التاريخية فى ألمانيا الحديثة .

وكان أن د.خل لمنهج العلمى التاريخى إلى النمسا على يد سيكل ، فيكر Ficker ، ارنيث . أما أقدر المؤرخين النمساويين المعاصرين فهو هنريخ ريتر فون سربك srbik الذى وضع ترجمة لحياة مترنخ فجاء عمله شيئا خالدا ، كما عالج السنوات الحرجة التى مهدت للحرب النمساويه

البروسية سنة ١٨٦٦ . أما الفونس دوبش Dopsch فهو واحد من أقدر المؤرخين الذين عالجوا النظم فى أيامنا هذه ، وأضاف إضافات غاية فى الابتكار والأهمية إلى التاريخ الاجتماعى لأوربا الغربية منذ الإمبراطورية الرومانية حتى عصر شارلمان . أما اوزوالد ريدلخ Oswald Redilch فكان أقدر المؤرخين النمساويين الذين كتبوا عن النمسا فى العصور الوسطى .

ثم إن المدرسة الألمانية كان لها دورها الرائد فى تزويدنا بالمعرفة عن العالم القديم . وقاد غمار ذلك ما كسلان دنكر Dunker اذ تزعم الدراسة العلمية لآثار الشرق القديم ، فى حين كان كارل ليبسيوسLepsius مؤسس علم الآثار المصرية القديمة . أما أدولف ارمان فقد كتب أحسن الأبحاث عن التاريخ الاجتماعى فى مصر فى حين تخصص هوجو فنكلر Winckler فى دراسة بلاد ما بين النهرين . على أن اعظم العلماء المتخصصين فى الآثار الشرقية كان ادوارد ماير صاحب الأبحاث الفذة عن التاريخ القديم منذ العصر الحجرى حتى ظهور المسيحية . أما اوغسط بوخ Boeckh فقد وضع أسس الدراسة العلمية للآثار الإغريقية المنقوشة . وكان أتوغريد مولر -Miil ler أول من حاول دراسة الأساطير الإغريقية دراسة علمية وذلك فى كتابه عن التاريخ الإغريقى والرومانى . وثمة أبحاث قيمة عن تاريخ اليونان كتبها أرنست كورتيوس ، إدولف هولم ، جورج بوسولت Busolt، كارل جوليوس بيلوخ Beloch، نيدكتوس نيس Benedictus Niese، اولرخ وليام اوتز ــ مولندروف Ulrich Wiliam owitz - Moellendorf، وقد كتب ادوارد زيلر عن الفلسفة الإغريقية فى حين كتب جومبرز Gomperz كتابا فذاً لا يدانيه كتاب آخر عن تارخ الفكر الإغريقى . كذلك كتب ويلهم كريست Christ بحثه الشامل المتقن عن الأدب الإغريقى .

كذلك كتب فون اناماشترنج Von Inama Sternegg بحثا يستحق التنويه عن التاريخ الاقتصادى عن ألمانيا فى العصور الوسطى . وكتب أوجست فورنير Fournier أحسن التراجم عن نابليون ، فى حين كتب هنريخ فريدزنج بحثا مهما عن الفترة منذ سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٦٦ كما كتب بحثا هاما عن العلاقات بين إمبراطورية النمسا والمجر مع البلقان . أما عن إمبراطورية النمسا والمجر منذ ١٨٤٨ ـ ١٨٦٧ فقد تناولها بالبحث يوسف ريدلخ . وعالج الفرد بريبرام Pribram. لودفيج بيتنر Ludvig Bittner، هانز أوبزبرجر Hans uebersbergerالتطورات السياسية السابقة على حرب سنة ١٩١٤ . وكتب الفونس هوبر ، وهوجوهانتش Hantsch أعظم الأعمال التاريخية عن النمسا . أما هانز فون زويدنك شوندنهرست - Hans von Zwiedeneck Sudenhorst فكتب بحثا من أعظم الأبحاث عن ألمانيا فى القرن التاسع عشر .

أما أحسن الأبحاث التى تعبر عن المدرسة الألمانية بمنهجها التقلبدى ، فهو العمل المشترك الذى أشرف عليه ويلهلم اونكن ، وكذلك الكتاب الذى أشرف عليه هانز فون زويدنك سوندنهرست Sundenhorst. ونمة كتاب ينم عن غزارة علم ومعرفة والتزام بالمنهج العلمى التاريخى ، هو الكتاب الذى كتبه ارنست برينهيم وأتمه كل من جوستان ولف ، ويلهلهم بور Bauer.

وإلى جانب ما كان للمدرسة الناقدة الجديدة من نشاط فى دراسة التاريخ السياسى لألمانيا ، كان لها مجالها فى دراسة التاريخ الكنسى بعد أن تدفقت الأبحاث فى هذه الناحية منذ ظهور كتاب «مئويات ماجد برج» . وكان أن اهتم بالبحث فى هذا التاريخ الكنسى كل من يوحنا موشيم Mosheim (١٦٩٤ ـ ١٧٥٥) وأوغسط نيندر August Neander(١٧٨٩ ـ ١٨٥٠) هذا فضلا عن الأبحاث القيمة فى تاريخ الكنيسة التى كتبها كل من اميل شورر schurer ولس فرنل -wern le ، ك . م . فون ويز شاكر K. M. Vn Weizsaker، ادوارد ميار Edward Meyerوارنست فون دوبشتز Ernest Von Dobschitz، هانز فون شوبرت schubert وهؤلاء جميعا كتبوا عن أصول المسيحية . أما كارل هاس Hase وديلهم مولر فقد كتبا عن التاريخ العام للكنيسه المسيحية . هذا كله بالإضافة إلى الأبحاث التى تناولت البابوية مثل أبحات لودينج فون باسنور ، أريخ كاسبر ، يوحنا هالر ، فردريك نيوبولد ، د. ف. ستراوس D.F.Strauss، أما عن المجامع الكنيسية فقد كتب عنها كارل فون هيفل Carl Von Hefele، جوزيف هر جيزوتر Joseph Hergenrother، هوبرت جدين Hubert Jedin. هذا فى حين كتب بولس هنشيوس Paul Hinschius، اميليوس ريشر ، رودولف سوهم Rudulf Sohm عن القانون الكنسى . أما عن لوثر وعصره فهناك مؤلفات جوليوس كوستلن Julius Kostlin، وكارل هول Karl Holl. وقد كتب البرت هوكHauck عن الكنيسة الألمانية فى حين تناول أدولف هارناك المعتقدات والمذاهب ، وكتب فراز كراوس Krausفى الآثار والفنون المسيحية .

أما الدراسة العلمية للتاريخ الرومانى فكان أول من بدأها تيودور مومسن الذى يعتبر خير من قدم دراسات مبكرة فى هذا المجال . وأمدنا العلماء منذ أيامه بمزيد من المعرفة عن التاريخ الرومانى ومن هؤلاء العلماء ويلهلم ايهنIhne ، هرمان ديزو Desau ، هرمان شيلر ، فيكتور جاردتوزن -Gard thausen ، كارل نيتشه ، وارتو سيك Seek. اما بولس كروجر Kreugerفكان فى مقدمة الباحثين فى القانون الرومانى فى حين كتب لودفيج فريدلاندر فى الحياة والعادات الرومانية . وكان

جورج ويسّو من أوائل الدارسين للديانة الرومانية بينما تناول ويلهم توفل Teuffel تاريخ الأدب الرومانى . أما أدوارد ماير فيأتى على رأس قائمة العلماء الذين اهتموا بالتاريخ الرومانى بل إنه يفوق مومسن نفسه . وقد عاش ماير بين سنتى ١٨٥٥ - ١٩٣٠ واشتهر ببحثه عن تاريخ العالم القديم ، إذ اعتمد فى كتابته على المصادر الأصلية وبذل فيه جهدا ذهنيا يتناسب مع العمل الذى أقدم عليه . وربما كان ماير أعظم الأساتذة الذين برزوا فى ميدان الكتابة التاريخية أهمية حتى عصرنا هذا .

الكتابة التاريخية الناقدة فى فرنسا

تدين المدرسة التاريخية الناقدة فى فرنسا فى تطورها إلى حد ما إلى تأثير المدرسة الألمانية عليها ، وخاصة أن رواد المؤرخين الفرنسيين مثل جابريل مونود Gabriel Monod تعلموا على أيدى أساتذة مثل ويتز . على أنه يمكن القول بصفة عامة أن تقدم المدرسة التاريخية فى فرنسا يرجع فى أساسه إلى الظروف المحلية فى فرنسا ذاتها . وفى معرض المقارنة بين المؤرخين الألمان والفرنسيين يمكن مقارنة كلود فورييل بنيبهر . كان فورييل Fauriel مصدر الإلهام لجينرو ورفاقه . وإذا كان جينرو لا يقارن بفون رانكه فى غزارة بحثه أو ضخامة إنتاجه ، فإنه يفوق فى مقدرته على الربط بين الأحداث وتحليلها . وكان لجينرو فى نفس الوقت القدرة والكفاءة على النشر . ويقارن دوره فى المدرسة التاريخية فى فرنسا بدور فون رانكه فى ألمانيا ، إذ بعث جينرو الحياة فى المدرسة الفرنسية ، وإن أعوزته القدرة التى توافرت لفون رانكه فى مجال الإشراف لمدة طويلة على حلقات البحث .

أما فرانسوا مينيه Francois Mignet فيشبه المؤرخ الألمانى وتيز من حيث أنه قام بأبحاث عن أوربا فى القرن السادس عشر وعن الثورة الفرنسية . وكانت أعمال فرانسوا هذه هى البداية للكتابة التاريخية الفرنسية الحديثة لا بسبب قدرته الفائقة على النقد فحسب بل بسبب قدرته غير العادية فى تحليل القضايا وحسن عرضها بصورة واضحة مفهومة . هذا فضلا عن أن فرنسوا مينيه كان أحد العمالقة الذين دونوا الوثائق ونشروها . وجاء من بعده فوستيل دى كولانج الذى برز بالنسبة لإثارة الاهتمام بدراسة تاريخ العصور الوسطى فى فرنسا دراسة علمية مما جعل دوره فى هذا الصدد مشابها لدور ويتز فى ألمانيا . وبرغم ما أثاره فوستيل من استياء بسبب إنكاره للتيوتون من دور رئيسى فى وضع أسس النظم البروفنجية ، فإنه كان علامة بكل ما تحويه الكلمة من معنى وله شغف لا يكل باستخدام المراجع . على أن بلوغ المنهج التاريخى العلمى ذروته فى فرنسا

لا يرجع إلى جهود أفراد قلائل مثلما كان الحال فى ألمانيا عندما كان الفضل فى ذلك لفون رانكه وويتز ، إنما مرجعه فى فرنسا لجهود عديد من الأساتذة والعلماء الذين درسوا فى أعظم المعاهد العالية المتخصصة فى تدريب المؤرخين على استخدام المناهج السليمة فى النقد وهى مدرسة الوثائق التى بدأت عملها سنة ١٨٢٩ . ويقرن بإنتاج هذا العهد من حيث الكيف اسم كل من ليو بولد ديلزل Leopold Delisle وبنيامين جيرارد ، جابريل مونود ، اخيل لوشير Achille Luchaire ، وأوغسط بولينير ، آرتر جيرى ، بول فيوليه Paul Viollet . وقد وجدت فرنسا فى شخص الفونس اولارد عالما كبيرا كان لمعرفته الواسعة والتى لم يبلغها أحد عن فترة قصيرة من فترات التاريخ القومى فى فرنسا ، مما جعله جديرا بأن يقارن بأعظم المؤرخين العالميين ممن هم على مستوى س . ر .جاردنر فى انجلترا . ذلك أنه نقى تاريخ الثورة الفرنسية من كل الخرافات والأساطير التى علقت به .

أما أحسن عمل يمكن اعتباره نموذجا للمدرسة التاريخية الفرنسية الحديثة فهو الكتابان اللذان اشترك فى تحريرهما عدد من العلماء وأشرف على نشرهما أرنست لافيس ، وأحدهما (التاريخ العام) والثانى وهو (تاريخ فرنسا) . وسوف نكتفى هنا بحصر موجز للرواد الأوائل من علماء التاريخ الفرنسيين فى عصرنا الحاضر ، فنشير إلى هنرى هوبرت ، الذى عالج تاريخ الكاتبين القدماء ، وكاميل جوليان الذى اقتفى أثر أستاذه فوستيل دى كولانج فأرخ لغاليا فى العصور القديمة أما فوستيل دى كولانج ، أندريه برثلو Andre Berthelot فرديناند لوت Lot ، فقد درسوا الإمبراطورية الرومانية فى أواخر عصرها وفجر التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى . أما جوستاف بلوخ Bloch ، لوت Lot فلهما أبحاثهما الممتعة عن فترة الانتقال من الحضارة الرومانية القديمة إلى حضارة العصور الوسطى . وأما تاريخ العصور الوسطى فى نهضة الإمبراطورية الرومانية الشرقية على يد جوستينان فضلا عن دراسة التاريخ البيزنطى ذاته فكانت موضع اهتمام شارل ديل Diehl ومجال بحثه . هذا فى حين تخصص هنرى لامنس Lemmens ، واميل جوتيه Gautier ، هنرى سلادين Saladin ، وادوارد دريو Driault ، وكلمنت هوارت ، وآخرون فى التاريخ الإسلامى ، واهتم بدراسة عصر الإقطاع وتحليل خصائصه كل من شارل سينبو Charles Seignobos ، اخيل لوشير ، جاك فلاش ، بول جيلهرموز Paul Guilhiermoz ، شارل بيتى دوتييه .(Charle Petit-Dutailles) أما لوشير فكان أكبر حجة فى تاريخ فرنسا بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر . هذا فى حين أنتج رينيه جروسيه ما يمكن

اعتباره أحسن ما كتب عن الحروب الصليبية . وتناول شارل لانجلو Charles Langlois سقوط أسرة كابيه وله بحث ممتاز عن عصر فلب الثالث وفيلب الوسيم . أما عن الحياة فى المدن فى العصور الوسطى فكانت مدار بحث أرثر جيرى الذى له بحث ممتاز أيضا عن العلاقات السياسية . أما ايوجبه فيوليه لى دوك Eujens Viollet le Duc فكان حجة فى الفن الفرنسى والمعمارى فى العصور الوسطى . ويعتبر شارل بيمونت Charles Bemont رائدا للبحاثة الفرنسيين فيما يختص بتاريخ إنجلترا فى العصور الوسطى . أما شارل بابيه Charles Bayet فله مكانته الرفيعة بفضل دراساته عن الإمبراطورية الجرمانية فى العصور الوسطى ، كما كتب كتابا ممتازا عن الإمبراطورية البيزنطية . أما الفرد كوفيل فهو أستاذ الباحثين عن فترة حرب المائة سنة . أما كريستيان بفستر فكانت له أبحاثه الهامة عن تاريخ العصور الوسطى وتاريخ نانسى والسياسة الداخلية لهنرى الرابع .

وكان أن حظى تاريخ القرن الخامس عشر بعناية كل من بيتى دوتييه Petit Dutaillis، وبطرس شامبيون ، فى حين اهتم هنرى لامونير ، بطرس امبار ، بتاريخ مدينة تور بفرنسا . أما لوسيان روميير ، حنا ماريجول ، هنرى هاوسر فقد تخصصوا فى دراسة تاريخ فرنسا فى القرن السادس عشر . ويعتبر بطرس امبار Pierre Imbart من مدينة تور بفرنسا حجة فى حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى . وتناول كل من جابريل هانونو وجورج دافنيل تاريخ فرنسا فى القرن السابع عشر بالبحث والتحليل ، فى حين يعتبر بطرس كلمنت أحسن الباحثين عن كولبير ، وينطبق نفس القول على يوسف ديديه Joseph Dedieu بالنسبة لتاريخ الهجونت بينما كان أرنست لامنيس وارثر دى بوسليزل Arthur de Boislisle رواد البحث فى عصر لويس الرابع عشر . أما لامنيس فهو صاحب المكانة الأولى بين المؤرخين الفرنسيين بأبحاثه عن بروسيا وأشرف على إنتاج أحسن الأعمال التاريخية التى تعاون فى كتابتها مجموعة من المؤرخين . كذلك عرف عن هنرى فاست Henri Vast عمق أبحاثه عن تاريخ فرنسا السياسى فى أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر عن الفترة النابوليونية . أما مؤلفات ايمه كريست Aime Cherest ، وكاميل بلوخ ، هنرى كاريه فقد أوضحت الكثير عن مفهومنا عن القرن الثامن عشر . ويضاف إلى هؤلاء فيلب ساجناكPhilppe Sagnac من ناحية أهمية أبحاثه عن التاريخ السياسى لفرنسا وأوربا . وفى نفس الوقت فإن ألبرت سوريل Sorel كان أستاذاً لايبارى فى موضوع العلاقات الدولية فى القرن الثامن عشر . أما الأبحاث الحديثة لهنرى سيبه See فقد أضافت مزيدا من المعلومات على

الدراسة الخاصة بتاريخ الأنظمة والتاريخ الثقافى فى القرن الثامن عشر .

وكان أن شهدت الدراسة الخاصة بالثورة الفرنسية تطورا هاما نتيجة للأبحاث التى قام بها كل من أولارد ، وساناك . أما البرت ماتييه Mathiez فقد طرح جانبا النظرة البورجوازية لاولارد ومجّد روبسبير وطبقة العامة . والحق أن أبحاثه أضافت الشىء الكثير إلى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لهذه الفترة ، وشابهه فى ذلك جورج لفبر George Lefebvre بأبحاثه عن الثورة . إذ نظر الأخير إلى الثورة نظرة وسطا بين اولارد وماتيه ، مماجعله يحظى اليوم بمكانة أكثر احتراما بين الباحثين الفرنسيين . أما أحسن بحث ناقد مختصر عن الثورة الفرنسية من وجهة نظر محافظة فهو ذلك الذى قدمه لويس مادیلن Lowis Madelin الذى أصبح المرجع الأول لكل دراسة عن نابليون ، وهوأول من تناول دراسة الفترة النابولونية على أسس علمية دقيقة ، وهو الأمر الذى كان قد بدأه إدوارد دريو Driault . أما أميل برجو ، وجورج ويل Weill ، وجورج لارونز ، فقد تناولوا بالبحث الفترة الممتدة من نابليون حتى قيام الجمهورية الثالثة . وكان أحسن الباحثين فى تاريخ هذه الفترة هم جابريل هانتو ، بطرس رنوفو Pierre Renouvin ، دانيل هالفى Halvey ، جورج بونيفو أما هنرى أرون فقد أخرج بحثا تاريخيا فذا وممتزا عن حكومة فيشى .

ويعتبر حنا ماريجول Mariejol رائد الباحثين الفرنسيين عن أسبانيا الحديثة مثلما يعتبر جورج بلوندول Blondel نفس الشىء بالنسبة لأبحاثه عن ألمانيا الحديثة والنمسا فى سنة ١٩٠٤ . أما أرنست دينس Denis ، لويس لیجیر Legere فقد عالج كل منهما علاجا قديرا تاريخ إمبراطورية النمسا والمجر فضلا عن تاريخ بوهميا وبولندا . هذا فى حين كان إيلى هاليفى بمثابة المرجع الأول فى كل أنحاء العالم بأبحاثها عن تاريخ انجلترا فى القرن التاسع عشر . ولاننسى العمل المرموق الذى قام به الفرد رامبو عن الإمبراطورية البيزنطية والسلاف فى أوربا ، فضلا عن الحضارة الفرنسية والتوسع الاستعمارى . أما شارل سينوبوس Charles Seignobos فقد ألف بحثا ممتازا عن الحضارة وكذلك يعتبر هنرى سيیه See صاحب أحسن الأبحاث عن الحياة الاقتصادية فى فرنسا .

وامتاز المؤرخون الفرنسيون كذلك بأبحاثهم الهامة عن الكنيسة المسيحية . فالفردلوسى Loisy هو رائد النقاد فى أدب كتاب العهد الجديد ، وتعتبر أبحاثه حجة للعقائد الوثنية الغامضة التى أثرت على المسيحية . كذلك كتب شارل جوجنبر Guignebert فى أسلوب رفيع ـ شأنه شأن رينان ـ بحثا اتسم بغزارته عن المسيح وتطور المسيحية . أما لويس دوشزن فهو صاحب الأبحاث

الزمنية عن المسيحية فى عصرها الأول . كذلك كتب اندريه لاجار Lagarde ـ واسمه الحقيقى يوسف تورنيل Turnel بحثا جديرا بالتنويه والإعجاب عن المسيحية فى العصور الوسطى ، فى حين كتب فيلكس روكان Felix Rocquain بحثا قيما عن تاريخ البابوية فى العصور الوسطى وعن الحروب الدينية فى فرنسا . أما بطرس دى لاجورى فهو صاحب البحث التاريخى الدينى القيم عن الثورة الفرنسية بينما تناول ديبيدور ، اميل شينو Chenon ، تاريخ الكنيسة والدولة فى القرن التاسع عشر . أما أعظم الأعمال ذات الجهد المشترك عن تاريخ الكنيسة فهى تلك التى اشترك فيها أوغسطين فليس Augustine Fliche ، جاستون مارتن ، هذا كله بالإضافة إلى المعجم الواسع عن اللاهوت الكاثوليكى .

ثم إن المؤرخين الفرنسيين أظهروا اهتماما خاصا بحركة التوسع الاستعمارى الفرنسى فهناك عدا رامبو من تخصصوا فى البحث فى هذا الموضوع . ومن أعظم الباحثين فى هذا المجال اميل ليفاسير ، ايوجين فالكس ، ادوارد بيتى ، وارثر جيرو . أما شارل دى لارونسير فهو صاحب أعظم الأبحاث عن تاريخ البحرية الفرنسية . كذلك كان للفرنسيين أبحاثهم الهامة عن التاريخ القديم وإعادة صياغته . ففى أوائل القرن التاسع عشر نجح جان شامبليون فى فك رموز اللغة المصرية القديمة ، وبعد ذلك بنصف قرن مضى أوغسط ماريت بالدراسة المصرية من حيث توقف عندها لزبيوس . والحق أن ماريت يعتبر أشهر الباحثين فى الدراسات المصرية القديمة قبل ماسبيرو . أما سير جاستون ماسبيرو فهو أهم المؤرخين المتخصصين فى التاريخ القديم قبل أن ينشر ادوارد ماير أبحاثه الرمزية فى هذا المجال . وتعتبر أبحاث ايوجين كافيناك Eugene Cavignac أحسن الأبحاث فى التاريخ القديم التى اقتربت من أبحاث ماير فى غزارتها ووجهة نظرها . هذا فى حين كتب لويس ديلابورت كتابا طيبا عن حضارة العراق القديمة . وكشف جاك دى مورجان رموز اللغة الحامورابية . واشترك جورج بيرد وشارل شبييز Chipiez فى عمل بحث فذ عن الفن القديم . أما بولس جيرو Giraud تلميذ فوستل دى كولانج المقرب فقد تخصص فى البحث فى التاريخ الإغريقى والرومانى . كذلك قام جوستاف جلوتز بأبحاث تدعو إلى الإعجاب عن حضارة كريت وعن المدن الإغريقية القديمة والحياة الاقتصادية عند الإغريق . أما أوغسط بوشيه ليكلريك Auguste Bouche Leclereq فهو أستاذ الباحثين فى العصر الهلينى . وكذلك كتب كافيناك كتابات مستفيضة عن التاريخ الاقتصادى للإغريق . ويحتل كل من الفرد وموريس كروزييه مرتبة سامية بين الباحثين فى تاريخ فكر الإغريق وآدابهم . أما فكتور دوري Duruy فله

أعظم الأبحاث عن تاريخ الإغريق والرومان من واقع مصادرها الأولى . وتناول جوستاف بلوخ ، ليون هومو ، جوزيف ديكلاريل Declareuil ، التطور السياسي والتشريعي عند الرومان ، في حين عالج فكتور شابو Chapot تاريخ الفن الروماني . ثم كان أن اتم حنا فكتور ديري Duruy وارنست لامنيس وشارل بيمونت وجابريل مونو Gabriel Monod ما بدأه في ألمانيا فون رانكه وويتز من تطوير تدريس التاريخ . وينسب لجابريل مونو الفضل في تطوير منهج حلقات البحث التي استحدثها في فرنسا دوري . وتختم هذا العرض السريع لدراسة التاريخ الفرنسي ، بالإشارة إلى ان هذا العرض لن يستكمل دون الإشارة إلى المؤرخين الفرنسيين بصورة لا مثيل لها على الربط بين غزارة البحث وشرح المادة التاريخية وتوضيحها مع روعة التصوير وسلاسته والقدرة النادرة على التنظيم المحكم .

المدرسة التاريخية الناقدة في انجلترا

جاءت المدرسة التاريخية الناقدة في انجلترا وليدة انتاج قومي على عكس ما كان عليه الوضع في فرنسا . وإذا كانت هذه المدرسة استطاعت شق طريقها بفضل جهود العلماء أمثال لينجارد Lingard ، وفريمان ، وستوبس ، وجبرين ، وليكي ، كريتون Creigthon، ستيلي Steely، فإنها بلغت ذورة نشاطها في شخص صمويل موسون جاردنر وكتابه عن الأحداث المثيرة في النصف الأول من القرن السابع عشر . ففي هذا البحث المتقن نجحت الاستفادة الكاملة من المصادر التي تناولت فترات محدودة كما تمثلت في بحثه المقدرة على تنظيم تلك المعلومات الواسعة في سرد واضح مفهوم . ولاينافس جاردنر في مكانته بين المؤرخين الأوربيين سوى ألفونس أولارد ، ومع ذلك فان الموضوعية في عمل جاردنر فاقت تلك التي كانت في عمل ذلك المؤرخ الفرنسي .

على أنه ينبغي القول أن الانجليز برغم ذلك لم يكن لديهم ما يمكن مقارنته بمدرسة الوثائق في فرنسا أو المعهد التاريخي في فيينا من أجل تدريب المؤرخين الشبان على مناهج البحث الناقدة السليمة . وأكبر موسوعة تعبر عن روعة إنتاج المدرسة الإنجليزية الحديثة هي العمل المشترك لموسوعة كامبردج عن التاريخ القديم والوسيط والحديث . هذا فضلا عن سلسلة الأبحاث المتتابعة عن التاريخ الإنجليزي التي كتبها هنت Hunt ، بول Poole ، اومان Oman ، أما جـ . هـ . كلافام J.H. Clapham فقد أنتج أبرز الأعمال عن تاريخ انجلترا الاقتصادي .

وبالنسبة لتاريخ بريطانيا فى العصر الرومانى فقد بحثه بعناية فائقة كل من ت . ريس هولمز Rice Holmes T. ، ر .جـ . كولنجوود R. G. Collingwood ، جـ . ل . ميـرز J. L. Myres ، فرنسس هانرفيلد .

أما العصر الأنجلوسكسونى فقد درسه دراسة علميـة كل من شـارل أومان ، تـوماس هودجكن ، شارل بلمر Charles Plummer . هذا فى حين كان جـ . هـ . راوند J. H. Round ، هـ . و . ك . دانيز ، ف . م . بويك F. M. Powick ، ف . م . ستينتون F. M. Stenton من رواد البحث فى تاريخ انجلترا النورماندية وقد قام راوند بانتقاد فريمان نقـداً لاذعاً ولكن ف . م . ستينتون . F. M. Stenton صحح بعض الاستنتاجات التى توصل إليها راوند . وعن أسـرة البلانتاجنت هناك أبحاث هامة كتبها ل . ف سالزمان ، ك . و . ك . أومان ، جـ . م . تريفرليان ، ت . ف . توت ، ف . م . بويك ، إليس . س جرين . أما وليم . س . ماك كبكنى William S. Mc Kecknie ، فقد نبذ جانبا فى بحثه المتقن كل الخرافات التى أحاطت بالعهد الأعظم . كذلك أنتج جيمس ويلى James Wylie عملا خالداً فذاً عن أسرة لانكستر ويورك أما أعظم المؤرخين عن انجلترا فى العصور الوسطى فهو فردريك وليم ميتلاند وله فى انجلترا نفس المكانة التى كانت لويتز فى ألمانيا وفوستيل فى فرنسا . وخير ما أنتجه ميتلاند هو كتابه عن القانون الإنجليزى فى العصور الوسطى . ولا يوجد لهذا المؤرخ من يدانيه فى أبحاثه عن العصور الوسطى سوى المؤرخ الإنجليزى الجنسية الروسى الأصل ، بـولى فينوجـرادوف Paul Vinogradov . أما إدوارد جنكس Jenks فأعماله المبتكرة عن القانون فى العصور الوسطى والنظم السـاسية تعتبـر فى القمة . وكذلك المؤرخ الإنجليزى حنا ب . بيورى الذى تخصص فى الإمبراطورية البيزنطية إذ يعتبر من أعظم مؤرخى العالم من ناحية إلمامه بالعديد من الموضوعات فضلا عن كونه من أقدر المؤرخين على وجه الإطلاق . وعنى شارل أومان ، نورمان بينز Baynes ، بدراسة نواحى التاريخ البيزنطى . أما ستانلى لين بول ، توماس و . أرنولد ، د . س . مارجليوث ، بول دى لاسى اولرى ، رينولد نيكلسون فهم أصحاب الأبحاث الرائدة فى الحضارة الإسلامية . هـذا فى حين تخصص أرنست باركر فى البحث فى الحروب الصليبية . ويعتبر سير ريمـوند بيـزلى Beazley من أكثر المتخصصين فى جغرافية العصور الوسطى فضلا عن العلاقات مع الشرق الأقصى . أما جيمس بريس James Bryce ، هـ . أ . ل فيشر فدارت أبحاثها حول الإمبراطورية الجرمانية فى العصور الوسطى . ومن أعظم المراجع عن حكم أسرتى لانكستر ويورك مـا كتبه جيمس جـاردنر .

وبالنسبة للمراجع الرئيسية عن أسرة تيودور فأهمها ما كتبه جاردنر ا . ف بولارد ، هـ . ا . ل . فيشر ،، ا . د . انيس A. D. Innes ، جـ . دبرثرو ، ماندل كريتون . ويعتبر بولارد وفيشر من أعظم المؤرخين الإنجليز المحدثين . أما الأعمال الرفيعة عن أسرة استيوارت فهى تلك التى كتبها جاردنر ، شارل فيرث . كذلك قام بدراسة نفس هذه الفترة حديثا كل من تريفليان ، ف . مونتانى F. C. Montagne ، ريتشارد لودج ، جـ . ن كلارك ، كيث فيلنجFeiling . ويعتبر كتاب تريفليان «انجلترا تحت حكم أسرة استيوارت» أعظم ما كتب عن ذلك العصر منذ أخرج ماكلوى كتابه تاريخ انجلترا . أما س . جـ . روبرتسون ، ا . س . ليدام Leadam ، وليم هنت Hunt ، لويس نامير Namier فقد كتبوا عن أسرة هانوفر . وهنا ينبغى أن نشير أيضا إلى أعمال التراجم التى كتبها جورج اوتو تريفليان والتى كتبها مورلى عن بيرك Burke والتى كتبها روز بيورى وليمز عن بت الأكبر والتى كتبها سنانهوب وهولاندرز عن بت الأصغر . وكتب عن بريطانيا فى القرن التاسع عشر كل من حـ . لو Low ، ل . ل . ساندرز ، حـ . م . تريفليان ، جـ . ا . س . ماربوت ، وسبنسر والبول ، جستن ماك آرثى ، جلبر سلاتر . وعن هذا العصر أيضا لدينا تراجم فذة مثل تلك التى كتبها مورلى عن جلادستون والتى كتبهـا مونى بينى وبـاكل Buckle عن دزرائيلى. أما شارل ماسران ، ك . ل . موات فكتبا عن فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى فى بريطانيا فى حين تناول ا . جـ . تايلور أصول وأسباب الحرب العالمية الثانية بالتحليل . أما تاريخ المستعمرات البريطانية وتطور الإمبراطورية وتدرج السياسة الاستعمارية لهذه الإمبراطورية فقد عالجه كل من جون ا . دويل ، هـ . ا . اجرتون Egerton ، ارثر ب . كيث ، رينشارد جب ، ا . د . اينس Innes ، حـ . ا . وليامسون ، هارى هـ . جونستون . وأهم مرجع عن موضـوع الاستعمار فى أفريقيا هو ما كتبه هـارى هـ . جونستـون . أما تـاريخ الاستعمـار البريـطانى والإمبريالية فقد عولج فى إسهاب فى سلسلة من الكتب الممتازة تحت عنوان (الجغرافيا التاريخية للمستعمرات البريطانية) وأشرف على تحريرها شارل ب . لوكاس . هذا فضلا عن موسوعـة كامبردج التاريخية عن الامبراطورية التى أشرف على نشرها جـ . هولاند روى ورفاقه . وهناك موسوعة أكسفورد عن الإمبراطوريه البريطانية لهر برتسون وهوارث وآخرين . أما جون . و . فورساكو فهو أهم المؤرخين عن الجيش البريـطانى ، وكذلـك وليم ل . كلوس عن البحريـة البريطانية .

أما كتابات ستانلى ليثز Stanley Leathes وا . جـ . جرانت ، جـ . س . ك . بريدج فهى

تمثل المصادر الرئيسية الإنجليزية عن تاريخ فرنسا السياسى . كذلك كتب ف . ك . مونتاج وجـ . س . م . ماكدونالد مؤلفات عن تاريخ فرنسا فى القرن الثامن عشر . كذلك شرع هـ . مورس ستيفنس H. Morse Stephens فى عمل بحث عن الثورة الفرنسية . وإن خير من عالج هذا الموضوع من المؤرخين الإنجليز هـ . جـ . م طومبسون ويعتبر جـ . هـ . روز Rose المرجع الانجليزى الذى لاينافسه مرجع آخر عن الفترة النابولينية .

كذلك تناول المؤرخون الإنجليز بحث السياسات الاوربية والعلاقات الدولية فى القرن الماضى وقام بدراسات فى هذا الموضوع كل من جـ . ب . جوخ ، و . ا . فيليس ، س . ب . موات ، ادوارد هرزلتHerslet . وبالإضافة إلى ذلك ينبغى التنويه بالعمل المتقن الذى نهض به ادولفس و . وارد عن التاريخ السياسى لألمانيا الحديثة ، وهو عمل ينم عن معرفة واسعة غزيرة . ومثله الدراسات المفصلة التى أجراها وليم دوسن Dawson عن الإمبراطورية الألمانية فى العصر الحديث وفى الوقت نفسه لا يفوتنا أن ننوه بكتابات جـ . ب . جوخ عن ألمانيا المعاصرة ، وبالعمل الذى ينم عن أصالة علمية فى البحث الذى قام به ر . ن . بين R. N. Bain ، ر . د . سيتون واطسون ، د . م . والاس ، ف . هـ . سكرين ، و . ميلر عن الدول الاسكندنافية والسلافية وأوربا الشرقية . أما برنارد باريس Pares ، ا . هـ . كار فقد عالجا تاريخ روسيا فى حين كتب ب . كنج ، وجـ . م . تريفليان عن الوحدة الايطالية ، وكتب م . هيوم عن اسبانيا .

ولم يغفل المؤرخون الإنجليز أمر تاريخ الكنيسة وأعظم ما تم فى هذا المجال وأقواه أثرا هو الكتاب الذى كتبه هنرى ميلمان فى وقت مبكر واسمه تاريخ المسيحية اللاتينية (الغربية) . وهناك كتاب آخر فى هذا الموضوع لا يقل عظمة كتبه هـ . م . جواتكن H. M. Gwatkin،ف . جـ . فوكس جاكسون عن الكنيسة فى عصرها الأول . وهناك أيضا هـ . ك . مان الذى كتب كتابا عن البابوية والشخصيات التى تولت ذلك المذهب . أما جـ . جـ . كولتون ، هـ . ب . وركمان فقد عالجا تاريخ الكنيسة فى العصور الوسطى وحركة الاصلاح الدينى . هذا فى حين كتب شارل بيرد ، ت . م ولندساى عن حركة الإصلاح الدينى بصفة عامة . أما جميس جاردنر ، س . و . ديكسون فلهما أبحاثهما عن حركة الاصلاح الدينى فى انجلترا . وعن الحركات الدينية فى القرن الماضى فقد بحثها ر . و . تشرش ، ف . و . كورنيشCornish . أما هـ . كلارك فله بحثه عن المنشقين عن الكنيسة الانجليزية وكذلك هناك عمل مشترك خالد عن تاريخ الكنيسة الإنجليزية واشترك فى اخراجه ستيفنز وهانت .

وكان للعلماء الإنجليز أبحاثهم الهامة فى التاريخ القديم ومن أعظم الرواد الأوائل الإنجليز فى تاريخ الشرق القديم جورج رولنسن الذى ما زالت أبحاثه تحتفظ بأهميتها حتى اليوم أما وليم فلندرز بيترى petrie فله مكانته الكبرى حتى أيامنا هذه بوصفه باحثا فى الآثار المصرية القديمة هذا بالإضافة إلى العمل الفذ عن التاريخ المصرى الذى أخرجه ت . اريك بيت . أما ليونارد وولى wooley ، ليونارد هال ، سيدنى سميث فهم من أعظم من بحثوا تاريخ ما بين النهرين (العراق) فى العصور القديمة . هذا فى حين اهتم حنا جارتناج ودافيد هوجارت بدراسة تاريخ الحسيين أما هارى س . هـ . هال فقد تناول بالبحث والتحليل الجوانب السياسية فى تاريخ الشرق الأدنى القديم . أما جورج جروت Grote فكتب أول بحث متقن عن تاريخ اليونان . ويعتبر سير أرثر ايفانز صاحب اليد الطولى فى تصحيح معلوماتنا عن حضارة كريت القديمة . كذلك أخرج جـ . ل . مايرز كتابا فذا عن اليونان القديمة ، إذ تخصص فى دراسة الأجناس التى تكونت منها الإمبراطورية الإغريقية القديمة ، وندين لالفرد زيمرن Alfred Zimmern ، جـ . ب . ماهانى ، جلبوت موارى بما أضافوه من معارف عن تاريخ الأنظمة والتاريخ الثقافى عن اليونان . أما المؤرخ جـ . ب . بيورى فله كتابه الرائع عن تاريخ الإغريق . كذلك عالج إريك بت Eric Peet أحوال إيطاليا فى عصر ما قبل التاريخ . وبحث ا . هـ . جـ . جريدنج كل جوانب التاريخ الرومانى . واخرج وليم هيتلاند Heitland نموذجا جيدا عن التاريخ السياسى للجمهورية الرومانية . وكذلك قام وليم أرنولد بدراسة نظم الحكم فى الإمبراطورية الرومانية . أما ت . ريس هولمس فيعتبر مرجعاً رئيسيا عن غزوات قيصر لبلاد الغال. أما و . وارد فولر W. Ward Fawler فقدم أبحاثا هـامة عن التاريخ الرومانى الاجتماعى والدينى . وتعتبر موسوعة كامبردج الخاصة بالتاريـخ القديم التى أشرف على تحريرها بيورى وآخرون أحسن مصدر لكل الحقائق والمعلومات الخاصة بالتاريخ القديم . أما جـ . ل . مايرز فقد فاق من عداه من الباحثين فى التاريخ القديم ، وهوالإنجليزى الوحيد الذى يطابق ادوارد ماير . أما أحسن كتاب تاريخى رفيع المستوى ويتصف بالعمق عن الدراسات القديمة من أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر فهو الكتاب الذى يحمل اسم جون . ا . سانديز .

فإذا انتقلنا إلى أساتذة التاريخ الإنجليزى الذين بذلوا ما فى وسعهم ليبثوا فى تلاميذهم الروح المثالية للمدرسة الناقدة التاريخية الحديثة ، فضلا عن إثارة الاهتمام فيهم لتقصى الحقائق التاريخية ، فإننا نذكر منهم فريمان ، سيلى ، اكتون ، ستبلاند ، تاوت ، بولارد . ويعتبر هذا الاخر

أكثرهم تأثيرا وأوسعهم نفوذا . وكما أن كتاب روبرتسون عن تاريخ اسكتلنده يمثل طفرة واسعة بالنسبة للكتاب السابق الذى أصدره جورج بوكانانBuchanan ، فإن الكتب والأبحاث التاريخية التى ألفها عن اسكتلنده كل من بطرس هيوم براون ، روبرت ماكى ، جون هيل بيرتون نعتبر طفرة بالنسبة لكتاب روبرتسون . أما خير ما كتب عن تاريخ إيرلنده فهى الكتب التى كتبها ادوارد دالتون ، فلورنس ريت Florence Wright ، أدموند كورتز ، روبرت دنلوب ، جيمس بيكت ، ماري ت . هايدن ، اليناور هلHull .

المدرسة التاريخية الناقدة فى بقية البلدان الأوربية

حال « سلطان الرقابة » فى روسيا دون تطور المدرسة التاريخية الناقدة فيها . ونذكر مثالا لذلك كيف حيل بينى ، فازليف بليازوف Vasiliev Bilasov وبين المضى فى مشروعه الطموح لعمل ترجمة دقيقة لحياة كاترين الثانية . وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر عدد من الأساتذة المؤرخين الروس على أرفع مستوى علمى . ومن بين هؤلاء الذين تخصصوا فى دراسة التاريخ العام لروسيا سرجيوس سولفييف ، وسرجيوس بلاتانوف ، فاسيلييف كولشفسكى . أما سولفييف فأنتج أول دراسة تاريخية متكاملة ومنقنة عن روسيا اتبع فيها المنهج العلمى الحديث . وأما إنتاج كولشفسكى فلعله أحسن دراسة للنظم فى روسيا . وعن السياسة الداخلية لروسيا الحديثة كتب الكسندر كورنيلوف دراسة تاريخية على أرقى مستوى . هذا فى حين تناول م . ن . بوكروفسكى التاريخ الروسى بأسره من وجهة النظر الماركسية فى عمل ينم عن تعمقه فى البحث وقدرة على الخلق والتصوير والإبداع . كذلك يبدو أن بولس ميلنخوف Paul Milinkov استطاع فى كتابه أن يفوق كل ما سواه فى نظرته للخط العام الذى تطورت فيه السياسة الروسية التى نظر اليها من وجهة نظر متحررة . أما مكسيم تونالسكى فإن عمله يدل على نبوغ كبير إذ حلل الأسس الاجتماعية لتطور الانظمة السياسية الروسية ، هذا فى حين عالج فاسيلييف سرجيفيتش التطور القانونى والسياسى فى روسيا . وكتب لوديك كولكزيكى Ludwik Kulezycki بحثا حدد فيه معالم ثورة سنة ١٩٠٥ وأخرج ليون تروتسكى تاريخا خالدا عن ثورة سنة ١٩١٧ .

ثم إن المؤرخين الروس كانت لهم أبحاثهم الهامة التى عالجوا فيها تاريخ باقى دول أوربا . ومثال ذلك ما كان لبحث إيفان لوشسكى من فضل فى تغير معلوماتنا عن حالة الفلاح الفرنسى

قبل الثورة . وكذلك ألقى الكسندر سافن Savin الضوء على تاريخ الأرض الزراعية الإنجليزية فى العصر الحديث ، بينما استطاع بولى متروفانوف Paul Mitrofanov أن يقدم أحسن الأبحاث عن عهد جوزيف الثانى إمبراطور النمسا . وقد تمكن عدد من المؤرخين الروس ممن نفوا من بلادهم من انتاج عدد من الدراسات القيمة . فحين فر بولس فينوجرادوف من ظلم القياصرة أصبح أقدر مؤرخى العصور الوسطى فى انجلترا ، بعد موت ماتيلاند هذا فضلا عما كان لفينوجرادوف من إنتاج ممتاز فى مجال التاريخ العام والأنظمة التشريعية وعن تاريخ القانو ن . كذلك فر ميخائيل روستوفتسف والكسندر فاسيليفVasiliev من اضطهاد البلاشفة لهم وصارت أبحاث الأول أحد المصادر الكبرى عن التاريخ القديم وبخاصة التاريخ الاقتصادى للفترة الهيلنية وروما . فى حين كتب الثانى أحسن الأبحاث فى التاريخ العام للإمبراطورية البيزنطية . وقد ظهر فى عهد البلاشفة أكبر حشد من المؤرخين الماركسيين عرفهم العالم . وهؤلاء أشرف على أبحاثهم وتولى توجيهها بوكروفسكى وخلفاؤه مثل م . ن . تيكوميروفTikhomirov ، م . ا . الباتوف .

وحين ننتقل إلى أسبانيا نجد أنها أنجبت مؤرخين علماء مثل مينذز بيدال Menedez الذى تعتبر كتاباته المنشورة حجة فى تاريخ القرن الحادى عشر . أما بيلاستيروزي بيرتا Bellaster-osy Beretta فألف أحسن الأبحاث عن التاريخ العام الأسبانى ، بينما عنى روفائيل التاميراى كرفيا بالتأريخ للحضارة الأسبانية . أما ادواردو بيجول بيرز Edwardo Pujol Perez فيعتبر حجة فى الأنظمة الاجتماعية ، ويقال نفس الشيء عن ادوارد هينوجوسا بالنسبة لأبحاثه عن القانون الأسبانى . هذا كله بالإضافة إلى المؤرخ الاقتصادى القدير جاييم بوجال .

أما إيطاليا فتدين ببعض الشيء لموراتوري Muratori ولكنها تدين أكثر لفون رانكه والمدرسة الألمانية نظرا لما ظهر فى إيطاليا من أبحاث تنتمى إلى هذه المدرسة الناقدة . وقد كتب روملو كاجسى Rommelo Caggese أحسن كتاب عن تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى . أما جوسيب دى ليفا فقد كتب بمهارة فائقة عن إيطاليا خلال حكم شارل الخامس . كذلك أخرج الفردو كافيربنى أول عمل ينم عن علم غزير عن إيطاليا خلال القرن التاسع عشر . أما فرانسسكو روفينى Ruffini فكان أستاذ الباحثين فى عصر كافور . كذلك كان لعلماء التاريخ فى إيطاليا أبحاثهم عن التاريخ الرومانى . فكتب جيتانو دى سانكتس خير بحث عن تاريخ الجمهورية الرومانية ، وأعاد كورادو بارباجلو بحث موضوع مدى حجة المصادر التاريخية عن فجر تاريخ روما . أما جو جليلمو فيررو Guglielmo Ferrero فقد أثار إعجاب علماء التاريخ

بأبحاثه عن التاريخ الروماني وتعليقاته واستنتاجاته التى انسمت بالجرأة والابتكار ، فى حين اتصفت أبحاث اميلو كوستا Emilio Costa واريجو سولمى Solmi عن القانون الرومانى بالمتعة وقوة التأثير .

كذلك وجدت المدرسة التاريخية الحديثة من يمثلها فى سويسرا ، فأنتج كل من يوحنا ديراور ، وكارل داندليكر ، وبارثولد فان ميودن أبحاثاً عن تاريخ سويسرا العام تنم عن مقدره كبيرة . أما ادوارد هيس His فقد كتب أحسن الأبحاث عن تاريخ القانون العام السويسرى . ونجد لالفرد شترن Stern أعظم ما كتب عن تاريخ أوربا السياسى فى الفتره من ١٨١٥ ـ ١٨٧٠ وأخرج إدوارد فيوتر بحثه الهام والمبتكر عن تاريخ سويسرا وأوربا منذ الثورة الفرنسية فضلا عن كتابه عن تاريخ الكتابة التاريخية الحديثة .

وفى بلجيكا أنتج هرمان فان دور ليندن Herman Van der Linden ، هنرى بيرن ، ما يمكن اعتباره خير ما كتب عن التاريخ العام لبلجيكا . أما بيرين Pirenne فهو صاحب الدراسات الفذة عن المدن فى العصور الوسطى وعن الديموقراطية فى بلجيكا ، وعن التاريخ الاقتصادى فى العصور الوسطى . ونذكر أيضا من بين المؤرخين البلجكيين إسحق جوسس Isaak Gosses ب . جـ . بلوك P. J. Block ، بطرس جيل Pieter Geyl وجميعهم كتبوا مؤلفات قيمة عن تاريخ الأراضى المنخفضة . أما هرمان كولنبراندر Colenbrander فهو رائد علماء التاريخ فى هولندا وأستاذ الباحثين فى تاريخ هولندا فى عهد الثورة الفرنسية وعصر نابليون . وكذلك روبرت فرون Fruin الذى تعتبر كتاباته من أهم المصادر عن التاريخ الدستورى فى الأراضى المنخفضة . أما خير من يمثل هذه المدرسة التاريخية فى الدانمرك فهو يوحنا ستنستروب Johannes Steen-strup آجا فريس Aagae Frus ومساعداهم .

وفى النرويج نجد خير من يمثل هذه المدرسة هالفون كوهو ، الكسندر بوج ومساعدوه . وفى السويد يبرز اسم مؤرخ الثقافة السويدية يوحنا شك Johannes schuck كما توجد أحسن الأبحاث المشتركة فى تاريخ السويد التى أشرف عليها اميل هليد براند . ويوجد فى بولندا مؤرخون ينتمون لهذه المدرسة فحل محل كتاب مدرسة التاريخ آلقومى من أمثال ليلويل مؤرخون يتبعون المنهج العلمى أمثال أوغسط سوكولوسكى August Sokoluski ، أدولف اميلندر . أما كاميل كاتناك Katnak فهو صاحب العمل التاريخى المشهود له بالدقة والصحة عن تاريخ الكنيسة الكاثوليكية فى بولندا ، وقد كتب بحثه من وجهة نظر مؤيدة للكاثوليكية .

وفى تشيكوسلوفاكيا حلت محل أعمال المدرسة التاريخية القديمة التى مثلها بلاكى أبحاث اتبعت المنهج العلمى السليم مثل تلك التى كتبها يوسف بيكار Peckar ، فاكلاف نوفوتنى Vac-lav Novotny . وفى المجر كانت أعظم الأعمال أهمية فى مجال الكتابة التاريخية فى القرن العشرين هى ما كتبه فالذمين هومان عن التاريخ المجرى بالاشتراك مع جوليوس سزكفو Juluis Szekfu. أما ايوجين هورفات فقد أخرجت أحسن الأبحاث عن المجر وعن أصول الحرب العالمية الأولى . أما فى رومانيا فإن مدرسة اكزينو بول حلت محلها أبحاث العلماء العمالقة مثل نيقولا يورجا . وفى بلغاريا كان خير من يمثل هذه المدرسة التاريخية م . س . درينوف ، ف . ن . زلاتارسكى . فى يوجسلافيا فقد مثلها ستويان نوفاكوفيك ، جوفان رادونك ، سانجو ستانجوفك Stonoyie Stanoyevic .

الكتابة التاريخية الناقدة فى الولايات المتحدة الامريكية

ترجع نشأة المدرسة التاريخية الناقدة فى الولايات المتحدة الأمريكية إلى حوالى وقت انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية . وتدين المدرسة الامريكية الحديثة فى بدء وجودها إلى حد كبير إلى الأثر الذى أحدثته المدرسة الألمانية حيث ان جورج بانكرفت استمع فى الربع الأول من القرن التاسع عشر إلى محاضرات هيرمين فى جامعة جوتنجن ، ثم درس بعد ذلك فى برلين وأصبح صديقا لفون رانكه . وإذا كان بانكرفت ليس له إلا تأثير ضئيل على المناهج العلمية التاريخية فى الولايات المتحدة الأمريكية بسبب عدم شغله لإحدى وظائف التدريس بالجامعات ، إلا أن ذلك لاينبغى أن يحول دون الاعتراف بأنه صاحب الفضل فى نقل نشاط المدرسة الألمانية إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية .

أما البداية الحقة لتطبيق المناهج الألمانية السليمة فى الولايات المتحدة فترجع إلى سنه ١٨٥٧ وذلك حين بدأ ثلاثة من أساتذة الجامعات نشاطهم فى ثلاث جامعات أمريكية أولهم هنرى كورى الذى خلف سباركس فى جامعة هارفارد وفرانسيس ليبر الذى شغل منصب الأستاذية فى كولومبيا ، واندرو هوايت الذى قبل أن يشغل كرسى للتاريخ فى جامعة ميتشجان . والمهم هو أن هؤلاء الأساتذة الثلاثة تلقوا تعليمهم جميعا فى ألمانيا وعلى أيديهم وجد رباط بين المدرستين التاريخيتين الألمانية والأمريكية . وبالإضافة إلى ذلك فان أندرو هوايت تأثر بالمدرسة الفرنسية فى

شخص جيزو . ولم يقصر تدريسه على نطاقه السياسى الضيق بما يحويه من تقسيم زمنى فحسب ، وهى الطريقة التى التزم بها أشد الناس التزاما بمنهج فون رانكه والتى سارت عليهـا المدرسـة البروسية .

ثم كان أن لقت المدرسة التاريخية الناقدة فى أمريكا دفعة قوية بفضـل قيام هـربرت باكسترآدمز بتدريس التاريخ فى جامعة هوبكنز فى سنة ١٨٧٦ بعد أن أنهى نشاطه مباشرة فى جامعات جوتنجن ، هيدلبرج وكلها جامعات ألمانية . ولا ينسب لآدمز فقط إدخاله طريقة حلقات البحث للدراسة والتعليم فى أمريكا على غرار حلقات البحث الألمانية ، وإنما ينسب إليه أيضا إنشاؤه وتنظيمه أول مدرسة لتدريب المؤرخين فى الولايات المتحدة الأمريكية . ومع بداية القرن العشرين أصبح من النادر وجود جامعة أمريكية كبيرة ليس بقسم التاريخ فيها واحد أو أكثر ممن تدربوا فى حلقات بحث هوبكنز . وكانت الأبحاث التى قدمت فى حلقات البحث تمثل أول حصيلة مدونة من نتاج المدرسة التاريخية الناقدة فى أمريكا وللنظريات التاريخية الممثلة للمدرسة الألمانية .

ويمثل الأستاذ جولد وليم برجس شخصية لها دورها القيادى فى إدخال مناهج المدرسـة الألمانية والاقتداء بها فى أمريكا . وكان برجس قد بدأ عمله فى جامعة أمهرست سنة ١٨٧٣ بعد دراسته التى تلقاها فى جامعات جوتنجن ولبزج وبرلين . وإليه يرجع الفضل فى تأسيس كلية العلوم السياسية الشهيرة التابعة لجامعة كولومبيا سنة ١٨٨٠ وهى التى ناقشت فى أبحاثها بل تفوقت على أبحاث حلقات بحث جونز هوبكنز . وإذا كان آدمز قد قدر قيمة المناهـج السليمة للمـدرسة الألمانية ، إلا أنه كان وافر الثقة فى قدرة الأساتذة الأمريكيين على شرح وتطبيق استيعاب هذه المناهج . لكن الأستاذ برجس على العكس من ذلك كان مقتنعاً بـأن الأمريكيـين على أحسن الفروض لن يكونوا سوى محاكين لنتاج العبقرية الألمانية ومقتبسين منها ، من ثم فإنه نصح طلبته بأن يتموا دراستهم فى ألمانيا . وكان أن استجاب طلبته لنصيحته وذهبوا إلى ألمانيا فى حشد كبير على حد قول الأستاذ آدمز حتى أصبحوا معروفين هناك (فى ألمانيا) «بكلية الأستاذ برجس وتلامذة مدرسته» . وقد قصد هؤلاء الطلبة ألمانيا للاستماع إلى محاضرات درويزن وعادوا من هناك مشبعين بالروح الألمانية وبروح درويزن فى الاهتمام بدراسة التاريخ السياسى وبآراء ليوبولد فون رانكه فى كتابة التاريخ .

وبالاضافة إلى جهود كل من جونز هوبكنز وجامعة كولومبيا فان المناهج الحديثة برزت فى جامعة متشجن تحت إشراف شارل ك . آدمز ، وفى جامعة كورنل تحت اشراف الرئيس الأمريكى

هويت ، ول . ك . آدمز ، م . ك . تايلر ، جـ . ل . بير Burr . هذا فى الوقت الذى حمل افرايم امرتون Ephraim Emerton ، ادوارد شاننج فى جامعة هارفارد عبء المضى قدما بهذه المناهج الحديثة التى حمل لواءها هنرى آدمز فى السبعينات من القرن الماضى . أما فى الوقت الحاضر فقد بسطت المدرسة الحديثة لواءها على كل جامعات أمريكا ولم يعد الطلبة الدارسون للتاريخ بحاجة على حد قول الأستاذ جوخ لتلقى تعليمهم بالخارج . ففى حلقات البحث التى أدارها عدد من كبار الأساتذة الأمريكيين لم يعد الطالب الأمريكى الجاد فى بحثه بحاجة إلى تلقى تدريبه بالخارج ، اذ صار مستوى هذه الأبحاث لايقل عن مستوى مثيلتها بالخارج . ومن هؤلاء الأساتذة نذكر هربرت . ل . اوزجود ، وليم ا . داننج ، جورج بيرتون آدمز ، جـ . ف . جميسون ، فردريك جاكسون تيرنر ، جورج لنكولن بير ، ادوارد شاننج . أما ادوارد حـ . بورن ، دانا ك . مونرو Dana C. Munro ، شارل هـ . هاسكنز ، فرديناند شيفل ، كارل بيكر ، ك . هـ . ماك ايون ، جيى س . فورد Guy S. Ford ، و . س . موزى ، ايفارتس جرين وغيرهم كثيرون .

ثم كان أن حل النفوذ الفرنسى إلى حد ما محل النفوذ الألمانى على المدرسة الامريكية فى السنوات الأخيرة ، وأصبح معظم الباحثين الأمريكيين فى تاريخ العصور الوسطى ينهون تدريبهم فى مدرسة الوثائق الفرنسية وهى المدرسة التى لا نظير لها فى أمريكا . وقد بذل عدد من الأساتذة الأمريكيين أمثال آدمزوبورن وماسى وفنسنت وايرل دو ، وفوستر وآلن جونسون وهوكت وترون R. M. Tryon جهدهم للارتفاع بمستوى منهج البحث لكن خير ما أنتجوه فى أمريكا لا يمكن أن يرقى إلى مستوى انتاج برنا نهايم أو وولف . أو لانجلوا أو سيجنوبوس Seignobos.

ويصبح الكلام عن إدخال المناهج الحديثة فى الكتابة التاريخية مبتورا ما لم نشر إشارة عابرة إلى انتاج الأستاذ ألبرت بوشنل هارت الأستاذ بجامعة هارفارد . حقيقة أنه لم يساهم بشىء يستحق التنويه من ناحية تطوير المنهج العلمى النقدى فى كتابة التاريخ ، ولكن مما لا شك فيه أنه رائد رواد تطوير الأبحاث العلمية فى مجال التاريخ الأمريكى ونظام الحكم فى أمريكا ، فضلا عن مقدرته كمؤلف وفيما أحدثه من نشر المناهج التعليمية فى البحث . والواقع أنه جمع فى مقدرة تامة بين ما يحرص عليه الامريكيون من ضخامة الإنتاج واهتمام بالكم ، وبين التزام هذا الإنتاج بمناهج البحث التاريخية .

وهناك من الأبحاث الأمريكية ما التزم أصحابها بالمنهج النقدى حتى بلغت من المستوى ما يجعلها جديرة أن تقارن بأحسن الأبحاث فى أوربا . وكان لهذه الأبحاث فضل فى تصحيح

الأفكار والآراء الخاصة بالتطور القومى الأمريكى . فالاستاذ هربرت ليفى اوزجود تناول فى كتابه فترة خضوع الولايات المتحدة الأمريكيه للاستعمار الأجنبى . وكان اوزجود قد درس على يد برجس وفون رانكه ، واعتبر كتابه الخالد الذى يقع فى سبعة مجلدات والذى صدر باسم (تاريخ المستعمرات البريطانية فى أمريكا) من أرقى ما يمكن أن يصل إليه بحث التزم بمنهج المدرسة الأمريكية وهو كتاب جدير بأن يقارن بكتابات جاردنر ، أولارد . كذلك كتب جورج لويس بير بالاشتراك مع ل . هـ . جيبسون Gipson وآخرين كتابا فى عدة مجلدات لدراسة علاقة المستعمرات البريطانية فى أمريكا بالسياسة الخارجية البريطانية . أما شارل م . اندروز فقد جمع بين النظرة الناقدة الباحثة والمفهوم الواسع للتاريخ الذى يفوق دائرة مفهوم اوزجود . وكان ذلك كفيلا بأن يجعله على رأس قائمة المؤرخين الذين عالجوا فترة الاستعمار البريطانى للولايات المتحدة الأمريكية . كذلك أكمل جميس ترسلو آدمز عمل شارل فرانسس آدمز للإجهاز على أسطورة البيورتان . جاء كتابه عن تاريخ استعمار ولايه ماسوشست بأمريكا أحسن ما كتب فى هذا الموضوع . أما ا . جـ . بورن E. G. Bourne ، وهربرت ابوجين بولفن فقد قدما وجهه نظر جديدة بالنسبة لدراسة تاريخ الاستعمار وذلك بأن جمعا بين ما اهتم به المؤرخ بريسكوت وبين التمسك بالمنهج العلمى مع تأكيدهما أهمية دور الاستعمار الأسبانى بالنسبة لتاريخ أمريكا الشمالية فى دوره الأول . أما ايفارنس ب . جرين فقد نجح بوصفه مؤرخا متحفظا مدققا فى أن يرقى إلى المركز الذى وصل إليه من قبل الأستاذ اوزجود ، وذلك فى الكتاب الذى ألفه عن عصر الاستعمار الاجنبى فى أمريكا . وثمة كتاب ألفه الأستاذ كلارنس و . الفورد واتسم بالابتكار والعمق – هو الكتاب الذى يحمل اسم «وادى المسيسبى فى السياسة البريطانية». وقد أوضح كلارنس فى هذا الكتاب لأول مرة المشاكل الإدارية بالنسبة للاستعمار البريطانى فى غرب ألجنى وذلك فى الفترة الأولى لقيام الثورة الأمريكية . واستطاع أن يغير فى بحثه من المفهوم الدارج بأن بداية الصراع بين الاستعمار والثورة كان فى ميناء بوسطن . كذلك أوضح ارثر م . شليزنجر الأسس الاقتصاديه والتجارية للثورة الأمريكية . أما س . هـ . منستر ، ا . ك . فليك ، جـ . هـ . سيبير ، م . ك . تايلر ، ك . هـ . فان تين ، فقد أنصفوا فى دراستهم أولئك الموالين للاستعمار خلال الثورة الأمريكية ومثل ذلك يقال عن فان تين الذى أنتج أفضل كتب التاريخ عن الثورة الأمريكية . وكتب كارل ل . بيكر هو الآخر أعظم الكتب المبتكرة عن الأسس الثقافية للثورة ، كما شرح موضوعها . أما الأستاذ ماكس فراند Max Farrand فعالج فترة تكوين الدستور الأمريكى فى كتاب مفصل ناقد . كذلك تعرض الأستاذ بيرد فى بحث ممتع لنفس تلك الفترة عندما تناول

الأسس الاقتصادية للدستور . واستعرض الأستاذ حنا باخ ماك ماستر فى كتابه فترة السبعين الأولى من الاستقلال الامريكى وهو كتاب يدل على علم صاحبه فضلا عن اتساع أفقه بدرجة لم تتوافر لأى باحث أمريكى آخر . ذلك أنه ضحى بالشيء الكثير لكى يجعل البحث فى التاريخ الاجتماعى أمرا مطروقا شائعا فى الولايات المتحدة الامريكية وثمة كتاب مفصل لهنرى آدمز عن السياسه الأمريكه الخارجية على عهد جيفرسون وماديسون . ومع أن موضوع الكتاب محدود ونسبى إلا أنه يتصف بالعمق أكثر من غيره . كذلك جمع الأستاذ فردريك جاكسون تيرنر ومن خلفه من الكتاب مثل باكسون ، بيلنجتون ، بيلى بين عمق البحث الذى اتصف به اوزجود وبين ما اتصف به ماك ماكستر من قدرة على الخلق والابتكار وتعدد الاهتمامات . وظهر ذلك فى ابحاثهم عن استعمار الجزء الغربى من الولايات المتحدة الأمريكية واتساع حدود أمريكا فى ذلك الجانب . وفاقت أبحاثهم من جميع النواحى العلمية بحث تيودور روزفلت الممتع والمفيد .

والواقع أن مدرسة تيرنر Turner فى أمريكا تمثل أحسن النماذج فى القدرة على الربط بين البحث المتعمق السليم وبين الاتجاه الحديث فى كتابة التاريخ من حيث مراعاة جودة الصياغة والإبداع فى الإنتاج . أما ملحمة فون هولت التى هاجم فيها الرق فقد عدل فيها كل من وليم ا . رود ، ألريخ ب . فلبس وآخرون بإدخال وجهة نظر الولايات الجنوبية وتناول جميس فورد رودس فى بحث يجمع بين الاتزان والإسهاب موضوع الحرب الأهلية الأمريكية ثم مدة التعمير والبناء التى أعقبتها . أما مقدمات هذه الحرب فضلا عن الحرب نفسها فإنها كانت موضع بحث محكم من إنتاج آلان نيفين وج . راندال . ثم تناول الأستاذ وليم ا . داننج وتلاميذه الفترة التى أعقبت الحرب الأهلية بالدراسة ، كما عالجت أليس ب . أوبرهولتزر ـ وهى تلميذة الأستاذ ماك ماستر ـ تاريخ شعب الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب الأهلية ، واتسم بحثها بالابتكار واستهداف الكمال . ثم أوجز جميس شولر بطريقة ممتعة كل مراحل التاريخ القومى للولايات المتحدة الأمريكية ، واتسم بحثه بالاتزان . أما الأستاذ شاننج فقد نهض بجهد ضخم لتتبع تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ عصر الاستعمار حتى الوقت الحاضر وذلك فى عمل جدير بأن يعتبره الأمريكيون تاريخهم القومى العظيم ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان . أما خير الأبحاث الموجزة عن التاريخ الأمريكى التى جمعت بين مزيد من المعرفة ووفرة للمادة وبين المنهج العلمى فتكاد تتمثل فى كتاب د . س . موزى muzzey وعنوانه (الولايات المتحدة الأمريكية) وعن التاريخ الدستورى للولايات المتحدة الأمريكية فقد بحثه فى مقدرة فائقة كل من ا . ك . ماك لالن

Laughlin ، ا . س . كورون E. S. Corwin ، جـ . س . لاندون J. S. Landon أما العمل المشترك الذى أشرف عليه جوستين ونسور فيمثل قمة ما بلغته المدرسة التاريخية الأمريكية من مستوى فى عهدها الأول ، حين تشرب رجالها بالمناهج النقدية الحديثة . وهناك نموذج متكامل يصور المدرسة الأمريكية فى أحسن صورها وهو ما كتبه الأستاذ ألبرت بوشنل هات hart ، تحت عنوان الأمة الامريكية . وهناك عمل أكثر شمولا قام به ألن جونسون وأسماه (أحداث أمريكا التاريخية) أما هـ . س . كوماجر ، س . ب . موريس ، فقد أتما عن قريب عملا جديدا أسمياه (الأمة الأمريكية) .

وبالإضافة إلى أبحاث المؤرخين الأمريكيين عن تاريخ بلدهم فإن لهم أبحاثهم الهامة عن عصور أخرى ومراحل عديدة من التاريخ فالأستاذ جميس هنرى برستد له مكانته بين رواد الباحثين الرئيسيين فى التاريخ المصرى القديم والأثريات المصرية . وكان برستد أول من استخدم الأجهزة الميكانيكية فى الكشف عن آثار الشرق الأدنى القديم . وكذلك قام جاك فنجان بتصحيح التواريخ الخاصة بالعصر القديم وتلك المنطقة بالذات ــ وتبرز أسماء ر . و . روجرز ، موريس جاسترو ، أ . ت . أولمستد ، ج . س . جودسبيد ممن ينبغى الإشارة إليهم لما لهم من أبحاث قيمة عن تاريخ البابليين والآشوريين . أما الأستاذ و . س . فرجسون فتعتبر أبحاثه من أهم المراجع العالمية عن الامبراطورية الإغريقية وأثينا الهيلينة . وإذا ما انتقلنا إلى و . ل . وسترمان نجده تناول فى صورة مبتكرة دراسة نظام الحكم فى الولايات الإمبراطورية الرومانية ودراسة التاريخ . الاجتماعى القديم مع العناية بموضوع الرق فى العصور القديمة . أما تينى فرانك ، فرانك ف . ابوت . جرانت شويرمانShowerman فكانت لهم أبحاثهم التى تنم عن دراسة واسعة بالتاريخ الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لروما . كذلك تناول ج . د . بوستفورد ، ه . أ . كالدول ، دراسة التاريخ القديم دراسة اتسمت بنفاذ البصيرة وتعمق البحث ، أما ج . و . سوان Swain ، أ .أ . تريفرAA Trever ، رالف تيرنر فقد تناولوا فى أبحاثهم كل جوانب التاريخ القديم .

أما فى مجال تاريخ العصور الوسطى فهناك جورج لنكولن بير الذى يعتبر حجة الباحثين عن العصر الكارولنجى وثقافة العصور الوسطى ، كما أنه لا يوجد من ينافسه فى أوربا أو أمريكا فى دراسته لموضوع حق الأفراد فى إبداء آرائهم وحرية معتقداتهم الدينية . كذلك بحث ل . م لارسون تاريخ انجلترا فى أوائل العصور الوسطى كما تناول جميس وستفال طومسون موضوع نشأة الملكية الفرنسية على عهد لويس السادس ، مثلما بحث تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى كذلك كان دانا

Dana مونرو واحداً من أقدر المؤرخين الأمريكيين الذين تخصصوا فى دراسة تاريخ العصور الوسطى وخاصة موضوع الحروب الصليبية . أما شارل . هـ . هاسكنس فقد بحث تاريخ النورمان ودورهم فى أوربا فى العصور الوسطى واتصف بحثه لهذا الموضوع بالإتقان والدقة التى لا يدانيه منها أى باحث آخر أمريكيا كان أو أوربيا . ولا نجد بين علماء الإنجليز من يقارن بجورج بيرتون آدمزسوى القلة القليلة وذلك بالنسبة لتعمقه فى دراسة التاريخ الدستورى لانجلترا فى العصور الوسطى أما أرنست ف . هندرسون فقد أوجز النتائج التى وصلت إليها الأبحاث الحديثة عن تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى والحديثة . كذلك نهج أفرانيم امرتون منهجا علميا فى ابحاثه المسهبة عن تاريخ العصور الوسطى فى كافة مراحلها أما لين ثورنديك فاتصفت أبحاثه فى تاريخ العصور الوسطى بالمنهج العلمى والابتكار وخاصة كتابه الكبير عن الحياة الفكرية والعلمية فى العصور الوسطى . واستطاع هنرى اوزبون تايلور أن يكتب كذلك خير كتاب عن تاريخ الفكر فى العصور الوسطى . أما جيمس وستفال طومسون فقد عالج تاريخ أوربا فى العصور الوسطى من كل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية علاجا موجزا مركزا جعل له مكان الصدارة لا بين المؤرخين الأمريكيين فحسب بل بين غيرهم ممن تخصصوا فى تاريخ تلك العصور . وهناك من المؤرخين الأمريكيين فرديناند شيفل الذى أبدع فى كتابه عن التاريخ الثقافى لعصر النهضة كما أنه خير من كتب عن تاريخ فلورنسا .

أما الأستاذ بريزرفدسميث فقد تصدر الباحثين الامريكيين الذين عالجوا عصر الإصلاح الدينى ، وكذلك الحال بالنسبة للمؤرخ . م . هولم Hulme إذ أوجز العلاقات الخاصة بعصر النهضة وحركة الإصلاح الدينى .

وإذا كانت لدينا الآن نظرية مبتكرة ومقبولة بوجه عام تنادى بأن بداية العصر الحديث إنما ترجع إلى حركة الاستعمار الأوربى أكثر مما ترجع إلى عصر النهضة أو عصر الإصلاح الدينى . فإن هذه النظرية كانت مدار الابحاث الممتعة التى كتبها كل من و . ر . شيفرد ، و . ك . ابوت ، ج . ب . بوستفورد ، ج . ا . جيلبسى ، ا . ب . شيبى ويعتبر ما قام به الأستاذ شيفرد من دراسات عن حركة الاستعمار الأوربى — وذلك بالإضافة إلى عمل ف . ج . تيرنر — من أحسن ما قام به أى مؤرخ أمريكى آخر من حيث الاستفاضة والشرح المبتكر أما أبحاث كل من هـ . م . ستيفنس ، ف . م . فلنج ، و . م . سلون ، هنرى . ا . بورن ، كارل بيكر وتلامذته ليو جيرشوى **Gershoy** ، لويس جوشول ، فقد أضافت الشىء الكثير إلى معلوماتنا عن عصر الثورة الفرنسية ونابليون .

وعالج وليم روسكو تير Thayer تاريخ إيطاليا منذ نهاية عهد نابليون حتى إتمام وحدتها . وكذلك فعل كل من هندرسون ، وشيفل و ، ج . س . فورد بالنسبة لتاريخ ألمانيا الحديثة . أما ر . ف . ميرمان R.B. Merriman فقد بحث فى كتاب على جانب كبير من الأهمية تاريخ الإمبراطورية الأسبانية وثمة كتاب ممتاز عن التاريخ الإنجليزى كتبه ا. ب . شينى W.B. Cheyney وا . ل . م لارسون ، ا . ل . كروس ، و . ا . لنت Lunt وآخرون . كذلك كتب المؤرخ شينى بحثا له قيمته وعلى مستوى كبير من الناحية العلمية عن السنوات الأخيرة فى حكم اليزابيث . وأنتج س . هـ . ماكلوين Maclwain عدة أبحاث علمية عن تاريخ النظرية السياسية وجذور الحكم النيابى . أما ا.هـ . ليبير فكان المؤرخ الأمريكى الرئيسى الذى اختص بعنايته بتاريخ الحضارة البيزنطية والأتراك وأسهم س . م . اندروز ، س . د هازن ببعض القصص السياسى عن تاريخ أوربا الحديث .

وشهدت الولايات المتحدة الأمريكية فى شخص الأستاذ جون باست مور باحثا له من غزارة المعرفة ما جعل منه حجة فى تاريخ القانون الدولى والدبلوماسى . أما أبحاث كل من د. ج . هيل ، ج . فوستر ، أ . ك . كولدج ، ل . ر . فيش ، ك . ك . تانسفيل ، و . ل . لانجر ، ج . د . سوان Swain ، ر . ج . سونتاج ، باركرت . مون ، ر . ل . بل Buell، ح . هـ . بلاكسلى Blakeslee ، س . ف . بميس Bemis فقد تناولت العلاقات الدولية المعاصرة .

أما عن الأحداث السياسية التى أدت إلى نشوب الحرب العالمية الأولى فقد بحثها و . ب . لانجر ، س . ب . فاى ، ر . ج . سونتاج ، أما خير مرجع عن دخول أمريكا الحرب فهو ذلك الذى كتبه ك . ك . تانسيل بعنوان ، « أمريكا تدخل الحرب » ، وأخيرا فإن د . ل . هوجن D.L. Hoogeanأخرج الكتاب الوحيد الشامل عن أسباب الحرب العالمية الثانية .

ومن بين المؤرخين الأمريكيين الذين أبدوا مقدرة فائقة بصفة خاصة فى مجال دراسة تاريخ أمريكا اللاتينية تبرز أسماء و . س . روبرتسون ، ج . ف . ريبىRippy ، هـ . أ . برستلى ، برنارد موسس ، ل . و . هاكت ، ك . هـ . هارنج ، أ . ك . باركر ، ك . أ . شابمان ، فرانك تاننبوم ، د. م . دوز د . ج . مونرو . هيوبرت هيرنج ، ك . ك . جونز Jones .

كذلك كتب المؤرخون الأمريكيون أبحاثا تاريخية علمية أخرى عن أمريكا الأسبانية نختار منها بصفة خاصة كتابات باروس آرانا ، أورتجاى روبيو ، الجاندرو الفاريز ، أوليفيا إليا وآخرون . أما كارل وتيك wittke ، ج . ب . بربر Brebner J.B. فلهما أبحاثهما عن تاريخ كندا . كذلك

قام ج . ت . شوتويل بعمل سلسلة مستفيضة من الدراسات عن العلاقات الأمريكية الكندية .

وعن تاريخ الشرق الأقصى هناك عدة كتب ممتازة ألفها س . ك . هورنبك **Hornbeck** ، تايلر دينت ، ك . س . لاتوريت ، أ . ت . وليامز ، هـ . م . فيناك ، ب . ج . تريت **Treat** وا ، و ، جريز ولد ، ناثينال بفر **Natheaniel paffer** ، ب . هـ . كليد **Clyde P.H.** ، و . ل . نيومان .

كذلك كان تاريخ المسيحية والكنيسة موضوع اهتمام عدد كبير من الباحثين الأمريكيين . ومن الأبحاث التى كتبت فى هذا الشأن أبحاث هنرى شارل وهى أبحاث عديدة وممتازة ومتخصصة تناولت تاريخ الكنيسة فى العصور الوسطى وجعلته على مرتبة كبار العلماء الأوربيين أمثال هارناك Harnack ، دينقل ، دوشزن . كذلك عرض على كل ن ج . ب . فيشر ، فيليب شاف ، ولسن والكر فى إيجاز تاريخ الكنيسة المسيحية باسمه . أما أ . ك . ماك جيفر فله شهرته الدولية لما كتبه عن ايزبيوس ، وكانت له أبحاثه الهامة عن تاريخ الكنيسة فى أيامها الأولى وعن تاريخ الفكر المسيحى . أما عن نشأة الكنيسة فى العصور الوسطى فهناك عدة أبحاث هامة كتبها كل من ج . ك . اير Ayer ، أ . ك . فليك ، وقد كتب فليك خير ما يمكن كتابته عن المدخل إلى انهيار سلطان الكنيسة فى العصور الوسطى . كذلك عالج كل من بريز فدسميث ، امرتون ، س . م جاكسون ، هـ . أ . جاكوبرز ، حركة الإصلاح الدينى وبحث فى هذا الجانب أيضا داود شاف ، جاكسون ، و . و . روكويل ، وكان لهذا الأخير (روكويل) الفضل فى إطلاع الأمريكيين على أحدث أبحاث الأوربيين فى هذه الناحية . كذلك كان شاف schaff ، بورتر جاكسون Potter أبحاثهم التاريخية المستفيضة عن الكنائس الأوربية . وكان اهتمام المؤرخين الأوربيين بدراسة التاريخ القديم والوسيط ــ وهو أحد الانطباعات التى تركتها الحركتان الإنسانية والتعقلية على المؤرخين ــ صدى ردود فعل فى المدرسة الأمريكية إذ أدى ذلك إلى إهمال دراسة التاريخ الحديث لفترة معينة .

لكن جهود الجيل الجديد من المؤرخين الشبان تنبىء بأنهم سيعوضون هذا النقص فى التاريخ الحديث وأنهم سيخرجون عن نطاق المألوف عند من سبقهم من المؤرخين . بحيث لا تكون أبحاثهم من حيث الكم والكيف أقل من أبحاث أساتذتهم السابقين الذين تخصصوا فى دراسة العصور الوسطى . ومصداق ذلك سلسلة الأبحاث التى أخرجها و . ل . لانجر . عن نشأة أوربا الحديثة ، اذ تعتبر خير نموذج وأحسن شاهد على صدق هذا القول . ويقال نفس الشىء عن أبحاث التاريخ الحديث التى قام بها ل . ب . هايبى وآخرون سنة ١٩٢٩ إذ شجعت هذه الأبحاث حركة البحث فى هذا الجانب .

أما كتابة التراجم التاريخية فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد ظهرت فى صورة غزيرة واتخذت شكلا موجزا ومن أمثلتها ــ مجموعة رجال السياسة الأمريكيين ، (ومجموعة تراجم ريفرسيد Riverside Biographical series. و (قاموس التراجم الأمريكية) ولم تقتصر التراجم على سرد سيرة كبار رجال الدولة الأمريكيين وإنما شملت كثيرين غيرهم . ومن أحسن التراجم تلك التى كتبها س . م . موريسون عن كولمبو س ، وكارل فان دورن،عن فرانكلين ، و . س . فريمان عن واشنجطن ، أ . ج . بفردج عن مارشال ، ناثان شاشبر وبروس ميتشل عن هاميلتون ، جلبرت شينارد عن جون آدمز ، دوماس مالون عن جيفرسون ، ارفنج برانت Arving Brant عن ماريسون ، و . ب . كريسون عن مونرو ، س . ف بيمس عن جون كينكى آدمز ، ج . س باست عن جاكسون ، ك . م . ولتز Wiltseعن كالهون ج بيفردج ، ج . ج. راندال عن لنكولن . فريمان عن لى Lee ل . ب . ستريكر عن جونسون ، الآن نيفنس عن كليفلاند ، ونيفنس و ، ج . ت . فلين J.T. Flynn عن روكفلر ، هربرت كرولى عن مارك هانا ، مارجريت ليش Leach عن ماك كنلى ، هـ . ف . برنجلى ، هـ . ك . بيل عن تيودور روزفلت ، برنجل عن تافت ، أ . س لنك Linkعن وودرولسن ، فرانك فريدك Freidel و . أ . م . شيلزنجر عن ف . د . روزفلت .

وكما صار الحال فى العلوم الطبيعية وبقية فروع المعرفة ، لم يلبث أن غدا علم التاريخ يخضع من نواحى البحث والإشراف لجهود مشتركة تنهض بها جمعيات تاريخية قامت بدور البوتقة التى تنصهر فيها الأبحاث والمناقشات التاريخية . وكان أن ظهرت المجلات التاريخية التى تنشر هذه الأبحاث ، الأمر الذى يسر سبل التعاون بين الباحثين على نطاق دولى . ففى سنة ١٨٥٩ أسست الجمعية التاريخية الألمانية . وفى سنة ١٨٦٦ أصدرت الجمعية التاريخية الفرنسية مجلتها . وفى سنة ١٨٨٤ أصدرت الجمعية الإيطالية مجلتها ، كما صدرت المجلة التاريخية الإنجليزية فى سنة ١٨٨٦ والأمريكية فى سنة ١٨٩٥ .

كذلك تم تبادل الأساتذة بين الجامعات خلال الفترة السابقة على قيام الحرب العالمية الأولى وازداد هذا التبادل بصفة خاصة بين الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوربية وهو اليوم أكثر منه فى أى وقت مضى .

ولكن إذا كانت المدرسة الاستقصائية الحديثة فى التاريخ تفتخر بأنها تجنبت الناحية الفلسفية واستندت للموضوعية فى بحوثها ، فإن هذه (الموضوعية) نفسها سرعان ما غدت لها جوانبها

الفلسفية التى أصبحت لها نتائج أشار إليها شارل أوستن بيرد فى مقال له نشرته المجله الأمريكية التاريخية فى عدد أكتوبر ١٩٣٥ بعنوان (ذلك الحلم الجميل) . وعن هذا الموضوع بالذات ينبغى أن ننتقل الأن لإبداء بعض الإشارات والتعليقات والفروض القائمة خلف الموضوعية فى كتابة التاريخ .

الفروض القائمة خلف الموضوعية فى كتابة التاريخ

سنوجز فيما يلى ما نستطيع قوله بشأن فحص مبادىء المدرسه الاستقصائية الحديثة فى كتابة التاريخ (Erudite School) فحصا ناقدا ، ذلك أنه كان مفروضا لوقت طويل أن الكمال فى علم التاريخ لا يتأتى إلا بتحقيق مزيد من مبادىء فون رانكه ومدرسته واتباع أصوله وتعاليمه . كذلك كان يظن أنه طالما أصبح فى الإمكان نقد الوثيقة من حيث شكلها وجوهرها ، فإنه صار من الميسور أن نعيش فى الماضى الذى تحدثنا عنه تلك الوثيقه ونعيد تصوير وبناء ذلك الماضى كما كان بالضبط . ولكن تجمع لدينا من إمكانيات النقد العلمى ما يكفى لهدم جميع الفروض السابقة ففى المقام الأول استطاع علم النفس الحديث أن يقوض تماما افتراضات أولئك الذين يحلمون بتحقيق موضوعيه تاريخية تامة . ذلك أن علم النفس أوضح أنه ليس فى الإمكان إنتاج عمل ثقافى على مستوى رفيع دون أن يكون للقائم به اهتمام حقيقى واقتناع سليم بما يعمله ، وأن الرأى القائل بأن فكر الإنسان قادر على العمل فى حيوية وهو فى حالة فراغ عاطفى ودون هدف ، أمر يناقض تماما المبادىء الأولية فى علم النفس . وإذا كان علماء المدرسة الاستقصائية فى التاريخ ينادون بأنه ينبغى عدم الالتزام بفكر أو رأى معين عن أى موضوع قبل الإقدام على بحثه وهو الرأى الذى أصبح مقبولا تماما . ولا يشك فى صحته كافة المشتغلين بعلم التاريخ ، فإننا نؤكد هنا مرة أخرى القول بأنه على الرغم مما للحقيقة التاريخية من (قداسة) لدى رجال هذه المدرسة فإن هذا لا يحول دون وضع الحقيقة التاريخية موضوع التحليل الناقد .

إن كل حدث تاريخى هو بالضرورة فريد فى ذاته وليس له شبيه ولا يتكرر كلية مرة ثانية وأن كل حقيقة تتسم بهذا الانفراد وعدم التشابه مع غيرها من الحقائق وذلك بالنسبة للظروف الأخرى التى أحاطت بها وارتبطت معها . فالحقيقة التاريخية تعبر عن توافق مجموعة ظروف خاصة ولدت وانتهت بوقوع الحدث . ومعنى ذلك أنه عندما نقول إننا اكتشفنا حقيقة تاريخية فمعنى هذا أنه

توافر لدينا من المعرفة ما يجعل فى مقدورنا أن نعيد صياغة أو بناء عنصر أو أكثر من العناصر التى أحاطت بهذه الحقيقة وأن هذه الصياغة تتم على وجه ناقص فى ظروف تختلف تماما عن الظروف التى أحاطت بتلك الحقيقة . ومعنى هذا أنه ليس فى مقدور أحد أن يعيد خلق العناصر التى وجدت عند وقوع الحدث كما كانت ساعة وقوعه ، وكل ما نفعله الآن بخصوص الحقيقة التاريخية هو أننا نضع فيها نتاج تصورنا الذاتى . وأن ما يعتقده كثير من المؤرخين بأن هناك عديدا من الوقائع المترابطة والملموسة التى يطلق عليها اسم (حقائق تاريخية) وأن السبيل إلى الوصول إلى هذه الحقائق التاريخية لا يتهيأ إلا بجمع العديد من المصادر التاريخية ، هذا الاعتقاد ليس فى الواقع إلا اعتقادا ساذجا غير مقبول . ولسوء الحظ لم يتبدد هذا الاعتقاد بدخول التفكير العلمى الناقد إلى مجال التاريخ . ويمكن تشبيه هذا الاعتقاد لدى أولئك المؤرخين بالنظرة التى كانت لدى رجال العلم عن الذرة إذ كانوا يعتقدون أنها شىء بسيط لا ينقسم ثم اتضح أنها فى تعقدها تبلغ ما يبلغه عالمنا من تعقيد .

وفى بحث ممتع عنوانه «ما هى الحقائق التاريخية ؟» ألقاه الأستاذ كارل بيكر أمام الجمعية التاريخية الأمريكية فى روشستر بنيويورك فى ديسمبر سنة ١٩٣٦ تم القضاء تماما وإلى الأبد على الهالة الكاذبة والخرافة التى كانت تحيط بالحقيقة التاريخية . ذلك أن بيكر أوضح مدى ما نقع فيه من خطأ فادح حين نقول عن حقيقة من الحقائق التاريخية إنها حقيقة ثابتة . وقال البروفسور بيكر : (إنه إذا ما قلنا ذلك تبدو الحقائق التاريخية فى النهاية وكأنها أشبه بالأشياء الطبيعية شيئا صلبا وثابتا ، شيئا له شكله المحدد الواضح ، شأنها شأن الطوب والصخور . ومعنى ذلك أن يصبح فى الميسور تصور المؤرخ وهو يتجول بين حقائق الماضى ، وكأنه يتجول بين أشياء صلبة جامدة تصطدم بها أرجله إذا كان غير محترس منها) .

وأخذ بيكر حقيقة من أبسط حقائق التاريخ والتى لا نزاع بشأنها ولا خلاف حولها . ولنقل عبور قيصر للنهر الإيطالى روبيكون **Rubicon**[1] . فى التاريخ القديم . وأوضح بيكر مدى الصعوبة التى تحول دون الوصول إلى رأى قاطع يفسر لماذا عبر قيصر النهر وكيف تم هذا العبور . وتناول فى بحثه التباين الشاسع بين الآراء التى تناولت هذه الحقيقة لأن من يسردها لا بد أن يضفى

(١) أحد أنهار إيطاليا القديمة عبره قيصر فى سنة ٤٩ ق.م وكان معنى عبوره هو إعلانه الحرب على بومبى وعلى السناتو ، وأصبح الاصطلاح «عبر قيصر النهر» تعنى أن دولة ما استعدت للحرب . المترجم

عليها ذاتيته . كذلك تناول بيكر الأسباب الأساسية التى تثبت عدم صحة هذه الحقيقة اللهم إلا فى كونها تكون عنصرا من العناصر التى تؤلف رواية تاريخية يستحيل تنسيقها وتجميعها من جديد كما كانت وقت وقوع الحدث «وهكذا فإن حقيقة وألف حقيقة من الحقائق البسيطة الفرعية تجمعت لتتألف منها تلك الحقيقة الخاصة بعبور قيصر الروبيكون . ولو كان لدينا شخص مثل جميس جويس حاول أن يجمع هذه الحقائق التاريخية المرتبطة بتلك الحقيقة البسيطة لتطلب الأمر منه كتابة ٧٩٤ صفحة ليوضح حقيقة عبور قيصر نهر روبيكون» .

وبمعنى آخر فإن ما حرصت عليه المدرسة الاستقصائية فى التاريخ وما جعلته هدفها الرئيسى وهو الوصول إلى الحقيقة التاريخية البسيطة المجردة أصبح شيئا خرافيا ينطلى على بسطاء الفكر وقليلى الخبرة . ثم مضى بيكر يقول : «إن هذه الحقيقة التاريخية البسيطة حين تكتشف فليس معنى ذلك أن نتوقع وجودها بحدود واضحة ثابتة كالقطعة من الطوب أو الصخر . إن هذه الحقيقة التاريخية ليست إلا تعميماً لألف حقيقة من الحقائق الأبسط منها . وهذه الحقائق الأبسط لاتعنينا فى حاضرنا ، كأننا فى سردنا للتاريخ لا نستطيع أن نتناول الحقيقة الكلية مجردة من هذه الحقائق الأصغر منها العالقة بها . وجملة القول أنه كلما كانت الحقيقة التاريخية أبسط ما تكون كلما كانت أكثر تحديدا ووضوحا . لكنها فى نفس الوقت تصبح بالنسبة لنا أقل قيمة وفائدة فى مجال بحثنا . وعلى هذا الأساس ربما كان أكثر فائدة أن نقيم الحقيقة على أساس مدى فائدتها لنا بدلا من تقييمها على أساس صحتها أو عدم صحتها » .

وهكذا غدا الركن الأول الذى قامت عليه المدرسة الاستقصائية واهى الأساس ، الأمر الذى يجعلنا لا نستطيع أن نسلم بباقى أفكارهم ومفاهيمهم الأخرى . ذلك أن نظرتهم ينبغى أن يعاد النظر فيها على أنها تحوى قدرا كبيراً من الخيال والوهم ، وإن كانت تمثل خير مالدينا الآن .

وكانت الآراء التى خرج بها الأستاذ بيكر من بحثه كفيلة بأن تهدم أسس نظريات فون رانكه وتابعيه ، وذلك مثلما حدث عندما هدم علماء الطبيعة أمثال : اينستين ، بلانك ، شرودنجر ، هرندبرج النظريات القديمة فى علم الطبيعة والتى ظلت قائمة منذ نيوتن حتى هيلموهلتز ذلك لأنه من المتعذر تماما إعادة خلق الماضى كما كان بالتمام والكمال .

ولاشك فى أن هذا البحث الذى نشره بيكر احتل فى علم التاريخ مااحتلته نظرية اللانهايه فى علم الطبيعة المعاصر . ومن الواضح إذا أن المحور الأساسى الذى قامت عليه المدرسه

الاستقصائية ، ونعنى بهذا المحور : إمكان اكتشاف حقائق التاريخ على وجه الإطلاق والتحديد ، وإظهار الحقائق فى صورة واضحة محددة لاشبهة فيها ولاجدال حولها ، بحيث تظل هذه الحقائق فى ظل كافة الظروف ومن وجهة نظر جميع المؤرخين هى نفسها دون تغيير ؛ هذا هو المحور الأساسى الذى قامت عليه المدرسة الاستقصائية فى علم التاريخ إنما يصور وهما من أوهام عصر ماقبل علم النفس . ولخص الأستاذ أ . أ. جولد نوزر A. A. جوهر هذا الموضوع فى قوله :

« إن عمل المؤرخ لايخرج عن كونه اختياراً للأحداث التى يريد الحديث عنها . ولايمكن أن تنفصل نظرته عما يختاره من أحداث . فنظرته إليها تؤثر على اختياره إياها ولو تأثيراً جزئياً . وعندما يقول لنا المؤرخون إنهم مجرد ساردين للأحداث وأن الحقائق التاريخية تتكلم عن نفسها ، فإنهم بكل بساطة لايخدعون سوى أنفسهم إن الحقائق لاتتحدث عن نفسها ولكن المؤرخ هو الذى يتكلم عنها ويتحدث ، وإن الذى تعبر عنه هذه الحقائق إنما يعتمد على سحر عصاه » .

وهناك تغير جذرى آخر يحول دون تأليه الحقائق التاريخية ، ونعنى به : أن المؤرخين الاستقصائيين تناولوا هذه الحقائق وجمعوها دون ان يعملوا حساباً للعامل البسرى ، وهو عامل قوى له تأثيره ذلك أن كثيراً من علماء التاريخ فى الماضى والحاضر عالجوا الأحداث دون أن يكون لديهم أدنى استعداد لفهم هذا العامل البشرى ، بل إنهم فى الحقيقة وفى غالب الأمر كانوا لايشعرون بضرورة ذلك . فإذا اقتصر عملهم على جمع الحقائق وسردها فإنه عمل تستطيع الفيام به الكائنات النديية على اختلاف مراتبها أو أى لعبة من اللعب الخشبية يحركها صاحبها فتبدو وكأنها تتحرك من تلقاء نفسها .

وبمعنى آخر : فإن المؤرخين الجماعين للمعلومات مع اهتمامهم بسرد أعمال البشر فى الماضى ، إلا أنهم أهملوا العنصر الرئيسى فى هذا العمل وأعنى به مسلك الجنس البشرى وطبيعته وحتى عندما تظاهر المؤرخون بأنهم يكتبون تاريخ الإنسانية ، فإنهم أبعدوا الإنسان خارج الصورة التى يرسمونها . ولم يكتفوا بتركيز اهتمامهم بصفة أساسية فى تفاصيل الحقائق التاريخية وإنما أهملوا العناصر التى يمكن أن تكسب هذه الحقائق سندا كبيرا من الصحة والحقيقة ، وأعنى بها العلوم البيولوجية والاجتماعية التى تساعدنا على فهم طبيعة الإنسان الذى كان مسلكه فى الماضى سببا فى وجود العناصر التى تجمعت منها وتكونت بفصلها الحقيقة التاريخية . ويقول جمس هارفى روبنسون « إن عملنا بدون هذه المعرفة الهامة بمسلك الإنسان فى الماضى لايعدو أكثر من الوقوف عند شكل الأشياء وظواهرها فى الماضى ، بينما نظل نجهل كلّ الحقائق الكامنة والهامة فى التاريخ .»

إن المؤرخ الحقيقى ليس كالعامل الكادح أو الكاتب الجامع للحقائق من المصادر المختلفة إنه أكثر من ذلك ، إنه الشخص الذى يأخذ هذه المادة الخام ، ينقيها ويغربلها وينظمها بطريقه يستطيع بها أن يضىء أفكارنا عن الماضى وكيف تمخض الماضى عن الحاضر . وهذه المهمة تحتاج الى مقدرة كبيرة من نشاط الفكر للوصول الى التحليل والربط التاريخيين أكثر من مجرد المضى فى عمل بحث تاريخى فحسب . ولهذا السبب وحده نجد هناك كثيرين ممن ينتمون الى مهنة التاريخ ولايتعدى دورهم طلاب بحث ، بحيث لايمكن أن نطلق اسم مؤرخين حقيقيين الا على قلة منهم .

ولكن هذه المدرسة التى اهتم اصحابها بالمزيد من تحصيل المادة واتسمت بالاستقصاء وجمع المادة ، فإنها فيما فعلته حاولت أن تجعل من الحفار وصانع الفولاذ ، وصانع الطوب ومساعد البناء مهندسين . لقد حاولت هذه المدرسة أن تجعل من مهنة المؤرخ مهنة ضئيلة بحيث يقنع بما جمعه من مادة تاريخية وبذلك أضعفت الاهتمام بالمسلك التاريخى الصحيح .

أما إصرار المدرسة الاستقصائية على أن الموضوع الأساسى فى دارسة التاريخ هو الجانب السياسى ، فإن هذا الرأى تعرض لهجوم واسع ونقد فى الصميم ، بحيث إنه من السخف ومضيعة الوقت أن نسوق الأدلة لمناقشته وتفنيده . وخير مانقوله فى هذا المقام هو أن نردد قول فردريك هاريسون من أن مااعتبره فريمان Freeman جانبا مثاليا فى دارسة التاريخ ، إنما أغفل تسعة أعشار ماضى البشر ، وإنه من الأمور الواضحة تماما أن الجانب السياسى لايمثل من نشاط البشر سوى نسبة ضئيلة . وعلى هذا الأساس فإنه إذا كانت مهمة التاريخ هى تسجيل كل مافعله الإنسان وكل ماشاهده وابتغاه ، فإن أبعد الأمور عن الواقع أن نقصره على تسجيل الجوانب السياسية . ولما كان التاريخ السياسى ليس له سوى قيمة ثانوية ويأتى نتيجة لعوامل أخرى فإنه لايمكن أن يكون بمثابة الإطار الذى يضم بين جوانبه مواد التاريخ الأخرى غير السياسية .

أما أهم ماينسب إلى المدرسة الاستقصائيه من القول بأن البحث وتجميع الحقائق هو واجب المؤرخ وخير مايحققه ، فان هذا القول فى ذاته كفيل بأن يكون سلاحا يشهر ضدهم . فحقيقة الأمر هى : أن البحث التاريخى ليس سوى المرحلة الأولى والمبدئية من العمل التاريخى وأن البحث لازمة من لوازم التاريخ ، لكن ليس بالبحث فقط يكون التاريخ بأى حال من الأحوال . فالتاريخ لايكون الاحين ننسق نتائج البحث التاريخى ـ ونحلل وننظم ثم ندرس بعقلية مؤهلة تماما لديها القدرة على تفهم طبيعة البشر ونظمه الاجتماعية . وبهذا يمكن القول إن البحث التاريخى أصبحت له صفة الكتابة التاريخيه الفريدة .

وطالما اعتبر البحث التاريخى والتنقيب بين أحداثه المقياس النهائى للمقدرة فى علم التاريخ ، فإن الأمل صار ضعيفا فى أن تتعدى الغالبية الكبرى من الباحثين فى مجال التاريخ هذا النطاق ، وصار من غير الممكن أن يشعروا بأن مهمة المؤرخ تختلف عن مهمة كاتب الأرشيف .

ولايقل عن ذلك سوءاً كذلك تلك النظرية التى تنادى بها المدرسة التقليدية من أنه ليس هناك فروق جوهرية بين ماتصل إليه الأبحاث التاريخية من نتائج وقيم . ومعنى هذا القول أن العمل التاريخى يقاس فقط بمدى دقة الحقائق التى يتضمنها بصرف النظر عما تلقيه من ضوء على تطور المجتمع والحضارة . واذا كان للتاريخ مغزى عدا التظاهر بالمعرفة ، فان علينا أن نعترف بأن المادة التاريخية لاقيمة لها إلا بقدر ماتلقيه من ضوء على الحاضر . وليس معنى هذا القول أننا ندعو الى إهمال البحث فى بعض الجوانب الخاصة التى لها أهمية معينة عند الباحث فى مجال محدد ، لكننا نقول إن دراسة الديبلوماسية البروسية فى القرن السابع عشر لاينبغى أن يخصص لها من الجهد والوقت ما يخصص لدراسة العوامل التى أدت الى نشأة الرأسمالية والطبقة الوسطى والقومية فى غرب أوربا فى نفس القرن .

ومن الواضح لدى رجال الفكر أن الحقائق التاريخية لاقيمة لها مالم يتم ترتيبها وفحصها بدقة وتحليلها وتوضيح مضمونها بهدف إظهار تأثيرها على سير الحضارة . أما الوقوف عند مجرد جمع الحقائق وسردها .فإن ذلك شبيه بدور عالم الطبيعة عندما يكتفى بإجراء التجارب فى معمله ليدون نتائجها فى مفكرته الخاصة ولاشىء أكثر من ذلك . ومن المتفق عليه عالميا أن النتائج العلميه تؤدى دورها عندما نصل عن طريق مجموعة كبيرة من الأبحاث الى مايسمى بقانون العلم التجريبى . وعلى نفس المنوال فعلينا أن نعترف أن قيمة التاريخ الحقة تتحقق عندما نستطيع من مجموعة الحقائق التاريخية أن نصل الى خلاصة تاريخية سليمة من ناحية وعندما يتم سرح هذه الحقائق ودراستها بطريقة تجعل فى الإمكان أن نلم بمدى تأثير الماضى على الحاضر من ناحية ثانية ..

وهناك نقد آخر يوجه الى المدرسة الاستقصائية فى التاريخ بسبب حرصها الشديد ومبالغتها فى الحذر عند استخلاص النتائج التاريخية . وثمة مبدأ نأخذ به كل المدارس التاريخية التى لها مكانتها هو أنه ينبغى أن تقترن الأبحاث التاريخية باستنتاجات حتى ولو لم تتجاوز صحتها نسبة ٧٥٪

وعلينا أن نعترف أن الأمل فى الوصول الى الحقيقة التاريخية الصرفة محض خيال وأن أسمى مانتطلع إليه هو الاقتراب من الكمال . ويتحقق ذلك إلى حد ما عن طريق البحث الدقيق ، وإلى حد آخر عن طريق التوفيق فى الشرح والتحليل تم أخيراً بفضل عبقرية ومهارة المؤرخ

المتخصص . وفى نفس الوقت فان النتائج التى تقل نسبة الحقائق التاريخية فيها عن ٧٥٪ لاتقل خطورة عن النتائج التى تزيد نسبة الحقائق فيها عن ٧٥٪ ذلك أن المنطق التاريخى الذى يقلل من نسبة الحقائق يكون شأنه مثل من يزعم أن برميل البنزين يحتوى على عشرة جالونات بدلا من ٣٤ جالونا أو من يزعم أن محيط دائرة الأرض ألفان من الأميال بدلا من ٢٦ ألف ميل . إن الاقتراب من الدقة وليس مجرد المبالغة فى الحذر من الخوض فى أى استنتاج ينبغى أن يكون هدف المؤرخ .

ويرتبط بهذه الأفكار ذلك الاعتقاد الشائع أن امتناع الشخص عن نشر أبحاثه إنما هو دليل على ارتفاع مستواه العلمى . وليس معنى ذلك أننا نقر نشر العمل الذى لم يكتمل نضجه والبحث غير المتقن ، فذلك أمر آخر يختلف بالنسبة للقول بأن الدليل على بلوغ الشخص مستوى العلماء هو امتناعه عن نشر أبحاثه . ذلك أن رفض شخص نشر أبحاثه قد يكون دليلا على خموله وجموده ، وإن كانت هذه الدلالة ليست مطلقة لأن هناك علماء على أعلى مستوى يترددون فى نشر أبحاثهم . ومن ثم فإن الأمر بالنسبة لهؤلاء لايعدو مشكلة من مشاكل علم النفس المرضى ، وهى فى غالب الأحيان حالة (قلق عصبى) فكثير من تلك الأبحاث الخاصة بأولئك العلماء عبارة عن محاضرات ألقوها على طلبتهم . فإذا كانت هذه الأبحاث قد ألقيت على طلبة متخصصين فى قاعات الدرس فمن باب أولى أن ترى الضوء وان تنشر . أما إذا أحس الأستاذ بأن هناك من الحقائق مالاينبغى نشره فعليه أن يعترف بذلك وبأن أبحاثه ليست صالحة للنشر فى أى صورة من الصور . ولكنه ينبغى أن نفرق بين هذه الحالة وبين الأبحاث التى يحول دون نشرها إعدادها على عجل أو افتقارها إلى كفاية العمل التاريخى .

ولعل من الميسور أن نظهر سذاجة النظرة المثالية التى تفترضها المدرسة الاستقصائية فى المؤرخ المثالى . فإذا ما كانت هذه المدرسة تنظر إلى المؤرخ المثالى بوصفه الشخص الخالى من الإحساس والعواطف ، الذى لاتسيطر عليه فكرة سابقة ، فإن معنى ذلك أنها تفترض فى هذا المؤرخ المثالى حالة من الغباء الذهنى . ذلك أن الحياة البشرية فى حقيقتها تتصف بالحيوية والديناميكية وتحتاج فيمن يشرحها ويفهمها ويتناولها إلى شخص له نفس هذه الصفات . وإذا مازعم المؤرخ التقليدى بأن علينا أن نبحث عن الضوء دون أن تمسنا حرارته ، فإن زعمه هذا واهٍ ضعيف . فعلى حد علمنا لايوجد شىء يشع منه الضوء دون أن تتولد عنه حرارة سوى حشرة النار أو ما تعرف با(الحبحب) . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقارن بين ذلك المؤرخ التقليدى وهو

يبحث بلا هدف وسط المادة التاريخية الواسعة والمتناثرة وبين تلك الحشرة الضعيفة التى تنتقل بلا هدف موضوعى أو نتائج محددة . وقد جمع الأستاذ فرديناند شيفل كل خصائص المؤرخ الناجح كما تراه هذه المدرسة التاريخية . ولكنه تجاهل الحديث كثيرا عن تلك القيود التى التزمت بها .

وفى تلخيصه لآراء تلك المدرسة قال : هل من الممكن أن نجعل من كاتب التاريخ شخصاً ذا نظرة غير متحيزة وموضوعية ؟ فلكى يكون موضوعياً صرفا لابد أن يكون جافا لا روح فيه شأنه شأن الآلة الحاسبة الجامعة وهى مثالية فى الكفاية يرفضها كل من المؤرخ والقارىء . إن من حقنا أن نطلب من المؤرخ أن يكون أميناً ، قادراً على إخضاع كل عواطفه لعقله وفكره ، متمرساً على قراءة ناقدة ، لديه الاستعداد للتعمق فى بحثه فضلا عن الجلد بهدف الوصول إلى الحقيقة ، بحيث يصدر أحكامه على هذا الأساس .

ولعل من أسوأ ماأصاب الكتابة التاريخية تلك الفكرة المسيطرة القائلة : بأن تلك الكتابة ينبغى أن تكون مهذبة منسقة ، الأمر الذى أساء إلى حيوية وفعالية الكتابة التاريخية . وإذا كان المؤرخون من رجال هذه المدرسة الاستقصائية كثيرا مايغلب عليهم الميل العاطفى إلى موضوع معين أو مذهب دينى فإنهم يعترفون أنفسهم ولو من الناحية النظرية أن مثل تلك الأشياء هى من أسوأ مايضر بوضوح الرؤيا وصدق التحليل ، وهما من أهم لوازم المؤرخ .

وإذا كانت المجاملة وحسن الذوق فى كتابة التاريخ وتحليل أحداثه هى أهم مايتباهى به المؤرخ التقليدى ، فانه ممالاشك فيه أن حسن الذوق كما أدركه المؤرخون التقليديون ، أساء إلى كتابة التاريخ أكثر مما فعله التعصب والتحيز وهما الأمران اللذان جاهد المؤرخون سنين طويلة فى سبيل القضاء عليهما . ذلك أن الرجل (الجنتلمان) طبقا للخصائص التى يراها المؤرخون الأمريكيون يستحيل عليه أن يكون مؤرخاً له دوره الفعال فى مجال التاريخ ، شأنه شأن اليهودى الذى يستحيل عليه بثروته أن يشترى حق الدخول فى جنة الله .

ثم إن هناك موضوعا آخر هاماً . لقد أصبح من المعلوم لدى دارس علم النفس الحركى أن بعضا من نواحى حياة الإنسان التى يتعرض لها فى دراسة التراجم التاريخية لها دورها الهام فى تفسير شخصية الإنسان وسلوكه فى ماضيه وحاضره . ولانقصد بذلك الأمور المرتبطة فقط بالناحية الجنسية والغريزة . والمؤرخ التقليدى حين يمجد شخصية أسطورية ويجعل منها مثلا أعلى إنما يخلق شخصيات أسطورية ليجعل منها موضوعات لجهوده فى الترجمة ، هذا فضلا عن أنه فى كتابته

المهذبة فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى ومايبنغى أن تكون عليه الطبقة البرجوازية المثالية فى ذهنه ، يتناول بمنتهى الدقة والمجاملة أهمية العوامل المادية على التطور التاريخى . وما دامت الاشتراكية والحديث عنها يرتبطان بالنواحى الاقتصادية فإن ذلك كفيل بأن يجعله يعتبر الخوض فى هذه الموضوعات وكأنه شىء يتنافى مع الذوق بدرجة كبيرة .

ويرتبط بذلك مايفترضه المؤرخ فى حديثه عن شخصية من الشخصيات من ضرورة مراعاة إظهارها فى صورة نبيلة من ناحية الهدف والطبيعة ، فضلا عن الحرص على الارتفاع بتلك الشخصية عن توافه الأمور ، كل هذا جعل من البداية أن أى مجهود يبذل فى مجال التراجم ، أو أى مادة تستخلص من مادة التراجم ، عديمة القيمة ولافائدة تجنى من ورائها . إن ماينبغى أن يفترض فى مؤرخ التراجم الحديث والموثوق فيه هو أن يجعل من دراسته دارسة حية متكاملة عن الإنسان الذى يدرسه على النحو الذى عاشه هذا الإنسان . ومعنى هذا أن تكون النظرة إليه بوصفه إنسانا لايختلف عن بقية البشر فى كل مااتفق عليه علماء وظائف الاعضاء وعلماء النفس وعلماء الأمراض العقلية بخصوص تصرفات البشر وأهدافهم . وقد عبر جيمس ترسلو آدمز فى كتابه الحافل الذى أسماه : « فلسفات حية » عن الخلاف بين أصحاب النزعة الطبيعية من ناحية ، والمؤرخ الغامض من ناحية أخرى ، وذلك عندما شرح فى ذلك الكتاب مدى تفهم العصور الوسطى وإداركها للصفات البشرية . إن الذى يعالج شخصية من الشخصيات ينبغى عليه الإلمام بالجوانب الإنسانية فى الشخصية التى يدرسها مع توفر الاستعداد الفنى لديه لمعرفة دوافع السلوك الإنسانى . ثم عليه بعد ذلك أن يمضى قدماً فى جمع الحقائق وتنظيمها وتفسيرها مستهدفاً بذلك شرح الطريقة التى عمل بها ذلك الفرد الذى يترجم له منذ مولده حتى وفاته سواء أكانت شخصية تفيض بالنبل والإخلاص التامين وعاش يدافع عن العدالة الإنسانية . أم كانت نموذجا فريدا يتصف بالغرور والأنانية والفساد والظلم .

ثم هناك فكرة أخرى خاطئة وهو ماجرت عليه العادة من عدم تناول أعمال المؤرخين بالدراسة إلا بعد وفاتهم فنحن نكتب فى حرية تامة عن رالف الأصلع لأنه مات ولانكتب عن واحد من المؤرخين الأحياء . ومعنى ذلك أن للمؤرخين الأحياء أن يفعلوا مايشاءون ، وأن يأتوا بما شاءوا من آراء ونظريات باطلة تستطيع أن تجد مكانها وتبقى مدة تزيد عن الأربعين عاماً قبل أن يظهر من يتناولها بالبحث والنقد . وبصرف النظر عما لذلك من أثر سىء على التاريخ فانه اتجاه غير شريف وغير رياضى . فمن أعدل الأمور أن نهاجم المؤرخ وهو حىّ حتى نمكنه من الدفاع عن نفسه .

ومن أسوأ نتائج مسألة مراعاة الذوق في الكتابة التاريخية أن نجد علماء المؤرخين وقد صار لهم وجهتا نظر متناقضتان عن مسألة من المسائل . مثال ذلك : موضوع من هو المسئول عن الحرب العالمية ، أو طبيعة التجربة الشيوعية فى روسيا السوفيتية وكيف انتشرت . نجد الأستاذ الفطن له وجهة نظر أمينة ومنطقية قائمة على الحقائق يدلى بها صراحة لأصداقائه المقربين وطلبته حين اجتماعه معهم فى قاعات البحث ، فإذا مانشرت أبحاثه وكتبه تجده وقد ترك جانباً آراءه ومعتقداته الخاصة التى أدلى بها فى قاعات البحث ليدلى بآراء مخالفة تتمشى مع الآراء التى يجمع عليها أبناء مهنته وزملاؤه من المؤرخون . وقد تجد هناك فارقاً كبيرا بين الرأيين . فهل يحدث مثل هذا فى العلوم الطبيعية مثلا ؟ هل يحدث أن يدلى عالم من علماء المواد الطبيعية فى مجال خاص برأى عن تطور فاذا ماطلب منه نشره أعطى رأياً مخالفاً ؟

إن بعض المؤرخين المتشددين فى الاتجاه القومى مثل دروبسن ، فون سبيل ، فون ترتيشك كانوا فى وضع أحسن من أولئك الأساتذة أصحاب الرأيين ، لأنهم مع أنهم ذهبوا بالتاريخ فى مجرى غير مجراه الصحيح كانوا متحمسين لوطنهم فى السر والعلن . وقد يكونـون على خـطأ لكنهم لاينافقون فيما دافعوا عنه .

ويمكن القول فى صدق إن عقدة المجاملة ومراعاة الذوق هى بلا نزاع التى حالت بين المؤرخين ذوى المكانة المحترمة وبين الإفصاح عن الحقيقة . وكانت عقدة مراعاة الذوق هذه هى الحائل دون إبراز الحقيقة والتزام الأمانة فى القول والإخلاص والدقة ، فكان شأنها على هذا النحو شأن التحيز والتعصب للوطن عندما حلت فى الماضى دون سرد الحقيقة . وليس معنى ذلك الدعوة الى الكتابة المبتذلة الجارحة ، فليس هناك من يؤيد هذا الاتجاه وليس هناك من يأبى أن تكون الكتابة مهذبة . لكن مكمن الخطورة على الكتابة التاريخية هو أن تتسبب مراعـاة الذوق فى مصـادرة الأمانـة والصراحة وقول الحق . ولايدخل فى هذا كل المؤرخين الذين اتسمت كتاباتهم بالدقة . فمؤرخون مىل جيمس هارفى روبنسون ، كارل بيكر ، وبريزرفد سميث ، فرديناند شيتل ، مثلاً كانوا من أصرح المؤرخين ومع ذلك فان كتاباتهم اتسمت بالدقة والدماثة .

والحقيقة المفروغ منها هى أن هذه المدرسة الاستقصائية فى التاريخ لم يصـل أصحابهـا فى مراعاتهم لحسن الذوق فى الكتابة حد السيطرة على المشاعر والانفعالات ، لكن كل مافعلته هذه المدرسة هى أنها تمشت مع اتجاهات رسمية وأقرت آراء معينة من فترات التاريخ . ومثال ذلك مالقيته هذه المدرسة من تأييد حار من جانب المؤرخين الذين اتسم موقفهم بالتحيز والتعصب فيما

بين الحربين العالميتين . وفى العقد الأخير من القرن التاسع عشر كان الرأى السائد هو إرجاع أصول التاريخ الأوربى والأمريكى الى منبع أنجلوسكونى . وكان الشخص الذى يجرؤ على عرض وجهة نظر مخالفة وينادى بأن الحضارة الغاليه هى أصل الحضارات الحديثة يتهم بالزيغ والانحراف عن الصواب . لكنه منذ سنة ١٩١٤ صار من المألوف أن نجد من يرفض وجهات النظر التيوتونية والأنجلوسكونية ووجدنا من يقول : إن فرنسا هى المنبع الحقيقى وهى مستودع الحضارات عبر الأزمان .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

H. B. Adams,*Methods of Historical.*Johns Hopkins press, 1884.
A. W. Small,*Origins of Sociology,* chaps. iii - v. University of chicago press. 1924.

Guilday,*church Historians,*pp. 212 - 415.
Wegele,*Geschichte der deutschen Historiographie,*Book V.
Ritter,*Die Entwicklung der Geshichtswissenschaft,*Book V.
Fuetei ,*Histoire de ,Lhisoriographie moderne,*pp. 387 - 99, 574 - 614.
Gooch,*History and History and Historians in the Nineteenth Century-*,chaps. chaps. vi - vii, xii, xviii - xxvii.

Thompson,*History of Historical writing*Vol. II, chaps. xxxvii, xli - xlii, xlv, xlvii.

schevill,*Six Historians,*pp. 125 - 190.
B. E. Schmitt, ed.,*Some Historians of Modern Europe.*University of chicago press, 1942.
S. W. Halperin. ed,*Some Twentieth ceniury historians.*University of chicago press, 1961.

A HISTORY OF HISTORICAL WRITNG

Herman Ausubel *et al., Some Modern Historians of Britain.*Dıyden press, 1951.

*Historians and Their craft.*columbia university press, 1950.
R. L. schuyler, ed.,*frederic William Maitland.*University of California press, 1960.

Gettrude Himmelfarb,*Lord Acton.*University of Chicago press, 1952.
H. F. Helmolt,*Leopold von Rankes Leben und Werken.*Leipzig, 1921.
S. Steinberg, ed.,*Die Geschichtswissenschaft der Gegenwart in Selbstdarstel. Lungen.*Leipzig, 1925-26. 2 vols.

Guiland, *Modern Germany and Her Historians.*
G.A.H. von Below, Die deutsche Geschichtsschreihung Von Befreiungs-kriegen bis zu unseren Tagen. Munich 1924.
Gustav Wolf *Einfuhrung in das Studium der neueren Geschichte.* Berlin, 1910.
Halphen, *L'Historire en France depuis cent ans.*
Louis Halphen, et al., Historie et historiens depuis cinquante ans. Paris, 1927-28. 2 vols.
Croce, *Storia della storiografia italiana.*
P.N. Miliukov, *Main Currents of Russian Historiography.* Moscow, 1898.
Kraus, *A History of American History.*
The Wrinting of American History, chaps. viii, ix, xi-xii.
M. E. Curti, ed., *Theory Practice in Historical Study.* Social Science Research Council, 1946.
Elizabeath Stevenson, *Henry Adams: A Bigraphy.* Macmillan, 1955.
J. R. Cameron, *Frederick William Maitland and the History of English Law.* University of Oklahoma Press, 1961.
Henri Marrou, *De la connaissance historique.* Paris, 1956.
William Dray, Laws and Explanation in History. Oxford University Press, 1957.
Fritz Wagner, *Geschichtswissenschaft.* Berlin, 1951.
Moderne Geschichtsschreibung. Berlin, 1960.
H. W. Odum, ed., *American Masters of Social Science.* Holt, 1928.
A. M. Schlesinger *et al., Historical Scholarship in America.* American Historical Association, 1932.
J. M. Vincent, *Historical Research:* an Outline of Theory and Practice. Smith, New York, 1929.
G. G. Crump, *History and Histoical Research.* London, 1928.
Allen Johnson, The Historian and Historical Evidence. Scribner, 1926.
G.V. Langlois and Charles Seignobos, *Introduction to the Study of History.* Holt, 1912.
Ernst Bernheim, *Lehrbuch der historischen Methode und Geschichtsphilosophie.* Leipzig, 1908.
H. C. Hockett, *Critical Methode in Historical Research and Writing.* Macmillan, 1955.
Heinrich Srbik, *Geist und Geschichte vom deutschen Humanismus his zur Gegenwart.* 2 vols. Munich, 1951.

الفصل الحادى عشر

الحربان العالميتان : انهيار الدراسة التاريخية ثم نهضتها .

الحربان العالميتان والصدام بين القومية والمنهج العلمى فى الكتابة التاريخية .

بدت حركة البحث التاريخى وكأنها وصلت فى سنة ١٩١٤ إلى أسمى درجات الموضوعية وعدم التحيز . فاستهدف الباحثون التحرى عن الحقائق أكثر من استهدافهم التعبير عن مشاعرهم الوطنية . ولكن هذا لم يحل دون ظهور بعض الأعمال التاريخية الهامة التى طغت عليها الصبغة الوطنية وإن كانت هذه الظاهرة ــ خروجاً على القاعدة العامة . ذلك أن المؤرخ الذى سمح لمشاعره الوطنية أن تطغى على أحكامه أو تنال من اتزان فكره كان موضع نقد شديد ، فى حين أن المؤرخ الذى توافرت لديه القدرة على عدم التحيز ــ خصوصاً فى الموضوعات ذات الآراء المتضاربة أو الأبحاث التى تمس عزة وطنه كان موضع احترام وتبجيل كبيرين .

ولكن حدث مع مجيىء الحرب العالمية الأولى أن انبعثت المشاعر القومية من عقالها مما أدى إلى نكوص الكتابة التاريخية إلى الوراء ، أى إلى العهد السابق لفون رانكه .

وإذا قارنا كتابات المؤرخين عن الحرب العالمية بين سنتى ١٩١٤ ، ١٩٢٠ بكتابات مؤرخ مثل فوستيل دى كولانج عن العنصر الجرمانى أو بكتابات فون سيبل عن الحرب الفرنسية البروسية ، لوجدنا أن هذه الكتابات الأخيرة تتصف بأنها من النوع الهادىء الذى يتبع التحليل التاريخى . والحق أنه ليس من المبالغة فى شىء أن نقول إنه منذ أيام ماجدبرج ، بارونيوس ، فوكس Khox ومبمبرج Maimburg لم تشهد الكتابة التاريخية ما شهدته على أيام الحرب العالمية من عنف وغلظة

وبعد عن الهدوء . فرجل مثل أدوارد ماير من أعظم المؤرخين الذين بقوا على قيد الحياة ، وشهدوا هذا العهد ، نراه وقد تخلى تماما عن اتزانه وابتعد عما يفرضه شرف مهنته فاستسلم للهستريا الوطنية التى أصابت كافة المؤرخين فى كل البلدان . ثم كان أن أخذت مختلف الحكومات فى نشر « وثائق رسمية » عن أزمة سنة ١٩١٤ مستهدفة بذلك تبرير سياستها وللأسف امتدت يد التغيير والتزييف إلى هذه الوثائق ، وأسهم المؤرخون أنفسهم فى هذا التزييف ، ولم يحدث منذ العهد المسيحى الأول أن شهدت الوثائق التاريخية تزييفا على هذا النحو الواسع المدمر .

وفى بداية الحرب أصدر عدد كبير من الأساتذة الألمان البارزين « بياناً » يوضح وجهة النظر الألمانية فى مشكلة الحرب وأسبابها . وكان من بين الموقعين عليها عدد من المؤرخين ، شاءت الصدفة وحدها أن تؤيد ما قالوه وأذاعوه . ومعنى ذلك أن اقترابهم من الحقيقة لم يكن مرجعه أنهم نبذوا العاطفة جانباً مما مكنهم من أن يكونوا خبراً من الأساتذة الذين بحثوا الاتفاق الودى مثلاً . هذا فضلا عن أنهم لم تكن لديهم معرفة بخبايا الوثائق التى أيدت ادعاءاتهم فيما بعد . أما ادوارد ماير فقد ترك العمل فى مؤلفاته العلمية لكى يصدر المقالات التى يهاجم فيها الامبراطورية البريطانية وينتقدها نقداً لاذعاً . هذا فى حين تولى ديتزخ سافر Dutrich Schafer الدفاع فى حماسة عن برنامج الحركة الجرمانية وكان هذا هو أبرز ما قام به العدو الألمانى حين لجأ إلى التاريخ يستخدمه لمساندة القضية الجرمانية .

أما المؤرخون الفرنسيون فكانوا أكثر نشاطاً وتحمساً وإثارة من الألمان . وكان أرنست لافيس هو عميد المؤرخين الفرنسيين على الإطلاق بالنسبة لما كتبوه عن حرب ١٩١٤ . وترجع شهرته فى هذه الناحية إلى تحمسه السابق للثقافة الألمانية ثم تزعمه لحركة تجريح الألمان بعد ١٩١٤ . ذلك أنه رفض علانية فى إبريل ١٩١٥ اقتراحا محايدا بأن يتولى رجال الفكر فى الدول المتحاربة دراسة قضية الحرب وشروط السلام . وهاجم الألمان فى كثير من خطبه ومقالاته حتى قال فى خطبة له عن المانيا فى جامعة السوربون : إنها (المانيا) تسمم الفكر مثلما تسمم الماء والهواء . إنها أكبر مفسدة على وجه الأرض » . ثم إنه خاطب المندوب الألمانى فى مؤتمر الصلح فى باريس قائلا : « انتم هنا أمام قضاتكم للإجابة عن أكبر جريمة ارتكبتموها فى التاريخ . إنكم ستكذبون لأن طبيعتكم الكذب . ولكن كونوا على حذر . إن الكذب مهلكة خصوصا إذا عرفتم الذين يسمعون لكم وينظرونكم يعرفون أنكم تكذبون » .

أمـا الفونس أولارد المؤرخ العـالمى الشهير عن الثـورة الفرنسيـة ، فكتب عن الألمـان قائلا : « إن الكذب هو المهنة القومية للألمان . وعليه يقوم نظام حكمهم . لقد أسس الهوهنزلرن الحكومة البروسية على أساس الكذب . وأخيراً وعلى نفس الأساس ولمصلحة بروسيا أسست الحكومة الألمانية . وتأسف اولارد لعقد هدنة مع الألمان ، لأنه رغب فى ذبحهم وافنائهم . أما هنرى هاوس Henri Hauser المؤرخ الخبير فى دراسة القرن السادس عشر فقد هاجم فى عنف روح الاستسلام عند الالمان ، كذلك استفز جورج بلوندول Blondel ــ وهو المؤرخ الفرنسى الرائد فى دراسة المانيا الحديثة ــ الألمان فى كتابات مطولة متهما إياهم برغبتهم فى إقامة دكتاتورية عسكرية تفرض سيطرتها على كل انحاء العالم . وتطوع المؤرخ لافيس فى نشر كل أبحاث الألمان غير المؤمنين بالمبادىء الجرمانية مثل ريتشارد جريلنج واستبعد من مهنته نشر ما أصر عليه الكتاب الألمان الذين بقوا على ولائهم وإخلاصهم للنزعة الجرمانية مثل الكونت ماكمسيلان مونتجلاى . وحرص أميل بورجوى Burgeois وهو المؤرخ والناشر الشهير على الدفاع عن روسيا وعدم إدانتها بالنسبة لهذه الحرب . أما جورج رينارد Renard وهو صاحب المذهب الاشتراكى والمؤرخ الاقتصادى البارز فقد أسهم فى الدعاية لصالح الحلف المعادى لألمانيا والذى كان من سياسته مقاطعة كل ما هو ألمانى .

وفى انجلترا كتب ويكهام ستيل Wickham steel قصصا لا تستند إلى الحقيقة عن جذور الحرب . وادان النمسا ومجد الصِّرْب . أما ر . و . سيتون واطسون فقد دافع عن السلاف الجنوبيين وأدان سياسة الامبراطورية النمسوية المجرية . اما ج . و . هيدلام الذى كتب سيرة بسمارك فقد اشترك مع هـ . ج . ولز Wells فى تنظيم وإخراج الدعاية المضادة لألمانيا . وفى مقابل هذه الخدمة أنعم عليه بلقب سير وأصبح يعرف بالسير جـ . و . هيدلام مورلى J .W. Headlem —Mor-ley كذلك سقط المؤرخون الانجليز فى هذه الهوة فيما عدا قلة قليلة مثل ريموند بيزلى Raymond Beazley ، ف . و . هيرست ، ف . ك . كونبير . كان هيرست أساسا رجل اقتصـاد وكونبـير متخصصا فى دراسة الانجيل . بل إننا نجد رجلا مثل المؤرخ الاقتصادى العظيم ذى الشهـرة الواسعة اركيـديكون وليم كننجهـام Archdeacon William Cunningham يهاجم النـزعة المسالمة عند الانجليز ، ويرى أن واجبهم أن يتعقبوا من يسعى لاستئصال الخير من هذه الدنيا ، ويقول انه من الواجب على الجنود الانجليز ان يقتلوا الألمان قدر استطاعتهم . وقد جمعت نداءاته التى تنادى بمزيد من دم العدو وطبعتها جمعية نشر الإنجيل .

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد خرج عدد كبير من المؤرخين على ما سبق أن التزموا به فكريا وفاقوا بانكروفت فى حماستهم الوطنية . ومرجع ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت بعيدة عى أى خطر حقيقى . وفى غياب طلقات المدفع ، كان على الجماهير الأمريكية ان تثأر بطلقات ملتهبة من البلاغة والبيان . ثم إنه لم يكن هناك غنى عن الدعاية لبناء معنويات الأمريكيين وجعلهم يستعدون للتضحية بالدم . وهكذا تعرض المؤرخون الأمريكيون القليلون الذين التزموا بالموضوعية التى كانوا عليها قبل الحرب للامتهان . واتهموا فى بعض الأحيان بأنهم منشقون على الفكر الأمريكى . ومن هؤلاء سيل Sill شيفل ، طومبسون ، هندرسون ، شيفرد Shepherd ، بريزرفد سميث وآخرون . لكن الهجوم كان أقوى على أولئك الذين أيدوا الألمان مثل الأساتذة برجس ، سلون Sloane وأنتخب وليم روسكوثاير رئيسا لاتحاد الجمعيات التاريخية الأمريكية مرتين لأنه كان من أكثر من ساهم فى مجال استخدام التاريخ للدعاية الحربية . ولم تجد التحذيرات التى أطلقها هـ . مورس ستيفنس H. Morse Stephens فى خطابه الذى ألقاه يوم انتخب رئيسا لاتحاد الجمعيات التاريخية الأمريكية قبل الحرب بعام .

أما من تزعم حركة التنديد بالألمان من المؤرخين الأمريكيين فهم وليم روسكاثاير ، شارل دونر هازن Charles Downer Hazen وليم ستيرنس دافيس William Stearns Davis مونرو سميث ، البرت بوشنل هارت ، ايرل ا. سبرى Earle E.Sperry ماك نت ماك الروى R. Mc Nutt McElory ، ا. رايموند تيرنر ، برنادوت شمت ، كلود هالستد فان ثين . ومن أعجب الأمور حالة المؤرخ جورج لنكولن بير الذى كان واحدا من أبرز ستة مؤرخين فى أمريكا وكان من دعاة التسامح . ولكنه وقد جرفه تيار التعصب برغم تقدم سنه ، ارتدى البدلة الكاكية وتدرب مع الشباب فى معسكرات كورنل . كذلك ساهمت جامعات معينة فى إخراج دراسات تاريخية عن فلسفة الكراهية للألمان . وأبرز مثل لذلك ما أصدرته جامعة وسكونستين بعنوان (كتاب الحرب) . هذا عدا وثائق مشابهة أصدرتها جامعات أخرى . وخير دليل على التحول عن الموضوعية كان ما انتجته منظمة الهيئة القومية لرعاية التاريخ (The Organization of the National Board For Historical service) التى كان يشرف عليها الاساتذة جـ . ت . شوتويل ، جاى س . فورد Gay S. Ford ، وما قامت به هذه المنظمة من تعاون مع مكتب كريل وهو الفرع الرسمى الحكومى المختص بأمور الدعاية . وكان أن تافس شوتويل جيمس هارفى روبنسون فى زعامة المدرسة الجديدة فى التاريخ . وساعده فى الهيئة القومية من سجلت أسماؤهم فى

لوحة الشرف مؤرخون سبق أن كانوا من أبرز المؤرخين الأمريكيين تجلت فضائلهم فيما قاموا به من أبحاث تاريخية فى الولايات المتحدة الأمريكية . وهكذا اتجهت الكتابة التاريخية فى الولايات المتحدة الأمريكية لخدمة شئون الدعاية وأخذ المؤرخون الأمريكيون المشهورون يسهمون فيما تنشره هذه الجمعيات التى يغلب عليها الطابع الوطنى مثل مجلس الأمن القومى وجمعية الدفاع الأمريكية ولم يقتصر الأمر على ما وجه للألمان من كونهم أمة صغيرة أقل شأناً من الأمة الأمريكية بل صار هناك تركيز حول ما لبريطانيا من فضل على الأمريكيين . وكان معنى ذلك أن الثورة الأمريكية صارت خطأ ينبغى استهجانه . واستمرت رئاسة اتحاد الجمعيات التاريخية مدة عشر سنوات بعد الحرب يتولاها أولئك الذين يكرمون مقابل ما أدوه من خدمات لقضية الحلفاء .

ثم أقبل الفجر

وإذا كانت العاطفة والولاء ظلتا تستحوذان على عقول معظم المؤرخين لمدة عشر سنوات أو أكثر بعد سنة ١٩١٨ ، فإن هناك تحولا محدودا سرعان ما ظهر بين قلة من المؤرخين ذلك أنه ظهرت مصادر جديدة يسترشد بها الباحث بدلا من تلك الوثائق الرسمية المنتقاة بعناية والتى طبعتها الحكومات المختلفة خلال الحرب . وتوفرت هذه المصادر نتيجة لما قام به عدد من الأساتذة العلماء الذين لم يجرفهم تيار العاطفة خلال الحرب أو من بين أولئك الذين تخلصوا من هذا التيار بعد الحرب . وهؤلاء وهبوا أنفسهم لدراسة الوثائق التى صدرت عن الحرب . وكانت النتيجة أنه خلال عشر سنوات أصبح لدينا معرفة متكاملة ودقيقة عن أسباب الحرب العالمية الأولى أكثر مما لدينا فى سنة ١٩١٤ عن أسباب الحرب البروسية الفرنسية .

وإذا كانت الكتابة التاريخية خلال الحرب قد تركت أثراً عميقاً على خط سير الأبحاث التاريخية ، فإن الجهد الذى بذله عدد من أقدر المؤرخين بعد انتهاء الحرب فى الدراسة التى قاموا بها وتناولوا فيها مقدمات سنة ١٩١٤ يعتبر من أبرز الأمثلة على عظمة ما ظهر من أبحاث تاريخية فى مدى قرن كامل .

وعلينا الآن أن نتقصى أسباب هذه النهضة التى لحقت بالكتابة التاريخية فى إيجاز والتى خرجت إلى حيز الوجود بعد انتهاء الحرب . ذلك أنه كان من المعتاد حتى الوقت الذى اندلعت فيه نار

الحرب العالمية الأولى أن تخفى الحكومات الوثائق المتعلقة بالأحداث الخاصة بسياستها الخارجية لمدة أربعين أو ستين سنة من تاريخ حدوثها .

فمثلا فى سنة ١٩١٤ لم تنشر كل من فرنسا أو المانيا الوثائق الخاصة بالحرب البروسية الفرنسية التى وقعت سنة ١٨٧٠ . فكيف أمكن اذا للمؤرخين فى مدى ربع قرن فقط منذ ١٩١٤ أن يفرغوا من دراسة تلك الوثائق التى جاءت بها الحرب العالمية دراسة لا مزيد عليها ؟ الواقع أن الموقف كان يشكل تماما تجربة جديدة بالنسبة لتاريخ البشرية ، ذلك أنه نجم عن الثورات التى تأججت فى كل من النمسا ، وروسيا وألمانيا فى سنة ١٩١٧ – ١٩١٨ قيام حكم جديد فى كل منها لم يكن له مصلحة فى إخفاء الحقائق بل كان نشرها أمرا يساعد على زعزعة الثقة فى النظام الملكى السابق على وجود هذه الأنظمة . وقد استهدفت هذه الأنظمة الجديدة فى تلك البلدان من وراء نشر تلك الوثائق الموجودة فى وزارات الخارجية ، إبراز الحقيقة الخاصة بأن الحكومات الإمبراطورية هى المسئولة عن إشعال نار الحرب العالمية . واعتقد الحكام الجدد أن ذلك أمراً من شأنه أن يدعم الحكم الثورى الجديد . كذلك أحس هؤلاء الحكام أن كراهية الناس للأنظمة القديمة تأتى من خلال معرفتهم بأن الحكومات الملكية هى المسئولة عن الدمار المخيف الذى لحق بالعالم من جراء الحرب العالمية .

وهكذا تطوعت الحكومات النمساوية والألمانية فى نشر طبعة كاملة للوثائق الموجودة فى وزارات الخارجية لديهم والتى تناولت حرب ١٩١٤ ونشرت هذه الوثائق فى النمسا تحت اسم « الكتاب الأحمر » وفى المانيا عرفت باسمKantsky Documentsثم نشر الألمان فيما بعد كل الوثائق الخاصة بالفترة منذ سنة ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ . كما أصدر فردريك ثيمThimmeوآخرون الكتاب الشهير باسم « السياسة الكبرى »Gross Politikتاركاً الوثائق تتكلم عن سياسة المانيا الخارجية فى نصف القرن السابق على قيام الحرب ومتحديا الدول الأخرى أن تفعل ما فعلته المانيا . ونشرت النمسا هى الأخرى فيما بعد تجميعا مختصراً فى ثمانية أجزاء للوثائق الخاصة بالفترة منذ ١٩٠٨ إلى ١٩١٤ . وقام بتدوين هذه الوثائق لودفيج بتبرLudwig Bittner وهانز اوبرسبرجر Hans Ubersberger . وكشفت هذه الوثائق عن العلاقة بين النمسا والصِّرْب فضلاً عن أنها تضم فحوى ما تدعيه النمسا ضد الصِّرْب والروس .

وبالمثل حدث تقدم كبير فى وزارات الخارجية فى دول الحلفاء من أجل نشر الوثائق وكانت روسيا أولى الدول التى نشرت وثائقها بادئة بنشر مواد المعاهدات السرية للاتفاق الودى بين دول

الحلفاء الذى وقع فى نوفمبر ١٩١٧ . ولم تنتظم الحكومة الروسية البلشفية فى طبع وثائقها وإنما سمحت للدارسين الفرنسيين والألمان مثل رينيه مارشان Rene Marchand فردريك ستيف Fredrich Stieve أن يطلعوا على الاراشيف ويأخذوا منها ما يرونه مناسبا لأبحاثهم . وكان أن جمع ستيف الوثائق التى أمكنه الاطلاع عليها ونشرها فجاءت شيئا لا نظير له من حيث تحرى الأمانة والدقة . كذلك قام ب . دى سيبير B.de Siebert سكرتير السفارة الروسية فى لندن بنسخ الوثائق المتبادلة بين سانت بطرسبرج ولندن فى السنوات السابقة على الحرب . وأعد الوثائق للنشر . أما إ . أ . اداموفE.A. Adamov فقد اعد للطبع الوثائق الخاصة بصراع روسيا للسيطرة على المضايق .

وكانت الحكومة البريطانية أول حكومة غير ثورية تتطوع بنشر وثائقها الخاصة عن نشوب الحرب العالمية ، فبدأت ذلك فى خريف ١٩٢٦ . وصدر من هذه الوثائق الرسمية عن أصل الحرب أحد عشر جزءاً تناول الأحداث من سنة ١٨٩٨ ــ ١٩١٤ . وقد قام بإعدادها للطبع جـ . ب . جوش ، G.P. Gooch/هـ . و . ف . تمبرلى . وإذا كانت الحكومة الفرنسية لم تنشر وثائقها إلا بعد عام ١٩١٤ بما يتجاوز عشر سنوات فإننا نستطيع أن نتعرف على الحقائق الأساسية المتعلقة بالدبلوماسية الفرنسية من واقع الوثائق الروسية والبريطانية ، لأن الفرنسيين كانوا حلفاء الإنجليز والروس فى تلك الحرب . وقد أوضح ما قام به ديمارتيال Demartial فون فرجر von Wergerer وآخرون معهما أن الوثائق الفرنسية التى صدرت باسم الكتاب الاصفر عن فترة الحرب تحوى الكثير من الحذف والتحريف ، وأنه ليس من المطبوعات الرسمية التى باسم الكتاب الأصفر عن فترة الحرب تحوى الكثير من الحذف والتحريف ، وأنه ليس من المطبوعات الرسمية التى صدرت خلال الحرب ما يضاهيها فيما حوته من تحريف . ولا يقارن بها فى ذلك الاتجاه سوى ما أصدره الروس باسم الكتاب البرتقالى .

وبناء على طلب الباحثين المحايدين من كل أنحاء العالم وبناء على طلب عشاق الحقيقة فى فرنسا ، أعلنت الحكومة الفرنسية أخيراً فى سنة ١٩٢٨ أنها ستطبع الوثائق المحفوظة فى وزارة خارجيتها والمتعلقة بأزمة ١٩١٤ وعن التيارات السياسية المتعلقة بسنوات ما بعد ١٨٧١ . وأوضح روبرت ديل Dell فى بحث له دقيق نشر فى لندن بتاريخ ١٤ يناير ١٩٢٨ فى صحيفة الأمة أن اللجنة التى عهدت إليها الحكومة الفرنسية باختيار الوثائق وإعدادها للطبع لم تهتم بالدقة والأمانة

ومراعاة الترابط والتكامل فيما تنشر . ولم تضم اللجنة أحداً من المعارضين للحكومة أو المؤرخين بقصد مراجعة هذه الوثائق ، وقال ديل ما نصه : « إن الحكومة الفرنسيه اعترفت أخيراً بأنها لا يمكن أن تمتنع وتماطل أكثر من ذلك فى طبع وثائقها الديبلوماسيه المتعلقة بأصل الحرب . ولذلك ألفت لجنة من ٤٨ شخصا للإشراف على عمليه النشر وتضم هذه اللجنة أربعه أمناء كان ثلاثة منهم موظفين حكوميين كما ضمت اللجنة بين أعضائها ثلاثة عشر من المرظفين الدائمين فى وزارة الخارجية الفرنسيه ومن رجال السلك السياسى ، معظمهم كان من له اهتمام عن قرب بالأحداث التى أدت إلى الحرب . وتشكيل اللجنة على هذا النحو يؤكد سوء قصد الحكومه الفرنسة ويوضح أن الحكومه الفرنسيه لن تنشر كل وثائقها لأنها إن فعلت ذلك سيتضح أن كثيراً من الحقائق حذفت واستبعدت من كتابها الأصفر . وقد أثبت ذلك من قبل م . ج . جورج دمارتيال فى كتابه الصغير (انجيل وزارة الخارجية الفرنسية) وهو الكتاب الذى لم يصدر عليه تعقيب ولا يمكن أن يصدر مثل هذا التعقيب .

وفى سنة ١٩٢٩ ظهرت الأجزاء الأولى من الوثائق الديبلوماسيه الفرنسيه ١٨٧١ ـ ١٩١٤ وأخذت طابعاً معيناً فى اختيارها وإعدادها للنشر . لكن هذه الأجزاء التى صدرت فاقت فى دقتها أى كتب أخرى صدرت عن هذا الموضوع .

وكان أن أغار الألمان خلال الحرب على الأرشيف البلجيكى ونشروا مجموعه الوثائق الديبلوماسية البلجيكيه تحت إشراف برنارد شورتفجر Bernhard Schwertfger أما مجموعة الوثائق الخاصة بالتاريخ الديبلوماسى للحرب فقد قام بنشرها ميلوخ بوجهتشوتش Milosh Boghitschewitsch ذاتها . وتقوم الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً بنشر وثائقها الديبلوماسية عن فترة الحرب وكان فيما قامت به الحكومات فى هذا المجال ما جعل فى الإمكان أن نتكلم عن جريمة الحرب فور انتهائها مباشرة مستندين إلى مصادر عن جريمة الحرب . ولأول مرة فى التاريخ البشرى يستطيع جيل عاش حرباً عظمى ان يعرف الحقائق من مصادرها .

وبالإضافه إلى الوثائق التى يستند إليها فى معرفة تاريخ حرب ١٩١٤ ، فإن معظم كبار الديبلوماسيين الذين نهضوا بدور هام فى تلك الحرب نشروا ذكرياتهم أو يومياتهم التى تتضمن آراءهم بالنسبة للأزمة . ومن هؤلاء القيصر ، فون بثيمان هولوج Von Bethman Hollwag ، فون جاجو von Jagow ، فون مولتكا ، فولكتهاين ، بورتاليز Pourteles ، فون شون Von

Schoen ، ليكنـوسكى Lichnowsky ، هويس Hoyos ، كـونراد ، مـوسرلـي Musulin سازانون ، سيلنج ، روزن ، دبرورسكر ، نوناكاربه ، فمهالى ، بالبولدح اسكوب ، جرى Grey ، تنسرتسل ، برتى Bertie بوكانان Buchanan ، هالدن Haldene ، سى Nitti . وقد حال الموت بين ايزفوسكى وبين إتمام مذكراته ولكن رسائله الى حفظت بالكامل . نشرت بعد ذلك . ويتضح هذه الرسائل كثيراً من الحقائق التى نفوق ما كان منتظراً أن نكشف عنه مذكراته . وكذلك لم يتمكن ليوبولد بيركتولدBerchtold من إتمام مذكراته لأنه حيل بينه وبين استخدام الوثائق المحفوظة فى فينا استخداماً حراً .

ومع أنه ينبغى أن نستخدم هذه الكتب بحذر ، إلا أنها غالباً ما تساعدنا على فهم الوثائق تفهما أعمق ، وعلينا أن نعى تماما الدوافع التى سيطرت على الدبلوماسين الذين سببوا الحرب أو أولئك الذين فشلوا فى منع اندلاعها ومع ذلك فإنه من مصلحة الكاتب فى الوقت الحاضر أن يلتقى بنفسه مع الدبيلوماسيين الهامين المسئولين عن أحداث سنه ١٩١٤ وستجلى منهم الكثير من النقط الناقصة أو المتضاربه .

وقد تناول جورج بيبودى جوسGoochالحديث عن المادة الخاصة بأحداث الحرب وهى المادة الغزيرة المتسعة ، وذلك فى كتاب له صدر سنة ١٩٢١ سماه (أحدث الكشوف فى ميدان الدبيلوماسية) ورروجع هذا الكتاب وأضيف إليه وهو يمتاز بالاتزان والدقه واتزان الأحكام حتى إنه يفى بالغرض إلى حد كبير ، وإن كان فى بعض الأحيان قد غالى فى احترام تجار الكذب الذين يشغلون مناصب عليا .

وكان من الطبيعى أن تبدأ فى ألمانيا قبل غيرها دراسة جذور الحرب العالمية الأولى دراسة قائمة على النقد والبحث . وذلك أن مؤرخى دول التحالف اضطروا إلى انتقاء بعض الحقـائق وطمس بعضها الآخر من أجل الدفاع عما كان بينهم من اتفاق وتحالف . وسبق أن أشرنا إلى الجهود التى بذلت من أجل نشر الوثائق الألمانية من سنة ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ . وكان أن تناول عدد من الباحثين تاريخ الدبيلوماسية الألمانية فى فترة ما قبل الحرب . وخيرة هذه الكتب وأفضلها هو كتـاب ايرك بـراندنبـرج Erich Brandenburg الـذى يعتبـر من أحسن الـدراسـات عن الدبيلوماسية فى الفترة السابقة للحرب العظمى كذلك تناول نفس الفترة كتاب فيت فالنتينVeit Valentine وهو الخاص بسياسة ألمانيا الخارجبة . أما الفتره الحرجة فى تاريخ المانيا وهى التى شهدت تولى بيلوف Bulov منصب رئاسة الوزارة الألمانية فقد تناولها يوحنا مـالرJohannes

Haller . على أن أقوى هذه الدراسات تكاملا عن الدبلوماسية الألمانية فى فترة ما قبل الحرب هى ما كتبه اوتوهامان Otto Hammann وتقع فى عدة أجزاء ، حيث ان اوتو هامان كان وثيق الصلة لفترة طويلة بوزارة الخارجية الألمانية .

أما هرمان لوتز فقد أعطانا أعظم دراسة لسياسة انجلترا على عهد السير ادوارد جراى ، كما أنه أنجز دراسة من أعظم الدراسات المختصرة المتقنة والدقيقة عن بداية الحرب العالمية الأولى واستند فى كتابتها إلى أحدث الوثائق . كذلك قام فريدريك استيف بالكتابة عن سياسة ايزفولسكى وبونكاريه من واقع المعلومات التى توفرت له من دراسة الوثائق الروسية . وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك دراسة قام بها ماجورجينتر فرانتز عن مراحل دخول روسيا الحرب العالمية وضمن دراسته هذا أمر التعبئة التاريخى الذى صدر فى ٣٠ يوليو ١٩١٤ . أما أكثر الدراسات دقة عن ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى فهى تلك التى قام بها الكونت ماكسميلان مونتجلاس Monteglas إذ لا يباريه أحد فى حسن السرد ووضوح العرض . واستطاع ماكسميلان معتمدا على دراسته للوثائق البريطانية الحديثة أن يقوم بعمل موجز فذ عن سياسة سير ادوارد جراى . أما الفرد فون فجرر Alfred Von Wegerer فقد بذل ما فى وسعه فى دراسة تستهدف إعادة النظر فى مشاكل مسئوليه الحرب ، ووجه ضربة عنيفة لرجال السياسة الذين ادانوا ألمانيا فى مؤتمر فرساى .

أما خير ما يقرأ من بين ما كتبه الألمان عن أصل الحرب فهى ما كتبه تيودور ولفThedore Wolffبعنوان (عشية حرب ١٩١٤)The Eve 1914 وهى كتابة دقيقة برغم ما فيها من قسوة على بركتولد . وأكثر هذه الكتابات متعة هو الكتاب الحديث الذى كتبه لودفيج رينير Ludwig Reiner باسم « انطفأت الأنوار فى أوربا » وقد صدر سنة ١٩٥٥ . وهناك كتاب ألمان مثل هرمان كانتوونز Hermann Kantorwitz كان لكراهيتهم لأسرة الهوهنزلرن أثرها فيما أصدروه من أحكام فضلا عن تفسيرهم لأحداث الحرب وتميزت كتابة كانتوروكز بتشيعه للإنجليز .

أما عن دور النمسا فى أحداث ١٩١٤ فقد تناولها الفرد بريبرام Alfred Pribram لودفيج بيتنر Ludwig Bittner هانز اوبر سبرجر Hans Ubersberger أ.ى ويدل.O. H. Wedel ولكننا ما زلنا فى حاجة إلى مزيد من الدراسة بالنسبة لقضية النمسا وبركتولد .

وفى هولندا كان رائد الباحثين فى فترة ما قبل الحرب ودبلوماسيتها هو نيقولا جابيكسNicolaus Japikse وقد ظل المؤرخون الرسميون والأكاديميون فى فرنسا ملتزمين

بالموقف السليم من الوجهة الرسمية وفى دراساتهم لقيام الحرب العالمية بمعنى أنهم تولوا تبرئة فرنسا من مسئولياتها عن الحرب . وخير ما لدينا من هذا النوع من الكتابة هو ما سرده اثنان من أبرز المؤرخين المتخصصين فى دراسة الدبلوماسية هما بورجو Burgeois ، باجيه Pages أما بالنسبة للعمل الذى قام به بطرس رينفر Pierre Renouvoin والذى حظى ببناء عريض فلا يعدو أن يكون أكثر من تبرير ودفاع عن موقف فرنسا خلال الحرب . وشبيه بعمل رينفو عمل جولس اسحق. Jules Jsaac

وإذا كان المؤرخون الفرنسيون لم يتمكنوا من استعادة اتزانهم من أثر صدمة الحرب فإن كثيرين من الصحفيين والناشرين الذين اتسموا بالشجاعة قد نجحوا فى ذلك ومن أبرز هؤلاء بيفيه Pevet ، دوبان Dupin ، مورهاردت Morhardt مارجريت Margreitte جوديه Judet ، لازار Lazare ولكن أكثرهم كفاءة ومثابرة على العمل هو ذلك الموظف السابق فى وزارة المستعمرات الفرنسية جورج دمارتيال Demartial الذى كان غصه فى حلق أولئك الرسميين الذين انبروا يزورون الحقائق ويختلقون المبررات دفاعا عن فرنسا واتصف عمله بمعرفه دقيقة بالوثائق والدقة المتناهية فى سرد الحقائق .

أما جورج ميشون Michon فقد كتب أحسن ما يمكن كتابته وأحسن ما يمكن الاعتماد عليه بالنسبة لتطور التحالف الفرنسى الروسى وهو التحالف الذى لعب دورا كبيرا فى دفع أوربا الى حافة الحرب وهناك الناشر الفرنسى الفذ الفرد فابرلوسى Alfred Faber Luce الذى امدنا بأحسن ما كتبه فرنسى متزن عن حرب ١٩١٤ أما السيد ابراى Alcide Ebray فقد تداول معاهدة فرساى وأوضح ارتباطها بالأخطاء التى حدثت بسبب الدعاية للحرب كذلك درس بإسهاب حوادث انتهاك المعاهدات فى أوربا منذ عام ١٨١٥ مفنداً الزعم الشائع أن ألمانيا هى الدولة الوحيدة التى لم تحترم أية معاهدة وأنها كانت تحيلها إلى « قصاصة ورق » .

وظل الصراع من أجل الوصول الى الحقيقة قائما فى انجلترا خلال الحرب وبعدها وهى الحركة التى تزعمها كل من فرانسيس نيلسون Neilson ، أ . وموريل Morel واشتهر الأخير بتعريضه بالأعمال غير المشروعة التى قام بها ليوبولد ملك بلجيكا فى الكونغو أما أول دراسة ناقدة واسعة تتضمن وجهة النظر البريطانية الرسمية عن أسباب الحرب فقد جاءت فى كتاب لورد لوربيرن Loreburn بعنوان « كيف بدأت الحرب» How the War Came وهى الدراسة التى استشهد فيها مؤلفها بالوثائق البريطانية على نطاق واسع كذلك بذل ج.ب جوش Gooch جهدا

كبيرا فى هذا الصدد وكان نشطاً وجاداً بوجه خاص فى الوصول الى منطق سليم للأسس السياسية للحرب العظمى ذلك أنه كتب أول دراسة لا نظير لها عن السياسة الأوربية منذ عام ١٨٧٨ حتى عام ١٩٢٠ وقدم خبر عرض فى مؤلف حديث اتسم بالبحث القائم على الأسانيد والبراهين كذلك كتب لويز ديكنسون Dickenson أحسن بحث موجز يفى بالغرض عن التيارات السياسية فى عام ١٩١٤ والفترة السابقة لها أما سبر ريموند بيزلى فقد كتب خير الكتب الموجزة عن الحقائق المتعلقة بحرب ١٩١٤ وليس لما كتبه شبيه بأى بلد آخر كذلك كتبت ايرين كوبر ولز Irene Cooper Willis ، وكارولين أ. بلاين Playne أعظم الأبحاث عن هستريا الحرب العالمية والدعايه فى انجلترا خلالها وكما كان الحال فى فرنسا كان معظم علماء التاريخ فى انجلترا متشابهين فى التعبير عن وجهة النظر الرسمية فيما يختص بكيفية قيام الحرب وخير من يمثل المؤرخين الإنجليز فى ذلك أحسن تمثيل ر.ب. موات R.B.Mowat ومن أحدث الكتب الإنجليزية الهامة عن أصل الحرب العالمية ما كتبه هـ . و . ولسن H.W.Wilson بعنوان « إثم الحرب » The War Guilt وقد ضمنه كافة الأكاذيب والدعاية التى ترددت أثناء الحرب . أما كتاب جون مورلى بعنوان « مذكرات عن الحرب » فقد تضمن ما يثبت أن بريطانيا قررت الدخول فى الحرب قبل أن تثار مسألة بلجيكا فى اجتماعات مجلس الوزراء وأحسن ما كتبه كندى عن حرب ١٩١٤ وسوابقها الديبلوماسية هو ما ألفه المحامى الكندى الشهير ج . س . ايوارت . J.S.Ewart

وفى روسيا لم تهتم الحكومة بتبرئة النظام القيصرى البالى ومن ثم فقد يسرت أمر البحث فى أصل الحرب وتزعم حركة البحث هذه ادانوف وبوكروفسكى Adanov and Pokrovsky أما ميلوش بوجهتشوش Milosh Boghits cheuitsch وهو من الصرب ومن رجال السلك السياسى السابقين فقد كتب عدة كتب عن مسئولية الصرب فى الحرب العالمية وإن لم يسمح له بالاطلاع على دور الحفظ فيها . ذلك أن الدوائر الرسمية فى الصرب تمكنت من صيانة أسرارها الخاصة بسياسة ما قبل الحرب ولو أن مؤرخا صربيا هو الذى كشف أن باشيتش Pashitsch ومجلس وزراء الصرب كانوا يعلمون بمؤامرة اغتيال ارشيدوق النمسا قبل وقوعها بعدة أسابيع . وعلى الرغم مما تعرضت له إيطاليا من حكم فاشستى ورقابة صارمة فإن المؤرخين الإيطاليين استطاعوا أن يدلوا بدلوهم فى مجال المعرفة عن بداية الحرب وكان الباحثون الرواد فى هذا المجال هم كورادو بارياجلو Corra-do Barbagallo واغسطين تور Augustine Torre الكونت البرتو لامبروسو واشتهر الأخير بتركيزه البحث على العوامل الاقتصادية والتجارية التى تسببت فى حرب ١٩١٤ وتناوله الديبلوماسية الانجليزية بالنقد .

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فان رجال الصحافة كانوا أول من انتقد وجهة نظر الدولة الرسمية عن أسباب الحرب العالمية الأولى ودخول الولايات المتحدة الأمريكية فيها . ونشير هنا إلى ما قام به فرانسيس نيلسون ، البرت جاى نوك ، جون كينث تيرنر . وكان سدنى برادشو فاى Bradshaw Fay أول مؤرخ هام فند أسطورة الاتفاق الودى وأثارت مقالاته فى المجلة الأمريكية التاريخية فى أعدادها الصادرة سنة ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ اهتماماً ودهشة بين العالم المتحضر . ثم نشر الأستاذ فاى بعد ذلك بثمانى سنوات أحسن وأكمل بحث عن الأسباب السياسية للحرب العالمية الأولى ولم يؤخذ عليه سوى عدم قدرته على دراسة قضية النمسا دراسة كافية . ثم عولجت هذه السقطة إلى حد ما فى طبعات الكتاب التالية وتضمن كتاب المشرع الأمريكى فردريك بوزمان Bausman هجوما هو الأول من نوعه من جانب أمريكى على الدعاية الخاصة بالتحالف وذلك فى كتابه الذى صدر سنة ١٩٢٢ بعنوان : « دع فرنسا تشرح » وكان للعلماء الأمريكيين ابحاثهم فى دراسة الديبلوماسية الأوربية قبل ١٩١٤ . فلدينا التحليل الذى قدمه ميلدرد ورثمر Mildred Wertheimer عن العصبة الجرمانية . وهناك كذلك بحث وليم ل . لانجر عن بداية التحالف الروسى الفرنسى . لدينا العرض المتقن الذى قدمه لنا شومان F.L.Schuman عن الديبلوماسية الفرنسية وما قام به أ . ف هندرسون عن نقد لسيرة ادوارد جراى . وهناك الملخص العظيم لفترة ما قبل الحرب أعده ر . ج . مونتاج . أما أحسن الأبحاث واكفؤها عن تاريخ أوربا الديبلوماسى قبل ١٩١٤ فهو العمل الذى لم يكتمل بعد والذى قام به وليم لانجر Langer وكان ما تم إنجازه من هذا العمل ينبىء بأنه سيكون أحسن تاريخ ديبلوماسى بالنسبة لكل اللغات طيلة نصف قرن قبل ١٩١٤ . كذلك ثمة خلاصة على أعلى درجة من الكفاءة كتبها ج . و . سوين Swin بعنوان بداية القرن العشرين Beginning the twentieth century .

وكان الأمل معقودا بدرجة كبيرة على شميت Schmitt بوصفه أحد الدارسين لدبيلوماسية ما قبل الحرب ، ولكن عمله الذى أتمه تحول إلى دفاع من وجهة النظر الرسمية الخاصة بجريمة الألمان وأكاذيبهم ، وهو الأمر الذى نقده فى إسهاب م .هـ .كوشران Cochran كذلك هاجم الكتاب الأمريكيون وجهة النظر التقليدية الخاصة بأسباب دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الأولى . وأعظم الكتب فى هذا المجال هى كتب ك . هـ . جراتان C.H.Crattan ووالترميليز Walter Millis ، وما كتبه بصفة خاصة ش .ك . تانسفيل Tansville ، وثمه نقد على نطاق واسع وجه إلى ما زعمه ج . ك . تيرنر من أن العوامل الاقتصادية وخاصة مسائل البنوك

كانت الدافع الذى دفع بالولايات المتحدة الأمريكية إلى دخول الحرب العالمية الأولى وتم تغيير هذا الرأى استناداً إلى ما حوته الوثائق من معلومات ، وخاصة تلك التى كشفت النقاب عنها لجنة ناى Nye كذلك أنكر نيوتن د . بيكر Newton D. Baker بعد عشرين عاما من ١٩١٨ ـــ أن عامل البنوك كان له أثر فى دخول الولايات المتحده الأمريكيه الحرب العالمية الأولى . هذا إلى أن الدراسة التى جاءت من عده أجزاء عن دور ولسن والتى قام بها راى ستاندر بيكر Baker تضمنت أعظم المعلومات عن هذا الموضوع .

أما عن نشاط كلود كتشن Claude Kitchin خلال سنوات ١٩١٤ إلى ١٩١٨ فإن الأستاذ الكس . ارنت Arnett قام بدراسة عن حقيقة مؤتمر سنريس الشهير Sunrise Conference وأثبت أن ولسن قرر الدخول فى الحرب إلى جانب الحلفاء قبل عدة شهور من إقدام ألمانيا على حرب الغواصات . ومع ذلك فإن المؤرخين الأكاديميين ظلوا غالبا سلبيين أو تقليديين . من ذلك أن شارل سمور بعد فه خاصة دافع عن الادعاءات التى ترددت أثناء الحرب . وخير ماينقل لنا صورة ما تردد وقت الحرب هو ما قرره جيمس طومسون شوتويل أمام اتحاد رجال المال فى نيويورك فى سنة ١٩٣٦ إذ قال : « لقد قامت هنا الأمة بما ألقاه عليها التاريخ من عمل ، دون أن يكون سبب دخولنا الحرب الحفاظ على أموالنا ، وإنما كان السبب هو الاعتداء على علم بلادنا فى أعالى البحار وعندئذ لم نتردد فى الرد على ما وجه إلينا من إهانات . »

على أن ما قاله سوتويل لم يشرح السبب الذى جعل الولايات المتحدة الأمريكية تحجم عن الرد على هجوم بريطانيا على العلم الأمريكى فى أعالى البحار ، بل حين حرق العلم الأمريكى وتطايرت شظاياه فوق السفن البريطانيه . ولم يحدث أن قام أستاذ بحاثة حتى ١٩٣٦ بنشر بحث دقيق عن سبب دخول الولايات المتحدة الحرب حتى أصدر شارل ك . تانسفيل كتابا بعنوان أمريكا تدخل الحرب ، وهو كتاب جدير بأن يقارن بعمل فاى .

وهناك سبب هام يكمن وراء عدم قدرة المؤرخين الأكاديميين فى دول التحالف على التعبير عن وجهة نظرهم فى مسئوليه الحرب . وهو أن كثيرا منهم قد عينوا مستشارين فنيين لأولئك الذين عهد إليهم وضع المعاهدات التى أنهت الحرب . وشعر هؤلاء المؤرخون بنوع من المسئولية تجاه معاهدة فرساى والمعاهدات الأخرى التى عقدت فى ذلك الوقت لأنهم اعتبروا هذه المعاهدة من صنع أيديهم ومن ثم يمكن القول إن أولئك المؤرخين الذين اشتركوا فى صياغة هذه المعاهدات وجدوا أن مصلحتهم تتطلب الدفاع عن وجهات النظر التقليدية فى هذه المسائل .

وجهات نظر الباحثين عن مسئولية الحرب

يمكن تصيف الكتاب الذين تناولوا المشكلة العامه لمسئولية الحرب إلى ثلاث فئات :

١ - الملتزمين بفكر معين سابق .
٢ - المتحفظين .
٣ - المنقحين والمصححين للآراء السابقة .

ولقد استخدم الكتاب المحدثون هذه المعايير الثلاثة عند الكتابة عن إثم الحرب وبحث مسئولية هذا الإثم . وسواء أكان هذا التصنيف مفيداً أم لا ، فإن استخدامه أصبح دارجا فى تصنيف وتمييز المجموعات العديدة من الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع .

أما المجموعة الأولى فهم أولئك الكتاب الذين برغم اطلاعهم على الوثائق الحديثه ، فإنهم مازالوا ملتزمين بوجهة نظر معينة كانت سائدة أيام الحرب عن مسئوليه دول المحور عن قيام الحرب العالمية . ويتزعم هذه المجموعة من الكتاب هنريك كانر . **Heinrich Kanner** هرمان كانتوروكز ، اميل لودفيج ، ريتشارد جريلنج ، اميل بورجو **Burgeois** ، جورج باجيه **Pages** ، انطون ديبدور **Antouin Debidour** ، ويكهام ستيد ، وسيتون واطسون ، جـ . وهيرلام مورلى ، هـ . و . ولسن ، شارل دونرهازن ، أ . رايموند تيرنر ، وليام ستيرنز ديفز **Stearns Davis** ، ايرل أ ، سبرى **Earl E sperry** ، فرانك مالونى اندرسون .

أما المجموعة الثانية فيمثلون الكتاب الذين يستشهدون فى أبحاثهم بأحدث الوثائق بالنسبة لمسئولية الحرب ومع ذلك فهم يميلون إلى الأخذ بوجهة النظر التى تجعل دول المحور هم أصحاب المسئولية فى بدء الحرب . ويأتى فى مقدمة هذه المجموعة بطرس رينفو **Pteier Renouvin** ، ر . ب . موات **R. B. Mowat** ، برنادوت شميت **Schmitt** ، شارل سيمور ، بريستون **Preston** ،و . سلوسن **W. slosson** ، م . ت . فلورنسكى **M. T. Florinsky** ، اسوجين فيشر **Eugene Fischer**

وأما المجموعة الثالثة من الكتاب فهم أولئك الذين فحصوا ما أدلت به الوثائق المعاصرة وماشهدت به عن مسئولية جريمة الحرب وقاموا بتعديل النظريات التى ترددت وقت الحرب عن

هذه الجريمه ، وبالتالى فقد صححوا الآراء الخاصة بأسباب هذه الحرب . وهناك من وضع خطأ ضمن هؤلاء الكتاب مثل جون ماينارد كينس **John Maynard Keynes** وغيره من الذين أوصوا بإعادة النظر فى معاهدة فرنسا على أساس فساد الجانب الاقتصادى فيها . وإذا كانت هذه المجموعة من الكتاب قد طالبت بإعادة النظر فى معاهدة فرساى فإنهم فعلوا ذلك ضمن ما طالبوا به من إعادة النظر فى الآراء السابقة الخاصة بمسئولية الحرب . أى أن مطالبتهم بإعادة النظر فى المعاهدات التى أنهت الحرب تعتبر جزءا مما التزموا به من إعادة النظر فى موضوع الحرب بأسره .

وتنقسم هذه المجموعة إلى معسكرين : فريق معتدل يعتقد أن المسئول عن الجريمة الكبرى التى وقعت سنه ١٩١٤ هم دول الحلفاء لكن ذلك لا يمنع من تحميل دول المحور نصيبها فى المسئولية هى الأخرى ، ومن بين هؤلاء المعتدلين من الكتاب سيدنى ب . فاى **Fay**، ج . ف . سكوت . **J . F . Scott** جـ . س . ايوارت ، هرمان لوتز ، حـ . لويس ديكنسون ، ج . ب . جوش ، كورادو بارباجلو (**Corrado Barbagello**) ، اوبسطو تور **Augusto Torre** فكتور مارجريت .

أما الفريق الآخر فهو الذى ينادى بأنه لو كانت المانيا والنمسا تنقصها الحذقة وحسن التصرف سنة ١٩١٤ فإنهما غير مسئولتين عن الحرب الأوربية . ويعتقدون أنه يمكن تبرير هجوم النمسا على الصرب وتأييد ألمانيا للنمسا أيسر مما يمكن تبرير هجوم روسيا على النمسا وتأييد فرنسا روسيا . هذا إلى أنهم يعتقدون أن المسئول أساساً عن هذه الحرب هو ما حدث قبلها من تعبئة الجيش الروسى . وهذه المجموعة تضم كتابا مثل مكس مونتجلاس ، فردريك ستيف ، جنتر فرانتز ، اريك براندنبرج ، بولى هير **Paul Herre** ، الفردفون فجرر **Alfred Von wergerer** ، هرمان أل **Hermann Aall** نيقولا جابيكس ، جورج دمارتيال ، مانناس مورهاردت ، جوستاف دوبان **Dupin** الفرد فابر لوس **Luce** ، ف . جونتواردى يورى **F . Gouthenoire de Toury** ، البرتو لمبروسو ، م . ن . بوكروفسكى ، أ . أ . أدموف ، أ . د . مورل **Morel** ، راموند بيزلى **Beazley** ، م . اديث ديرهام **Durham** ، ارين كوبر ولز **Willis** ، فردينانـد شيفل ، و . أ . لنجلباك **Lingelbach** . م . هـ . كوشران **Cochran** ، ت . مون **P. T. Moon** ، و . ل . لانجر ، أ . هـ . لبير Lybyer ، جوزيف واردسوان **Joseph Ward swain**، فردرك بوسمان **Bous-man** وصاحب هذا الكتاب .

وكانت النهضه التى عمت حركه البحث التاريخى سبباً فى إخراج دراسات تاريخيه منقنه وموضوعيه . ومن هذه الدراسات الكتب التاريخيه التى كتبها عن الحرب مؤلفون منفردون مثل

جون بوشان ، هرمان ستجمان ماكمسيلان مونتجلاس . وهناك كتب ألفها أكثر من مؤلف مثل تلك التى نشرها ماكس شوارت **schwarte** وثمة مذكرات تاريخية ناقدة مثل تلك التى كتبها الجنرال ماكس هوفمان **Hoffmann** ومن أعظم المؤلفات التى كتبها مؤلف واحد مؤلفات جبريل هانوتو وإن كان يعيبها مسحة من الوطنية الغالبة عليها ودفاعه عن أخطاء القيادة العليا الفرنسية عند بداية الحرب .

وبهذه المناسبة فإن هناك كثيرين من الكتاب الذين حرصوا على تبرير سوء تصرف كثير من القيادت العليا أثناء الحرب ومن ذلك ما كتبه ب . هـ . ليدل هارت ، ج . و . هويلر بنت وآخرون وهى دراسات ممتعة شبيهة بتلك الدراسات التى قامت بها مجموعة الكتاب المعروفين بالمنقحين المصححين أو وهى المجموعة الثالثة من الكتاب الذين سبق أن أشرنا إليهم عن ديبلوماسية ماقبل الحرب على أن أفضل الكتب عن الحرب العالمية بلا استثناء فى مجال الكتابة التاريخية هو الكتاب الخالد الذكر « التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للحرب العالمية الأولى » الذى نشره جميس ت . شوتويل فى أكثر من مائتى مجلد بمعاونة أساتذة باحثين من كل الأقطار . وتعتبر هذه الموسوعة الكبيرة أعظم مثل على نجاح العمل المشترك فى مجال الكتابة التاريخية . وأنفق على هذا المشروع وساهم فيه جمعية كارنيجى الخيرية السلام العالمى بوصفه أحد المشروعات التى تخدم قضية السلام . أما الفائدة العلمية لهذا المشروع فهو أنه استخدم مرشدا لأولئك الذين أداروا دفة الحرب العالمية الثانية . أما أحسن بحث مختصر تناول بالدراسة ذلك الجيل الذى شهد بداية الحرب ونهايتها فهو البحث الذى قام به ج . و . سوان **Swain** بعنوان (بداية القرن العشرين) .

أما الدول التى تحكمت فيها الفاشية فقد طغت فيها القومية الجارفة على اتجاهات الكتابة التاريخية فى حين مضت فيها بقية الدراسات التاريخية التى لا ترتبط بالقومية فى طريقها الجاد قدماً إلى الأمام . على أنه لم توجد فى تلك البلاد دراسة قائمة على البحث العلمى بالنسبة للفترة المعاصرة ، ومن ذلك ما يروى عن هيجل قوله : أنه يؤمن بأن الدرس الوحيد الذى يتعلمه من التاريخ هو أنه لا يعلمنا شيئا ولا ينطبق هذا القول على أحد مثلما ينطبق على مسلك المؤرخين فى كافة الدول خلال الحرب العالمية الثانية بما فيهم أولئك المؤرخين الذين كانوا حديثى العمر عندما (نشبت الحرب العالمية الأولى) وكان بعضهم من المنادين بضرورة إعادة النظر فى الآراء والنظريات التى سادت الحرب الأولى . وفى هذه الحرب الثانية ـ وعلى نطاق أوسع مما كان فى الحرب الأولى ـ اشترك كل المؤرخين فى كافة الدول على اختلاف نظمها ، الشباب منهم والشيوخ ،

فى الدعاية ، ولم يهتموا سوى قليلا بالحقائق التاريخية . وظهرت كتبهم ومقالاتهم وتقاريرهم وقد اصطبغت بنفس الصبغة التى ميزت الأبحاث التى صدرت فيها بين سنتى ١٩١٤ ، ١٩١٨ ، فكل من الجانبين المتحاربين صور الحرب فى صورة ، (حرب مقدسة) بالنسبة له . ولم يشذ عن ذلك مؤرخ فى أى بلد من البلدان التى اشتركت فى الحرب .

وكانت فكرة المراجعة والعودة للموضوعية بعد الحرب الثانية أصعب من تلك التى كانت بعد ١٩١٨ إذ ساد ما يعرف ، بالإظلام التاريخى ، ولم تتجاوز الكتب التى نادت بإعادة النظر فيها قيل وكتب أثناء حرب الولايات المتحدة الأمريكية أعداداً قليلة . فألف الأستاذ تانسل **Tansill** كتابه (الباب الخلفى للحرب) وفاق هذا الكتاب كتابه « أمريكا تشترك فى الحرب » **America Goes to War** وذلك بسبب موضوعيته وتعمقه فى البحث . ولم تظهر كتب أخرى فى أوربا حتى صدرت فى سنة ١٩٦١ طبعة كتاب تايلور « أصول الحرب العالمية الثانية » وكان المأمول أن تكون هناك عودة إلى التمسك بوقائع التاريخ وحقائقه عندما يسمح الوقت بذلك ، لكن الحرب لم تكد تنتهى حتى بدأت الحرب الباردة خلال حكم ترومان فى ١٢ مارس ١٩٤٧ . ومن ثمّ فإن كراهية روسيا الشيوعية أو الدفاع عنها داخل روسيا أضيفت إلى الكراهية المتبقية لألمانيا وإيطاليا . وبالنسبة لروسيا وحلفائها الغربيين (من جانب أعدائها الألمان) وعلى حد قول المؤرخ البريطانى الشهير تايلور فى المانشستر جارديان . « قد يبدو أنه خلال الحرب الباردة لا يوجد شىء يلزم البحاثة بالتزام معين . فقد يستطيع المؤرخون الأكاديميون الدفاع عن آرائهم حتى وهم يشغلون وظائف فى حكومات دولهم . لكن المشكلة جاءت من أنهم شركاء فى هذه الحرب وبذلك صار شأنهم شأن المؤرخين الألمان الذين استخدمهم دكتور جوبلز فى دعايته أثناء الحرب »

المراجع :

M.H. Cochran: Germany Not Guilty 1914 Chap. Stratford press 1931
H.E. Barnes : The Genesis of the world war Chap i.
App. Knopf 1929.
World politics in European Civilization.
Chaps xxi-xxiii Knopf 1930
In Quest of the Truth and Justice. part II Nat. Hist. Soc. 1928
ed. Perpetnal War for Perpetual Peace Caxon Printers 1953.
G.P. Gooch : Recent Revelations of EurOpean Diplomacy Longmans 1928 and later supplements
Arthur Ponsonby : Falèsehood in Wartime Allen and Unwin 1928.
J.C. Willis : England's Holy war knopf 1928.
George Demartial : Comment on mobilisa les Consciences paris 1926.
H.C. Peterson : Propaganda 1914-1919 Yale University press 1941.
Russel Grenfell: Unconditioned Hatred, Devin Adair 1953.
Rene Wormser : The myth of the Good and Bad Nations, Regnery 1954
Hermann Lutz : German French Unity, Regnery 1957
D.F. Fleming : The Cold war and its origins 2 Vols, Doubleday 1961
Louis Morton : Pearl Harbour in perspective A Bi Bliographical survey
V. S. Naval Institute Proceeding, April, 1955.

الفصل الثانى عشر

اتساع أفق المؤرخ وتعدد ميوله
امتداد جوانب النشاط التاريخى فى الأزمنة المعاصرة

لقد أتقن مؤرخو المدرسة الناقدة والمدرسة الاستقصائية فن الوصول إلى الحقائق التاريخية السليمة بنفس القدرة التى أتقن بها عالم التاريخ إعادة بناء تلك الحقائق . لكنهم لم يفعلوا سوى القليل من أجل توسيع نظرة المؤرخ ليعرف كيف ينتقى الحقائق التى تستحق البحث . ذلك أنهم ظلوا إلى درجة كبيرة قانعين بالاتجاهات القديمة الخاصة بموضوع التاريخ ومادته . وكانت القاعدة العامة هى : أن المسائل الدينية والسياسية ظلت تحظى بالنصيب الأوفر من اهتمام المؤرخين طوال مرحلة تطور الكتابة التاريخية . فعند اليهود اتجهت الكتابة التاريخية إلى إثبات أن الله اختص بعطفه ورعايته ذرية سيدنا إبراهيم . وفى عصور فجر المسيحية والعصور الوسطى وعصر حركة الإصلاح الدينى ، كان الاهتمام بإلغاء القوى الخارقة للطبيعة ، مع السعى لإثبات أن قدرة الله لا يمكن أن تتحداها أو تقارن بها قدرة الإنسان . وسيطر هذا الدافع على الأعمال التى ظهرت خلال تلك العصور من خلال سفرى عذرا ونحميا ثم كتابات القديس أوغسطين ، واروزيوس ، واوتو المنسوب إلى فريزبرج ، بارونيوس ، بوسويه ، بالى ، ميرل دوينى ، مونتاج سومر ، هنرى اوزبرن تايلور .

وحتى فى أيامنا هذه يحرص المؤرخون البارزون على تأكيد وجود الله عن يقين ويفصلون فى أسمائه وصفاته . من ذلك أن هنرى اوزبرن تايلور مثلاً وهو من رواد التاريخ الثقافى الأوربى ورئيس سابق للجمعية التاريخية الأمريكية أكد هذه الحقائق فى كتاب من أحدث كتبه حيث قال (إن الله موجود ، وعلينا أن نتأكد من وجوده دائماً وأبداً . وإن البراهين الفعلية على وجود الله هى التى تتغير وتفقد قوتها ؛ أما هو فباق لا يتغير . إن الإحساس بوجود الله وما ينجم عن ذلك من قوة

وراحة هى أعظم حقيقة فى الحياة البشرية . وستظل الأمور تثبت لنا وإلى الأبد أن الأعمال الطيبة التى يرضى عنها الله هى تلك الأعمال التى ارتبطت ارتباطا وثيقا بالله وبقدرته وحبه . كذلك سيظل التقدم البشرى يتحقق تباعا بفضل العبقرية المتحررة والعزيمة التى لا تعرف الكلل وبفضل رضى الله ومحبة الإنسان . وكان يحدث دائماً خلال الأزمات التى تعترض طريق الإنسان إلى الحرية أن يتجه الإنسان بروحه إلى الله خيث الرحمة والخلود) .

ويتصف النصف الأخير من القرن الماضى بوجه عام بأنه عصر الكتابة التاريخية المرموقة ذات النظرة الدنيوية السليمة . فلم يقف الأمر عند حد ضعف الاهتمام بمسائل الغيبيات والقوى الخارقة للطبيعة ، بل ضعفت كذلك قوة اليقين فى طبيعة الله وقدرته الخارقة تجاه القوى البشرية . إن اكتشافات العلم الحديث والنقد الموجه إلى ما احتواه الإنجيل لم يضعف من شأن المعتقدات الدينية القديمة والتفسيرات الراسخة فحسب ، بل أوضحت على نطاق واسع عدم ملاءمة بعض النظريات الدينية المتزمتة للمسائل المتعلقة بحجم الكون وطبيعة نظامه . وأمام هذا الموقف ، فإن المؤرخ المطلع والمفكر أخذ يتردد بين أن يحرر نفسه من اراء اللاهوت أو أن يفترض الثقة بالله ، حتى مع اعترافه بأن مشاكل الكون غدت فى هذه الأيام أكثر إثارة للتفكير وأكثر أهمية مما كانت عليه بالنسبة لشخص مثل أوغسطين أو لوثر . أما الأفكار الأخرى التى تسلطت على فكر المؤرخ التقليدى وهى اهتمامه بشئون السياسة وأحداثها ــ فقد ماتت هى الأخرى ولكن فى صورة أبطأ ــ وإن ظلت لها قوتها ووزنها الذى يحول دون تطور الكتابة التاريخية لتطابق العقل وتتسم بالشمول . هذا مع ملاحظة أن الرواية السياسية كان لها تراث لا يقل فى مكانته عن الرواية اللاهوتية ، فحدث خلط عند اليهود بين مسائل الدين والسياسة . واتسع أفق الاهتمام التاريخى عند هيرودوت بعض الشىء وتركز نسبيا على الموضوعات السياسية ، ولو أن أبا التاريخ ، كان أقل تعصبا فى هذا المجال من أى مؤرخ آخر من المؤرخين القدماء ، فاهتم بصورة لا بأس بها بالعناصر المكونه للثقافة كما اهتم بالمقارنات . وكانت غالبية المؤرخين المشهورين ــ منذ ثوكيديدس حتى فريمان ، درويزن ، روس وغيرهم ممن لم يهبوا أنفسهم لدراسة قضايا المسيحية أو دراسة أحد مذاهبها وفرقها العديدة ــ يتجهون لدراسة الأحداث المختلفة والروايات المتداولة عنها أو تتبع الطرائف المرتبطة بالتاريخ السياسى والديبلوماسى والتاريخ العسكرى . بل إننا نصادف مؤرخين مثل دروزين ، فريمان ، سيبلى ، شفر **Schafer** يعلنون فى صراحة وفى تجن أن التاريخ ليس إلا دراسة السياسات القديمة ويرون أن هناك من أخطأ من المفكرين فشغلوا أنفسهم

بدراسة تاريخ الحياة الاقتصادية والنظم الاجتماعية فضلا عن الأدب والفنون الرفيعة الأخرى وغيرها من النواحى الهزيلة فى نظرهم .

ويرجع الالتزام بهذا المنهج السياسى فى العصور الحديثة إلى حد كبير إلى تأثير عاملين غير واضحين تماما ، أولها رأى هيجل فى الدولة وثانيهما الروح القومية . ذلك أن فلسفة هيجل أكدت أن الدولة هى أسمى شىء خلقه الله على هذه الأرض . ولا يخفى علينا أن فلسفة هيجل كان لها أنصار وأتباع كثيرون بين العلماء الألمان الذين وضعوا أسس علم التاريخ فى صورته الحديثة فى النصف الأول من القرن الماضى . هذا كله بالإضافة إلى ما كان هنـاك من إحساس بـالقوميـة ، وهو الإحساس الذى ازداد قوة وبلغ أشده خلال الثورة الفرنسية وعهد نابليون بوجه خاص والذى استند إلى أسس تكنولوجية خلال الثورة الصناعية . وكان أن تجمعت عدة أحداث قومية أثارت حماسة المؤرخين فى القرن التاسع عشر منها ذكريات الثورة الفرنسية والانتصارات التى حققها بونابرت ثم بزوغ الروح الجرمانية بعد حرب التحرير وتوحيد الإمبراطورية ، والشعور الذى طغى على الإيطاليين فى إحساسهم القوى نحو الحاجة للوحدة الإيطالية ، وهو الشعور الذى ملك كلاً من مشاعر دانتى وميكافللى ومازينى ، ومشاعر الإنجليز تجاه المعارك التى خاضوها فى أسبانيا فضلا عن موقعة واترلو وكذلك التوسع الذى تحقق لإمبراطوريتهم بعـد سنة ١٨٧٠ ، وزهـو الأمريكيين بقيام الجمهورية الفيدرالية وانعزالها عن الحرب الأهلية الكبرى . وبالإضافة إلى هذه المسائل القومية ذات الصبغة السياسية وجد مجال آخر ذو صبغة سيكلوجية وثقافية مثل نظرية التفوق العنصرى والثقافى . وهكذا كانت فلسفة هيجل من ناحية والحركة القومية من ناحيـة أخرى كفيلين مع بعضها البعض بجعل معظم المؤرخين يقصرون نشاطهم على التاريخ السياسى .

وكان من الممكن ألا نشكو من انصراف هؤلاء لخدمة التاريخ السياسى وحده لو أنهم طوروا دراسة النظم السياسية وأضافوا إلى معلوماتنا الشىء الجديد عن تطور الدولة وأجهزتها المختلفة . ولكن الملاحظ هو أن الشطر الأعظم من هذا التاريخ السياسى انحرف عن اتجاهه الصحيح نتيجة عاملين نبعا أساسا من تأثير الحركة الرومانسية على الكتابة التاريخية . وأول هذين العاملين هو النظرية الرومانسية التى نادت بأن التاريخ ينبغى أن يتضمن الحياة والمتعة ، ومن ثم فإن الأحداث المثيرة تعبر عن أجمل حلقات المادة التاريخية . وأما العامل الثانى فهو وجهة النظر المستقاة إلى حد كبير من كارليل وتلاميذه القائلة بأن التاريخ ليس إلا مجموعة تراجم شخصية . ومن ثم فقد برز إلى حد كبير عامل الاهتمام بالأشخاص فى الكتابة التاريخية على اختلاف أنواعها . ونتيجة لهذه

الاتجاهات والمثل العليا اتجه معظم التاريخ السياسى فى القرن الماضى إلى أن يكون أساسا تاريخ تراجم وسرد أحداث ، وبذلك لم يلق إلا قليلاً من الضوء على المشاكل المتعلقة بأصول الأنظمة السياسية الكبرى وتطورها . حقيقة أن هناك كتابات خاصة بالتاريخ الدستورى مثل تلك التى كتبها ويتز Waitz ، فوستيل ، ماتلاند ، لوشير ، ازمن Esmein ، فيوليه Viollet ، فلاش ، برونر Brunner ، ج.ب.آدمز . ولكن من المغالطة أن نقول إن الأعمال التاريخية بوجه عام والمتعلقة بالتاريخ الدستورى بوجه خاص كانت أكثر توضيحا عن تاريخ الدولة من تلك التى كتبها أساتذة التاريخ السياسى فى ذلك العصر . وكانت السمة الغالبة على الكتابة التاريخية المحترمة فى القرن الماضى هى سرد تفصيلات لا داعى لها لكنها تستثير دهشة القارىء .

وفضلا عن ذلك فإن الكتابة المتسمة بالديناميكية والحيوية فى التاريخ السياسى وتاريخ القانون ــ مثل كتابات برونر ، ايزمن ، فلاش ، مايتلاند وآدمز ــ كانت هى الأخرى مما يصعب الدفاع عنها . فالدولة ليست هى كل مجال المجتمع البشرى ولا هى الوعاء الوحيد للثقافة ، ولكنها ليست سوى الفيصل فى عملية التطور الاجتماعى والحكم بين المصالح الاجتماعية والثقافية المتضاربة والتى لأكثرها دور جوهرى أكثر من الدولة ذاتها . وتفاعل هذه العناصر مع بعضها البعض يؤدى إلى إعداد العناصر الديناميكية والخلاقة فى تطور الإنسان والمجتمع . هذا وإن كان ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن دور الدولة فى إبراز حيوية هذه العناصر وتفاعلها وتصارعها المستمر يفوق كونها عامل اضمحلال وهدم .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة فإنه كان ينبغى أن تكون الدراسة التفصيلية عن تطور الدولة مجالها فى العلوم السياسية أكثر منه فى علم التاريخ ، وبرغم ما يقال من أن معظم كبار المؤرخين فى كافة الدول الحديثة وخاصة فى أوربا ظلوا على ولائهم التام للمنهج السياسى ، إلا أنه حدث تقدم ثورى فى النصف الأخير من القرن الماضى استهدف توسيع مجال اهتمام المؤرخ . وربما كان مرجع ذلك إلى التطور الثقافى الملحوظ فى تلك الفترة وإلى التقدم الذى حدث فى العلوم الطبيعية والاجتماعية فضلا عن عدم التزام العلماء الباحثين ورغبتهم فى التحرر ، وهو الأمر الذى مكن المؤرخين القادرين والمبتكرين من تنفيذ إرادتهم والتعبير عن رغباتهم فى حرية كبيرة . هذا إلى أن التقدم الملحوظ فى العلوم والتكنولوجيا والنظم الاقتصادية وما نجم عن كل ذلك من تغيرات اجتماعية وثقافية ، أدى إلى تزايد الاهتمام بتاريخ العلم والتكنولوجيا والتاريخ الاقتصادى والاجتماعى . هذا إلى نشأة علوم النفس والأجناس والاجتماع التى أدت إلى طرق جديدة

ساعدت على دراسة الإنسان وأوجه نشاطه فى المجتمع ويسرت السبيل أمام من يرغب فى الإقدام على مثل هذه الدراسات . ومع أن هناك ثمة مبالغة فى اهتمام بورخهاردت ، وسيموندس ، بدراسة حركة النهضة فإن هذا الاهتمام فى حد ذاته كان دافعاً إلى إثارة اهتمام أكبر بتاريخ الأدب والفنون الرفيعة . وبرغم ما كان للحركة الرومانسية من آثار سيئة سبق أن أشرنا إليها ، إلا أن هذه الحركة كان لها الفضل فى توسيع دائرة معرفة المؤرخ وذلك عن طريق إثارة اهتمامه فى العقيدة الدينية بوصفها شريعة عالمية فضلا عن إثارة اهتمامه بالفلسفة والفن والأدب . وبالإضافة إلى ذلك كله ينبغى أن ندرك الأثر الذى أحدثه تزايد الحاصلين على درجات الدكتوراه فى الفلسفة على تطور التاريخ فى صورته الجديدة . وكان التحول فى أول أمره جافاً ، بطيئاً وتقليدياً . لكنه مع الزمن أصبح من الضرورى وجود عدة موضوعات جديدة وجد فيها أساتذة التاريخ المتبرمون مادة للكتابة التاريخية هم مرغمون على قبولها رغم أنها خارج النطاق المألوف للتاريخ السياسى والدبيلوماسى . وبحدوث الفجوة (فى المنهج القديم) أصبح الانطلاق سهلاً منها . على أنه ينبغى أن ينسب شرف هذا الاتساع فى أفق الدراسات التاريخية إلى بعد نظر وابتكار وجرأة أولئك المؤرخين أصحاب نظرية التجديد فى علم التاريخ . ذلك أنه إذا ما نظرنا إلى ما حدث من تغيير بوجه عام دون أن يكون من وراء هذا القول حماسة أو اعتزاز قوى لوجدنا أن هذه الحركة التى استهدفت ديناميكية التاريخ واتساع أفقه قد وجدت أرضا صلبة فى الولايات المتحدة أكثر من أى مكان آخر بينما صادفت أكبر معارضة لها فى بريطانيا العظمى .

أما وجهة نظر أولئك الذين اعترضوا على توسيع أفق البحث التاريخى فقامت على أساس أن عمل المؤرخ وواجبه يقتضيان أن يقوم بوصف كل طور من أطوار تطور الثقافة والنظم لشعب ما من الشعوب فبينما المؤرخ المخصص فى جانب معين ربما يقنع باختيار ذلك الجانب من جوانب تاريخ الحضارة الذى يهمه أكثر . وكان معنى هذا التحول أن المؤرخ المهتم بتاريخ الأدب الأنجلو سكسونى أو فنون المعرفة عن الأيرلنديين فى القرن السادس ينبغى أن ينظر إليه على أنه مؤرخ حقيقى شأنه شأن المؤرخ الذى يتتبع تطور الـ Witangemont أو التحولات التى طرأت على الأسرة السكسونية . ولا نقصد بذلك أن على المؤرخ ألا يهتم بالأحداث وقيمتها ، ولكن ما نقصده هو أن الفكرة بالنسبة للكتابة التاريخية الديناميكية تتعارض فى قوة مع الرأى القائل بأن دراسة مظهر معين من مظاهر نشاط البشر من شأنه أن يطغى على الأنشطة الأخرى وأن لا ينبغى أن نركز على دراسة مظهر معين من مظاهر الثقافة ونهمل ما عداه .

إن ما يطالب به المؤرخ الجديد هو ألا يحل اهتمامات جديدة محل الاهتمام بالموضوعات السياسية المألوفة ولكن عليه أن يقر بضرورة وصف كل جانب من جوانب الحياة والثقافة فى المجتمع . ومن الواضح أنه مع اتساع مجال التاريخ بهذه الطريقة تصبح عملية الإلمام الشامل بكل جوانب تاريخ دولة قومية بمفردها أمراً يستلزم تعاون عدد كبير من الخبراء المتحمسين الدائبين . ولا ينبغى أن يعتقد فرد واحد أن فى إمكانه أن يلم بكل نواحى التاريخ لمجتمع معين ولو عن فترة قصيرة . وهكذا أصبحت الأعمال التاريخية العظيمة فى حاجة فى المستقبل إلى جهود مشتركة .

وما دام كثير من المؤرخين صاروا غير قانعين بالتأريخ للشخصيات السياسية فى المجال السياسى ، فإن ذلك جعلهم أكثر اهتماما بكل المكاسب التى حققها البشر على الأرض ، سواء كان ذلك فى مجال الثقافة أو الاقتصاد . والاجتماع أو السياسة أو العلوم الطبيعية أو الدين . وساعد على ذلك تقدم علم الفلك الحديث وما أتى به هذا العلم من أبعاد جديدة بالنسبة للكون . كذلك ساعد فى هذا المجال تطور وجهة النظر تجاه الحياة والثقافة ونشأة علم النفس وعلم الاجتماع فضلا عن تقدم الحركة الصناعية الحديثة والحياة المدنية وتقدم الدراسات العديدة فى مجالات مختلفة فى عصرنا الحاضر . ومع أنه كانت هناك جهود يعتد بها فى هذا الاتجاه بالنسبة للتاريخ خلال فترة العقلانية والرومانسية إلا أن التطورات المعاصرة جاءت فى صورة أكبر وأضخم تنوعاً وأكثر تعدداً . ذلك أنها قامت على أساس من المعرفة أوسع وأكبر ، فضلاً عن دراسة أدق فى مجال البحث التاريخى .

تاريخ الفكر

كان تاريخ الفكر من أولى الجهود المتعددة الجديرة بالإشارة لأنها استهدفت الخروج بالتاريخ عن دائرة الأحداث السياسية وجعله يهتم بدلاً من ذلك بتطور الثقافة البشرية . ونعنى بتاريخ الفكر الجهود التى بذلت لاستعراض انتقال أفكار ومعتقدات وآراء الطبقات المثقفة منذ العصور البدائية حتى عصرنا الحاضر . وينادى المتحمسون لهذا الاتجاه فى التاريخ بأنه كما يقال بأن عقل الإنسان هو العامل المكمل لشخصيته وسلوكه فكذلك الاتجاهات الثقافية المتنوعة فى كل عصر هى أكثر الأمور أهمية فى مجال التأثير الموحد والمنظم على تطور الحضارة البشرية .

ولقد أوضح فرنسيس باكون فى كتابه « تقدم المعرفة » الخصائص المختلفة لهذا اللون من التاريخ حين كتب يقول : « لم يحدث أن اقترح شخص على نفسه أن يقوم بدراسة الخصائص العامة للمعرفة ووصفها من عصر لآخر على غرار ما فعله كثيرون من وصف الطبيعة وخصائص الدولة المدنية والدينية . وبدون الاتجاه لدراسة المعرفة يظل تاريخ العالم أشبه شىء بتمثال بوليفيموس ذى العين الواحدة ، لأنه لا غنى عن هذا الجانب من التاريخ الذى يوضح روح الإنسان وحياته » . وعبر الدكتور صمويل جونسون عن نفس هذه الحقيقة عندما قال فى بعض كتاباته : « ليس هناك جزء فى التاريخ مفيد بوجه عام مثل ذلك الجزء المرتبط بتقدم الفكر البشرى وتدرج الرقى العقلى والتقدم المتوالى للعلم ودورات المعرفة والجهالة التى تعتبر دورات نور وإظلام بالنسبة لفكر الأحياء ، وظهور وإحياء الفنون وثورة عالم الفكر » . أما عالم الاجتماع الفرنسى أوغسط كونت فقد أشار إشارة طيبة إلى ذلك ، هذا فضلاً عن أنه أخرج فى فلسفة التاريخ بحثاً يقوم إلى حد ما على نظريته العامة عن المراحل الكبرى لتطور الاتجاهات الفكرية ، والتى أطلق عليها علوم الدين ، الميتافيزيقا ، والعلوم التجريبية .

كذلك قام ج . ستانلى Stanley بعمل ربط أكثر أهمية فى دراسته لتطور علم النفس الوراثى الذى بناه على أساس فكرة أنه ينبغى دراسة العقل البشرى تاريخيا من أصوله فى الحياة الفكرية عند الكائنات الأولية إلى أن نصل إلى أوجه نشاطه فى الإنسان الحديث . ثم إن علم النفس الاجتماعى أيد علم النفس الوراثى وذلك فى الأبحاث التى قدمها باجهو Bagehot ، تارد Tarde ، دركهيم Durkheim وآخرون . أما أبحاث كل من و . ا . هـ . ليكى W.E.H.Lecky ، اندرو هوايت ، جون و . درابر ، ويوسف ماك كاب Joseph Mc Cabe فقد أثارت اهتماما كبيرا فى هذا الميدان حيث انهم عرّضوا بعصور الجهالة فى عرضهم للتقدم الفكرى فى أوربا . وكان أول مؤرخ معاصر أولى قدرا من الرعاية المنظمة فى هذا المجال هو كارل لامبرخت المنسوب إلى ليبزج (١٨٥٦-١٩١٥) ، ذلك أنه اعترف بالنتائج التى قام بها كونت فى هذا المجال ، ولكنه أتم عملا أكثر من عمل كونت إحكاما . وإلى لامبرخت تنسب فكرة تقسيم التاريخ إلى فترات طبقا للمؤثرات النفسية السائدة فى كل فترة والتى تتابعت واحدة بعد الأخرى فى التاريخ ، فضلا عن أنها تعطى خصائص الثقافة لكل عصر وتهيىء الطريق لثقافة العصر الذى بعده ، وإذا كان لامبرخت قد وضع هذه القاعدة لتتمشى فى جوهرها مع التاريخ الألمانى وحده فإنه كان من دواعى الغبطة له فيما بعد أن يرى هذه القواعد تصلح لأن تكون إطارا ينتظم داخله التاريخ العام للثقافة

البشرية . ثم كان أن خصص تلميذه كورت بريزج جهوده الأخيرة فى دراسة تأثير المعرفة على مجرى التاريخ .

ومع أن كثيراً من المؤرخين المتفقين مع لامبرخت فى نظريته العامة أكدوا ان تفسيره الخاص متزمت وغير موضوعى أو منهجى بحيث يصعب تطبيقه حرفيا على تفسير التاريخ الثقافى فى أوربا ، إلا أنهم أقروا صلاحية نظريته العامة القائلة بأن السمات الاجتماعية والنفسية السائدة فى أى زمن تمثل أعظم الأسس قوة لتنظيم اتجاهات التطور الثقافى بوجه عام . وقد نظر هؤلاء المؤرخون إلى تفسيراته الخاصة بوصفها مثلا من أكبر الأمثلة على مدى ما فعلته الجهود الذاتية والمصطنعة لتقسيم تاريخ البشر إلى مراحل من التطور ، وهو الأمر الذى اتسمت به معظم كتابات الباحثين وخصوصا الألمان منهم عن التطور الاجتماعى والثقافى ، وذلك فى مجال الأنثروبولوجيا والاجتماع . وهكذا اتهم لامبرخت بأنه ضحى بالدقة فى سبيل رتابة الموضوع ووحدة العرض وبساطة التنظيم . وكان أن نجم عن هذا النقد تطوير ذو طابع عملى وأكثر مرونة فى تنظيم التطور الفكرى وعرضه فى أوربا ، ونعنى به دراسة طبيعة الأفكار السائدة والتغيرات التى طرأت عليها والاتجاهات الفكرية فى المجتمع الغربى منذ العهود الأولى فى الشرق القديم حتى أيامنا هذه . وروعى فى هذه الطريقة الجديدة الالتزام بنوع معين من التفسير أو أى تنظيم جامد معد من قبل .

وكان الأستاذ جيمس هارفى روبنسون (١٨٦٣-١٩٣٦) أحد أساتذة جامعة كولومبيا السابقين ـــ أبرز شخصية تناولت هذا الاتجاه الأكثر جدة وارتباطا بالمنهج العلمى . ذلك أن روبنسون استطاع أن ينمى اهتمامه بهذا المجال عندما قام بدارسة مبتكرة عن تاريخ طبقة المفكرين فى أوربا ، وهى الدراسة التى أجراها بشكل تجريبى منذ جيل مضى . ولم يلبث أن أصبح بحثه أكثر الدراسات شيوعا وأكبرها أثراً فى هذا النوع من الدراسات التاريخية . ويمكن التعرف على الخطوط العامة لآرائه وطبيعة هذه الآراء ومجالها بالرجوع إلى موجز تلك الدراسة التى أعطاها اسم « موجز لتاريخ الفكر فى أوربا الغربية » ثم إنه تناول هذه الدراسة بقدر من التفصيل فى أبحاثه « الفكر فى دور التكوين » وكتابه « تهذيب المعرفة » و « الكوميديا الإنسانية » . وكان لهذه الأبحاث الفضل فى إثارة اهتمام كبير على نطاق واسع فى هذا المجال . أما الدراسة التى طالما وعد بها عن تاريخ الفكر فى أوربا باسم « العمل الكبير » فإنه لم يقدر لها أن تنشر[1] .

---

(١) لصاحب هذا الكتاب دراسة موسوعة عن تاريخ الفكر والثقافة فى غرب أوربا فى ثلاثثلاثة أجزاء طبعة دوفر سنة ١٩٦٤ .

ولم تلبث أبحاث روبنسون أن أثرت عندما تركت صدى لها فى إنتاج طلبته وتلاميذه ، وعلى رأسها تلك الأبحاث الشهيرة التى كتبها بريزرفد سميث عن عصر الحركة الإنسانية والإصلاح الدينى فضلاً عن كتابه باسم « تاريخ الثقافة الحديثة » . ومن تلاميذ روبنسون كذلك لين ثورنديك الذى وضع كتابا بعنوان « تاريخ السحر والعلوم التجريبية فى العصور الوسطى » . هذا فى حين ألفت الآنسة مارثا أورنشتين كتابا عن نشأة الجمعيات العلمية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . أما هوارد روبنسون فقد كتب عن بيل Bayle ، وكتب كارل بيكر عن الفكر السياسى الفرنسى والأمريكى ، فى حين كتب ج. هـ. راندال عن تاريخ الفكر الحديث . ثم ظهرت حديثا دراسات عن تاريخ الفكر الحديث كتبها ف.ب. ارتز F.B. Artez ، كران برنتون Crane Brinton ، ايوجين وبر Eugene Weber ، ا.ن. جونسون ، م. . كورتى ، هـ.س. كوماجر H.S. Commager ، ج.ج. مارتن وغيرهم .

وإذا كنا ندين للأستاذ روبنسون وأتباعه بتجديد دراسة التاريخ الفكرى ووضع معالمها بوصفها واحدة من أعظم الدراسات التاريخية ، فإن هناك دراسات عديدة جديدة فى هذا الموضوع كتبها بعض من كانوا أحيانا لا يشعرون بأن هناك كيانا معترفاً به لهذا النوع من الدراسات التاريخية . وقد اهتم هؤلاء الباحثون بمظاهر أو مراحل معينة من تاريخ الفكر . ونخص بالذكر من تلك الأبحاث ما كتبه كل من ليفى بروهل ، فوندت ، جولدنوزر ، بارتلت ، بول رادن Radin ، ماريت Marett وزلر Wissler عن الفكر البدائى للأبحاث التى أسهمت فى إثراء حصيلة التاريخ الفكرى . كذلك ينبغى الاشارة إلى جهود كل من بريستد ، وارمان ، وروجرز ، وجاسترو ، وروبرتسون سميث ، وورنكلر عن الفكر فى الشرق القديم . وهناك دراسات عن الفكر القديم قام بها جومبرز ، كريست ، كروزيه Croiset وواست Aust ، زيلر ، ووبصوا Wissowa ، فولر Fowler وغيرهم . هذا عدا البحث القيم الذى كتبه هارناك عن تاريخ العقيدة المسيحية وبحث ليا Lea عن محاكم التفتيش فى العصور الوسطى . ولا يفوتنا أن نشير كذلك إلى أبحاث تايلور Taylor ، بول Poole ، رشدال ، هاسكنز ، دى ولف عن الفكر فى العصور الوسطى . أما ما كتبه فواج Voigt وسانديز عن المدرسة الإنسانية فتعتبر من الأبحاث الخالدة . وكتب كل من ليكى Lecky ، مورلى ، بن Benn ، ستيفن ، روبرتسون عن نشأة وتأثير الحركة العقلانية الحديثة ويعتبر البحث الذى كتبه مرز Merz من الأبحاث الفريدة عن الفكر الأوربى فى القرن الماضى (التاسع عشر) . كذلك هناك دراسات عن العلوم العقلانية كتبها ديلثى Dilthey ، ريكرت Rickert ، فيندالباند Vindelband . أما بحث مينك Meineck فهو من الأبحاث المبتكره فى

مجال التاريخ الفكرى نظراً لأنه تناول السياسات الحديثة وهناك تواريخ الفكر الاجتماعى التى كتبها شتين ، بارنز ، بكر Becker ، سوروكن Sorokin وهناك الدراسات التاريخية للفكر القومى التى كتبها باحثون أمثال شميدت ، فيشر ، ليفى بروهل ، فاجيه Faguet ، كروس Croce ، ستيفن ، باترن ، ريلى ، بارنجتون ، كوربى وغيرهم . ولا يوجد فى أى ميدان آخر من ميادين البحث التاريخى ماهو أغنى بالمصادر من ميدان التاريخ الفكرى ، فضلا عما للكتب السابق ذكرها من مكانة لا يعلى عليها .

تاريخ العلم

يرتبط تاريخ العلم ارتباطا وثيقا بالتاريخ الفكرى . والواقع أن هناك فى معظم الأحيان ارتباطا سببيًّا بينهما ؛ لأن الاتجاهات الثقافية السائدة تحدد بوجه عام طبيعة تطور العلم ومكانه فى الإطار الثقافى . وعلى الرغم من ذلك فإنه كان من الطبيعى ألا يجذب تاريخ العلم انتباه المؤرخين المحترفين إلا بقدر قليل تافه . ذلك أن المؤرخين كانوا أكثر ارتباطا بالمناهج الأكاديمة والأدبية التى ظلت حتى عهد قريب جدا تنظر باحتقار للعلوم الطبيعية .

وكان أن أصبح من العسير على المؤرخ أن يتجاهل الأهمية الزائدة لأثر العلم على تطور الإنسان والمجتمع وخاصة بعد الثورة الصناعية وما صحبها من تطبيق لمعارفنا العلمية المتطورة مما أحدث انقلاباً فى الثقافة المادية الحديثة — ولم يلبث أن اشترك قلة من المؤرخين الأكثر تطورا من غيرهم مع العلماء فى علاج أسس هذا الجانب البالغ الأهمية من جوانب التاريخ الثقافى . ولكن معظم الأبحاث فى هذا المجال ظلت من نتاج العلماء الذين لم يوفقوا فى الوصول إلى خير النتائج بسبب نقص تدريبهم على منهج التاريخ وعدم درايتهم بالأسلوب التاريخى . وعندما أقدم المؤرخون على اقتحام ميدان تاريخ العلم اعترضتهم الصعوبة الناشئة عن قلة محصولهم من العلوم الطبيعية . وهكذا صار مطلوبا أن يتدرب كل العلماء والمؤرخين لاستكمال الجانب الذى ينقصهم .

ومما تجدر الإشادة به من الأبحاث الهامة فى تاريخ العلم من جانب العلماء والفلاسفة تلك الأبحاث التى قام بها دنيمان Dannemann ، وجنزبرج Ginsburg ، سيد جوك Sed gwick ، تايلر (Tyler) ، ليبى Libby ، دامبير هويتهام Dampier Whetham ، جورج سارتون

وغيرهم . وهناك ماكتبه دكتور سنجر من أبحاث قيمة عن الجوانب المختلفة لتاريخ العلم والفكر وهناك كذلك البحوث الخاصة بالعلم فى العصور القديمة من إعداد كانتور ، ميلهود ، بوشيه لبكرك ، برتولن دوهم Berthelot Duhem . أما الأبحاث الخاصة بالعلم فى العصور الوسطى فقد قام بها دوهم ، كما ألف شيبلى وولف Shipley wolf ابحاثا موجزة عن نشأة العلم الحديث . ووضع مرز Merz بحثا جديرا بالتنويه عن تطور العلم فى العصر الحاضر وذلك فى الجزء الثانى من كتابه « تاريخ الفكر الأوربى فى القرن التاسع عشر » .

وبالإضافة إلى كل هذه الأعمال الخاصة بدراسة فترات معينة عن تاريخ العلم ظهرت هناك أعمال خاصة بتاريخ بعض العلوم ، مثل أبحاث أوزبورن ، وسنجر ، ولوكى Locy ، كاجورى ، ماش Mack ، نورب ، بوير Bauer ، جاريسون ، سودهوف ، سيجرس Sigeris سيجرس وهى الأبحاث التى تناولت تاريخ البيولوجيا والرياضيات والطبيعة والكمياء والطب ، وتنبغى الإشارة بوجه خاص إلى العمل العظيم لجورج ساريون وفردريك براش Brasch إذ يرجع الفضل إليهما فى جذب انتباه كل من العلماء والمؤرخين للبحث فى تاريخ العلم فقد كان لساراتون جهوده الهامة بوصفه كاتباً وباحثاً فى تاريخ العلم . كما كان للدكتور اسكل ح.س. جوسفسون Josephson . فضله العظم فى عمل ببلوجرافيا عن تاريخ العلم .

وهناك عدد كبير من المؤرخين التقدميين أظهروا حماسة شديدة للاشتغال بتاريخ العلم مثل لامبرخت وأتباعه فى ألمانيا ، وهنرى بير Burr ومجموعته فى فرنسا ، أما فى انجلترا فهناك ف.س. مارفن . وجيمس هارفى روبنسون فى الولايات المتحدة الأمريكية . ويضاف إلى الأخير فى الولايات المتحدة الأمريكية اسم كل من بريستد ، هاسكنز ، ثورنديك ، سميث ، راندال . وثمة كتابان كبيران لهما أهمية خالده ، كتبهما مؤرخون محترفون فى مجال تاريخ العلم أولهما لين ثورنديك ، وعنوان كتابه « تاريخ علم السحر والعلم التجريبى خلال الثلاثة عشر قرناً الأولى من المسيحية » والآخر بحث للمؤرخ ك.هـ هاسكنز ، بعنوان « دراسات فى تاريخ العلم فى العصور الوسطى » ويمكننا التنبؤ بأن المؤرخين لن يظلوا طويلا على إهمالهم لتاريخ العلم . ففى مدى جيل قادم سوف ينال ذلك الفرع من اهتمامهم قدر اهتمامهم بدراسة تاريخ التطور الدستورى . وقد بدت بشائر ذلك الاهتمام فيما قامت به الجمعية التاريخية الأمريكية من تخصيص جزء من نشاطها لدراسة تاريخ العلم .

تاريخ التكنولوجيا

من الواضح أن تاريخ التكتولوجيا وثيق الصلة بتاريخ العلم بسبب ما تحدثه من تغيير فى الثقافة والأنظمة الاجتماعية . وإذا نظرنا إلى التكنولوجيا نظرة واسعة وجدنا أنها التطبيق العملى لمتطلباتنا من العلم . ذلك أن العلم الطبيعى يتصل اتصالاً أساسياً بحياتنا العملية وثقافتنا . ويتم هذا الاتصال عن طريق التكنولوجيا . وتتضح أهمية التكنولوجيا بوجه خاص بالنسبة للتاريخ من الحقيقة القائلة بأن تاريخ التقدم الذى يتحقق فى ميدان الحضارة المادية هو فى أساسه تاريخ وسجل لتقدم التكنولوجيا . إن التقدم الفنى الآلى فى العصور الحديثة هو الذى يقرر مدى قدرة الإنسان على قهر الطبيعة واستغلالها وتسخيرها لخدمته . وسواء أكان الرأى القائل بخطورة الأثر الذى تحدثه الحضارة المادية على النواحى الثقافية الأخرى وعلى الأنظمة البشرية موضع قبول أو رفض ، فإنه لا يمكن أن ننكر تأثير الحضارة المادية بوصفها عاملاً هاماً على كل مظاهر الحياة البشرية وأنشطتها .

إن المرحلتين الكبرتين فى نقدم الىكنولوجيا هما :

١ - تطور الآله
٢ - إحلال الأدوات الميكانكبة محلها .

ولا جدال فى أن الىورة الصناعية تمثل أبرز صورة للأثر الفردى الذى ترىب على التغبرات التى طرأت على التكنولوجيا . ذلك أن التوره الصناعية قامت على أساس عدد من التغيرات العلميه والتكنولوجية فى الغزل والنسيج وصناعه الصلب ، ووسائل النقل والمواصلات . وكان ذلك كفيلاً بتغيير ملامح الحضارة الحدينة ومسيرتها . وعلى الرغم من أهمية تاريخ التكنولوجيا بوصفها أساسا لفهم النطور الثقافى وتطور الأنظمة فإنه يجب الاعتراف بأن جماعة المؤرخين لم يشغلوا أنفسهم جديا بالبحث فى هذا المجال . وتبدو هذه الحقيقة عندما يستعرض الفرد كتب التاريخ الحديثة إذ نجدها خصصت فصولا عده لأحداث سياسة غير هامه نسبيا ــ مىل عصر الىورة الفرنسىة ــ بينما كان أول مرجع عام فى تاريخ أوربا الحديث يتضمن فصلاً عن الىورة الصناعية هو كتاب روبنسون وبيرد الذى صدر سنة ١٩٠٧ بعنوان « تطور أوربا الحديث » . هذا وإن كانت هناك عدة أبحاث سابقه على ذلك الكتاب تناولت تلك التورة الصناعية من عدة جوانب .

وقد بذل علماء الحفريات وعلماء الحضارة البشرية كثيرا من الجهد لامدادنا بمعلومات عن اصول التكنولوجيا المادية ــ مثل ظهور ونطور الأدوات المختلفة ــ وبعض القوانين الفنية أو اللوائح التي تحكمت في أصول الحضارة المادية وتطورها وانتقالها . وكان أن جمع أوتيس ت . ماسون Otis T. Masm في كتابة أصول الأختراعات ، سجلاً عن هذه المواد في أشكالها الأولى وشرحها في صورة وصفية وعلى شكل نظريات . ثم كان أن انتشرت هذه الأبحاث وشاعت بطريقة احدث في مؤلفات كوينلس ووميزلر Quennelles and Wissler. ومن العصر الذي يعرف بعصر ما قبل التاريخ حتى الثورة الصناعية لم تكن هناك سوى دراسات ضئيلة في الجانب التاريخي الخاص بالأوجه المختلفة للتقدم التكنولوجي . أما عن تاريخ التقدم الميكانيكي الذي جاءت به الثورة الصناعية فقد كتبت عنه بعض الكتب مثل تلك التي ألفها اوشر Usher، كايمبفر Kaempffert، مونفورد وآخرون . هذا بالاضافة إلى ما ظهر من دراسات أخرى هامة عن تاريخ جوانب معينة من التقدم الفني مثل صناعة الصوف والحديد والتصدير ووسائل النقل برا وبحرا والصناعات الكيماوية الحديثة وصناعة الفحم والمطاط والوسائل الحديثة لاستغلال الكهرباء وغيرها .

وتمت دراسات عامة عن تاريخ التكنولوجيا أصدرها فيرندل Vrendel، اوشر ، ديري ووليام ، ميسك ، كلم Klemm. هذا فضلا عن الموسوعة المشتركة التي اصدرها شارل سنجر وزملاؤه . كذلك هناك مجهود مفيد مبتكر قام به ثورستين فيبلن متأثر بآراء كارل ماركس حيث حدد مراحل التطور التكنولوجي بوجه عام ووضعه في موضعه الصحيح بالنسبة للتاريخ الثقافي والتطور الاجتماعي والاقتصادي . هذا بالإضافة إلى أنه حاول أن يضمن بحثه حلولا لبعض المشاكل الأقتصادية والاجتماعية الكبرى في وقتنا الحاضر . وقد نهج بعض الكتاب نهجة ولكن بصورة أقل دقة وعمقاً مثل هوبسون ، سومبار واوجبرن Sombart and Ogburn.

وشهدت السنوات الأخيرة جهدا قام به مجموعة من الباحثين لاحياء هذه الدراسات ونشرها على نطاق واسع وخاصة اولئك المؤمنين بمبدأ التخصص .

وربما لا نكون مجازفين إذا قلنا إنه ينتظر في مدى جغرافيته أن يظهر عدد من المؤرخين المحترفين الذين يتعقبون في جدية وانتظام العلاقة بين التقدم الفني والتطور البشري والثقافي ، وتبدو ملامح هذا الاتجاه في بعض الاهتمامات التي ابداها حول هذا الموضوع

بعض المؤرخين مثل لامبرخت ، بير ، روبنسون ، مارفن ، شوتويـل وغيرهم . ولـو أن اهتمامهم لسوء الحظ لم يتمخض سوى عن القليل من المؤلفات . ويعتبر كتاب لويس لامورد الذى كتبه باسم/ التطبيقات الصناعية والحضارة ، أول محاولة نرضى عنها لتتبع تطور التكنولوجيا . كذلك طور كمبر واعوانه هذا الموضوع كما تناوله سيجفريد جيديون Siegfried Giedion فى كتابة سيطرة نظام الآلة ، وكان لروجر بيرلنجام Roder Burling-ame الفضل فى المام الكثيرين بهذا الموضوع بفضل كتابه الذى يدل على مقدرة والذى اسماه «الآلات التى اقامت امريكا» .

التاريخ الاقتصادى

يرتبط تاريخ المسائل الاقتصادية والنظم الخاصة بها ارتباطا شديدا بتاريخ التكنولوجيا بالقدر الذى تكون حياتنا الاقتصادية وليدة التطبيق للتكنولوجى الآلى القائم على اسغلال الطبيعة فى الحدود التى ترسمها الاتجاهات الاجتماعية والأنظمة التشريعية ، خصوصا ما يتعلق بمسائل ملكية الثروة ووضع الطبقات والتمييز بينها من الجانب الاقتصادى . وعلى هذا فإن المؤرخ الاقتصادى يبدأ مهمته مستعينا بالفنيين وينهيها بمعاونة رجال الاجتماع . ويكاد يقتصر تاريخ الحياة الاقتصادية لشعوب العالم على التطورات التى شهدها القرن التاسع عشر .

ذلك أن البحث فى الحياة الاقتصادية ـــ شأنها شأن تـاريخ العلم ـــ لم يكن أمـراً مألوفاً ـــ اذ نبذ المؤرخون هذا الجانب وانحصر تصورهم الرومانسى للتاريخ ومجال كتابتهم فيه على انتصارات الملوك وأخبار القادة العسكرين ورجال الدولة والسياسيين والاعيان . وظهر أول اهتمام منتظم بالتاريخ الاقتصادى بوصفه أحد جوانب العلوم الاقتصادية بصفة عارضة خلال نشاط الحركة التجارية وتقدم البحث فى العلوم الطبيعية . وذلك أن الكتاب عالجوا هذه الموضوعات مع الإشارة فى قليل أو كثير للتاريخ الاقتصادى . وأحسن الأعمال التى يظهر فيها ذلك بصورة عرضية ما كتبه آدم سميث بعنوان «ثروة الأمم» . أما مونتسكييه فقد شعر بأهمية العلاقات التجارية على تطور الانسان والثقافة . ثم حاول رينال Raynal بعد ذلك بقليل ان يحيط بمظاهر التوسع الاوربى والثروة التجارية فى التاريخ الأوربى .

وتسيم هرن Heeren وهو الأستاذ النابعة من مدينة جوتنج بالمانيا بروح مونتسكبيه وذلك عند كتابه أول كتاب عظيم عن التاريخ الأقتصادى ، وذلك انه كتب عن التاريخ القديم فى ضوء العلاقات بين الحياة الاقتصادية والنشاط التجارى فى تلك العصور . ثم ازداد الاهتمام بالتاريخ الاقتصادى إلى مدى أبعد من ذلك بفضل التصارع بين السياسات التجارية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر من ناحية ونتيجة للتقدم الذى وصلت إليه مدرسة مؤرخى الأقتصاد الالمانية من ناحية أخرى . وعلى كل فإن الاهتمام الحقيقى بالتاريخ الاقتصادى ظهر بعد ان وجهت الثورة الصناعية الاذهان إلى أثر العوامل الاقتصادية فى التاريخ .

وكانت هناك مرحلتان أو نموذجان بالنسبة للتطور الخاص بالتاريخ الاقتصادى . اما المرحلة الأولى تتمثل فى اتباع نظرية ومناهج التاريخ السياسى الوصفى ، وذلك بأن سلكت الابحاث العامة طريقاً اخبارياً صرفا عند وضعها أو تأريخها لتتابع الأحداث الاقتصادية . أما المرحلة الثانية للأبحاث الصغيرة المقتضبة حول مشكل ما فى التاريخ السياسى أو الدبلوماسى فإن ما يقابلها فى التاريخ الاقتصادى كان يدرس دراسة مستفيضة تتناول تطور بعض الأنظمة أو الأنشطة الاقتصادية الخاصة أو عرض موضوع معين فى فترة خاصة . ولكن بالنسبة لكلا النموذجية فإن البحاثة عليه أن يكون بالغ الدقة واسع الاطلاع وله اهتمام حقيقى ولو محدود بما يدرسه . ومع هذا كله فإن الجهد كان ضئيلا بالنسبة للربط بين الأنشطة الاقتصادية وأنظمة الحياة العامة للمجتمع ككل ، وبالنسبة لتصوير التطور التاريخى للإنسان والمجتمع مع بيان نتيجة تفاعل وتأثير العوامل الاقتصادية وغيرها من العوامل على التطور الثقافى .

ونجد نماذج لهذا النوع المبكر من دراسة التاريخ الاقتصادى فى الأبحاث الشهيرة لروجرز ، جبنس Gibins، اشلى Ashley، كننجهام ، اونوين Unwin، ابسون ، كلابهام Clapham، فارنر Warner، اناما شترنج Inama Shrnegg، مافور Mavor، أوشر Usher، هيتون Heaton، بوجارت Bogart، لينكبوت Lippincot، كومان Coman، كارمان Carman. هذا بالاضافة إلى رسائل وابحاث عديدة لا يتسع المجال لذكرها هنا . ومن خيرة المؤلفات الجادة فى هذا المجال الكتاب الذى ألفه جورج رينارد وزملاؤه بعنوان

«تاريخ العمل» . كذلك أخرج هنرى دافيد وزملاؤه عملا عظيما آخر مشتركا عن (التاريخ الاقتصادى للولايات المتحدة الأمريكية) .

وثمة نوع آخر من أنواع كتابة التاريخ الاقتصادى أعظم من سابقه وأكثر منه حيوية يمتاز بجودة الربط فضلا عن انه يقتصر على سرد المسائل الاقتصادية وإنما وصف تطور الأنظمة الاقتصادية ذاتها . وجاءت أول خطوة هامة فى هذا المجال على يد مؤرخى الاقتصاد من رجال المدرسة الألمانية ورائدهم فى هذا السبيل روشر Rosher.

ولم تلبث ان جاءت خطوة أخرى أكثر تقدما عندما بذلت محاولة على قدر المستطاع لتوضيح الترابط بين تطور الأنظمة الاقتصادية والأنظمة الاجتماعية الأخرى . وعلى الرغم من أنه كانت هناك جهود مبكرة فى هذا المجال منذ عهد أرسطو وما بعده ، إلا أن الإنتاج العظيم فى هذا الموضوع تمثل فيما أسهم به كارل ماركس إذا حكمنا على مجهوده فى هذه الناحية بصرف النظر عن النظرية الاشتراكية التى نادى فيها بإعادة البناء الاقتصادى . ويؤكد هذه الحقيقة عديد من الكتاب الذين تزعم بعضهم حركة النقد لمذهب ماركسى المتطرف مثل كوفالفسكى ، شومولر Schomoller، سومبار Sombart، بوشر Biicher، وبر Weber، ليفاسير Levasseur، هوبسون Hobsn، وب ، هاموند ، تاونى ، فيبلن ، كونر Connors، جراس Cras، فولكبر Faulkner، كيركلاند Kirkland، دورفمان Dorfman، كوشران Cochran، ميلر Miller، كلف Clough.

ومن الواضح أن هذا النوع المتطور من كتابه التاريخ الاقتصادى ينبغى أن يقوم على معرفة واسعة بعلم الاجتماع ، الذى يستطيع وحده أن يمد الكاتب بإلمام واسع وكافى بالقوانين ومظاهر التطور فى الأنظمة الدولية ، وذلك حتى يتمكن من دراسة هذه المسائل الاقتصادية بنجاح . ويمكن القول ان مدى نجاح الكاتب فى موضوع التاريخ الاقتصادى إنما يتوقف على قدر إلمامهم بالمسائل الاجتماعية . ويمثل هذا النوع من الكتابة التاريخية فى الولايات المتحدة الامريكية ثورتين فيبلين Thorstein Veblin وتلاميذه الذين جعلوا من هذا الربط بين التاريخ الاقتصادى وعلم الاجتماع لوناً أساسياً من ألوان علم الاقتصاد الحديث أو الأنظمة الاقتصادية الحديثة . هذا مع ضرورة ملاحظة أن تناول التاريخ الاقتصادى بنوعيه إنما جاء على أيدى رجال الاقتصاد أكثر من كونه نتيجة لجهود المؤرخين . ولم يكن من قبل الصدفة وحدها أنه يوجد أقسام ذات كراسى خاصة بالتاريخ السياسى

والدبلوماسى والدستورى عن كل بلد وعصر فى حين أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر ما يصل إلى ستة كراسى خاصة بالتاريخ الأقتصادى فى جميع أقسام التاريخ فى جامعات الولايات المتحدة الامريكية . ولا يعرف مؤلف هذا الكتاب من هذه الكراس سوى ذلك الوجود فى جامعة مينوستا Minoesta.

التاريخ الاجتماعى

أما التاريخ الاجتماعى فكان احد الاضافات الرئيسية نسبيا التى جعلت علم التاريخ أكثر تحولا فى نظرته وأكثر حيوية فى مضمونه . وقد بدأت هذه الحركة منذ قرن تقريبا ببعض الدراسات مثل تلك التى قام بها ريل Reill، وفرتياج Freytag، وكلاهما حاول اثارة الاهتمام بماضى ألمانيا لا عن طريق إحياء ذكرى الانتصارات الباهرة التى حققتها الإمبراطورية الرومانية المقدسة أو تلك التى تحققت لأسرة الهوهنزلرن وإنما عن طريق الدعوة لإعادة بناء الحياة الاجتماعية والتمسك بالعادات التى كانت سائدة فى المانيا فى العصور الوسطى والحديثة . على أن العمل الذى قام به فريتاج على وجه الخصوص لا يعتبر تناولا منتظما لتطور النظم الاجتماعية بقدر ما كان تجميعا لصور ناطقة مصحوبة بالرسوم والمناظر والقصص والأحداث التى تصف دقائق الحياة اليومية للشعب الجرمانى . ثم تطورت هذه الطريقة فى معالجة التاريخ الاجتماعى عن طريق عديد من الدراسات التى عالجت السلوك والعادات فى عصور وأزمنة مختلفة . وكان طابع هذه الدراسات الاهتمام بالقديم أكثر منه إنجاز دراسة تاريخية واسعة الأفق .

وخير نموزجين لهذا النوع من التاريخ الاجتماعى هذا ما كتبه لودنيج فريد لاندر عن الحياة فى الإمبراطورية الرومانية وما كتبه بولى لاكرد Paoul Lacroix عن العادات والأخلاق فى العصور الوسطى . ثم لم تلبث ان تحققت خطوة أكثر تقدما على ايدى اولئك الكتاب الذين حاولوا ان يعطوا مجالا أوسع واهتماما أكبر لدور العوامل الاجتماعية فى تاريخ الشعوب وذلك فى مؤلفاتهم التى كانت نوعا من القصص الوصفى ، لكنها صممت ونفذت لتمعين غرض تاريخى من ورائها أكثر من مجرد اهتمامها بالماضى الفديم . وكان أن تحقق هذا النوع من الكتابة فى بعض الأعمال الشهيرة مثل من التى قام بها تريل Traill،

ومان Mann بعنوان (مجتمع انجلترا) ، وما كتبه رامبو Rambaud عن الحضارة الفرنسية وبلوك Block بعنوان (تاريخ الشعب الهولندى) ، فضلا عن الموجز الذى وضعه التاميرا عن الحضارة الأسبانية . وهناك أيضاً الكتاب الذى الفه ماك ماستر Mc Master عن الدور الوطنى فى تاريخ تطور أمريكا ، وهو العمل الذى اكده تلميذه اوبرهلتزر Oberholtzer عن الفترة منذ قيام الحرب الاهلية الامريكية . أما أعظم الأعمال فى مجال كتابة التاريخ الاجتماعى فهو ذلك النوع الذى يحاول أن يوضح المظاهر العامة للتطور الاجتماعى طبقا لما احدثته وعدلته فيه العوامل المختلفة من نظم وقوى وصدام بين الطبقات والهيئات الاجتماعية المختلفة . ويتناول هذا النوع من الكتابة المتطور الاجتماعى بوصفه عملية وراثية ذات أصول قديمة . أما الكتاب الذين طوروا بدرجات متفاوتة هذه الكتابات المتنوعة من التاريخ الاجتماعى المتطور فهم لامبرخت ، شنتها وزن ، جوشن ، جوتز ، نيتشه ، كلهم من علماء المانيا وفى فرنسا فوستيل دى كولانج وبير وزملاؤه . أما فى انجلترا فقد ظهر جون ريتشارد جرين ، وماتيلاند ، فينوجرادوف ، بولارد ، سلوثر ، باربارا هاموند ، سيدنى وبيترس وب Sidney and Beatrice Webb، كلافام Clapham. وفى ايطاليا ظهر بارباجلو ، وفيرورو Ferrero. وفى روسيا كلوشفسكى Klucheovsky. أما فى الولايات المتحدة فهناك شوتويل ، تيرنر ، سيمونز ، فوكسى ، كيندرك ، هاكر ، كارمان ، بيكر ، ودد ، هايز شيفى ، شيلزنجر ، فولكنر Foulkner، وبودن Bowden. ولقد امدنا العمل المشترك عن التاريخ الاجتماعى والثقافى فى امريكا والذى الفه ا . م . شيلزنجر بالاشتراك مع د . ر . فوكس D.R.Fox بأحسن المعلومات عن مكانة الكتابة التاريخية فى التاريخ الاجتماعى فى الولايات المتحدة الامريكية فى الوقت الحاضر .

ثم كان أن مضى بعض الكتاب ـــ وأكثرهم اجتماعيون مؤرخون أكثر منهم مؤرخون اجتماعيون . بهذا التطور قدما ، وحاولوا الكشف عن قوانين التطور الاجتماعى فنقبوا عن الظواهر الاجتماعية التى كررت نفسها فى التاريخ حتى يكتشفوا الحقائق المبنية على الاسباب والنتائج . وبمعنى آخر فانهم حاولوا ان ينزلوا بالتاريخ ليجعلوا منه فرعاً للعلم الاجتماعى الوراثى . وتبدو الامثلة على هذا النوع من الكتابات فى مؤلفات كل من كومت Comte، باكل Buckle، هوبهوز ، جيرنجز ، مولر لاير Muller.lyer، بريزج Breysig، الفرد ويبر Alfred Weber، تيجارت Tegart، والاسى Wallace، فورست وسوردكن Forest and Sorokin.

تاريخ النظم السياسية

كان للاتجاهات الجديدة التى تمثلت فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى أثرها على التاريخ السياسى وتاريخ القانون . واتجهت أرقى أنواع الكتابة التاريخية بالنسبة للتاريخ السياسى فى القرن التاسع عشر نحو علاج أخبار هذا التاريخ وأحداثه ، ولكنها قلما أبرزت صورة واضحة للتطور السياسى ، فضلا عن أنها لم توضح سر تجاهلها للعلاقة بين النظم السياسية والقوى الأخرى فى مجال التاريخ القومى . والحاصل أنه حين كان المؤلف على دراية واسعة بعلم السياسة ، فإن مادته كانت تضم بين طياتها اتجاهات التطور الدستورى وتطور النظم وتطغى على كتابته مادة التراجم والقصص وسرد الأحداث . ولم يكن فى إمكان القارىء . إلا إذا كان مثابرا . أن يستفيد مما يقرأ . ومن أحسن الكتب فى هذا المجال ذلك الكتاب الذى الف س . ر . جاردنر عن تاريخ انجلترا والذى اشتهر بين الطلبة بوصفه مرجعا فى موضوعه .

أما أصحاب النظرة الواسعة القادرين على ربط الأمور بعضها ببعض والذين نظروا إلى التطور السياسى على أنه إلى حد كبير نتاج حتمى لما يتعرض له المجتمع من صراع وضغوط وقوى وتعديلات فهؤلاء هم أصحاب الفضل فى ظهور ما يسمى بتاريخ النظم السياسية . وهنا برزت مسألة الجانب التكوينى وتركز الاهتمام على التغييرات فى النظم أكثر منه على الأحداث والشخصيات كما برزت أهمية توضيح المراحل الرئيسية فى التطور السياسى واتسع ذكر الاسس الاقتصادية والاجتماعية للاتجاهات السياسية وقد نهج موسر Moser منهجا يمس هذا الاتجاه مسا خفيفا فى وقت مبكر فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر وذلك فى كتابة تاريخ اونزنبروك ، كذلك نهج نفس هذا المنهج كل من دى كوكوفيل ، فوشيل دى كولانج ، لاكومب ، لوشير ، فيوليه ، فلاش ، بيتى دوتيه Petit Dutellis. أما شوملر فعلى الرغم من أنه اقتصادى أكثر من كونه مؤرخ فإنه شجع هذا النوع من الكتابة التاريخية فى المانيا . كذلك تعتبر مؤلفات نيتشه خير مثال لهذا القسم من الدراسات . وقدم لنابرونر ، وتيز ، جنست Gneist، ديجو Duguuit مثل هذا النوع من العناية بالاتجاهات التشريعية والدستورية . أما ماتيلاند ، فينو جرادوف ، ادوارد جنكس Jenks، بولالا ، ويز Webbs فكانوا من رواد هذه الدراسات فى انجلترا . وفى روسيا نجد ميليكوف خير من عنى

بهذا النوع من الدراسة ، ومثله فى ذلك فيروردو Ferr oro والذى أتخذه اساسا لدراسة التحليلية للتاريخ الرومانى السياسى . اما فى امريكا فتتمثل ابرز الجهود فى مجال تاريخ النظم السياسية فيما كتبه اوزجود عن تاريخ المستعمرات الانجليزية حتى قيام الثورة الامريكية . ولو ان دراسته اصبحت بالية لفشلها فى ابراز تفاعل العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بعضها مع بعض . ذلك أنه فضل تاريخ الاستعمار عن الاتجاه السائد لطمس تطور النظم الاستعمارية تحت حشد ضخم من التفاصيل من التراجم والاحداث والقصص بحيث صار ذلك الحشد بمثابة قوقعة يصعب اختراقها أو الوصول إلى ماورائها . ولكن هذه الدراسة التى قام بها أوزجود اثارت اهتمام طلاب البحث بدراسة النظم فى الوحدات السياسية المحلية . أما ماك الوان Mc Ilwain فله كتاب العظيم عن نظام الحكومة فى العصور الوسطى ، وعما فى تاريخ النظم الامريكية من جذور واسس انجليزية . وتنادل ك . م . اندروز ، ج . ت . آدمز دراسة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية فى فترة وجود المستعمرات واعطياها قدر زائدا من الاهتمام . أما اقرب الابحاث فى امريكا كذلك التى قام بها فى اوربا ، هاتيرلامد ومدرسة ويبس Webes فهى التى كتبها آدمز عن تاريخ الدستور الانجليزى وما أخرجه بيرد Beard من أبحاث متخصصة عن فترة وضع الدستور وفترة حركة القومية فى دورها الأول . ولهذا المؤلف الأخير (بيرد) محاضراته التى لم تنشر عن تاريخ الدستور الأمريكى . وهناك الكتاب الذى ألفه هاكر ، وكندريك بعنوان «تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ الحرب الاهلية» . ومثله كتب ومحاضرات و . ا . دود W.e.Dodd، بيلنجتون . ويعتبر ما كتبه تيرنر ، بيرد ، شيلزنجر ، بيكر من أعظم الدراسات التى ابرزت تاريخ النظم السياسية الامريكية . ثم أنه علينا ان نعترف بأنه لا يوجد مؤرخ سياسى استطاع ان يبرز ما ابرزته تلك الدراسات التى قام بها بيجهو Begehot، وجو مبلووكز Gum plowicz، راتزنهوفر Ralzenhofer، وميشيل ، ويبر Webber، واوبنهمر Oppenheimmer، وكوفالفسكى ، لوريا ، نبنلى .

تاريخ القانون

أدى علاج تطور الأنظمة السياسية علاجا جادًا عميقا يستند على أساس التاريخ الاقتصادى والاجتماعى إلى التأثير على تاريخ القانون والنظم التشريعية . ذلك أن كتاب

هذه المدرسة حرروا دراسة القانون من المفاهيم الميتافزيقية واللاهوتية وأظهروا ما للاصول القانونية من طبيعة دنيوية واجتماعية وما طرأ عليها من تحولاتٌ موضحين كيف ان القانون يكيف نفسه إلى حد كبير مع التغيرات الاجتماعية ـ اما أولئك الذين ندين لهم بمعظم ما نعرفه عن هذا التحول فى دراسة تاريخ القانون بالنسبة لكافة العصور فهم جومهكوليز فى النمسا ، جبرك Gierke، ايهرنج ، برنر Brunner، كوهلر ، كانتورتز Kantorowtz، بيرولزبمر Berolzheimer فى المانيا . وفى انجلترا لدينا ابحاث مايلامذ ، بولوك Pollok، جنكز ، فبنوجرادوف ، لاسكى Luski. وفى فرنسا هناك ازمن Esmein، دوجو Dugiut، شارمونت Chormont، وفى ايطاليا نجد فاشارو Vaccaro، وفى الولايات المتحدة هولمز Holmes، ويجيمور Wigonore، كاردوزو ، روسكو بدند Roscoe pound وتلاميذهم .

التاريخ العالمى ووجهة النظر العالمية

ويرتبط ارتباطا قويا بالتطور العلمى الاقتصادى الذى شهده القرن الماضى اتجاه جديد نحو التخلص من العزلة والاقليمية التى اصطبغت بها الكتابة التاريخية فى الماضى واحلال وجهه النظر العالمية محلها . ذلك أنه صار من الأمور الواضحة أنه حتى التاريخ السياسى المحلى لدولة من الدول لم يعد من الميسور فهمه دون معرفة المؤثرات التى طرأت عليه من الخارج . ولعل الأمر الذى يبدو أشد وضوحا هو أن هذا العصر شهد سهولة وسرعة الاتصال بين شعوب العالم ، وهو أمر فرض على كل أنواع الكتابات التاريخية الحديثة بمعناها الحقيقى أن تكون تاريخا عالميا وأن تأخذ بوجهة النظر الدولية . وتحقق هذا الاتجاه المحمود على ايدى عدد من الكتاب الذين تناولوا السياسات العالمية والعلاقات الدولية فى السنين الأخيرة . من ذلك أن ه . ج . ولز H.G.Wells حاول ان يكتب تاريخا عالميا ملتزما بوجهة النظر هذه السائدة فى كل وقت . وثمة محاولة أخرى لتطبيق نفس هذه النظرية على تاريخ العصور الحديثة نهض بها بعض مؤرخو العلوم مثل فسك Fiske، سبلى ، هابز ، بوسنفورد ، أبوت ، جيلبس ، فيوتر ، فلك Flick، أما المحاولة الاساسية والشاملة لابراز اهمية التاريخ العالمى بالنسبة لتطور الحضارة الحديثة تقام بها الاستاذ و . ر . شيفرد W.R.Shepherd الاستاذ بجامعة كولومبيا فى محاضراته عن حركة الاستعمار

الاوربى . ومنذ ذلك الحين اصبحت كل الاعمال التاريخية على اختلاف أنواعها لابد وان تكون ذات نظرة عالمية . وهناك ابحاث تاريخية عظيمة فى التاريخ العالمى ذات جهد مشترك قام بها ويلهم اونكن ، والتر جوتز ، جوستاف جلونز ، لويس هالفن ، هنرى بير ، ايوجيه كافيناك ، موريس كروازيه . ثم تجسمت ذروة هذه الجهود فى مشروع اليونسكو عقب الحرب العالمية الثانية وهى المشروع الذى نهض بتنفيذه جوليان هاكسلى ، والف ا . تيرنر Turner.

التاريخ الثقافى العام

من أهم العوامل التى أسهمت فى توسيع دائرة التاريخ ازدياد الإلمام بالثقافة فى أوسع معانيها ، مثل تاريخ الفن والأدب والسلوك والعادات والطباعة والموسيقى وغيرها من الجوانب الأخرى عن الثقافة القومية . وازاء هذا المزيد من الاهتمامات التى وجد المؤرخ نفسه أمامها مضطرًا بقبولها المفاهيم الجديدة لعلم التاريخ صار من الواضح ان الكتابة التاريخية ستقوم فى المستقبل على أساس التعاون المشترك بحيث يسهم كل كاتب بما يتفق ودراسته وتخصصه وخبرته . وبذلك لا يمكن إلا قول من شأن أى عمل جماعى طالما أن إنتاج المجموعة يتصف بالرقة ويمكن الاعتماد عليه .

التاريخ والادراك الاجتماعى

أما آخر مظهر ينبغى ان نشير إليه من مظاهر الاتجاهات الجديدة فى علم التاريخ ، فيبدو فى تلك الجهود الحديثة لجعل التاريخ ذا صبغة علمية وذا فائدة عملية ، بمعنى ان يصبح مفيدا لنا نحن ابناء اليوم . والحق ان الطابع العلمى للتاريخ ظهر فى الماضى فى صورة أو أخرى ، وهناك امثلة معروفة توضح هذه الحقيقة اهمها سفر عزرا ونحميا ، وكتاب أورلوسى الذى عنوانه سبع كتب فى التاريخ ضد الوثنيين ، كذلك هناك جهود أحدث تناولت التاريخ من وجهات نظر مختلفة بهدف تعميمه وإخراجه من نطاق المذاهب التاريخية المعروفة إلى حيث تجعل منه اداة يستعين بها السياسى والمصلح والفكر . ومن اشهر الامثلة لهذا النوع كتاب

مارفن ، الماضى الحى ، وكتاب قرن الأمل كذلك هناك ما كتبه روبنسون ، الفكر فى دائرة التكوين ، وكتاب الكوميديا الإنسانية ، هذا بالإضافة إلى ما كتبه والاس بعنوانه اتجاه التاريخ وولز بعنوان ، موجز التاريخ . أما فان لون Van Loon فقد سمى كتابه «قصة البشرية» . على أنه ربما كانت أكثر الكتابات فى هذا المجال إثارة للاعجاب هى كتابات روبنسون ومجموعة سلسلة كتب الوحدة التى اشرف عليها ف . س . مارفن . ومهما يحدد الانسان مدى لنجاح هذه الجهود الأولى فى ذلك المجال ، فإنه سيبدو أنه ما لم يكن للتاريخ مثل هذه الفائدة العملية عند علاجه فى موضوعية وعناية فإنه يصبح امرا لا حاجة إليه إزاء احتياجات الانسان العملية . حقيقة إنه فى هذه الحالة يصبح شيئاً مفيدا ولكنه سيحظى بالإحترام ولكنه يبقى نوعا قاحلا من أنواع المتعة الثقافية . ويبدو أنه بقدر اهتمامنا اليوم ، فإن الفائدة العملية الأساسية التى نرجوها من التاريخ هى ان يبرز تطور ثقافتنا من اصولها الاولى وان يدفعنا إلى التقدم بصرف النظر عما شهدته البشرية من بعض التقلبات الهامة والنكسات وان يؤكد لنا ان الحاضر مختلف عن الماضى ، ومن ثم يحول دون أقتباس جيلنا أقتباسا مباشرا ومطابقا لتجارب أسلافنا الماضية . وبمعنى آخر فإنه من المحتمل أن تكون الفائدة العملية الرئيسية من التاريخ هى ان يفيد بجهوده فى التقليل من تأثير خطر أولئك الذين ينبغى عليهم الآن ان يخططوا لمستقبل أكثر كفاية وسعادة بالنسبة للبشرية .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

C. L. Becker, "Some Aspects of the Influence of Social Problems and Ideas upon the Study and Wiitmg of History" in Publications of the American Sociological Society, 1912.

I.H. Robinson. The New History. Macmillan, 1911.
— ,Mind in the Making. Harper, 1921.
— ,The Human Comedy. Harper, 1987.
— ."New Ways of Historians", American Historical Review, January, 1980.

W.G.Beasley and E.G. Pulleyblank, Historians of Cbina and Japan, OXFORD, 1961.
H.K. Beale, ed, Cbarles A. Beard. University of Kentucky Press, 1954.
C.W. Smith, Carl Becker· On History and the Climate of Opinion. Cornell Iniversity Press, 1956.
Thompson, History of Historical Wring, Vol. II, chaps. li-lv. Kiaus, The Writing of American History, chap. xiv.
Howard Odum, ed., American Masters of Social Science. Holr, 1927.
H.E. Barnes, History and Social Intelligence. Knopf, 1926.

— ,The New History and the Social Studies. Century, 1925.
— ,Social Institutions. Prentice-Hall, 1942.
F.J. Teggart, Prolegomena to History. University of California Press, 1916.
— ,Processes of History. Yale University Press, 1918.
— ,The Theory of History. Yale University Press, 1925.
A.A.Goldenweiser, History, Psychology and Cultuie. Knopf, 1933.
White, The Evolution of Culture.
G.E. Dole and R. L. Caineiro, eds., Essays in the Science of Culture. Grwell, 1960.

Joseph Dorfman, The Economic Mind in American Civilization. 5 Vols., Viking, 194-1959.
E.R.A. Seligman, The Economic Interpretation of History. Columbia University Press, 1907.
T.K. Derry and T.I. Williams, Short History of Tecbnology. Oxfor Univ. Press, 1961.
Crane Brinton, Ideas and Men Prentice-Hall, 1950.
H.G. Wells, Experiment in Autobiography. Macmillan, 1934.
W. W. Wagar, H. G. Wells and the World State. Yale University Press, 1961.

Lewis Mumford, Technics and Civilization. Harcourt, Brace, 1934.
C.A. Beard, The Economic Basis of Politics. Knopf, 1922.
H.J. Laski, A Grammar of Politics. Yale University Press, 1925.
Fritz Berolzheimer, The World's Legal Philosophies. Macmillan, 1912.
Rocoe Pound, Interpretations of Legal History. Macmillan, 1923.

الفصل الثالث عشر

نشأة تاريخ الحضارة : تاريخ الحضارة والثقافة
ظهور الاهتمام بتاريخ الحضارة

يمثل الاهتمام المتزايد بتاريخ الحياة البشرية والثقافة الإنسانية أكثر التطورات أهمية وأحدثها فى تاريخ الكتابة التاريخية فى العصور الحديثة . وقد أوجزنا فى الفصل السابق الخصائص المتنوعة لاتساع مجال الاهتمامات التاريخية خارج نطاق الكنيسة والدولة . وسنحاول فى هـذا الفصل استعراض بعض ما قدمه المؤرخون المتقدمون فكريا فى مجال تاريخ الحضارة .

ومن المتفق عليه بصفة عامة أنه يؤرخ للبداية الحقيقيه لما عرف حديثا بتاريخ الحضارة Kul-turgeschichte بظهور كتاب فولتير « عصر لويس الرابع عشر » وكتابه « مقال عن سلوك الأمم وروحها » وهو ما سبق أن تعرضنا له . وكان ان احتوت الكتب التاريخية التى تناولت تاريخ العالم ــ وهى الكتب التى شهدت تطوراً كبيراً منذ نشأة الرومانسية ــ مادة كثيرة عن تاريخ الحضارة . أما الجهد العظيم الذى تلى ذلك بالنسبة للتاريخ الثقافى فقد جاء فى الكتاب المشهور الذى كتبه يوحنا يواقيم وينكلمان (١٧١٧ ــ ١٧٦٨) وصـدر فى جزءين سنـة ١٧٦٤ بعنوان « تاريخ الفن فى العهود القديمة » فكان أول عمل تاريخى عظيم لتاريخ الفن ركز تركيزا على الفن عند الإغريق . فلقد أوضح وينكلمان الظواهر العامة لهذا الفن وما بلغه من رفعة وعدم أخذه عن غيره وقدرته الكبيرة على التمييز بين النسب وتحديدها . وكان لهذا الكتـاب أثره الكبـير على الباحثين والشعراء والفنانين وبصفة خاصة على الرومانسيين من دارسى التاريخ الثقافى . ولكنه لم يكن عظيم الأثر على المؤرخين المحترفين الذى ظلوا ملتزمين منهج الكتابة التاريخية القائمة على سرد الأحداث الهامة والشخصيات المرتبطة بتلك الأحداث .

وفى بداية القرن التالى نهضت مدام دى ستيلDe Stael وسيسموندى بجهود ضخمة لجعل تاريخ الأدب فرعاً من تاريخ الحضارة الاجتماعى . ثم ظهر بعد ذلك جرفينوس الذى كتب عن تاريخ الشعر الألمانى ، ثم أعقبه هيرين Heeren ليؤكد أهمية التجارة على تاريخ الثقافة والنظم فى العهود القديمة . أما ادوارد زيلر Zeller فقد وهب شطراً كبيراً من حياته لكى يؤلف ـــ مشبعا بروح هيجل ـــ كتابه العملاق عن تاريخ الفلسفة الإغريقية . ومن أوائل الأعمال التاريخية التى عالجت تاريخ الحضارة علاجاً صريحاً كتاب المؤرخ والناشر الفرنسى فرانسوا جيزو Guizot (١٧٨٧ ـــ ١٨٧٤) واسمه « التاريخ العام للحضارة الأوربية » وظهر الكتاب فى سنة ١٨٢٨ وتناول التطور الأوربى منذ نشأة الإمبراطورية الرومانية حتى القرن الثامن عشر ، وركز بصفة خاصة على نشأة الأفكار البرجوازية وتطور الحكم النيابى مع الحرص على إعطاء صورة تاريخية واضحة عن الطبقة الوسطى المحافظة فى فرنسا ومثلها العليا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم شهد تاريخ الحضارة تلك التطورات التى تربطها بهنرى توماس باكل Buckle وأكبر تلاميذه جون وليام درابر . ولقد سبق ان تعرضنا لجهود باكل فى التاريخ وهى الجهود التى تضمنت اطراءه الحرية الفكرية مع تركيزه على أهمية العوامل الجغرافية والموارد الغذائية وأثرهما على تطور الثقافة . وبفضل هذه الجهود السّباقة أمكن للعالم الطبيعى والكميائى الأمريكى جون وليام درابر (١٨١١ ـــ ١٨٨٢) ان يكتب بحثه الشامل عن تاريخ التطور الثقافى فى أوربا سنة ١٨٦٣ ، ويتصف هذا الكتاب بمسحة واضحة من التشكك ومع ذلك فإنه دون المستوى فى التعبير عن تاريخ أوربا الثقافى . أما بحثه المتعارض مع الدين فكان أكثر عنفاً من سابقه وأطلق عليه اسم « تاريخ الصراع بين العلم والدين » . وعلى نفس هذا النمط الفكرى هناك كتابان لمؤرخ أيرلندى هو ادوارد هارتبول لكى Hartpole Lecky (١٨٣٨ ـــ ١٩١٣) كتبهما عن تاريخ نشأة النقل وأثره فى أوربا ، وقد صدر سنة ١٨٦٥ تاريخ السلوك الأدبى فى أوربا منذ اوغسطس حتى شارلمان History of European Morals from Augustus to charlemagne، وقد صدر سنة ١٨٦٩ . ويمثل هذان الكتابان أعظم الجهود الموفقة بين المؤلفات التاريخية فى التاريخ بأسره ، بل إن بحثه عن العقلانية يعكس جهدا بارزا مميزا لما أسهم به الغرب فى التاريخ الثقافى ، ويقارن دوره فى هذا المجال بما أحدثته آراء وأفكار أوغسطين وكالفن فى هذه الناحية . وهناك عالم انجليزى يمثل الفكر الحر وجانب الإلحاد هو سير ليزلى ستيفن (١٨٣٢ ـــ ١٩٠٤) الذى اشتهر بكتابة تاريخ الفكر الانجليزى فى القرن الثامن عشر . وكتابه « اتباع المذهب النفعى فى انجلترا The English Utilitarians » . وبين هذه المؤلفات يبرز مؤلف هام فى هذا المجال وهو الكتاب الذى ألفه الأستاذ

الأمريكي اندرو ديكسون هوايت (١٨٣٢ ــ ١٩١٨) وكان مديرا لجامعة كورنل إلى جانب كونه ناشرا ومحاضرا من أجل قضية الثقافة وحرية الفكر . ولعله أكثر المؤلفات التاريخية أهمية على الإطلاق فى مجال الفكر الحر وواحد من أكثر المؤلفات التاريخية تحقيقا للمنفعة ومن أعظم الكتب التاريخية التى تأخذ بالألباب .

ونلمس تطوراً آخراً فى هذا المجال فى بعض الأعمال التاريخية الهامة وبصفة رئيسية الألمانية منها التى وجهت اهتماما خاص لتاريخ الحياة والسلوك والعادات . وتبدأ هذه المدرسة بيعقوب جريم Jacob Grimm ومؤلفه التاريخى عن اللغة الالمانية والعادات المشروعة والقصص الشعبية والرويّات السحرية وما شابهها . كذلك من أوائل هذا النوع من الكتاب وأكثرهم أهمية وليلهم هنريك ريهل Wilhelm Heinrich Riehl (١٨٢٣ ــ ١٨٩٧) وهو كاتب ألمانى تعمق فى كل من تاريخ الحضارة الألمانية وعلم الاجتماع الوصفى . ولم يجمع مادته من الوثائق فحسب بل شيدها على أساس رحلاته العديدة فى ألمانيا . كذلك أنتج كتابه العظيم الذى أسماه التاريخ الطبيعى للشعب الألمانى بوصفه أساسا لسياسته الاجتماعية فى أربعة أجزاء بين سنتى ١٨٥١ ــ ١٨٦٤ . أما مبادىء ريهل التاريخية فقامت على أساس افتراض أن العوامل الجغرافية مثل المناخ والطوبوغرافيا وما شابهها هما الأساس فى تنوع الثقافات . وخرج بأن العوامل الاجتماعية والسكانية تلعب دورها فى هذه الناحية ، وأن الفلاحين بطبيعتهم إقليميون يكرهون التنقل فى حين أن سكان المدن تقدميون ولا يرتبطون بإقليم معين . كذلك اعتقد ريهل أن الاسرة هى الخلية الاجتماعية التى تثبت أركان المجتمع . وبلغ ريهل غاية الروعة فى وصفه الحى لخصائص الحياة الألمانية المحلية والثقافية فى المانيا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . لكن كان ضعيفا جدا وغير كفء فيما أصدره من أحكام تاريخية عامة وكذلك بالنسبة للتطور التكوينى الوراثى للثقافة . والواقع أنه كان قبل كل شيء مؤرخا اجتماعيا وصفيا . وتأثر ريهل كثيرا بالأهمية الثقافية للفن والموسيقى وخصص جزءاً كبيراً من اهتمامه لها فى مؤلفه الرئيسى وفى مؤلفاته الآخرى عن الفن الألمانى والموسيقى . وبالإضافة إلى مؤلفاته الخاصة فإنه اشترك مع غيره فى تحرير عدة أبحاث مسلسلة عن طبيعة البلاد والناس فى بافاريا .

وتعبر كتابات جوستاف فريتاج Freytag (١٨١٦ ــ ١٨٩٥) عن مزيج من التاريخ القومى والثقافى . وذلك أنه بدأ بدراسة التاريخ الألمانى ــ الاجتماعى والثقافى ــ بعد دراسة علمية لأصل اللغة وتاريخ الدراما . أما مؤلفه العظيم فى مجال التاريخ الثقافى فلقد أسماه (صور من التاريخ الألمانى) وصدر فى خمسة أجزاء بين سنتى ١٨٥٩ ، ١٨٦٢ . وتناولت تاريخ حياة الشعب

الجرمانى منذ نشأته حتى القرن التاسع عشر ، مع الاهتمام بالتركيز على الطبيعة الأساسية للثقافة القومية . فكان فى هذا شبيها بالعقلانيين . واتفق فريتاج مع جيزو أن الطبقة الوسطى هى عماد الحياة القومية فى المجتمع . كذلك ضمّن كتابه الكثير عن التاريخ السياسى والحربى بنسبة أكبر مما جاء فى كتابات ريهل ، وقدم صوراً حية لأبطال الشعب الجرمانى العظام مثل شارلمان وباربا روسا ولوثر وفردريك الأكبر وغيرهم . لكن فريتاج لم يقدس الماضى تقديسا عاطفيا كما فعل ريهل إلى حد كبير . وأوضح أنه كلما توغلنا فى الماضى وجدنا الحياة أكثر قسوة وذات طابع إقليمى . كذلك اتسم عمل فريتاج بالمتعة والتعمق فى أخبار الدسائس والتآمر .

وهناك ثلاثة مؤلفات أخرى عن الحضارة الألمانية اتسمت بأنها فاقت غيرها فى انتمائها إلى مدارس البحث التاريخية بالمعنى التقليدى وبأنها أعمال تاريخية بالمعنى الدقيق وأول هذه المؤلفات كتاب كارل نيتشه (١٨١٨ ــ ١٨٨٠) وعنوانه (تاريخ الشعب الألمانى حتى صلح أوجزبرج) . لكنه لم ينشر إلا بعد وفاته فى ثلاثة أجزاء بين سنتى ١٨٨٣ ، ١٨٨٥ . وأعطى نيتشه اهتماما للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى والفكرى فضلا عن السياسى . والواقع أنه امتلك قدرات غير عادية فى علاجه للأنظمة الجرمانية فى العصور الوسطى . كذلك كتب نيتشه كتابا تاريخيا عاما عن الجمهورية الرومانية ولو أن هذا الكتاب لا يعتبر إسهاما فى مجال التاريخ الثقافى . أما أعظم ماأسهم به كاثوليكى فى تاريخ الحضارة فهو ما ألفه يوحنا جانسن Johannes Janssen . (١٨٢٩ ــ ١٨٩١) باسم (تاريخ الشعب الجرمانى فى نهاية العصور الوسطى) . وهو الكتاب الذى صدر فى ثمانية أجزاء بين سنتى ١٨٥٧ ، ١٨٩٤ . واتخذ محوراً له دراسة حياة الجماهير مع العناية بتاريخ الحياة الاجتماعية والثقافية . وكان رائعاً فى تصويره للمجتمع الجرمانى قبيل حركة الإصلاح الدينى وإن كان الباحثون يتشككون فيما ذكره من أن الحضارة الجرمانية بلغت ذروتها فى نهاية العصور الوسطى .

أما آخر ما أنتجت مدرسة ريهل وفريتاج فهو ما قام به جورج شتنهاوزن Steinhausen (١٨٦٦ ــ ١٩٣٣) الذى كان معجباً بكل من الكاتبين السابقين وأخرج كتاباً ينم عن مقدرة كبيرة سماه تاريخ الثقافة الجرمانية ، وصدر سنة ١٩٠١ . هذا إلى أنه كتب عدداً من الكتب المتخصصة عن مراحل وفترات مختلفة من تاريخ الثقافة الالمانية وإذا كان جورج شتنهاوزن يختلف عن فريتاج فى عدم إعطاء الدولة وزنها الكبير فى مجال التاريخ الثقافى ، إلا أنه يتساوى معه فى قدرته على توضيح وتقصى معظم التفاصيل وأدقها عن الحياة اليومية . لكنه فيما يتعلق بتاريخ علم

الجمال كان دون بوركهاردت فى الابتكار وإن كانت حصيلته العلمية من الحقائق المعترف بها أحسن حصيلة من بوركهاردت . ثم كان أن انعكس هذا اللون من الاهتمام التاريخى الذى ساد منذ ريهل حتى شتنهاوزن فى كتاب (تاريخ الحضاره الفرنسية) الذى ألفه الفرد رامبو (١٨٤٢ ــ ١٩٠٥) وفى الكتب الشعبية التى ألفها جون رينشارد جرين ؛ عن التاريخ الإنجليزى وفى العمل الذى اشترك فيه كل من هـ . ر . ترال Traille ، حـ. س. مان Mann والذى نشر فى ستة أجزاء بين سنتى ١٩٠١ ، ١٩٠٤ عن التاريخ الاجتماعى فى انجلترا . كذلك انعكس هذا اللون من الاهتمام التاريخى على الكتاب الضخم الذى وضعه جون باتش ماك ماستر عن تاريخ الشعب الأمريكى .

وهناك من اهتم بالآداب وعلم الجمال أكثر من اهتمامه بالحياة والنظم ، ومن هؤلاء العملاق السويسرى يعقوب كرستوف بوركهاردت (١٨١٨ ــ ١٨٩٧) صاحب أروع الأبحاث عن النهضة وأدق الدراسات عن الحضارة الإغريقية . وقد درس بوركهاردت التاريخ على يد بوخ Boeckh ورانكه ودرس الفن على يد كوجلر وتأثر بما حققته الحركة الرومانسيه فى مجال الفن والأدب . أما العمل الذى كان سببا فى شهرته فهو بحثه عن حضارة النهضة وهو البحث الذى نشر سنة ١٨٦٠ وفيه ركز بوركهاردت على ما اعتقد أنه السمة المميزة الأساسية فى عصره وهى بروز الفردية ــ وعالج ذلك بنجاح فى براعة عظيمة . وظل هذا الكتاب طيلة ثلاثة أرباع قرن أعظم عمل مبتكر قام به مؤلف بمفرده من المتخصصين فى عصر النهضة . أما نقطة الضعف الرئيسية فيه فتكمن فى فشل المؤلف فى أن يبرز ملامح التطور التدريجى لحركة النهضة من بين ثنايا العصور الوسطى .

ذلك أنه صور النهضة على أنها حدث مفاجىء يثير الحيرة وذلك بصورة اكثر مما أوضحته الحقائق . لكن بوركهاردت لم تفتنه بدرجة كبيرة كل مظاهر عصر النهضة واعترف تماما بجانبها غير الإنسانى وجوانبها القاتمة ولكنه اعتقد أن هذا ثمن ما حققه من أبحاث فى مجال علم الجمال .

أما كتاب بوكهاردت عن تاريخ الحضاره الإغريقية ، فهو أطول من الكتاب السابق ، كما أنه جهد تاريخى ممتاز . ذلك أنه أعرض عن تمجيد الإغريق رومانسيا وتناول الحضارة الهلينية من زاوية معتدلة واقعية ، على أن كتابه هذا لم يحظ بالإعجاب والإثارة مثل كتابه السابق عن الحضارة . وكان اهتمام بوركهاردت بالتاريخ الثقافى على مجال واسع المدى ، وهى الحقيقة التى تكشفت عندما طبع تلاميذه مجموعة أبحاثه ومحاضراته سنة ١٩١٨ بمناسبة الذكرى المئوية لمولده .

وقام جون أدنجتون سيموندس John Addington Symonds (١٨٤٠ ــ ١٨٩٣) وهو الإنجليزي المعجب ببوركهاردت بالتعبير في صورة كاملة متزنة عن وجهات نظر أستاذه عن الحضارة . وسيموندس هذا هو صاحب تراجم دانتي وميخائيل أنجلو ومؤلف كتاب النهضة في إيطاليا الذي طبع في سبعة مجلدات بين سنتي ١٨٧٥ ، ١٨٨٦ . ومع أنه درس دانتي وعصره مما هو كفيل أن يجعله يفوق أستاذه في معرفته بعصر النهضة ، ألا أنه أكد ، ما سبق أن ردده بوركهاردت من وجود هوة سحيقة بين العصر الوسطى وعصر النهضة . ولم يكن عصر النهضة في نظر سيموندس هو عصر الربيع والازدهار للبشرية في الغرب فحسب ، لكنه كان عصرا استهدف تطوير الحرية وإسعاد الانسانيه . ورأى سيموندس أن هناك تدهورا مباشرا فكريا وخلقيا من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية عبر حركة الإصلاح الديني ، وأن كلا من هذه العصور متشابهة من الناحية الروحية واتسم وصفه لثقافة عصر النهضة وشخصية ذلك العصر بالقوة والمتعة . وقد تعرضت نظرياته العامة عن مكان النهضة في التاريخ الغربي لكثير من التعديل .

أما لودفيج فريدلاندر Friedlander (١٨٢٤ — ١٩٠٩) فقد ألقى مزيداً من الضوء على جوانب التاريخ الثقافي القديم . وقد وجه اهتمامه في أول الأمر إلى مدرسة هومر وإن كان قد وقع تحت تأثير طومسون وريهل وفريتاج وبوركهاردت . وأخرج كتابه (حياة الرومان وسلوكهم في أوائل عصر الإمبراطورية) في ثلاثة أجزاء بين سنتي ١٨٦٢ ، ١٨٧١ . وتتصف هذه الدراسة بأنها تعطي صوراً غير متعادله لجوانب عدة من حضارة عظمى هي حضارة القرنين الأولين من عصر الإمبراطورية الرومانية . وجاء وصفه للسلوك والعادات والحياة والأشعار والفن والكتابة القديمة وغيرها من مظاهر تلك الحضارة العديدة وصفا ممتعا متعمقا حيا . واتسمت دراسة فريدلاندر بأنها تبرز الصورة الناطقة الحية من العصر القديم أكثر من كونها تأريخا للحضارة .

فاذا ما انتقلنا إلى الحديث عن السير صمويل ديل Dill (١٨٤٤ ــ ١٩٢٤) وجدنا أنه عالج في كتبه الثلاثة فترة أطول من فريدلاندر لكنه كان أقل حرصا على إثبات التفاصيل . أما مؤلفاته فهي المجتمع الروماني منذ نيرون حتى ماركوس أوريليوس ، و (المجتمع الروماني في القرن الأخير للإمبراطورية الغربية) والمجتمع الروماني في غاليا في العصر الميروفنجي ، وكتب ديل بطريقة واضحة وجذابة فضلا عن قدرته الفائقة في شرح مادته . وكانت آخر مؤلفاته أقلها جودة إذ جاء كتابه الأخير دون ما كتبه المؤرخ الفرنسي فرديناند لوت ودون العمل الفذ الذي أنتجه الفونس دوبش Dopsch عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر الكارولنجي . أما

تاريخ روما الثقافى والسياسى منذ سقوط الإمبراطورية حتى عصر النهضة فقد عالجه فردنناند جريجو رفوس (١٨٢١ ــ ١٨٩١) فى كتابه (تاريخ مدينة روما فى العصور الوسطى) الذى صدر فى ثمانيه أجزاء بين سنتى ١٨٥٩ ، ١٨٧٢ . كذلك كتب جريجورفيوس Gregorovius كتابا أقل تكاملا من سابقه وهو (تاريخ مدينة أثينا فى العصور الوسطى) . والحق أنه كان مؤلفا قديرا وكاتبا عظيما غزير الإنتاج عالج كثيرا من الموضوعات من العصر الأول للتاريخ الإغريقى حتى مسألة الاشتراكية كما تبدو فى كتابات جوته . أما عن التقدم الاقتصادى فقد تم تناوله فى مجال تاريخ الثقافة ضمن عدد من المؤلفات الهامة مثل تلك التى أنتجها فون اناما شترنج - Karl von Inama Sternegg (١٨٤٧ ــ ١٩٠٨) وماكسيم كوفالفسكى Kovalevsky (١٨٥١ ــ ١٩١٦) اذ كتب الأول كتابا خالدا عن التاريخ الاقتصادى فى ألمانيا وركز اهتماما خاصا على أهميه التطورات فى ميدان الزراعة وأما الثانى فقد تأثر بنظريات سبنسر عن التطور وأخرج مؤلفا أكثر طموحا . فجاء كتابه تاريخا اقتصاديا شاملا لكل أوربا . هذا إلى أنه كتب فى إسهاب عن نشأه الديمقراطية الحديثه ، وعن مدى ما اشتقته النظم الروسية الحديثة من قوانين الروس وعاداتهم القديمة .

أما أعظم جهد لمؤرخ يستحق التقدير قبل لامبرخت ــ وذلك فى ميدان كتابة تاريخ عام عن الحضارة ــ فهو ما تضمنه كتاب العالم السويسرى اوتوهن أم ريهن Otto Henne - Am - Rhyn (١٨٢٨ ــ ١٩١٤) وهو الكتاب الذى صدر فى سبعة أجزاء بين سنتى ١٨٧٧ ، ١٨٩٧ بعنوان (التاريخ الثقافى العام منذ العصور الأولى حتى الوقت الحاضر) . ويعتبر هذا الكتاب بالقياس إلى المجال الذى تناوله والفترة التى تم إعداده فيها من أعظم الأعمال التى أنجزها فرد فى مجال التاريخ الثقافى والتحليل التاريخى . ذلك أن هن ــ أم ــ ريهن كان كاتبا دسم الانتاج فى ميدان التاريخ الثقافى فى صورة تدعو إلى الإعجاب . وبالاضافة إلى هذا الكتاب الضخم فإنه كتب عن التاريخ الثقافى للشعب الجرمانى ، وعن التاريخ الثقافى للشعب اليهودى ، وعن التاريخ الثقافى للحركة الصليبية . هذا كله فضلاً عن كتابه الذى عالج فيه مكانة المرأة فى التاريخ الثقافى وبحثه عن الأهمية الثقافيه للقصص الشعبية الألمانية . أما بولس هننبرج Paul Henneberg فهو معاصر للكاتب لامبرخت وإن لم يتأثر به فى شيء ، وكتب كتابا عظيما سماه ثقافة الحاضر (أصولها ومصيرها) وهو الكتاب الذى نشر فى سبع وثلاثين جزءا بين سنتى ١٩٠٥ ــ ١٩٢١ .

وكان ان ظهر أثر علم الاجناس البشرية الجديد على التاريخ الثقافى فى ألمانيا فى كتابات جوليوس ليبرت Lippert (١٨٢٩ ــ ١٩٠٩) وخاصة فى كتابه الذى يترجم إلى الإنجليزية

باسم (تطور الثقافة) . ذلك ان ليبرت أوضح بطريقة ممتازة دلائل التطور التى تحققت فى التاريخ الثقافى على يد الكتاب المختلفين مثل مورجان ، وسبنسر . فضلا على أنه ركز على أهمية انتشار الثقافه . وكان يؤمن بأن العوامل الديناميكية فى تاريخ البشر هى فى حقيقتها عوامل ثقافية أكثر منها عوامل بيولوجيه أو جغرافية ، ولذا فإنه من أوائل القائلين (بمذهب الحتمية الثقافية) . وفى خلال عرضه للمراحل الثقافية ، حرص على أن يؤكد تأثير الأفكار فى كل مرحلة منها . كذلك كتب ليبرت مؤلفات أخرى عن تطور الآراء الدينية والطقوس وعن تاريخ الأسرة وتاريخ سلوك الألمان وعاداتهم . وإذا كان التاريخ الثقافى يدين له بالشىء الكثير فإن علم الاجتماع التاريخى يدين له ايضا نظرا لما أحدثته كتاباته من تأثير عليه . وأما أبرز الأبطالُ جهداً فى مجال تاريخ الحضارة وأعظمهم بحثاً فى تطور هذا التاريخ فى العصور الحديثه فهو كارل لامبرخت المنسوب إلى ليبزج (١٨٥٦ ــ ١٩١٠) .

كان أول بحث هام قام به لامبرخت كتابه المفصل والمبتكر عن تاريخ ألمانيا الاقتصادى فى العصور الوسطى مع تركيزه بصفة خاصة على إقليم موزل . وفى هذا الكتاب أوضح لامبرخت اهتمامه بتاريخ الطوائف ذات النشاط الاقتصادى والحركات الاقتصادية الرئيسيه بوصفها صورا مؤثرة على التاريخ الاجتماعى لأى شعب . ومن الواضح أنه استقى هذا الاتجاه إلى حد كبير من كارل ماركس رغم أن لامبرخت لم يكن ماركسى النزعة . كذلك تأثر لامبرخت بنيتشه وبوجهة نظر أوغسط القائله بأن التاريخ ينبغى أن ينظر إليه فى صورة مراحل متتابعة فى مجال السيكلوجية الكلية للإنسانية . هذا كله فضلاً عن تأثر لامبرخت بنظرية التطور . وكان أن عبر لامبرخت عن كل أفكاره هذه فى كتابة الخالد (التاريخ الألمانى) الذى نشر فى اثنى عشر جزءاً منذ ١٨٩١ حتى ١٩٠٩ ، ثم أضيفت إليه أجزاء عن الفترة الحديثة جدا . ونظم لامبرخت مادته حول المحور الأساسى القائل بأن كل عصر كبير له سمة سيكلوجية شاملة وغالبة . وهذه السمة هى التى تسود فى عصرها ، وأن التاريخ ليس إلا سجلا لتأثير وتتابع هذه السمات السيكلوجية السائدة . فالعصر البدائى كانت سمته السيكلوجية السائدة هى الرمزية ، والعصر الوسيط المبكر كانت سمته المثالية ، أما العصر الوسيط الأخير فكانت سمته المحافظة . أما عصر النهضة والتنوير فكانت السمة السائدة فيه هى الفردية . وفى العصر الرومانسى كان الخيال والتصور بينما كان العصر الذى أعقب الثورة الصناعية هو عصر توتر الأعصاب . ولم يهمل لامبرخت التاريخ السياسى وإنما جعله تابعا للتاريخ الاقتصادى والثقافى . وأدى اهتمامه بالتاريخ الاقتصادى إلى تركيزه الخاص على العوامل الاقتصادية وذلك عندما عالج تطور الشعب الألمانى . كذلك اهتم اهتماما غير عادى

بتاريخ الفن والموسيقى . ولم تتسم كتابه لامبرخت بالاستفاضة فحسب ولكنه كان أيضا صاحب حوار ممتع شائق . والواقع أنه فعل الكثير لتطوير وجهات نظره عن التاريخ . وكان له تأثيره الكبير على لاكومب وبير فى فرنسا وفيرورو وباربراجلو فى ايطاليا ، وبيرين فى بلجيكا فى حين ظهر تأثيره فى الولايات المتحدة على كل من و . أ . دود ، كارل بيكر .

واذا كان لامبرخت لم يؤسس مدرسة رسمية فى ألمانيا فإنه ترك أثراً قويا فيها . وفى سنة ١٩٠٩ عاونه المعجبون به على تأسيس معهد الحضارة والثقافة العالمية فى ليبزج تكون مهمته إعداد الباحثين على نفس منهجه . وظهرت لعدد من تلاميذه أعمال هامة فكتب كيرت بريزج بحثا عن التاريخ الثقافى فى العصور الحديثة ضمنه آراء لامبرخت العامة فى عرض منتظم للتطور الثقافى فى العالم الحديث . ولقد جاء منهج بريزج واستنباطاته فى عمله أكثر دقة من لامبرخت كما أنه وهب جهده فى أواخر سنى عمره لعلاج التاريخ الثقافى وفلسفة التاريخ ، فأخرج كتابه الذى أسماه « تغير التاريخ » . أما إبرهارد جوثن Eberhard Gothen فقام بجهود قيمة فى دراسة عصر النهضة وتاريخ اليسوعيين والحركة المضادة للإصلاح الدينى ، كما أسهم بالكتابة فى سلسلة هينبرج . وهناك أيضا والتر ويلهلم جوتز الذى أصدر (سجل تاريخ الحضارة) كما كتب أبحاثا متخصصة هامة عن عصر النهضة وحركة الإصلاح الدينى ووصفا للتاريخ الثقافى فى أسيسى ورافنا فضلا عما كتبه عن التاريخ الثقافى فى ألمانيا . وله كذلك كتاب عن التاريخ الثقافى للعالم جاء عرضا ممتازا مليئا بالشروح . أما رادولف كوتز شك Rudolh Kotzschke فكان خبيراً بجوانب التاريخ الاقتصادى فى العصور الوسطى وخاصة عن التاريخ الزراعى فى تلك العصور . فإذا انتقلنا إلى برنهارد جروثيوزن Bernhard Groethuysen وجدناه واحدا من أبرز الباحثين الذين كتبوا أحدث الإيضاحات عن عصر النهضة والحركة الإنسانية ، كما كتب وصفا لنشأة الروح البرجوازية فى فرنسا . وهكذا تم دفع حركة التقدم فى التاريخ الثقافى فى ألمانيا بفضل عمل لامبرخت وأتباعه . وكان أن أدى هذا بالاضافة إلى ما كان له من تأثير فى الخارج إلى تحويل الاهتمام السابق بالتاريخ الثقافى من مرحلة الاهتمام الفردى المشتت إلى مرحلة التنظيم المحكم الدقيق .

أما عن فرانز كارل مولر ليار Carl Miiller Lyer (١٨٥٧ ــ ١٩١٦) وهو أستاذ علم النفس وعلم وظائف الأعضاء والاجتماع التاريخى فإن كتاباته جمعت بين علم الاجتماع التاريخى والتاريخ الثقافى لألمانيا . وكان منهجه التاريخى مزيجاً بين نظرية سبنسر فى التطور ونظرية (التطور المرحلية) عند علماء الأجناس والنظرية المادية لماركس فى التاريخ . ذلك أنه اعتقد أنه يمكن

للإنسان أن يخضع التطورات التاريخية الخاصة بالنظم والثقافة لقوانين محددة . ورأى أن هناك وحدة عامة شكلية للتطور الثقافى وتطور النظم فى سائر أنحاء العالم ، وأن الاختلافات بينها إنما هى اختلافات محلية ذات خاصية ضئيلة الأهمية نسبيا . وجاء تناوله للتطور التكنولوجى والاقتصادى على وجه ممتع ، تضمن كثيرا من الأفكار والآراء . وكثير من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع والتاريخ يتقبلون اليوم آراءه ونظرياته فى تحفظ شديد ، ولكنه تناول الحقائق الواقعية بمهارة وعلى نحو ممتع . وكتب عن تطور كل الأشياء من الآلات حتى الحب . وقد ترجمت أعظم كتبه أهمية إلى الإنجليزية ، وهو كتاب تاريخ التطور الاجتماعى . أما الفرد وبر Weber فله كتابه الذى أسماه تاريخ الحضارة والاجتماع الذى صدر فى سنة ١٩٣٥ .

وجاء هذا الكتاب أدق من سابقه فى تخطيطه فضلاً عن أنه أكثر شمولاً ، فضلاً عن أن مادته التاريخية أكثر جدة . بل ربما كان هذا الكتاب الأخير أكبر الجهود التى أثبتت قدرتها على مزج التاريخ الثقافى بتفسيرات اجتماعية عامة لتطور النظم البشرية . هذا كله بالإضافة إلى أنه تناول تطور الحضارات المعروفة من وجهة نظر اجتماعية .

فإذا ما انتقلنا للحديث عن فرنسا ، وجدنا أن المبادىء الخاصة بالتطور الثقافى كما تضمنتها كتابات أوغسط كومت عن فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع التاريخى ظلت حية على يد رينيه ورمز Rene Worms وغيره من تلاميذ كومت الفرنسيين . أما الجهد الهام الذى أعقب ذلك فى مجال التاريخ الثقافى فقد تضمنه عمل عديد من الطلبة القادرين والمبتكرين فى مجال الأدب والنقد الأوربى مثل هليوبولت تين Hippolyte Taine وشارل سانت بيف وارنست رينان . من ذلك أن تين وهو مؤرخ الأدب الانجليزى والثورة الفرنسية اعتقد أن التاريخ ينبغى أن يكون علماً وأن الثقافة البشرية تتكون بفعل عوامل ثلاثة هى الجنس والمحيط الاجتماعى والظروف التاريخية . أما سانت بيف وهو الناقد الأدبى القدير فقد كتب تاريخا ثقافيا جديرا بالإعجاب عن الينسينيين Jansensits فى كتابه الذى أسماه تاريخ بورت رويال History Of Port Royal . أما رينان فكان رجلا عقلانيا هادىء الطبع صاحب أبحاث ممتعة وعالما عظيما من الجنس السامى . وقد عمل الكثير لكى يربط بين الفكر الحر والتاريخ الثقافى .

ثم كان أن وجد التاريخ الثقافى دفعة قوية فى فرنسا فى إنتاج جاك فيليب تاميزى دى لاروك Jacques philippe Tamizey de Larroque (١٨٢٨ ــ ١٨٩٨) الذى أوضح العلاقة بين علم الآثار والادب من ناحية والتاريخ الثقافى من ناحية أخرى . وكانت معظم كتاباته الهامة عن الآثار

الفرنسية والتاريخ الاجتماعى والدينى فى العصور الوسطى . وعالج هذا الموضوع أيضاً علاجاً يتصف بالحيوية بول لاكومب Paul Lacombe (١٨٣٤ ــ ١٩١٩) الذى كانت أهم أعماله كتاب (التاريخ كعلم) الذى صدر سنة ١٨٩٤ . وأكد لاكومب الفكرة القائلة بأن التاريخ هو العلم الذى تفرع منه علم تطور النظم كما قارن فى وضوح بين التاريخ فى صورته للتقليدية مع ذكر الأحداث وبين ما كان يعتبره أهم وجه للتاريخ وهو دراسة تطور النظم البشرية . هذا إلى أنه آمن بوجود تداخل بين التاريخ كما هو معروف وبين علم الاجتماع التاريخى ، كما أعطى اهتماماً أثناء سرده للرواية التاريخية لتاريخ الأدب والنظم السياسية والاقتصادية والتربوية . ولم يكن للاكومب أى تأثير ولو ضئيل على هنرى بير Berr . وهنرى بير هذا هو أحد أصحاب الدور الرئيسى فى فرنسا فى فكرة التحليل التاريخى ومؤلف واحد من أعظم الأعمال المشركة متعة عن تاريخ الثقافة . وهناك اثنان من أعظم علماء التاريخ الفرنسيين قدرة واتساعا فى أفق التفكر هما الفرد رامبو Rambaud (١٨٤٢ ــ ١٩٠٥) وشارل سينبو Seignobos اللذان كتبا أشهر الكتب فى تاريخ الحضارة .

أما رامبو فأخرج أحسن عمل عن تاريخ الحضارة الفرنسية فى حين كتب سينبو مدخلاً تاريخياً للحضارة الغربية . وهناك أيضاً جورج رينارد George Renard الذى كان حجة فى التاريخ الاقتصادى من العصور القديمة حتى العصور الحديثة ، إذ كان صاحب فضل كبير فى الإشراف على أحسن كتاب اشترك فى تأليفه عدد من الباحثين وعالج التاريخ الاقتصادى العام منذ الأزمنة المبكرة حتى عصرنا الحديث وهو الكتاب الذى عنوانه (تاريخ العمل فى العالم) . واتجه هذا العمل نحو التحقير من شأن التاريخ وإثارة الاهتمام بتطور الأشياء المادية ومصير الرجل العادى . وكان معنى ذلك أنه جاء مناقضا إلى أقصى حد للمثل التاريخية التى نادى بها بوفندورف Pufendorf وروبرتسون وجيبون والتى عرفت التاريخ بأنه سجل لأعمال الشخصيات البارزة ورجال البلاط والقصور . ولرينارد كذلك بعض البحوث الهامة عن الأسس الاجتماعية والتنظيمية للأدب القومى . ويعتبر هذا علاجا علميا حديثا للاتجاهات التى كانت أول من بدأتها مدام دى ستيل وسيسموندى .

أما أتمه الباحثين الفرنسيين فى التأليف التاريخى وتاريخ الحضاره فى فرنسا فهو هنرى بير Berr الذى عبر عن وجهات نظره فى كتابه الذى نشر فى سنة ١٩١١ بعنوان (التأليف التاريخى) . ثم نشر نظرياته بعد ذلك بعشرة أعوام على نطاق واسع ورد على ناقديه فى كتابه الذى

أسماه « التاريخ بمعناه التقليدى والتأليف التاريخى » . وقال بير بوجود فرق أساسى كبير بين التلخيص من ناحيه والتأليف العلمى التاريخى من ناحية أخرى . وجاء تمييزه بين الاثنين قبل أن يصبح ما يعرف باسم فلسفه التاريخ . وأخذ بير على عاتقه مسئوليه الإشراف على إعداد ما يعتبر أكثر المؤلفات المشتركه طموحاً والتى بذل فيها أعظم الجهود فى كل العهود حتى عهده عن تاريخ الحضارة وعرف هذا الكتاب الذى صدر فى مائه جزء باسم تطور الإنسانيه .

وقد تضمنت مقدمة هذا الكتاب عرضاً لنظريته عن التأليف التاريخى فى صيغة غاية فى الإحكام إذ يقول : « بدون الادعاء بأن منهج التأليف والتحليل العلمى يمكن أن يطبق على التاريخ بصورته المحددة ، فانه يمكن الاعتراف على الأقل ــ كمحاولة يفترض صحتها ــ أن نسج الحقائق الخاصه بالتطور البشرى يمكن تجميعه فى ثلاث طرق متميزة عن بعضها تماما الأولى : هى الطريقة الافتراضية ، والثانية : هى الطريقة الاضطرارية ، والثالثة : تلك الجوانب المرتبطة بالمنطق الباطن . وسنحاول هنا أن نستفيد وأن نقارب بين التفسيرات المتباعدة للغاية والتى ظهرت حول هذا الموضوع وذلك بأن نحاول أن نوضح أن كل نواحى التطور الإنسانى تقع فى ثلاثة تقسيمات عامة هى الافتراضيه ، والاضطراريه والمنطقيه . ويبدو لنا أنه بهذا التقسيم الثلاثى نضع التاريخ فى إطار دورته الطبيعيه وتفسيره العام ، فضلا على أن هذا الترتيب يعطينا فى الحقيقة نظرة أعمق من السببية ويدعونا إلى أن نغوص فى مجموعة الحقائق التاريخية وأن نحاول أن نميز بين ثلاثة أنواع من العلاقات العلّية الأولى هى التتابع المجرد حيث ترتبط الحقائق مع غيرها بحكم التتابع والثانية هى الصلة الدائمة حيث ترتبط الحقائق بغيرها بحكم الضرورة والاضطرار ، والثالثة هى الاتصال الباطن حيث ترتبط الحقائق مع غيرها بحكم العقل . ومن هذه النظرة لطبيعة المسببات التى تعمل فى التاريخ ، لا يبدو التأليف سهلاً ولكنه يبدو على الأقل مفهوماً يمكن تصوره .

ومع أن هذه المنظومه تبدو ذات طابع علمى عميق ، إلا أنها لهذا السبب لن تعمر طويلا . ذلك أنه افترض خطأً أن تطبيق العلم على التاريخ اتجاه مضاد للحياة وأن الفائدة المرجوه من وراء هذا الفن (التاريخ) هو إحياء الماضى . ولكن المحلل هو الذى يحول الماضى إلى مجرد أكوام من الحقائق يعلوها التراب ، وما يجمعه العلم يتم إنقاده لا من الفناء وإنما من النسيان . إن التأليف يحيى الماضى أكثر مما تفعله البديهه بل خير منها . وإن مهمه التأليف كما حددها ميشليه هى « بعث الحياة فى كل جوانب الماضى لا فى بعض مظاهره السطحيه فحسب وإنما فى جوانبه الداخلية العميقة . ولا يمكن تحقيق ذلك بالعبقريه ، وإنما يستطيع العلم أن يفعل ذلك بتعميق نظريته عن السببيه وهى النظريه التى يمكن عن طريق التأليف إعاده بنائها »

ويمكن القول أن هذه السلسلة من الكتب حققت آمال صاحبها فعاشت إلى أقصى ما تصور لها صاحبها أن تعيش . وبصرف النظر عن الطبعة الإنجليزية التى انتشرت على نطاق واسع ، فإنها تمثل أعظم الجهود فى تاريخ الحضارة الإنسانية . وكان معظم من شاركوا بجهودهم فيها من الفرنسيين الذى تخصص كل منهم فى جانب معين أو مرحلة محددة من تاريخ الحضارة .

وهناك مؤلف فرنسى معاصر كان له اهتمام إيجابى بالتأليف التاريخى هو لويس هالفن Louis Halphen الذى يعتبر حجة فى الحضارة الرومانية وحضارة الشطر الأول من العصور الوسطى . واشترك مع فيليب ساجناك فى عمل تاريخى كبير عن الحضارة أسمياه (الشعوب والحضارات) صدر فى عشرين جزءا ، أما جوستاف جلوتز وهو واحد من أهم الباحثين الذين اشتركوا فى الموسوعة المسلسلة التى أشرف عليها بير فقد أعد هو الآخر عملاً اتسم بالدقة والجهد البالغ عرف باسم (التاريخ العام) وركز بصفة خاصة على تاريخ الحضارة . وألف موريس كروازيه كتابا تاريخيا فى سبعة أجزاء عن تاريخ الحضارة ركز فيه على الاتصالات الحضارية وانتشار الثقافة . اما أحدث الأعمال عن تاريخ الحضارة فى فرنسا التى نهض بها مؤلف واحد فهو (تاريخ الثقافة العالمية لمؤرخ العلوم والأستاذ فى علم وظائف الأعضاء شارل ريخت Charles Richet . وينظر ريخت إلى تاريخ العلم على أنه أهم العناصر فى تطور الثقافة البشرية . والملاحظ أن الجزء الأول من كتابه الذى يقع فى جزءين عن التاريخ العام للحضارة وصل بقصة الحضارة حتى سنة ١٧٨٩ . ذلك أن الشطر الأكبر مما تم إحرازه من تقدم فى التاريخ البشرى سواء أكان تقدما علمياً أم فنياً بارزاً أخذ سبيله منذ هذا التاريخ . ولا يخلو أى بحث ولو كان موجزا عن التاريخ الثقافى لفرنسا دون الإشارة إلى العالم سالومون ريناخ Salomo Reinach (١٨٥٨ ـ ١٩٣٢) وهو مؤلف كبير وغير ملتزم كتب فى مجال تاريخ الفن والأدب والدين كما أسهم فى عديد من الأجزاء التى تناولت هذه المجالات كلها إسهاما ينم عن قدرة بالغة .

أما فى إنجلترا فإن فرانسيس سيدنى مارفن وأرنولد تيوينبى فهما من أصحاب الجهد الرئيسى فى مجال التحليل التاريخى منذ أيام باكل Buckle . ويعتبر كتابا مارفن ، الماضى الحر ، و (قرن الأمل) The Century of Hope مداخل تتسم بالقدرة فى مجال التأليف والشرح التاريخى . وبصفته محبا لقضية السلام قام بإعداد عدة أجزاء بالاشتراك مع غيره فى الموسوعة التى صدرت باسم (سلسلة الوحدة) والتى استهدفت تتبع تاريخ الحضارة وركزت على الخصائص الدولية للحضارة الغربية .

فإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن كتاب أرنولد توينبى (دراسة فى التاريخ) وجدناه أعظم المشروعات الطموحة التى أقدم عليها مؤلف بمفرده فى مجال التأليف التاريخى . كذلك أدى ج. ب. بيورى J.B. Bury — وهو الذى ألف كتابا صغيرا ممتعا عن تاريخ حرية الفكر وصاحب بحث أكبر عن نظرية التقدم — جهدا هاما لتاريخ الحضارة بما أبداه من مقدرة على التخطيط والإشراف على أعمال كبرى . ذلك أنه أفسح مجالاً واسعاً حين خطط لموسوعة كامبردج فى التاريخ القديم وموسوعة كامبردج فى التاريخ الوسيط أمام علاج التاريخ الاقتصادى والاجتماعى والفلسفة والعلم والفن والدين . على الرغم من أن هذه الموسوعات فى أساسها تستهدف التاريخ السياسى . كذلك تضمنت السلسلة التى عرفت باسم (التراث) مختصرا مفيدا عن التاريخ الثقافى اشترك فى وضعه أكثر من باحث ، فقام ادوين بيفان ، وشارل سنجلا بإعداد ما عرف باسم (تراث إسرائيل) . وأعد ر . واليفنجستون ما عرف باسم (تراث الإغريق) . وأعد كيريل بايلى Cyril Bailley ما عرف باسم (تراث روما) . وأشترك ت . و . ارنولد ، الفرد غليوم Guillaume فى إعداد (تراث الإسلام) . فى حين كتب الفصل الخاص بتراث العصور الوسطى كل من ك . ج . كرمب C.G. Crump ، ا. ف. جاكوب . وقد عمل سيرجون هامرتون الكثير من أجل تطوير العمل فى التاريخ الثقافى . ذلك أنه وضع مجموعات فاخرة مصورة تناولت الماضى مثل تلك التى أسماها (عجائب الماضى) وما شابهها من أعمال أخرى . هذا إلى أنه نشر أعظم ما صدر باللغة الانجليزية فى تاريخ الحضارة والذى عرف باسم (التاريخ العالمى للعالم) وهو الكتاب الذى جاء فى ثمانية اجزاء تفيض بالشروح . كذلك اشترك ك . ك . أوجدن Ogden مع بارنز — مؤلف هذا الكتاب — فى إعداد عمل أكثر اكتمالاً من ذلك الذى قام به بير ، باسم (تاريخ الحضارة) . وتضمن هذا الكتاب كل ما جاء فى سلسلة بير ورينار Berrd - Renard . ثم اضيفت إليه عدة أجزاء كتبها بعض الباحثين الإنجليز والامريكيين والألمان . ويعتبر هذا الكتاب من أعظم الأعمال المشتركة عن تاريخ الحضارة قوة وشمولاً[1] . وتعتبر المجموعة المشتركة التى قام بإعدادها هـ . د . تريل Traill ، هـ . س . مان Mann والتى عرفت باسم (انجلترا من الجانب الاجتماعى) من أعظم ما كتب عن تاريخ الحضارة الإنجليزية . أما هـ . ج . ولز Wells فى كتابه (الإطار العام للتاريخ) فقد فعل أكثر مما فعله أى باحث آخر منذ جون ريتشارد جرين لإثارة اهتمام القراء الإنجليز بالتاريخ غير السياسى .

(١) انظر هـ . أ . بارنز التاريخ والإدراك الاجتماعى (طبع Knopf ١٩٢٦) وقد توقف العمل فيه بعد بدء الحرب العالمية الثانية (المؤلف)

كذلك أسهم المؤرخون فى أجزاء أخرى من أوربا فى تطور الاهتمام بتاريخ الحضارة . وثمة كتاب من خيرة الكتب وأكثرها ابتكارا فى مجال التاريخ الثقافى القومى ، وهو الكتاب الذى يحمل اسم (تاريخ الحضارة الأسبانية) لمؤلفه رفائيل التاميرا : أما الكتاب الذى قام به أنطونيو باليستروس Ballesteros والذى عرف باسم (تاريخ أسبانيا وتأثيره فى تاريخ العالم) فإنه أكثر تكاملاً من كتاب التاميرا وإن كان أقل اهتماما منه بالتاريخ الثقافى . وفى إيطاليا أكد باسكال فيلارى Pasquale Villari صاحب الأبحاث الهامة عن التاريخ الثقافى فى الفترة المتأخرة من العصور الوسطى وعصر النهضة ــ أهمية التحليل التاريخى . فانه أوضح أن عمل المؤرخ لا يكمل إلا إذا نظم مادته فى صورة منطقية مرتبة . كذلك أسهم بنديتو كروتشه Bendetto Croce فى تاريخ الفن الأوربى والإيطالى ، والأدب ونظرية علم الجمال وذلك فى الوقت الذى حاول فيه من جهة أخرى أن يلبس الفلسفة القديمة للتاريخ ثوباً جديداً ويجعلها أكثر ملاءمة . وانعكس فى كتاب جيجليلمو فيرورو Guglielmo Ferrero الذى أسماه (عظمة روما واضمحلالها) صورة النواحى التى ركز عليها لامبرخت وهى النواحى الخاصة بأهمية العوامل السيكلوجية مجتمعة على التطور التاريخى . وكتب كورادو بارباجلو وهو المشرف على المجلة الإيطالية الرئيسية المتخصصة فى التاريخ الثقافى كتابا من أمنع الكتب التى كتبت فى تواريخ الحضارة .

أما هنرى بيرين Henri Pirenne فقد تأثر بلامبرخت ولاكومب وأخرج دراسة تاريخية واسعة الأفق عن تاريخ بلجيكا كما أسهم بسهم رامز فى بحث تاريخ الحياة الاقتصادية والمدنية فى العصور الوسطى .

وفى رومانيا لم يكتف الكسندرد زينوبول (١٨٤٧ – ١٩٢٠) بكتابة تاريخ قومى ممتع ، بل أخرج كتبا هامة أيضا ناقش فيها طبيعة علم التاريخ ومشاكله أسماه (الأسس الرئيسية للتاريخ) و (نظرية التاريخ) وميز فى وضوح بين طبيعة كل من العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ومن جملتها التاريخ ، وأوضح أن التاريخ ينبغى النظر اليه على أنه فى أساسه علم اجتماعى ، وأن قوانين السببية التاريخية يمكن تطبيقها على الحالات التاريخية العامة إذا لم يمكن تطبيقها على الأحداث المرتبطة بالأفراد وأن الحقائق التاريخية الهامة فقط هى تلك التى لها معدلات ونتائج اجتماعية هامة . وهناك واحد من أبرز تلاميذ زينوبول وهو نيقولا ايورجا Iorga الذى حاول فى كتابه الذى أسماه (بحث فى تركيب تاريخ الإنسانية) Essay on the Synthesis of the History of Humanity أن يتناول التاريخ العام للحضارة وتقدم البشرية . ويدل عمله على نظرة واسعة وتعمق فى بواطن الأمور وقسط كبير من التعليم .

ويمثل اهتمام الروس بالتاريخ الثقافي في أعمال كثيرة ... ت الإشارة إليها مثل مؤلفات كونالفسكي التاريخية في النواحي الاقتصادية وتلك الخاصة بالنظم . كما تتمثل في أعمال فينوجرادوف Vinogradov عن التاريخ الاجتماعي في العصور الوسطى وتاريخ القانون ، وفي كتابات بولس ميلخوف Milukov عن تاريخ النظم وتاريخ القانون الروسي . ويتمثل كذلك في العمل الكبير الذي قام به روزوفتزف Rostovtsev عن التاريخ الثقافي القديم لروسيا الجنوبية والتاريخ الاجتماعي والاقتصادي في العالم القديم وأما عن تشيكوسلوفاكيا فلدينا الأبحاث القيمة الجديرة بأن تحمل اسم العالم توماس مازريك عن الفكر والأدب السلافي .

وقد سبق أن أشرنا إلى الدلائل الأولى للاهتمام بالتاريخ الثقافي في الولايات المتحدة الأمريكية وهي التي ظهرت في أعمال درابر ، م. س. تايلر ، هوايت ، هنري آدمز . وتعتبر الشخصية الرئيسية في القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية التي وهبت نفسها للرقي بالتاريخ الثقافي هي شخصية جيمس هارفي روبنسون James Harvey Robinson (١٨٦٣ ـ ١٨٣٦) الذي تأثر قليلاً بلامبرخت وبالمجددين الأوربيين وإن لم يمنع ذلك من إلمامه بأعمالهم . ويقول روبنسون عن نفسه : إن التقدم والتطور الذي طور به نفسه من مجرد باحث تقليدي في ميدان التاريخ الدستوري إلى أن أصبح معلقا غير متأثر برأي الغير على ما أسماه ، بالكوميديا الإنسانية ، إنما تم بصورة تدريجية وبصفة غير رسمية وكان أمراً شخصياً بحتاً[1] . ذلك أنه استقى وجهات النظر الخاصة بالوراثة من علم الحيوان وطبقها على تفسير المادة التاريخية . وعندما كان مهتما بالثورة الفرنسية عاد من تلك النقطة إلى دراسة الماضي تدريجيا ، أو كما قال هو نفسه أنه رجع من الجولتين أو المفصلة إلى البلطة الصغيرة . ولخص وجهة نظره في كتابه الذي منه انتشرت الأبحاث التي تضمنها على نطاق واسع والذي عرف باسم « التاريخ الحديث » والذي صدر سنة ١٩١١ . ووضح تأثير ما نادى به بصورة رئيسية في كتبه التعليمية عن التاريخ الأوربي وهي الكتب التي أحدثت انقلاباً كبيراً في الأفكار ، كما وضح تأثيره كذلك في تدريسه الفريد والممتع . وكان أن شرع في وضع كتاب كبير عن التاريخ الثقافي ، لكنه لم يكمله . ثم قام طلبته بمهمة الكتابة في صورة

(١) ارجع إلى هـ . ا بارتر فيما نشره H W Edit أساتذة علم الاجتماع الأمريكيون طبعة هولت Holt(١٩٢٧) صفحات ٣٢١ وما بعدها ، وكذلك روبنسون : الكوميديا الإنسانية طبعة هاربر ١٩٣٧ وكذلك : L.V.Hendricks James Harvey Robinson (N.Y. 1946)

غزيرة دسمة . فجمع جيمس ت. شوتويل مجموعة كبيرة من المصادر عن تاريخ الحضارة سميت « سجلات الحضارة » . وكان من رواد الاهتمام بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى الولايات المتحدة . كذلك كتب لين ثورنديك أعظم الأعمال تكاملا عن العلم والفكر فى العصور الوسطى ، وله مقدمة عامة موجزة عن تاريخ الحضارة . أما كارل بيكر Becker الذى تتلمذ على كل من روبنسون وتيرنر فكتب أبحاثاً تنم عن فهم كبير للحالة الفكرية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وامتاز بريزرفد سميث Preserved Smith بما كتبه عن التاريخ الثقافى فى عصر حركة الإصلاح الدينى وأنتج ما يمكن أن يعتبر أعظم ما قام به مؤلف بمفرده فى مجال تاريخ الثقافة الحديثة . أما هوارد روبنسون فبحث عصر التعقل وكتب أحسن الكتب الإنجليزية عن بطرس بايل Pierre Bayle وردد كل من شارل أوستن بيرد ، بنجامين ب . كندريك ، ا. م شلزنجر ، و.ر. فوكس ، هارودل فولكنر Faulkner ، هارى ج. كارمن وغيرهم وجهة نظر روبنسون واهتمامه وطبقوها على التاريخ الأمريكى . وألف فوكس وشلزنجر Fox and Schlesingerما يعتبر أعظم الكتب التاريخية تكاملا وأحدثها عن الحياة الأمريكية الاجتماعية والثقافية وهو الكتاب الذى يحمل عنوان « تاريخ الحياة الأمريكية » ووضع فرديناند شيفل الذى لم يتأثر برونسون والذى يمكن القول بأنه أكثر الناس إحساساً وتفهماً لتاريخ الحضارة فى الولايات المتحدة الأمريكية - مؤلفات تنم عن مقدرة كبيرة عن مدينتى سينيا وفلورنسا فى إيطاليا . ويعتبر ما كتبه عن فلورنسا بالذات ذا أثر فى تفهم الأمريكيين لثقافة عصر النهضة . أما فردريك ج . تيجارت فقد كتب أعظم ما يمكن كتابته بالتفصيل عن الأسس النظرية والفروض فى التاريخ الجديد . ويتمثل خير ما أنتجته أمريكا اللاتينية فى ميدان التاريخ الثقافى فيما كتبه فنسنت ريفا بالاشيو Vincente Riva Palacio وجيمس رومرو فلورس Jesus Romero Flores ، كما يتمثل فيما كتبه روملو د. كاريبا Cariba عن الحضارة الأرجنتينية .

التاريخ الثقافى والمراحل الكبرى فى التاريخ البشرى

وبعد أن تتبعنا الآن تطور التاريخ الثقافى عن طريق عرضنا للسمات البارزة المميزة لهذا التطور ، بقى أن نشير إلى بعض الجهود الهامة فى مجال التاريخ الثقافى فى مختلف مراحل التقدم البشرى منذ عصور ما قبل الكتابة وسنكتفى هنا بالإشارة فقط إلى بعض الأعمال الكبرى التى

سوف نختارها بين عديد من المجلدات التى تناولت هذا المجال . ومهما يقال عن قلة الكتب التى اختارت الاتجاه إلى الكتابة فى تاريخ الحضارة ودعمت هذا الاتجاه فى قوة ، وبرغم حداثة الاتجاه فى هذا السبيل بوصفه حركة تاريخية منظمة ، فإن هناك عديداً من الأعمال الخاصة التى تناولت جوانب معينة فى تطور الثقافة . وعلى القارىء الذى ينشد الاقتراب من الكمال الرجوع إلى ما كتب تحت عنوان : « التاريخ الثقافى فى الفصول المتتابعة فى المرشد إلى الكتابة التاريخية » .

إن المدخل لكل التاريخ الثقافى ينبغى التماسه بالطبع فى الأنثروبولوجيا الثقافيه أعنى قصة التطور الثقافى فى المرحلة الطويلة للتطور الإنسانى التى نتعارف عليها الآن بمرحلة ما قبل الكتابة . وتعتبر الأعمال الخاصة بعلم الآثار فى عصر ما قبل الكتابة التى سبقت الإشارة إليها فى إيجاز هى الأساس الرئيسى لدراسة التاريخ الثقافى . فمؤرخ مثل تيودور مومسن لم يسمع مطلقا عن « عصر الجليد » إلا قرب نهاية حياته ، بينما تبدأ كل الكتب القيمة عن التاريخ القديم بالسرد لعصر ما قبل الكتابة . وضمن ادوارد ماير فى كتابه فصلاً افتتاحيا بأكمله عن الأنثروبولوجيا . كذلك تبدأ موسوعة كامبردج فى التاريخ القديم بفصلين عظيمين عن ثقافة ما قبل الكتابه من وضع ج.ل. مايرس Myres وأوجز جورج جرانت ماك كردى فى كتابه « أصول البشرية » الجهود التى حققتها مدارس البحث فى هذا المجال وذلك على نحو رائع . وعلينا أن نرجع إلى المؤلفات عن النظم والثقافة فى العصور الأولى وإلى مبادىء التطور الثقافى التى كتبها المتخصصون فى الثقافه الأنثروبولوجية .

ويمكننا البدء بالإشارة هنا إلى كتاب ا.ب. تايلور القديم عن الأنثروبولوجيا ـ ثم ننتقل منه إلى المؤلفات الحديثة . فهناك كتب مثل تلك التى لفرانزبوس Franz Boas بعنوان « فكر الإنسان البدائى » والأنثروبولوجيا والحياة الحديثة . وكذلك مؤلفات ا . ك . كروبر A. K.Kroeber « الأنثروبولوجيا » وهناك كتاب ر . هـ . لوى R. H. Lowie « المجتمع البدائى والمدخل إلى الأنثروبولوجيا الثقافية » . أما الكسندر جولدنوزر فله كتابان هما « الحضارة القديمة » و« التاريخ وعلم النفس والحضارة » ولدينا كذلك كتاب ل . ا . هوايت « تطور الثقافة » وكتاب كلارك ويسلر Clark Wissler « الإنسان والثقافة » وكتاب ا.م. توزر « الأصول الاجتماعية والترابط الاجتماعى » . وهناك أيضا كتاب هارولد بيك Peake « الخطوات الأولى فى التقدم البشرى وكتاب ، جوستاف شوالب Schawalbe « الأنثروبولوجيا » وتعتبر هذه الأعمال جميعها مدخلا

إلى التاريخ كما أنها تلقى كثيرا من الضوء على عصر « فجر التاريخ » . وقد سبق أن تناولنا بالوصف ماأنجزه الإنسان وتمكن بفضله من بلوغ حضارة عصر الكتابة وحللنا سلوك الإنسان والجماعات وأوضحنا مبادىء التطور الثقافى ونماذجه بالقدر الذى سمحت به المصادر المعروفه . وأجاد جاك دى مورجات تلخيص الفترة الانتقالية من المجتمع البدائى إلى حضارة العصور القديمة ، وذلك فى كتابه « عصر ما قبل التاريخ فى الشرق » . كذلك هناك كتاب ماكس بلانكهورن Max Blanckenhorn « العصر الحجرى فى فلسطين وسوريا وشمال أفريقيه » وكتاب ف جوردن شيلد V. Gorden Childe « فجر الحضارة الأوربية والشرق القديم » وكتاب موريه ودافى Moret and Davy « من القبيلة حتى الإمبراطورية » .

أما ادولف ارمان Adolph Erman فكتب عن الحياة اليومية فى مصر القديمة كتابه الذى سماه « الحياة فى مصر القديمة » . ومازال كتابه أقدم ما كتب فى هذا الموضوع . وقد أعيد طبعه على يد أحد الباحثين البارزين . بعد مضى ثلاثين سنة على ظهور الطبعة الأولى . وتناول ارمان كذلك فى إيجاز الأدب والفكر فى مصر القديمة . وهناك ما هو أكثر إيجازا وان كان أحدث من سابقه فى موضوع الثقافة المصرية وهو كتاب جورج شتندورف George Steindorff باسم « الإمبراطورية الفرعونية فى بدايتها » . ولم يقتصر جهد جيمس هـ . برستد على إخراج كتب تاريخية تنم عن مقدرة فترة فى تاريخ مصر ، ولكنه كتب الكثير فى التاريخ الثقافى ، كما كتب أبحاثا متخصصة فى الديانة والفكر فى مصر القديمة وعن فجر الحركات الأخلاقية والخيرية فى مصر . أما كتاب موريس جاسترو « حضارة بابل وآشور » فهو عمل ميسور الفهم وحجه فى موضوع العقيدة الدينية فى أرض ما بين النهرين فى العصور القديمة على أن البحث الذى أعده الأستاذ برونوميسنر Bruno Meissner تحت عنوان « البابليون والآشوريون » يعتبر أتم وأحدث دراسة عن حضارة ما بين النهرين . كذلك عالج كل من ر . و . روجرز R.W. Rogers ، كلمنت هوارت Clement Huart ، م . ن . دهلا Dhalla، ب . م . سيكس R.M. Sykes، ا . ث . و . جاكسون Jackson وآخرون مدى أثر حضارة الفرس القديمة على الحضارة الغربية . وأما عن الفن فى الشرق الأدنى القديم فمازالت الفصول التى كتبها جورج بيرو Perrot وشارل شبيز Chipiez فى كتابهما « تاريخ الفن » تعتبر أحسن ما كتب فى هذا الموضوع ، ولو أن هناك كتيبات أحدث فى هذا المجال مثل ما كتبه جنا كابارت Jean Capart باسم « محاضرات عن الفن المصرى » وكذلك تعتبر الأجزاء الأولى من موسوعة هامرتون « التاريخ العالمى للعالم » أحسن علاج للتاريخ الثقافى فى

عصور ما قبل الكتابة والشرق الأدنى القديم . وهناك أبحاث حديثة ومبتكرة تضمنتها الأجزاء التى كتبها موريه Moret ، دافى Davy ، ديلابورت Delaporte ، هوارت Huartوآخرون عن الشرق القديم فى « سلسلة تاريخ الحضارة » كذلك نجد موسوعة كامبردج للتاريخ القديم وفيها كتبه رالف تيرنر بعنوان التراث الثقافى الكبير كثيرا من المادة القيمة عن الثقافة . أما ماكس وبر Weber و ج . و . هيرتلر Hertzlerفقد عالجا التفكير الاجتماعى فى الشرق القديم .

فإذا ما انتقلنا إلى بلاد الإغريق القديمة نجد لدينا دراسة رائعة عن حضارة كريت وحضارة إيجة فى ذلك الكتاب الذى صدر حديثاً لجوستاف جلوتر . ويعتبر العلامة الأيرلندى سيرجون ب . ماهافى أعظم من أدلوا بدلوهم الغزير فى تبسيط الثقافة الإغريقية وشرحها ، إذ كتب تقريبا عن كل جوانب الثقافة فى التاريخ الإغريقى وإلى هذا العمل الذى نهض به ماهافى ـــ وهو عمل اتسم بالجهد والحماسة الكبيرة ـــ يرجع الفضل فى إثارة الاهتمام على نطاق واسع بثقافـة الإغريق القديمة وإن كان يؤخذ عليه أنه لم يضع إلى حد ما خطأً لما يعالجه فضلاً عن إسرافه فى الإطراء .

واتسمت أبحاث الكتاب الإنجليز من المدرسة الإنسانية بقدرتها على المعالجة الدقيقة المميزة والمعبرة . مثال ذلك ما كتبه مارى ، ج.لويس ديكنسون . أما أحسن مدخل للثقافة الإغريقية ظهر فى مجلد واحد فهو الإنتاج المشترك الذى أشرف عليه ليونارد وهبلى Leonard Whibley وصدر بعنوان « المرشد إلى الدراسات الإغريقية » . ويعتبر العمل الذى قام به باللغة الألمانية الفرد جرك Gercke ، ادوارد فوردن « دراسة العصور القديمة » أكثر اكتمالا من سابقه . وهناك السلسلة الممتازة لجورج د.هادزستس Hadzsits ، داود.م. روبنسون عن حضارة الإغريق والرومان باسم « ما ندين به للإغريق والرومان » ، وشبيبتها الألمانية التى أعدّها اوتواميش Otto Immisch . وكتب كل من ادوارد . زيلر Zeller ، فيودور جومبرز ، ويلهلم ويندلبدند دراسات موجزة يعتمد عليها فى دراسة الفلسفة الإغريقية . كذلك كتب ارنست باركر كتابا خالدا عن فلسفة الإغريق السياسية وتناول كل من هوجر برجر Berger ، أوجست بوشيه ليكلرك Auguste Bouche Leclereq ، بطرس دوهم Pierre Duhem ، العلم عند الإغريق . أما اوتو كرن Otto Kern ، جان هاريسون ، لويس ر . فارنل Farnell ، اروين رود Rohde فكانت لجهودهم القيمـة فى الموسوعات التى كتبوها عن تاريخ الديانة الإغريقية . وتناول الفرد موريس كروزبيه ، وويلهلم فون كِرِسْت تاريخ الأدب اليونانى بالتفصيل . واستعرض بيرسى جاردنر وماكسيم كولجنـون وجوهان اوفريك الفن الإغريق وتناوله بالبحث والشرح . أما الأجزاء الخاصة بهذا الموضوع فى

سلسلة هامرتون التي عنوانها « تاريخ الحضارة » وفى موسوعة كامبردج للتاريخ القديم فهى ذات قيمة كبرى بالنسبة للتاريخ الثقافى فى كل من بلاد الإغريق والرومان .

وبالنسبة لروما هناك مقدمة عامة لا غنى عنها ، تناولت كل جوانب الثقافة الرومانية وصفها السيرجون إ . سانديزSandys تحت عنوان « المرشد إلى الدراسات اللاتينية » . وتناول ماريون بارك Marion Park بالبحث التاريخ الاجتماعى الرومانى ، كما عالجه كل من فرانك ف . ابوت F. Frank Abbott ، وليام وارد فولر Fowler،صمويل ديل Dill، لودفيج فريدلاندر Ludwig Friedlander . ولدينا الكثير من المؤلفات عن الديانة الرومانية ، ومن جملة هذه المؤلفات الأبحاث المثالية التى قام بها جيس ب . كارتر Jess B. Carter ، واردفولر Warde Fowler جورج ويصوا George Wissowa ، جاستون بوسيير Jaston Bossier، الفرد لوسى Loisy ، فرانز كومونت Franz Cumont ، تيرور. جلوفر Terror Glover . وللدراسات التى كتبها الثلاثة الأواخر قيمتها الخاصة فى الإحاطة بموضوع تصارع الأديان فى الإمبراطورية الرومانية .

أما عن مراحل تطور الأدب الرومانى فنجدها فى أبحاث جون و. دوف ، ادوارد فوردن ، ويلهلم س. توفل Wilhelm Teuffel ، ودرس هنرى ب . والترز Waltersالفن الرومانى دراسة تنم عن عبقرية كبرى ، كما درسه كذلك رينيه كاجنات ، فيكتور شابو Chapot ، فرانز ويكهوف Wickhoff ، هـ . ت . ريفورا G. T. Rivoira، وتناول جون ر . سانديز Sandysتاريخ البحث العلمى فى العصور القديمة منذ أيام الإغريق والرومان . أما فترة الانتقال من الحضارة الرومانية إلى حضارة العصور الوسطى فقد جذبت انتباه كل من هنرى بيرين Pirenne ، فرديناند لوت Lot، الفونس دوبش Dopsch ، كريستوفر داوسن Cristopher Dawson ، م . ل . و ليستنر M. L. W Laistner ، إ . ك . راند Rand ، ايليناور دوكت Eleanor Duckett ، هـ . و . نايلور وآخرون غيرهم .

وينبغى ملاحظة أن كل ما كتب من مادة عن أحوال المسيحية وتطورها إنما هو بالضرورة من جوانب التاريخ الثقافى . ويمكننا أن نشير فى هذا المجال إلى بعض الأعمال التى تفوق غيرها فى الأهمية . فهناك عدد من المؤلفات التاريخية العامة الجديرة بالاعتبار عن الكنيسة المسيحية ، ويعتبر ما قام به وليم مولر Moller نموذجا لهذه المؤلفات ولدينا عن تاريخ المسيحية بصفة عامة ما كتبه شارل جوجنبير Guignbert ، عن المسيح وتطور المسيحية . وكتب إميل شورر Schurer كتابا

يعتمد عليه فى دراسة تاريخ اليهود فى العهد المسيحى الأول . أما كلا من لويس دوشين Duchesne ، ارثر ك . ماك . جيفر Giffert ، هنرى م. جواتين ، فقد عالجوا تاريخ الكنيسة فى عصرها الأول كذلك هناك كتابات شيرلى جاكسون كيس Shirly Jackson Case عن المسيحية فى عهدها الأول وهى كتابات دسمة وبخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعى والثقافى ومازالت مؤلفات هنرى شارل ليا Lea عن الكنيسة فى العصور الوسطى تعتبر أعظم ما كتب فى هذا الموضوع . وأمدنا والتر اديني Adeny بأعظم الأبحاث المفيدة عن الإغريق والكنيسة الشرقية . أما العمل المشترك الذى قام به جورج جويو George Goyau فهو خير ما كتب عن التاريخ الثقافى للكنيسة الكاثوليكية . وتناول الكسندر فليك Flick انهيار نفوذ الكنيسة فى العصور الوسطى بالتحليل . أما توماس م . لندساى Lindsay ، بريزرفو سميث ، لودفيج فون باستور ، ارنست ترويلتش Troeltsch ، ماكس ويبر Max Weber وآخرون غيرهم فاهتموا بعصر الإصلاح الدينى اهتماما أثمر عن مجهود طيب فى هذا المجال . وأخرج جورج ب . فيشر ، وادولف هارناك ، وارثر ك . ماك جيفر أعظم الأعمال التاريخيه عن الفكر والمذاهب المسيحية . أما جوستاف كروجر Kruger فهو أستاذ الأدب المسيحى فى عصره الأول . وجاء جوزيف ستروزيوسكى Strozyowski بوصف ممتع للفن المسيحى أما التاريخ الثقافى للعقيدة الإسلامية التى ظهرت فى صورة منافس كبير للمسيحية فقد عالجه كل من ستانلى لين بول ، وسير توماس أرنولد ، دى لاسى اورلى ، دنكان ب . ماكدونالد ، رينولد نيكولسن ، ادوارد ج . برون ، سير ريتشاردف . برتن Burton هنرى لومنس Lummens ، هنرى سالادين ، كلمنت هوارت ، اجناز جولدزهر ، برنارد كارادى دى فو Bernard Carra de Vaux وغيرهم .

وتضمن كتاب هنرى آدمز الذى حمل اسم « دير القديس ميخائيل ووثائقه » دراسة ممتعة وعميقة عن طبيعة الحضارة فى العصور الوسطى وروحها أما تاميزى دى لاروك Tamizy de Larroque فله كتابه الهام عن الآثار الفرنسية وعن تاريخ الفومونات[1] فى العصور الوسطى وعن التاريخ الثقافى والدينى فى تلك العصور . وتناول بحث السلوك والعادات فى العصور الوسطى

(١) هى المدن ذات الكيان السياسى والاقتصادى المستقل ، ظهر فى أواخر العصور الوسطى وخاصة فى إيطاليا وفرنسا والأراضى المنخفضة (المراجع) .

بالتفصيل بولس لاكروا فى كتبه العديدة التى تنم عن مقدرة فائقة أما الدراسة التى قام بها هنرى اوزبورن تايلور فى كتابه عن الفكر فى العصور الوسطى فلها أهميتها فيما يختص بالتاريخ الثقافى فى تلك العصور . وينطبق نفس القول على كتاب ريجنالدلين بول وعنوانه « أضواء على تاريخ الفكر فى العصور الوسطى » وأخرج موريس دى ولفMaurice de Wulf أحسن الكتب عن الفلسفة فى العصور الوسطى . وساهم شارل هومر هاسكنز ، لين ثورنديك مشاركة فعالة فى دراسة تاريخ الفكر والعلم فى العصور الوسطى . ويعتبر كتب كل من ستيفن ديرساىD' Irsay ، هاستنجز رشدال ، هنريك دينيفــلHeinrich Denifle ، هاسكنز أئمة المراجع الموثوق بها فيما يختص بدراسة التعليم فى العصور الوسطى فضلاً على المدارس والجامعات فى تلك العصور . وأما وليم ماكسيلانوس مانيتيوس فقد قدم لنا أحسن عرض شامل للأدب اللاتينى فى العصور الوسطى . وكذلك جاء كتاب كارل كرومباستر عملا مثاليا عن الأدب اليونـانى ، والبيزنـطى فى العصور الوسطى . وأنجز وليام ليثابى William Lethaby خير بحث عام عن الفن فى العصور الوسطى . أما شارل ديهل Charles Diehl ، و . م . دالتون فقد كتبا كتيبات بلغت أرقى مسنوى عن الفن البيزنطى ، بينما قدم رالف آدمز كرام Cram ، سيرتوماس ج. جاكسون ، ايوجين فيوليت لبدوك أعظم البحوث عن فن العمارة فى العصور الوسطى ، أمـا أحسن الأعمال التى تنم عن أرقى مستوى من القدرة على النقد لكل جوانب التاريخ الثقافى فى العصور الوسطى فهى ما قام بها جورج جوردن كولتون George Gordon Coulton .

ويتضمن كتاب جون هرمان راندال وعنوانه « تكوين الفكر الحديث » مقدمة عن التاريخ الثقافى للعصور الحديثة . كذلك هناك بحث كان من المنتظر أن يصبح أروع الأبحاث التى كتبت بكافة اللغات عن التاريخ الثقافى فى العصور الحديثة وعنوانه « تاريخ الثقافة الحديثة » تأليف المؤرخ بريزرفد سميث الذى فاقت قدرته كل حد ، لكن عمله توقف بعد أن نشر منه فصلان . ويتضمن كتاب أجون فريدلEgon Friedellالذى أسماه « التاريخ الثقافى فى العصور الحديثة » كثيرا من الأحكام العامة الفذة والشروح المبتكرة . ولكنه ليس على نسق واحد من حيث الجوده ويعتمد إلى حد ما على فروض ونظريات أوزوالد سبنجلر وهى نظريات مشكوك فى صحتها . وهناك كثير من المادة عن التاريخ الثقافى فى السلسلة التى أصدرها وليم ل . لانجر.William L Langer باسم « نشأة أوربا الحديثة » . ويعتبر هذا العمل أقرب علاج للتاريخ الثقافى فى العصور الحديثة باللغة الإنجليزية . وتناول عصر النهضـة بالبحث عـلى أحدث طـراز كل من جـوثن Gothein وجونز ، جروثيزن Groethuysen ، براندى Brandiوغيرهم وذلك فى كتبهم التى

سبق أن أشرنا إليها . أما اميل جيبهارت فقد ألقى مزيدا من الضوء عن العلاقة بين العصور الوسطى فى مرحلتها الأخيرة وعصر النهضة وأوضح السبب الذى من أجله بدأت حركة النهضة فى إيطاليا . هذا بالإضافة إلى ما له من فضل بصفة خاصة فى وضع كتابه الهام عن العلاقة بين ما ظهر فى أواخر العصور الوسطى من مذاهب الزهد والورع وبين حركة النهضة المسيحية فى عصرها الأول . وأنتج روبرت دافيدسون وفرديناند شيفل أعظم ما كتب عن النهضة فى فلورنسا . أما هنرى أزبورن تايلور وفرديناند شيفـل ، هيما Hyma وادورد ب . شينى Cheyneyفهم رواد الأمريكين بالنسبة للدراسات الحديثة فى هذا العصر . وأمدنا بريزر فد سميث وارنست ترويلتش بعمل رائع عن التاريخ الثقافى فى عهد حركة الإصلاح الدينى ، كما ألف والتر جوتز عن الحركة المضادة لحركة الإصلاح الدينى . أما أكثر الأعمال العامة مقدرة فى مجال التاريخ الاقتصادى فى العصور الحديثة فهى تلك التى تنسب إلى كافولفسكى ، فرنر سومبارتSombart .

وثمه دراسات عن التاريخ الاقتصادى والاجتماعى عن الدول الكبرى تنم عن مقدرة كبرى منها ما وصفه تلاميذ لامبرخت فى المانيا وفى إنجلترا آل وبس وآل هاموند وليفا سير فى فرنسا ، ودور فمان ، وداود ومساعدوه فى الولايات المتحدة الأمريكية .

أما فى مجال الفلسفة الحديثة والفكر والعلم فإن أعظم الكتب أهميه هى تلك التى وصفها هارالد هوفدنج Hoffding ، ابراهام ولف ، جون مورلى ، عن المدرسة العقلانية فى فرنسا ، والدراسة الواسعة التى قام بها جون ت ميرز عن الفكر والعلم فى القرن التاسع عشر . ووضع ف جـ . ك . هيرنشاو سلسله من الكتب ذات الفائدة العظيمة عن الفكر الاجتماعى والسياسى منذ العصور الوسطى حتى القرن العشرين . وتبدو عظمه هارولدج . لاسكى Laski فى تاريخه للفكر السياسى الحديث خصوصاً عن نشأه الحركه الليبرالية . ووصف برنارد برينسون وآخرون غيره الفن فى عصر النهضه ، كما وصف فرانك م . ماثرجر .Frank M.Mather Irالرسم فى العصر الحديث .

وتناول الفن الحديث بالبحث كل من توماس كرافن ، كليف بيل ، ك . ج . بوليه Bulliet وآخرون غيرهم.

أما تاريخ الأدب فقد تم بحثه فى عدة مراجع هامة تخصصت فى الأدب القومى مثل موسوعة كامبردج فى تاريخ الأدب الإنجليزى وتاريخ الأدب الفرنسى لإميـل فوجيـه وتاريـخ الأدب

الأسبانى لفرانسسكو بارشيا بلانكو ، كما عالج فرانسسكو دى سانكتس De sanctis تاريخ الأدب الإيطالى . وبحث ويلهلم شيرر تاريخ الأدب الألمانى خلال عصر جوته . وقام ويلهلم ديلثى وهنريك ريكرت بمحاولات جادة ومبتكرة لوضع التاريخ الثقافى على أسس علمية رغم أنهما فرقا تماما بين العلوم الطبيعية والاجتماعية . أما فردريك ميتك Freidrich Meinecke فقد أتم عملا فذا تناول فيه بالدراسة الحركات الليبرالية والقومية بوصفها نظريات فكرية سادت فى القرن التاسع عشر . كذلك عمل كارلتون ج . هـ . هايز الكثير لخلق مزيد من الاهتمام بتاريخ القومية فى الولايات المتحدة الأمريكية .

ولم تقم دولة ما من الدول بجهد منتظم لخدمة تاريخها الثقافى مثلما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية . من ذلك أن آرثر م . شيلزنجر ، ديكسون ر . فوكس كتبا كتابا أسمياه « تاريخ الحياة الأمريكية » وقع فى اثنى عشر جزءا ويعتبر تاريخا حقيقيا للحضارة على أعلى مستوى . أما رالف هـ . جابري فقد وضع كتابا باسم « العرض المسرحى فى أمريكا » وقع فى خمسة عشر جزءا ، وهو كتاب عظيم فى صورته ومادته . وكتب دودبريدج ريلى أحسن الكتب عن تاريخ الفكر والفلسفة الأمريكية . أما فرنون ل . بارنجتون فكتب بحثا تاريخيا مبتكرا لا قرين له عن الأدب الأمريكى مستندا إلى أسسه الاجتماعية . واتسمت كتابات فان ويك بروكس عن الأدب الأمريكى بأنها كانت تنبىء بصفة خاصة عن فكر عميق وبأنها ممتعة . أما كتاب كامبردج فى تاريخ الأدب الأمريكى Cambridge History of American Literature فهو أكثر دقة من غيره . وعالج صمويل ايشام وفرانك ج . ماثر وجر . لورادو تافت Taft ، وفيسك كمبال Kumball ، ت أ ثالمداج واوليفر لاركن Larkin تاريخ الفن الأمريكى من جوانبه المتعددة .

ولا شك فى أن هذا العرض السريع الموجز والضرورى لبعض الجهود التى بذلت فى التاريخ الثقافى سوف يترك انطباعه على القارىء بإحساسه بعظمة الكتابة فى هذا الميدان وضخامتها وتنوعها وخاصة إذا ما تذكر أن هذه الأعمال التى أشرنا إليها آنفا تمثل أكثر ما كتب فى الموضوع أهمية وأحسنها . وقد اخترناها من بين مؤلفات عدة فى العصور الحديثة . وسيخرج القارىء عن إلمامه بهذه المؤلفات العديدة بالحقيقة الخاصة بأن التاريخ الثقافى تغلب على كل من التاريخ السياسى والحربى اللذين هما أقدم منه . ولكنه ينبغى أن نتذكر أن معظم هذه المادة لم يكتبها مؤرخون أكاديميون محترفون ، وإنما كان غالبيتهم أشخاصاً درسوا الأدب والفن والديانة والاجتماع والاقتصاد والعلوم والفلسفة وما شابهها . ومع ذلك فإننا نثنى على هذه المادة القيمة

سواء كتبها مؤرخون محترفون أم كتبها غيرهم . وإن أعظم ما ينبيء به ذلك التطور هو ازدياد عدد من المؤرخين المحترفين الذين يهتمون بالجوانب المختلفة للتاريخ الثقافي . وتعتبر هذه الحقيقة هي الدعامة الرئيسية التي نبني عليها أملنا في أن التاريخ سوف يرتبط ترابطاً متزايداً بتاريخ الحضارة والثقافة . وأن أعظم الجهود الجديرة بالثناء في وقتنا الحاضر في مجال وصف الحضارة البشرية عن كافة جوانبها هو الجهد الذي بذله ويل ديورانت Durant في كتابه المتعدد الأجزاء بعنوان « قصة الحضارة » ، وهو الكتاب الذي وضع خطته على أساس صدوره في عشرة أجزاء ظهر منها فعلا سبعة . ومن المشكوك فيه أن يستطيع مؤرخ آخر أن يقدم على هذا المجال بمثل تلك القدرة الفائقة .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

Gooch, History and Histonans in the Nintoo nth contuiy, chap. XXVIII
Fuotor, Histoire do l'historiographie mo domopp. 652 - 57, 708 - 52.
Ritter, Dio Entwicklung dor Ges chtswissenshtft, pp. 421 - 61.
Beckor, " Samo Aspects af the Influence af social problems and Ideas upon tho study and Writing af History " loc. cit

Guilday church Historians, pp. B321 fl.
Robinson, tho New History.
Bamos, the New History and the So cil studies.
Muzzey, Essays in intellectual Histony Dedicated ta James Harvey th omp Son, History of Historical Writing, Vol. 11. chap. Iv. odum Amorican Mastens af social scionco, chaptors on Jamos Honvey Robins on and Fnedorick Jackson Twrvor.
L.V. Hendricks, Jamos Harvey Robinson
M.E. Cuthi, Freder ick Jackson Twrnor. Mexicocitu, 1949.
Beado, Chan les A. Beard.
Smith, carl Becker: on History and tho climate af opinion.
Schm itt, Same Historians of Modern Europe, chaps. i, x,xix - xxi.
Halperin Some Twentioth Century Historians, PP. 1 - 39, 277 - 298.
Ausabel et al., Same Historiens af Modern Britain, chaps. 8 - 10, Kraus, tho writing at American Histovy, chap. xiv.
J.c. Lov enson, the Mind and Art of Henry Adams. Houghton Mifflin, 15, 20, 22.philip Bagby, Culture and History. univensi ty af california press, 1957. 1960.

Ernst sehaum Kell, Geschichte der Deuts chen Kultur geschichts chreibung. loip zig, 1905.
R. Kotz chke and A, Tille, Karl.Lamprecht. Gotha, 1915.
E.J. spioss, ceschichtsprilosophie Von Karl lamp recht. Erlang en, 1921.
stoin borg, Die Geschichtswissenscha flt dor Gegenwont in selstdarstellungen.
Halphon et al., Histoire et historuns dopuis cinquanto ans.
Halphon, LHIstoire en Fronce depuis cont ans
Henri Beri, LHistoire tradition elle et la Synthese historique paris, n21
Croco, storia della storiografia jabanei.
Blok, Geschicht chreibung in Holl and.
Miliukov, Main currents of Ru ssian historiog caphy.
Kurf Brrysig, Dio Meistor dei en twickelndon Geschi chts storsch ung. Ber slau, 1936.
J - B - Bury et. Evolution in Modorn Thou ght, chap ix Bon. and Liveright, 1915.
H. G. Wells, the scienco oF Lite. Doublo doy, Doron, 1931 2vols
Clark wisslon, Man and Culture. Crowell, 1923
W.F. Oghurn, Social change. Vikivg press, 1922

الفصل الرابع عشر

التاريخ وعلوم الإنسان
الاتجاه الكونى الجديد

سوف نتناول فى هذا الفصل التطورات الفكرية والثقافية وكذلك التقدم فى المعرفة البشرية. وهى الأمور التى ساعدت على توسيع مجال مادة التاريخ وزيادة خصوبتها، كما ساعدت المؤرخ على إعادة صياغة حضارة الماضى. وعلينا أولاً أن نناقش رد الفعل الذى أحدثته النظرة الفلكية الجديدة بالنسبه لمفهوم المؤرخ.

لقد كان لعلم الفلك الجديد وحركة الأجرام السماوية التى بدأت بنظريات نيوتن الأولية أكبر الأثر فى إثبات صحة ما قال به جيوردانو برونوGiordano Bruno دون أن يستمد أى دليل من حيث تعدد العوامل والتشابه بين الأجرام السماوية والأرض من حيث تكوينها المادى. هذا إلى أن اكتشاف كواكب أخرى بعيدة مثل أورانس، نبتون، كان أكبر دليل على اتساع النظام الشمسى بشكل لم يكن يتوقعه أحد. ولعل الأهم من ذلك كله كان التوصل إلى صنع الآلات والأدوات التى مكنتنا من أن نكتشف عن نظم شمسية لا حصر لها، ومعظمها على درجة من البعد والتعقيد لا يمكن حسابها. وهكذا كان لابد من تعديل نظرة الإنسان إلى الكون ليس فقط تحت تأثير فكرة تعدد العوالم، ولكن أيضاً بفعل مفهوم جديد بالغ الأثر، مؤداه أن هناك عدداً مطلقاً لا نهاية له من الأكوان. وأدى هذا إلى مراجعه دقيقة جدا لجميع نظريات الإغريق عن الكون وتراث العبرانيين والملحمه المسيحية، كما أدى إلى إدراك مدى حداثة كوكب الأرض وضآلته نسبيا. وبازدياد الاعتراف بهذه الحقيقة جاء البرهان العلمى على ما أبداه نيوتن من تشككه فى أنه من غير المحتمل

أن تكون كل فكرة عابرة تافهة . وكل تصرف عارض للفرد من البشر موضع اهتمام الله . وهكذا أصاب علم الفلك الجديد فى الصميم فكرة إرجاع أحداث التاريخ إلى قوى ما وراء الـطبيعة والقوى الإلّهية . وكانت هذه أخطار أثراً من تلك التى وجهها علم التطور البيولوجى لنفس هذه النظرية .

يضاف إلى ذلك أن التأريخ على أساس الحسابات الكونية الجديدة وما نرتب على ذلك من ضخامة عنصر الزمن جعل الافتراض القائل ببدء الخليقه فى سنة ٤٠٠٤ ق . م يبدو مفهوماً ساذجاً غير مقنع ، مثله تماماً مثل أية حكاية بسيطة حول الخليقة عند أى شعب من الشعوب البدائية المعروفة . والحق أن النظرية الزمنية الجديده للكون التى أتى بها علماء الطبيعه الفلكية كانت أبعد أثراً من المفهوم الجيولوجى القديم ، وهى بالنسبه لهذا المفهوم تعادل تماماً ما كان هو عليه بالنسبة للتقويم الموسـوى . ويعنى هذا أن اكتشـافات كـل من فردنهوفـر ، ميكلسون Michelson ، انيشتين ، شابلى جينزJeans ، لم تحل محل الآراء المرتبطة بآدم ونوح وموسى فحسب ، بل حلت كذلك محل أفكار لابل ، شامبرلين Chamberlin ، جيكى وآخرين وذلك بوصفها أساسا يبنى المؤرخ عليه أفكاره عن النسبيه التاريخيه والمفهوم الزمنى .

وكان ما فعله علم الفلك بالنسبه للكون شبيه بما فعله علم الجيولوجيا والحفريات بالنسبة لمفهومنا حول عمر وتكوين كوكبنا الذى هو من وجهه النظر الكونية كوكب حديث العمر بالغ الضآلة . هذا إلى أن الجيولوجيا التاريخيه والتركيبيه أظهرت حقيقه التطور الطبيعى والفترة الزمنية الطويلة التى تطلبها هذا التطور ، كما أثبتت أن الفترة الجيولوجيه التى سبقت بدء الحياة على هذا الكوكب يحتمل أن تكون أطول بكثير من الفترة التى انقضت منذ بدء الحياه عليه (حتى الآن) . كذلك كشف علم الحفريات ـــ الذى هو الأساس التاريخى الحقيقى لعلم التطور البيولوجى ـــ عن ظاهرة التطور التدريجى للحياة العضويه على الأرض ـــ وكذا عن التطور الذى طرأ على أنماط النباتات وحياة الحيوان والعلاقة الوراثية بين الكائنات المنقرضة ، وبين الكائنات القائمه . وفوق كل شيء فقد كشف هذا العلم عن موقف متناقض إلى حد ما بالنسبة للإنسان ، فمن وجهة نظر تطور الحياة العضوية ككل نجد أن حياه الإنسان على الأرض أمر حديث نسبيا بدرجة تبعث على الدهشة . ومع ذلك فهى بالغه فى القدم إذا ما قورنت بالاعتقاد الراسخ بقصره وجود الإنسان على الأرض . وكان أن تلقى المؤرخون المفاهيم الكونيه والزمنيه الجديدة فى وقف ذبول فكرة إرجاع الأحداث إلى قوى ما وراء الطبيعه وهى الفكره التى كانت تساند الافتراضات القديمه الخاصة

بالخليقة ، والتى كانت تقف وراء التاريخ التقليدى حتى الجيل الحالى . وقد صادفت هذه الفكرة تحدياً مباشراً خلال الدراسة التاريخية الناقدة للوثائق المقدسة التى تضمنت « افتراضات ما وراء الطبيعة » كما صادفت تحديا غير مباشر لها فى مرحلة تطور العلوم الطبيعية والاجتماعية . وترتب على هذا كله انهيار الأساس الوثائقى المزعوم لفكره ما وراء الطبيعه انهيارا تاما . وبذلك انتهت الحرب بين العلم واللاهوت إلى لا شىء بالنسبة للفئات المتعلمة .

نظرية التطور ومغزاها بالنسبة للتاريخ

لا شك فى أن نظريه التطور كانت من بين المؤثرات الفكرية والعلمية التى أحدثت ثورة فى وضع الكتابة التاريخية وحركتها ومثلها واتجاهاتها . وهنا ينبغى أن يتخطى مفهومنا عن التطور القيود البيولوجية لمدرسة دارون ليشمل التطور الكونى بمفهوم سبنسر . ويبدو بوجه عام أن افتراض التطور مجرد إصرار على أن كل ما هو معروف لنا فى هذا الكون ـــ صغيراً كان أو كبيراً ـــ قد حدث بفعل مسببات طبيعية هى المسئولة عن التقدم والنكوص على السواء . كذلك يتضمن هذا الافتراض ـــ وهذا ما يتفق مع وجهة نظر هيراكليتوس القديمة ـــ أن التغير هو المبدأ الأساسى العظيم فى الكون . وهكذا نجد أن افتراض التطور لم يتعرض بأى شكل من الأشكال للجدل الدينى اللاهوتى ، كما أنه لم يشيد على موقف عقائدى فيما يختص بالدور الذى قام به الله فى هذه العملية الخاصة بتطور الكون . كذلك فإن هذا الافتراض لا ينم عن أن صاحبه قد تلقى أى إيحاء من قبل الله يوضح هدفه (عز وجل) من إيجاد الأجرام الكونية الضخمة التى تشكل محتويات هذا الكون . ومن الممكن أن يكون لهذا الرأى الخاص بأصل الكون وتركيبه مغزى كبير بالنسبة لأولئك الذين يهتمون بالخوارق ولكن مناقشة المضمون الدينى لافتراض التطور إنما هى مشكلة الفلاسفة وفقهاء الدين وليست مشكلة المؤرخين وعلماء الأحياء .

ثم إن نظرية التطور لا تمثل ـــ بطبيعة الحال ـــ مرحلة جديدة تماماً فى المجرى الفكرى للحضارة الغربية ـــ لأن تاريخها قديم قدم التفكير التأملى ذاته ، وهذا بدوره يبدأ من عصر الفلاسفة السابقين على سقراط فى بلاد اليونان القديمة . وحتى هربرت سبنسر نفسه لم يتحدث عن المفاهيم والمضمونات العامة بالتطور الكونى بنفس القدرة والكفاءة التى تحدث بها لوكريتيوس Lucretuis فى عهد شيشرون . هذا مع العلم بأن لوكريتيوس أكد أن عَرْضَه لفكرة التطور

الكونى لم يكن سوى صورة أقل إحكاما من معتمدات أستاذه ايبقورEpicurusالذى عاش قبله بثلاثة قرون . وكان ان بعثت فكرة هذا التفسير لتطور الطبيعة مرة أخرى فى أعقاب نمو العلوم والحركة الرومانسيه خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وان كان هذا الاتجاه الفكرى لم يثر كثيرا من الجدل إلى ان دَخَل الإنسان ذاته فى دائره نظرية التطور . وقد أوضح سبنسر نظرية التطور الكونى وأضاف إليها كثيرا وبين انطباقها على عديد من أوجه النشاط الفكرى البشرى . أما دارون فقد كرس نفسه للنواحي البيولوجيه من المشكلة . وأوضح ان الأدله على ارتقاء الإنسان من أشكال أدنى فى الحياة العضوية أكثر اقناعا من أية أدلة أخرى يمكن ان تساند الرأى الراسخ — حتى ذلك الوقت — والقائل بأنه كانت هناك عملية خاصة حديثة نسبيا هى عملية خلق الإنسان . وكان أن قوبلت نظريه دارون بالترحيب من جانب عدد من العلماء البارزين أمثال هيكل Haeckel ، هاكسلى ، رومانس ، ولاس ، وهم الذين دافعوا عنها بشدة وعملوا على نشرها . أما المضمون الثقافى والتاريخى للأفكار الخاصة بالتطور فقد تولى شرحها كتاب متباينون أمثال ج . م . روبرتسون ، و . ا . هـ . ليكىW.E.H. Lecky ليزلى ستيفن ، كارل لامبرخت Lamprecht ، ج . و . داربر ، اندرود . هوايت ، هنرى آدمز ، وهؤلاء جميعا كانت جهودهم ذات أثر بعيد وكبير لأن مفهوم التطور هو على الأرجح أقدر الافتراضات وأكثرها فائدة فى حياتنا الفكرية والثقافية ، ولا يعارض هذا الرأى أو يشك فيه سوى الجوهريون المتشبعون لفكرة الأصل الثابت للإنسان مثل وليام جينجز براين ، جون روسن ستراتون ، جاسبار كورتينوس ماسيه Cortinus Massee وبعض الكتاب الكاثوليك المتحمسين ذوى المزاج الفكرى المتشابه ، وهم وإن كانوا حسنى النية إلا أنهم قليلو المعرفة .

وتتصف الجوانب الرئيسية لمغزى نظريه التطور بالنسبة للتاريخ بأنها عديدة ومؤثرة ولعل أهمها هو عدم الاعتراف بالفلسفة الاستعلائية وإذا كان أفلاطون قد أحسَّ بأن نظرياته الخاصة بالجمال وبالمعرفة قد تعرضت لصدمة شديدة من جانب المفهوم الخاص بالواقع المتغير ، إلا أن هذا فيما يبدو هو طبيعة الأشياء . فحتى الآن لم يكتشف أى متخصص فى أى فرع من فروع المعرفة وجود شيء فى مجال الطبيعة له صفة الكمال والاكتمال وعدم التغير ، فى حين أن مبدأ التغير فى حد ذاته هو المبدأ الأوحد فى الكون الذى لا يتغير ولا يتبدل .

على أن هذه النظرة إلى الموضوع لا يرضى عنها أولئك الذين يغلب عليهم طابع الورع وذلك إذا انتقل تطبيقها من النطاق الطبيعى إلى النطاق الاجتماعى . فالقول بأن الصخور والنباتات قد

يطرأ عليها تغيرات إنما هى فكرة أقل تأثيراً وأقل جاذبية من الحقيقة الخاصة بأن النظم والأفكار والعقائد البشرية لها طابع التطور وإنها جميعا تتصف بالنسبية فى قيمتها ودوامها . وقد يرى كثيرون سخافة لا مثيل لها فى فكرة أن عقائدنا الخاصة بالله والوحى بالإنجيل وشرعية الزواج ودوامه والديمقراطية والرسوم الجمركية المفروضة لحمايه الإنتاج والتناسل غير المحدد قد تكون جميعا من صنع البشر وأنها تناقض تماما آراء آخرين حول هذه المعتقدات ، بل إنها يمكن أن تكون خاطئة كل الخطأ . ولكن هذه هى الخلاصة التى تفرضها علينا عقيدة التطور والتى لا يمكن تجنبها بأى حال . والواقع أن نظرية التطور تبدو أكثر قوة وإقناعا إذا ما طبقت على تطور أنظمتنا الاجتماعية ، لأن ثقافتنا ونظمنا تمثل جهود المجتمع — فى كافة صورها البسيطة والمعقدة — ليكيف نفسه مع ظروف الحياة فى أية جهة . ولا توجد هناك أنظمة بشرية بدأت بنفس صورتها الحالية لأن كل النظم ليست إلا النتاج المتغير لعملية التكيف المستمرة مع عوامل البيئة والتكنولوجية المتغيرة . وهكذا نجد أن السلوك والنظم ذات أصل (دنيوى) وأنها ليست سماوية ولم تأت عن طريق الوحى والإلهام . والحل السليم الوحيد الذى نقاس به كفاءة أى نظام وكفايته هو مدى ملاءمته لاحتياجات جماعة معينة فى منطقة معينة فى زمن معين . فالأخلاق والنظم أمور نسبية ومتغيرة ، وهى من إنتاج الإنسان والمجتمع ، كما أنها عرضة للتغير الإنسانى فى المصطنع إلى ما هو أحسن أو أسوأ .

وهناك وجهة أخرى لا تروق للبعض وتفسر الحقائق السابقة فى ضوء مبدأ الوراثة ، وهو المبدأ المنافى للعقيدة القائلة بأن الله هو مصدر الأشياء والمتسبب فى حدوثها وقد اتضح الآن أن كافة الظواهر التى لدينا معلومات عنها فى الوقت الحاضر إنما هى نتيجة مسببات طبيعية تعمل بشكل تطورى . وكل مرحلة تمثل النمو الطبيعى للمرحلة السابقة عليها ، فإذا كانت هناك مجموعة محددة من العوامل التى تؤثر على أشياء مادية تحت ظروف معينة ، فإن هـذا سيؤدى إلى شىء ثابت لا يتبدل . وقد يستطيع الإنسان أن يغير إلى حد ما فى المواد والظروف التى تعمل القوى الطبيعيه تحت تأثيرها ولكنه دائماً عرضة للتأثر بنتائج تفاعل العوامل الطبيعية مع عقله هو ، وهكذا فإنه يمكن أن يركن بأمان إلى الوهم الذى يعود به إلى القول بأن الله بالتأكيد هو راعيه ومدبر أمره[1] . وإذا كانت هذه الفكرة لا تروق للبعض ، فإنها بالنسبة للآخرين تمثل تحديا ديناميكياً قوياً بعبقرية الإنسان وقدرته على الابتكار والتصرف . وكان التطبيق المباشر لمبدأ التطور البيولوجى فى مجال

(١) لاحظ هنا أن المؤلف يعبر عن وجهة نظره الخاصة وهى تحوى قدرا من الإلحاد لا نقره عليه (المترجم) .

المشكلات التاريخية أكثر وضوحاً وملاءمة فى ميادين علم النفس وعلمى الوراثة وتحسين النسل . ذلك أن ج . ستانلى هول وغيره من الكتاب اللاحقين أوضحوا فى مؤلفاتهم الممتازة أنه لابد من النظر إلى الفكر البشرى على أنه نتاج للتطور شأنه شأن الجسم ، وبذلك جعلوا علم النفس الوراثى هو المدخل الطبيعى للتاريخ الفكرى .

والمعروف أن المبادىء المسيحية والآراء الديمقراطية القديمة قامت جميعا على أساس فكرة الاعتقاد بضرورة المساواة بين جميع الناس ، ولكن علماء الأحياء والنفس أثبتوا أنه ليس هناك خطأ أوضح وأخطر من مثل هذا الاعتقاد ، فإذا كان التغير هو المبدأ الرئيسى فى الكون ، فإن الاختلاف والتميز هما الأصول للحياة العضوية بما فيها حياة الإنسان . ومن ثم فإن أوضح الحقائق بالنسبة للبشر هى تباين القدرة على بذل الجهد وعدم تكافؤ هذه القدرة بين فرد وآخر . وهذه الحقيقة من العناصر طالما تجاهلتها الفلسفة الاجتماعيه والتاريخية . وعلى الرغم من أننا لابد وأن نقف موقفا حذراً من التطرف الذى يبدو فى آراء مدرسة جالتون بيرسون وهى الآراء التى تبالغ فى تأكيد أهميه العوامل البيولوجيه البحته على حساب قوه التأثيرات البيئيه والتربوية — على الرغم من ذلك فإننا نعتقد أن تفوق شعب ما فى القدرة البدنيه هو أحد عاملين أساسيين فى التقدم الاجتماعى ، إذ لا يوجد هناك ما يدل على وجود شعب قوى أو حضارة متينة ذات عمر طويل بنيت على سلالة من البشر ضعاف البنيه والصحه . كذلك ثبت أن تغير نسبه المواليد هو من بين الأسباب القوية لدورة الحضاره ونهضه الثقافات واضمحلالها . ذلك أن تغير هذه النسبة يتسبب فى تناقص نسبة الإنجاب بين الطبقات الحاكمة وتزايد المواليد بين الطبقات الأدنى بيولوجيا مما يترتب عليه حدوث ما يسمى الانتقاء البيولوجى المضاد . ولا يمكن اعتبار أى مؤرخ فى الوقت الحاضر معدا مهنيا وفكريا لأداء عمله إذا كان يجهل الفلسفه البيولوجيه لكل من فرانس جالتون وكارل بيرسون وفاشردى لابوج واوتو آمون .

وعلى الرغم من أهمية العوامل البيولوجية فى المجتمع البشرى ، فإن هناك خطراً فى محاوله نقل المفاهيم البيولوجية نقلا مباشراً لتطبيقها فى مجال النظم الاجتماعية ، كما أن هناك خطراً مماثلا فى افتراض أن التفاعلات الهامة التى تحدث فى الحياة العضوية للفرد يمكن تطبيقها دون تحفظ أو تمييز على المجتمع حقيقة إننا لا ننكر وجود قدر من التشابه بين الحياة العضوية والمجتمع البشرى ، ولكننا نقول إن هذا التشابه قد لا يكون له من الأهمية العملية أكثر مما هناك من تشابه بين الذرة والنظام الكونى كله . هذا بالإضافة إلى ما قد يكون هناك من بعض التفاعلات

البيولوجيه التى تنطبق على حياة المجتمع البشرى . ولكن ما نريد أن نؤكده هو أن نضع فى الاعتبار الفروق الواضحة بين الموقفين وأن نعمل لها حسابا قبل أن نقر أوجه الشبه بينهما . ولعل أخطر الأخطاء التى نجمت عن تلك المحاولات لتطبيق المفاهيم البيولوجيه بشكل مباشر على الحياة الاجتماعية هو الافتراض القائل بأن الحرب تلعب دوراً بناء فى التطور الاجتماعى والثقافى لا يقل عن الدور الذى يلعبه الصراع من أجل الوجود فى مجال الحياه العضويه .

وهناك شك كبير فى سلامة هذا الافتراض الذى يبدو أكثر سخافة إذا ما طبق على الحرب فى ظل الظروف والأحوال الحديثه وفى ظل الإطار الثقافى الحالى .

وكان لنظرية التطور أثر كبير على أفكار بعض الباحثين فى مجال التاريخ كما يبدو ذلك فى كتابات سبنسر ، دراموند ، ليكى ستيفن ؛ الن Allen ، لانج ، سورمان ، كيد Kiddهبوهاوس ، فيسك ، سترلاند فى مجال تاريخ الدين والأخلاق . كذلك يبدو هذا الأثر فى كتابات بوست ، مين ، ماكلينان ، باجهو Bagehot ، لبنورنو ، كوفالفسكى ، ريتشى ، مورجان وغيرهم فى مجال تاريخ القانون والسياسة . ومهما يكن من أمر فإن الانطباع العام الذى تركه تطبيق مبدأ التطور على التاريخ ينحصر فى خلق مفهوم عن الطبيعه الوراثية للتفاعل الاجتماعى فى عمل المؤرخ اليقظ وإرساء أساس راسخ من النظرية السليمة الخاصة بالتطور التاريخى أو كما عبر جيمس هارفى روبنسون فإن علماء البيولوجيا هم الذين أعطوا المؤرخ فكرة التطور أو بمعنى آخر رسموا له الاتجاه الحقيقى للتاريخ .

ما أسهمت به الأنثروبولوجيا فى خدمة علم التاريخ

إن مناقشة أهمية نظرية التطور بالنسبة للتاريخ تؤدى بنا مباشرة إلى مناقشة العلاقة بين علم الأجناس البشريه والتاريخ الجديد « الديناميكى » . والواقع أن مفاهيم التطور حققت بعض الارتباطات الهامة للفكر المعاصر عن طريق مختلف مجالات علم الأجناس البشرية ، مما جعل الاستاذ ماريت Marett يصف هذه العلاقة بعبارة مناسبة هى :

« إن علم الأجناس البشرية هو التاريخ الإنسانى بأكمله الذى دعمته فكرة التطور . فأقصى

ما يستهدفه موضوع التاريخ هو دراسة تطور الإنسانية أو علم الأجناس البشرية يدرس الإنسان كما وجد فى كل العصور المعروفة وكما وجد فى كل أجزاء العالم ، كما أنه يتناول الإنسان جسداً وروحاً بوصفه جهازاً عضوياً يخضع للظروف والأحوال السائدة فى زمان معين ومكان محدود . ثم إن جسد الإنسان على علاقة وثيقة بحياته النفسية التى تخضع هى الأخرى من البداية حتى النهاية لنفس الظروف والأحوال . والعلم الذى يرقب هذه الظروف من البداية حتى النهاية يسعى إلى تحديد السلسلة العامة للتغيرات البدنية والعقلية التى طرأت على الإنسان خلال تاريخه الطويل . إن دارون هو حقا أبو علم الأجناس البشرية حيث إنه هو الذى هيأ له سبل الظهور . فإذا ما رفضنا الاعتراف بوجهة نظر دارون فمعنى ذلك أننا نرفض الاعتراف بعلم الأجناس البشرية ونحن الأنثروبولوجيين نضع مذهب دارون نصب أعيننا ونقول : لندرس كل جزء أو أى جزء من التاريخ البشرى فى ضوء تاريخ الإنسان بأكمله . وفى ضوء تاريخ الكائنات الحية عموما . ان ما يهمنا هو إبراز عقيدة دارون وليس هناك من الآراء الخاصة لدارون ما سوف يجتاز بالضرورة اختبار الزمن والتجربة لأن هذه الآراء سوف تنصهر فى البوتقة التى يرى رجال العلم صهرها فيها ولكن نظرية دارون فى تناولها للطبيعة تجعل من العالم شيئاً متقارباً لن نندثر . ومهما يكن من أمر فإن علم الأجناس البشرية يرتفع وينخفض بارتفاع وانخفاض افتراضات دارون الذى يذهب إلى أن هناك علاقة أساسية بين كل صور الحياة البشرية ، كما أن هناك قرابة وصلات بين كل صور الحياة البشرية يبدو خلال ما يعترى سلك الحياه من تغيرات . وتتضح أهمية علم الأجناس البشرية بالنسبة للتاريخ فى صور عديدة واسعة النطاق . فهناك أولا وقبل كل شىء الحقيقة الخاصة بأن هذا العلم هو وحده الذى يستطيع أن يزودنا بالمعلومات الخاصة بالتطور المبكر للإنسان ، وهو الشىء الذى لا غنى عنه فى أية دراسة أصيلة لما يسمى بالتاريخ القديم . فمنذ قرن مضى كان المدخل التقليدى لأى كتاب عن التاريخ القديم يتضمن مناقشة تفرق أبناء نوح واعادة تعمير الأرض نتيجة للجهود البطولية التى تنسب لها ذرية نوح وسلالته . وورد هذا المدخل فى عدد من الكتب التى أشار مؤلفوها فى صفحات لاحقة من نفس الكتاب إلى أن الحضارة المصرية القديمة وصلت ذروة درجاتها قبل التاريخ المحدد تقليديا لمسألة « الخلق » بعدة سنوات . ومن الممكن محو هذا التناقض وهذا الارتباك محوا تاما عن طريق نبذ التقويم العبرى الذى التزم به كل من جوليوس افريكانوس (الإغريقى) ، ابزبيوس ، أوشر ، والأخذ بان الأساس الحقيقى للتاريخ القديم هى الحقائق التى أثبتت صحتها علم الأجناس البشرية والتى تتعلق بوجود فترة طويلة جدا من التطور سبقت فجر التاريخ المعروف . ويساعد هذا الانجاه الجديد فى التاريخ ليس فقط على تنقية فجر

التاريخ مما علق به من عناصر غريبة وغامضة ، بل أيضا على جعل نفس هذا الاصطلاح الخاص بفجر التاريخ شيئاً مفهوماً ، إذ لم يكن هناك فاصل بين ما يسمى عصر ما قبل التاريخ وبين عصور التاريخ ذاته . ومعنى ذلك أن ثمة تطوراً بطيئاً مستمراً لم ينقطع وان لم يجر على وتيرة أو صورة واحدة منذ ظهور الإنسان على هذا الكوكب أى منذ مليون سنة أو تزيد . وإذا كان فن الكتابة هو العمل الأساسى الذى يعتبر الحد الفاصل بين عصر التاريخ وعصر ما قبل التاريخ ، فإن هذا الفن لم يكن سوى مرحلة من مراحل ما أنجزه البشر فى المجال الثقافى ولم يتم إتقان هذه المرحلة تماما إلا بعد قرون من ظهور الكتابة ، وقبل ذلك لم يكن هذا الفن قادراً على إحداث أى تأثير ثورى على الثقافة البشرية والسلوك البشرى .

فإذا ما حاولنا أن نضع سجلا للتقدم الثقافى قبل اختراع فن الكتابة ، فإن هذا السجل سوف يضم أساليب صيد الحيوانات والأسماك واستئناس الحيوان وبداية الزراعة وأساس صناعة الغزل والنسيج والتقدم الهام فى الفنون ونشأة الحياة المستقرة والبيئات المصطنعة والصور الراقية من التعاون الاجتماعى وظهور الملكية الخاصة للمنقولات وربما للأراضى وكذا التقدم الهائل فى نظام الحكم والقانون . إن محاولة وضع مثل هذا السجل يجعلنا على طريق يؤدى إلى فهم الأهمية الحيويه للتراث الثقافى الذى خلفه لنا فترة ما قبل الكتابة وكذلك إلى فهم المغزى الكبير للمادة التى كانت تحذف من كتب التاريخ المدرسية منذ جيل واحد مضى .

وهناك عامل آخر يفسر قيمة المعرفة بعلم الأجناس البشرية بالنسبة للمؤرخ ، ويبدو فى الحقيقة الخاصة بأن روح النظم البدائية وسماتها النفسية لم تندثر ، بمعنى أنه لا يوجد نظام معاصر لا يرجع أصله إلى جذور بدائية أو يمكن فهمه وتفسيره بدقة بدون معرفة كافية لأصله وجذوره . إن نظمنا الخاصة بالدين والملكية والجنس والحكم والقانون والأخلاق ليست قائمة على أساس من نظم بدائية فحسب ، بل نلمس فى أشكالها وصيغها الحالية جزءا كبيراً من التراث البدائى وإذا ما فهمنا هذه الحقائق حق الفهم فسوف يضيق مجال التعصب الوطنى والغرور الثقافى ، كما يؤدى إلى إضعاف الاتجاهات المحافظة لأن الحقائق كفيلة بأن تجعلنا نعتقد بأن نظمنا تفتقر إلى الكمال والتمام ، وهى فى نفس الوقت ليست فريدة أو موصى بها من قبل الله . وهذا ما نحاول دائما أن نضفيه عليها لتجميلها وتزيينها . ولذا فإن قراءة كتاب « أيام الخلود والراحة » الذى ألفه هوتن وبستر يسبب ضيقا يفوق ما يسببه أى قدر من الجدل الدينى ، وذلك بالنسبة لمن يفسر التشريع الخاص بالطقوس الدينية الخاصة بيوم الأحد ، إن لمعظم مظاهر الطقوس الدينية فى الحياة المعاصرة أصولاً وجذوراً

بدائية وليس هناك على وجه التقريب ما هو أكثر تشويقا وتثقيفا من عرض هربرت سبنسر للآثار الثقافية فى الجزء الثالث من كتابه « مبادىء علم الاجتماع » .

كذلك يلاحظ أننا لا نخلو من بعض الصفات النفسية التى نشارك فيها الهمج والبرابرة ، مع بعض التعديلات والتغيرات . من ذلك الرغبة فى الوصول إلى النتائج مباشرة وبلا مقدمات ، والميل إلى تحميل الأشياء أكثر مما تحتمل ، والجنوح نحو التفكير بطريقة رمزية والاتجاه إلى النظر إلى مراحل معينة من الخبرة مليئة بالزهد الخالص ، والثقة فى فاعلية الألفاظ والعبارات والإبقاء على بعض صور الاعتقادات البدائية فى عالم الأرواح والطواطم ، وفعل الأرواح الشريرة ، هذا كله بالإضافة إلى الأشياء المحرمة بحكم الدين والتقاليد والخرافات الساذجة . وجميع هذه النواحى من السمات النفسية للشعوب البربرية . ولا يمكن بأى حال تحديد مدى تأثير الفكر البدائى فى العصر الحديث ، وذلك لأن استمراره يختلف اختلافا كبيراً من مرحلة إلى أخرى من مراحل الثقافة المعاصرة . أما فى مجال العلم فقد تم نَبْذ النظرة البدائية وما ارتبط بها من طرق تفكير نبذاً تاما . أما بالنسبة للدين والأخلاق فلا يزال المحافظون يتمسكون بكثير من حياة الزهد والنسك والايمان بوجود المعجزات . فإن وجود العنصر البدائى يتراوح بين هذين الحدين . ففى السياسة على سبيل المثال لازلنا نعتمد على البلاغة ، وهذه الظاهرة ليست إلا شكلاً هيلينيّاً مطوراً لبعض تقاليد الخطب الرسمية لزعماء القبائل وشيوخهم وهكذا نرى أن فهم حقيقة بقاء هذه الظواهر البدائية واستمرارها فى حياتنا الفكرية وتفسيراتنا النفسية أمر ذو قيمة هائلة بالنسبة للمشتغلين فى مجال التاريخ الفكرى . كما نجد أن علم الأجناس البشرية يربط بين علم النفس الوراثى وبين التطور الفكرى للجنس البشرى ولا شك فى أن تلك الكتب أمثال التى ألفها وندت Wundt، ليفى برول Levy Bruhl ، بول رادين PaulRadin، جولدنويزر Golden Weiserوغيرهم تمثل المدخل المنطقى للتاريخ الفكرى تماما كما تمثل كتب ادزبورن ، بيركت ، بيك Peake تايلر ، ديكليت Dechelette ويلدير Wilder كليلاند ، ماكرى ، المقدمة المناسبة لتاريخ الثقافة المادية البشرية .

وكان أن أسهم علماء الأجناس البشرية إسهاماً عظيماً هائلاً فى فن التحليل التاريخى وذلك على وجه التحديد عن طريق تفسير تطور البشرية وشرح أوجه التشابه فيها ، فضلاً عن توضيح تنوعها والفروق بين نواحيها المختلفة . ومن الطبيعى أن يكون هذا الأسلوب غير ذى موضوع بالنسبة للدارس التقليدى للتاريخ الذى لا يهمه إلا الأحداث الفريدة ولكن لا غنى عن هذا الأسلوب للمؤرخ الذى يسعى إلى علاج تاريخ الحضارة والثقافة علاجاً علمياً .

ثم حدث أن اجتذبت دراسة أوجه الشبه والخلاف بين ثقافات المناطق المختلفة انتباه الدارسين من أيام هيرودوت بل حتى قبل ذلك الوقت . ذلك أن أوجه الشبه بين تلك الثقافات خلقت أعظم المشاكل فى مجال الشرح والتفسير ، وإن كانت أقل إثارة للاهتمام من أوجه الخلاف لأن التنوع يكون مقبولاً وميسور الفهم إذا كان مرتبطاً باختلاف الجنس والبيئة الجغرافية والصلة بين الشعوب بعضها ببعض ومراحل التطور الثقافى . أما بالنسبة لأوجه الشبه فى الثقافة فالأمر غير ذلك ، إذ كيف نفسر على سبيل المثال وجود أهرامات فى كل من مصر وأمريكا الوسطى أو تشابه الأسلحة والأوعية الفخارية فى مناطق بينها وبين بعض فواصل شاسعه ؛ وكان أن اقتربت أولى محاولات علماء الأجناس البشرية لشرح ظاهرة التشابه الثقافى بأسماء سبنسر ، تايلور ، مورجان ، ليتورنيه Letourneau ، وجميعهم عملوا على أساس نظرية باستيان Bastian الخاصة بوحدة العقل البشرى ، وعلى أساس الاعتقاد الذى يؤكد التأثير الحاسم للبيئة الجغرافية ، فضلاً عن افتراض التطور القائم على ارتقاء النظم ارتقاءً تدريجياً منظماً من صورتها البسيطة إلى صورة أخرى أكثر تعقيداً . وقد وضع هؤلاء العلماء بعد ذلك نظاماً مفترضاً يفسر التطور فى النظم ، وفى النهاية كرسوا أنفسهم للتوصل ولو بشكل عشوائى إلى معلومات مادية تثبت وتدعم وجود مثل هذا الوضع بالنسبة للتطور الاجتماعى . وهكذا وضعت هذه المدرسة افتراضا عامّـاً مؤداه أن التشابه الثقافى يرجع إلى أسباب داخلية أكثر مما يرجع إلى اتصالات خارجية بين الجماعات . وبهذا أكدوا فكرة التطور المستقل وخصوبة قدرة الإنسان على الاختراع حتى ولو كانت هذه القدرة تتأثر كثيرا بالطبيعة المحيطة وسمات معينة للعقل البشرى . وهناك نظرية أخرى تتخذ اتجاهاً مضاداً لاتجاه المدرسة السابقة وهى من وضع جوليوس ليبرت ، ا . ب . تايلور ، وآمن بها راتزل وطورها كل من فريتز جوابنر ، وسيرج . اليوت سميث ، فوى Foy انكرمان ، و . شميدت ، و . ج بيرى Perry ريفر وتعتقد هذه المجموعة من العلماء أن التشابه الثقافى يرجع فى مجموعه إلى اتصال الجماعات بعضها ببعض ، الأمر الذى يترتب عليه انتشار الثقافة . ودفعهم إلى هذا الاعتقاد تكرار حدوث اختراع الأدوات وابتداع العادات بشكل مستقل . ثم ذهب بعض المتطرفين من أعضاء المدرسة أمثال جرابنير Graebner ، سيميث إلى أن انتشار الثقافة قد تحقق حتى بين الجماعات التى تفصل بينها مسافات شاسعة وموانع كثيرة كان اجتيازها أمراً عسيراً . وعلى الرغم مما فى آراء هذه المدرسة من مبالغات ما إنها ألقت كثيرا من الضوء على انتقال الثقافات والنظم وكان للجهود التى بذلها علماؤها أهمية خاصة فى مساعدة الباحثين الذين تناولوا موضوع انتشار الثقافة المادية .

ولعل الاتجاه نحو التحليل السيكلوجي الذى وضعه الأستاذ بوس Boas وتلاميذه فى الولايات المتحدة الأمريكية والذى قبله إلى حد كبير بعض علماء الأجناس البشرية فى أوربا أمثال ماريت ، ابرنريك Ebrenreich يكون أكثر إقناعا من الرأى المبالغ فيه القائل بالتطور المستقل أو من الاعتقاد المبالغ فيه أيضاً القائل بفكرة الانتشار. وليس لمدرسة بوس أية افتراضات سابقة ، فهى تهدف أساسا إلى بحث الحقائق الموجودة فعلاً والمتعلقة بطبيعة أى تركيب ثقافى محدد وأصل ذلك التركيب . ونتيجة لذلك وجدت هذه المدرسة أن التطور المستقل والانتشار قد اشتركا معا فى خلق معظم الأوضاع الثقافية . ولكن قدرة أية وحدة ثقافية على تقبل واستخدام جهود ثقافة أخرى تختلف اختلافا بينا طبقا لنوع ودرجة الثقافة المستعارة . فالشعوب تستعير بترحيب كبير مختلف جوانب الثقافة المادية ولكنها لا تشعر بالرضا أو الارتياح بالنسبة لاستعارة العقائد والشعائر الدينية .

وكان من نتيجة غرس هذا المنهج الناقد أن بدأت حركة كبيرة لمراجعة النظريات السالفة الخاصة بالتطور الاجتماعى . ذلك أنه اتضح أن كثيرا من التشابه المزعوم كان تشابهاً سطحياً فقط . كما ثبت فى نفس الوقت أن كثيراً من أوجه الشبه الحقيقية لا تعنى بالضرورة تشابهاً فى السوابق أو فى التطورات اللاحقة . وبمعنى آخر فإن هذا المنهج عدّل إلى حد ما الآراء القديمة الخاصة بالطابع الموحد المنظم لتطور النظم ، كما تبدو هذه الآراء ملخصة فى كتاب (المجتمع القديم) الذى ألفه لويس هـ . مورجان . فالقاعدة الطبيعية هى التنوع الملحوظ كما يبدو فى ظاهرة التطور الاجتماعى على الأرض . وفى كتاب (تطور الثقافة) نجد هوايت يطابق بين نظريات مورجان وبين المضمون الحقيقى لعلم الأجناس البشرية . وهكذا ينبغى أن يكون واضحا أمامنا أن الباحث الذى يتناول موضوع تاريخ الثقافة والنظم لا يعتبر مؤهلاً تأهيلاً كافياً لهذا العمل اذ لم يع تماما نوع المادة التى تحتويها مؤلفات مثل كتاب بوس « عقل الانسان البدائى » وكتاب ويزلر Wissler (الانسان والثقافة) وكتاب كروبر Kroeber(علم الأجناس البشرية) وكتاب لوى Lowie (الثقافة وعلم الأنثولوجيا) وكتاب (المجتمع البدائى) وكتاب جولدن ويزر (الحضارة المبكرة) وكتاب ديكسن Dixon (بناء الثقافات) وكتاب مولر لاير Muller Lyer (تاريخ التطور الاجتماعى) كتاب لنتون Linton(دراسة الانسان) وكتاب هويت White (تطور الثقافة) . وأدى الأستاذ أ .ل . كروبر خدمة جليلة لتحقيق الهدف العظيم الخاص بربط علم الأجناس البشرية بالتاريخ حيث تضمن الفصلان الأخيران من كتابه الرائع عن

الأجناس البشرية عرضا مبتكرا للتاريخ البشرى من العصر الحجرى القديم حتى الحضارة المعاصرة ونشره فى ضوء الاتجاهات الأنثروبولوجية . وعلى الرغم من أن هناك كثيرا من المؤرخين الفلاسفة مثل باكل Buckle ، درابر ، سبنجلر ، شينى Cheyncy، ممن عرضوا قوانين افتراضية متعددة بخصوص تقدم البشر أو اضمحلاله ، فان مدرسه لامبرخت ، بريزج هى المدرسة الوحيدة التى أسهمت بصورة جدية فى هذه الناحية . ويشعر الكثيرون من أن قدراً كبيراً مما صاغه لامبرخت وبريزج يتضمن فى افتراضاته المنهجية كثيراً من نفس الأخطاء التى وقعت فيها مدرسة مورجان عن علم الأجناس البشريه . ومن بين المؤرخين القلائل الذين أتقنوا أحدث المناهج فى دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية ادوارد ماير ، ج . ل . مايرز ، جيمس طومسون شوتويل ، جيمس هارفى روبنسون ، ت . ف . ج . تيجارت .

هذا إلى أن علم الأجناس البشرية فيها يختص بمسائل الجنس والدين ساعد على تحرير المؤرخ من التعصب الوطنى والفكرى ، فمنذ جيل واحد مضى كان أبرز المؤرخين وأكثرهم موضوعية واقعا تحت تأثير جوبينه Gobineauبنظرياته الشاذة غير المقبولة القائلة بتفوق الجنس الابيض وبتفوق المجموعة الآرية من بين هذا الجنس الأبيض . ولم يكن هناك تأثيرا أكثر ضررا وإساءة بالموضوعية التاريخية من تأثير الأساطير المتعلقة بفكرة وحدة الجنس وثباته (البرهان) على ما يترتب على هذه الفكرة من الإحساس بتفوق جنس أو تخلف آخر . ويستثنى من ذلك الشعور بالتفوق القومى الذى نما من نفس هذه الخرافة .

وكان أن أوضحت الدراسات الأنثروبولوجية الطبيعية الناقدة الحديثة كيف أن مفهوم الجنس مطاط لا يسهل تحديد مدلوله ، كما تبين صعوبة اكتشاف أى معيار طبيعى ثابت ذى أهمية كافية يمكننا من تحديد هذا المفهوم وأثبتت هذه الدراسات كذلك مدى الخلط الكبير بين الأقسام المتفرعة من الجنس وكذلك درجة التنوع الكبيرة للفروع الموجودة داخل كل قسم من هذه الأقسام الفرعية . يضاف إلى ذلك . ما أكدته هذه الدراسات من أنه ليس هناك جنس آرى متفوق له السيادة ، كما أنه لم يكن هناك وجود لهذا الجنس فى أى وقت مضى . وقد أوضح الأساتذة بوس .. أ . ف . شامبرلين ، أن الفروق بين الأجناس المختلفة فى مستواها الثقافى يمكن أن تفسر تفسيراً كافياً دون التورط فى فروض حول وجود فروق فى المقدرة العنصرية المتأصلة كذلك أوضح هذان الأستاذان صعوبة إثبات التفوق الشامل للأجناس إذا ما أخذ فى الاعتبار عنصر التكييف مع البيئة . وباختصار فإن مشكلة الجنس فى الوقت الحاضر غامضة ومتداخلة وغير محددة بحيث ينبغى

بل يتحتم أن يتناولها المؤرخ فى حذر بالغ ، مهما يكن من أمر تلك الحقائق المؤكدة التى يمكن أن ينتزعها علماء النفس والأحياء من وسط هذا الغموض .

ويعتبر الملخص التالى الذى كتبه كارل بيرسون Karl Pearson عن شارل دارون برهانا قاطعا على عدم جدوى الافتراض العنصرى فى التاريخ : (لقد شاعت فكرة الارتباط الوثيق بين الحالتين العقلية والبدنية عند القيام بتحديد أصول أفراد معنيين يعيشون داخل مجتمع بشرى ، بمعنى إرجاع كل فرد إلى الجنس الذى ينتمى إليه من جملة الأجناس التى يتألف منها شعبنا . ونحن نتحدث كما لو كان شعبنا هو الذى نحقق فيه هذا المزج بصرف النظر عن موضوع الوراثة . وبعبارة أخرى فقد جرت العادة أن نتحدث عن نموذج من المواطنين الإنجليز وليكن هذا النموذج هو شخص شارل دارون الذى نعتقد أن عقله يعتبر نموذجا لعقل الإنجليز) .

ولكن عندما ندرس أصل دارون وسلالته نجد أنفسنا نبحث دون جدوى عما نسميه (نقاء الجنس) ذلك أن هذا الإنجليزى ينحدر من أربع سلالات متباينة من صغار الملوك الأيرلنديين ، فضلا عن عدد مماثل من سلالات الاسكنلنديين الذين يرجعون إلى الأصل البكتى فضلا عما يجرى فى عرقه من دم ألمانى . كذلك تربطه ثلاثة خطوط على الأقل بالملك الفرد العظيم . ومن ثم فهو يرتبط بالدم الانجلو سكسونى وكذلك يرتبط بصلات مع شارلمان . والكارولنجيين ، كما ينحدر من أباطرة ألمانيا السكسونيين وكذلك باربا روسا والهوهنشتاوفن . وجرت فى عرقه دماء فرنجية ونورمانية كثيرة وله صلة قرابة بدوق بافاريا وبدوق سكسونيا ودوق فرندرز وأمراء سافوى وملوك إيطاليا كما جرت فى عروقه دماء فرنجية وألمانية وبرجاندية ولانجوباردية وله أيضا قرابة مباشرة مع حكام المجر من الهون واباطرة المسطنطينية البيزنطيين . وإذا كان تقديرى سليما فإن ايفان المخيف عثل صلة دارون بالروس ، وليس من المحتمل أن يكون هناك جنس أوربى لم يشترك فى نسب شارل دارون . وإذا كان من الممكن أن نتبين مثل هذا العدد الهائل من خطوط الأنساب فى شخص مواطن إنجليزى واحد ، ومثل هذا الاختلاط الكبير فى جنسه فانه يمكننا أن نؤكد أنه لو توافرت لدينا معلومات مماثلة لتبينا أن الدماء التى تجرى فى عروق أى مواطن إنجليزى ليست أكثر نقاوة من دماء دارون .[1]

(١) المجلة العلميه الشهرية نوفمبر ١٩٢٠ صفحات ٤٣٥ ، ٤٣٦ Scientific Monthly . أما أحسن دراسة تاريخية ناقدة فتبدو فى كتابه : . F. H. Hankins : The Racial Basis Of Civilization Knoff 1926

وعلينا أن نحذر بصفة خاصة من كتابات المدرسة الجونبكية الجديدة لأنها تنافى المنطق وتتسم بالسخافة ومن أمثلتها كتاب ماديسون جرانت (نظرة على الجنس العظيم) والواقع أن هذه المؤلفات التى تعبر عن المذهب العنصرى الزائف لا تقل سوءا عن المعتقدات الآلية لماكسى مولار Max Muller وجيله وهى العقائد التى أحياها هتلر والنازيون فى ألمانيا .

ومع ذلك فإن علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية والباحثين فى مشكلة السكان من وجهة النظر البيولوجية قد لفتوا النظر إلى أهمية الفوارق فى السمات والقدرات بين أفراد الجنس الواحد والجماعة الواحدة ، وهذا يقودنا إلى أصل مشكلة الديمقراطية . هذا إلى أن علماء الأجناس البشرية أوضحوا ــ علاوة على ذلك ــ أنه قد توجد مادة تاريخية وثقافية هامة فى تلك العمليات الاجتماعية مثل اختلاف معدل المواليد والاختلاط العنصرى والهجرة .

كذلك فإن علم الأجناس البشرية فعل الكثير من أجل الإفلال من التعصب عند تناول مشكلة تاريخ الدين من ذلك أن التحليل الأنثروبولوجى للأصول الدنبية أوضح أن هناك تشابها كبيراً يظهر فى أصول الديانات وفى الأشكال التى اتخذها رد الفعل تجاه مسائل ما وراء الطبيعة عند شعوب الأرض قاطبة فضلاً عن أنماط السلوك النفسانى المرتبط بالظواهر الدينية . وقد أوضح العلماء كذلك مقدار التجانس الكبير فى الجوهر والأساس للنظم والشعائر الدينية رغم اختلاف أشكالها وصيغها الخارجية وطبق هذا الأسلوب التحليلى على كل من اليهودية والمسيحية هبو برت Hubert ، موس Maus ، جاردنر Gardner ، كونيبير Conybeare وغيرهم ودلت أبحاثهم على أنه لايوجد سند من الحقائق يثبت أو يؤيد استعلاء ثقافة أو تاريخ شعب من الشعوب وبمعنى آخر فإن تطبيق الأنثروبولوجيا على دراسة الظواهر الدينية يزودنا برؤيا طويلة الأمد كما يزودنا بوجهة نظر مقارنة ، ويشكل هذان الأمران معاً أحسن قاعدة ممكنة للتسامح الدينى وعدم التعصب . وإذا كان علم الأجناس البشرية يثبت أن ما يوجد من تعصب واستعلاء فى نظرة اليهود إلى غيرهم وفى نظرة كل من البوذيين والمسلمين إلى بعضهم البعض أمر لا أساس له على الإطلاق ذلك أنه كم تتنافى مع العقل تلك الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت ، وبين الميثوديين والمشيخيين وبين المعمرانيين الشماليين والجنوبيين . وتعتبر المؤلفات التالية خير مرجع لمن يريد تتبع تاريخ النظم الدينية عند أى شعب (كتاب الديانة البدائية) للكاتب لوى Lowie ، وكتاب (المدخل إلى العقيدة) وكتاب (طقوس الجماعات البدائية) للكاتب ماريت Marett وكتاب ، (اورفيوس لريناخ Reinach) ، وكتاب الديانة المقارنة لكابنتر Carpenter ، وكتاب تاريخ الدين لمور Moore ، وكتاب ديانة الغرب للارسون Larson .

التاريخ وعلم الآثار

أدى الجانب المتبقى من علم الأجناس البشرية وهو الجانب المعروف بعلم آثار ما قبل التاريخ خدمات عظيمة للتاريخ . ذلك أن هذا العلم كشف لنا عن تاريخ الفترة الطويلةالتى سبقت عهد الإنسان بالكتابة وهى فترة أطول بكثير من عصر التاريخ المدون ، ولها تقريبا نفس الأهمية من حيث التقدم الكبير الذى حققته البشرية وهذا العلم الذى غرست بذوره فى الفترة من عهد طومسون وبوشر دى برتزإلى عهد ديكيلت وما كردى وهو على الأرجح أدق فروع ما قبل التاريخ وأعظمها تأثيرا كما أنه فى الحقيقة يؤدى وظيفة الجسر الذى يربط بين علم الأحياء المتطور والثقافة البشرية حيث إنه يتعقب الدلائل المادية التى تنبت التطور التدريجى للإنسان من مرحلة القرد إلى مرحلة البشرية بخصائصها الطبيعية والثقافية الواضحة . ففى المقام الأول نجد أن علم الآثار القديمة يعطينا برهانا قاطعا على وجود طويل الأمد للحياة والثقافة البشربة قبل نشأة التسجيلات المدونة . ومهما تكن الطبيعة الحقيقية لخلق الإنسان أو أصله فإن علم الآثار القديمة قد بين لنا أن أكثر الحكايات الرمزية والدينية بطولة لا يمكنها حتى أن توفق بين التأريخ المسيحى من ناحية وبين ما ينبت وجود أدوات إنسانية يرجع تاريخها إلى عدة مئات من ألوف السنين من ناحية أخرى . وفى المقام الثانى فقد اتضح من خلال السجل الموجز للجهود الثقافية فى فترة ما قبل الكتابة أن علم الآثار القديمة هد زودنا بعرض رائع للأدوات الثقافية للإنسان والتى استخدمها تقريباً فى نفس الوقت الذى قيل أنه تاريخ خلق آدم . ولم يدخل على هذه الأدوات أى تطور مادى كبير إلا فى أيام الثورة الصناعية ومن ثم فإن العلم الذى يدرس الآثار القديمة لعهد ما قبل الكتابة هو المصدر الأساسى لذلك النوع من المعرفه الذى يجعل علم الأجناس البشرية المدخل إلى التاريخ فالكتب من أمثال نلك التى ألفها كونيلز هارولدبيك Harold Peake عن الحياة اليومية فى عصور ما قبل الكتابة تشكل المقدمة المثالية المقبولة لتاريخ المجتمع والثقافة المادنة ، فضلاً عن أنها فى نفس الوقت وكما أوضحنا آنفا تزيل كل ما هنالك من غموض واضطراب حول (فجر التاريخ) .

والحق أن ما أسهم به علماء الآثار فى سبيل الوصول إلى فهم أفضل للعصور التاريخية أمر معروف تماماً . فمنذ قرن مضى كانت معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم لا تتعدى إشارات معينة غامضة وردت فى العهد القديم وفى كتابات بيروسوس وهيرودت ويوسيفوس ، فضلا عن أعمال بعض المؤرخين الأقدمين . أما الآن فلدينا سجل مؤكد تام إلى درجة كبيرة عن حضارة مصر وبلاد

ما بين النهرين وبلاد الأناضول والشام وبحر إيجة وجزيرة كريت . ويرجع الفضل فى الحصول على الجزء الأعظم من هذه المعلومات القيمة إلى الحفريات التى قام بها علماء الآثار . وفى دراسة الحضارة الكريتية والاتروسكانية نجد أن علم الآثار هو مرشدنا الرئيسى حيث إن العلماء لم يتمكنوا من حل رموز تلك اللغات حلا كاملا . وعلى الرغم من أننا نستطيع الاعتماد على المصادر المدونة فى دراساتنا للتاريخ اليونانى والرومانى القديم بدرجة أكبر مما نستطيع ذلك فى حالة تاريخ الشرق القديم . فإن كثيراً من معلوماتنا الدقيقة عن التاريخ الإغريقى قبل هيرودوت وعن التاريخ الرومانى قبل سنة ١٩٠ ق . م يعتمد قليلاً على أعمال علماء الآثار . ومن كبرى الخدمات التى أداها علم الآثار — وإن كانت هذه الخدمات يعرفها الكثيرون — مؤلف ديكليت عن (آثار بلاد غاليا) إذ بين هذا الكتاب الحضارة الغالية فى تلك البلاد قبل عهد قيصر ، كما أنه أزاح عن بلاد الغال كثيرا من الغموض الذى أحاط بها نتيجة لأعمال أولئك الذين غلبوا مصالحهم الذاتية وكرسوا جهودهم للطعن فى يوليوس قيصر فضلا عن احتقار المؤرخين النيوتون لبلاد الغال . أما الآن فقد أصبح المدخل المقبول لدارسة تاريخ أوربا الغربية هو البحث فى الحضارة الغالية القديمة شمالى جبال الألب . وهى الحضارة التى استمرت من عصر سكان البحيرات إلى أيام كلوفس ملك الفرنجة والتى أسهمت بشكل رائع فى تاريخ الثقافة فى أوربا . كذلك أحدث إيليس هـ . مينز Ellis H. Minns ثورة فى معلوماتنا عن روسيا الجنوبية بكتابة (الشعوب الاسكثية والإغريق) . هذا بالإضافة إلى ما أمدتنا به دراسة الآثار الأمريكية من معلومات هائلة عن ثقافة السكان الأصليين لأمريكا من الهنود وأن كانت هذه المعلومات أقل قيمة من الناحية التاريخية بسبب دخول الثقافات الأوربية عليها وفشل الثقافة الهندية الأصلية فى التطور والامتداد نتيجة لذلك .

نظرة أحدث عن تطور التاريخ

لعل أعظم الفوائد التى جناها علم التاريخ من علمى الأحياء والأجناس البشرية هى تلك النظرة الجديدة للتطور التاريخى ، أى تلك التغيرات التى تجلت فى ظهور اتجاهات جديدة فى نظرتنا إلى ماضى الإنسان ومستقبله .

لقد كان الرأى القاطع الذى تقبله معظم العلماء حول أصل الإنسان حتى الجيل الماضى هو ذلك

الذى وضعه كبير الأساقفه جيمس أوشر فى كتابه « حوليات العهدين القديم والجديد » وهو الكتاب الذى صدر سنة ١٦٥٠ وما لبث هذا الرأى أن نقحه بعده بوقت قصير الأستاذ لا يتفوت Lightfoot ، وكيل جامعة كامبردج وهو الذى ذهب إلى أن ظهور الانسان كان نتيجة عمل خلاق تم فى الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م . ويعنى هذا أن الإنسان له أصل إلهى مؤكد كما أن ما يحيط به وما سخر له من أدوات كانت هى الأخرى من صنع الله وحكمته على أن النظرة البيولوجنة والأنثروبولوجيه للتاريخ جاءت على النقيض من ذلك تماماً ، إذ ترتكز وجهة النظر الحديثة على الرأى القائل بوجود حياة طويلة جدا للإنسان على الأرض وأن أسلاف الإنسان من الكائنات الأخرى غير البشرية أكثر قدماً ، كذلك ثبت أن التطور البيولوجى والتقدم الثقافى للإنسان كان تطوراً تدريجياً . وفى تعقبنا لخطوات التطور البشرى والاجتماعى لانصادف جنة دائماً خالية من الحيوانية ومع الاعتراف بوجود حالات من التخلف الأكيد فى الماضى وبصرف النظر عن المشكله الجدلية الخاصة بتحسن الجنس من الناحية البدنية إلا أنه لا يوجد شك فى إمكان تحقق التحسن المطلق فى الثقافة والنظم إذ ما تيسر استغلال الامكانيات المتاحة للعقل البشرى استغلالاً كاملاً . وبدلاً من ذلك التخلف الناتج عن الجمود يمكن أن تكون النظرة إلى التاريخ حركيه مفعمة بالتفاؤل . هذا على الرغم من أنه يستحيل علينا أن ندافع بنجاح عن وجهة النظر الغائية أى التى تستهدف الغاية . كما يستحيل أن نقول إن كوكبنا لا يمكن فى وقت ما أن يتلاشى من الوجود نتيجة لقدر بسيط من الاضطراب فى نظام الكون أو تغيير طفيف فى نظام الوراثة وحتى وقت يقدر بأربعين أو خمسين الف سنة مضت كان التقدم الثقافى يسير فى خط متواز أو ربما متساو مع التطور البيولوجى ولكن لا توجد هناك أدلة كافية على حدوث أى تحسن بيولوجى وعصبى منذ وقت ظهور النوع الكرومانيونى Cro-magnon type ونتيجة لذلك فإن التطور البشرى صار يعتمد أكثر وأكثر على التقدم فى ميادين الثقافة والفكر ، الأمر الذى أدى بالإنسان إلى الاعتماد بصورة أكيدة على إعداد القوت بدلاً من التقاطه من الطبيعة على أن هذا لا يعنى إنكار قوة الأنواع البشريه الراقيه أو فاعلية برامج تحسين النوع إذا ما أخذ بها فعلاً فيما يتعلق بإمكان زيادة سرعة التقدم البشرى بطرق صناعية فليس هناك شك حول قدرتنا على تحسين ثقافتنا المادية من ذلك أن إنجازاتنا منذ الثورة الصناعية مذهلة إلى أقصى حد ولكن المشكلة الكبرى هى كما عبر عنها فيبلن Veblen وأوجبرن Ogburnهى هل يمكننا أن نضمن تحسناً متشابهاً فى تراثنا الاجتماعى وبصفة خاصة فى نواحى النظم أم أن الحضارة سوف تندثر بسبب ذلك التفاوت المميت بين التكنولوجيا ونظمنا الاجتماعية .

ومع ذلك فإن الاتجاه التاريخي يعطينا قاعدة قوية تلهمنا الصبر عندما نحاول أن نجرى تحسينات فى نظمنا الاجتماعية . ذلك أن الوقوف على التفاعل الطويل الممل فى بعض الأحيان والذى أدى بنا إلى الحالة التى نحن عليها الآن يحول بيننا وبين المبالغة فى التشاؤم عندما نلمس كيف نسير فى بطء على طريق الإصلاح والتحسن . فنحن نتحرك فى معظم النواحى بسرعة أكبر من أى وقت مضى حتى ولو لم يكن هناك ما يؤكد أننا نسير فى الاتجاه الصحيح أو بالسرعة الكافية . ولا توجد هناك حضارة استطاعت أن تفتر وتتوقف فى أمان ؛ فالتقدم والاضمحلال هما سنة الطبيعة ولعل مكمن الخطر فى موقفنا الحالى هو ذلك العنصر الذى لم يوجد من قبل والذى يتمثل فى قدرة التكنولوجيا الجديدة على تدمير البشر والثقافة فإذا أمكننا تجنب الحرب حتى نتيح لقدراتنا الذهنية فرصاً أخرى لمعالجة مشاكلنا الحالية المعقدة فقد نتمكن من الارتقاء بنظمنا إلى مستوى الكفاية الذى تتميز به التكنولوجيا الآن .

هذا إلى أن المفهوم الجديد للتاريخ يزودنا كذلك بإحساس سليم لمعالجة مشكلة التقدم وهو أساس أعظم بكثير مما توفر لكتاب مثل فيكو Vico وتيرجو Turgoوكانط ، كوندورسيه Con-dorcet وهم الكتاب الذين أرسوا فى القرن الثامن عشر قواعد نظرياتنا الحديثة عن التقدم . ذلك أن الأمر لم يقتصر على جهل أولئك الكتاب بعلم الأحياء وعلم النفس والعلوم الاجتماعية الحديثة ، بل إنهم كانوا يفتقرون كذلك إلى المعرفة بالتطور البطىء الذى حققته الثقافة البشرية فى المليون سنة السابقة على آدم . يضاف إلى ذلك أنهم لم يكونوا قادرين على التنبؤ بالتقدم المذهل فى العلم والتكنولوجيا الذى أخذ يظهر منذ زمانهم وكان أن أعطى علم الأجناس البشرية الحديث وعلم التاريخ ــ بمؤازرة التقدم الهائل فى العلوم الطبيعية والاجتماعية ــ الاساس لنظرية تجريبية للتقدم ، وذلك على الرغم من أننا نعترف صراحة بأن التقدم فى مجالات معينة من الثقافة كان أكثر وضوحاً عنها فى غيرها هذا بالإضافة إلى أنه من الطبيعى جداً أن تكون كافة معايير التقدم شخصية وذاتيه إلى حد ما .

عملية تقويم التاريخ وتقسيمه إلى فترات

يشكل التقويم الزمنى للتاريخ فى حد ذاته جزءاً ممتعاً فى عملية تطور التاريخ . وقد سبق لنا أن تناولنا هذا الموضوع . ولذا فإنه لا يسعنا سوى أن نمر عليه مروراً عابراً فى هذا الجزء ذلك أن

الاهتمام العام بالتقويم الزمنى للتاريخ ظل ضئيلا حتى عهد الآباء المسيحيين الأوائل ــ لأنه حتى المؤرخين أنفسهم ــ لم ينجحوا بصفة عامة فى اكتشاف الماضى وكان القسيس وليس المؤرخ ــ على حد ما أوضحه الأستاذان ويبستر وشوتويل ــ هو الذى اكتشف عنصر الزمن وكيفية حساب التواريخ كذلك كانت الكتابة التاريخية فى غالبيتها العظمى حتى العهد المسيحى عبارة عن تاريخ معاصر واذا تعرضت بإشارات إلى الماضى فإنها كانت غالبا إشارات غامضة وغير دقيقة من وجهة النظر التاريخية . وإذا كان مؤرخ اليوم قادراً على وضع تقويم زمنى مقبول لتاريخ الشرق القديم عن طريق الاستعانة بقوائم الملوك وغيرها من سجلات البلاط ، فإن الشعوب نفسها فى تلك العصور لم يكن لديهم أى تقييم زمنى منظم للتاريخ ولم يتوصل المؤرخون الإغريق إلى أكثر من ذلك التقويم الأولى الذى أدخل فى عهد طيماوس حوالى سنة ٢٣٠٠ق . م والذى كان يعتمد على السنوات الأولمبية فى تحديد التواريخ أما المؤرخون الرومان فكانوا أكثر نجاحا فى هذا المجال إذ ابتكروا تقويماً علمياً معقولاً حين أرخوا لحوادثهم على أساس التاريخ المزعوم لإنشاء روما سنة ٧٥٣ ق . م . ولكنه من الواضح أن هذا النظام كان لا يمكن المؤرخ من أن يجول ببصيرته فى ذلك الماضى العميق الذى يبدأ بفجر التاريخ ، هذا على الرغم من أن نيبوس Nepos ابتدع طريقة جداول تأريخية مقارنة .

وعلى الرغم مما يحتويه التقويم الذى وضع على عهد آباء الكنيسة الأول من غرابة وشذوذ إلا أن هذا التقويم له فضل محاولة إيجاد نظام تقييم زمنى يضم كل العصور التاريخية . ومن الثابت أن الافتراض المسيحى القائل بأن خلق الانسان تم فى فترة لا تبعد عن ستة آلاف سنة عن مولد المسيح كان غير كاف بأى حال للتوصل إلى تقويم زمنى شامل ، وكذلك فإن اختيار التاريخ العبرانى أساساً لوضع جداول تأريخية مقارنة قد أعطى مكانة مبالغا فيها لتاريخ اليهود على حساب بقية تاريخ الشرق القديم . ومهما يكن من أمر فإن المؤرخين المسيحيين هم الذين بحثوا بدقة مشكلة تقويم الماضى ، وحتى الآن والجهود تبذل لزيادة تحرى الدقة فى التقويم الذى وضعه جوليوس افريكانوس ، ايزيبيوس ، وجيروم . وهذا العمل من جانب الدارسين يأخذ فى بعض الأحيان شكلا أكثر تحديداً كما فى حالة أوشر ولايتفوت وأحيانا أخرى يتخذ شكلاً علمياً يمكن الاعتماد عليه بدرجة أكبر كما فى حالة سكاليجر وكليمنت .

وجملة القول أن جميع أنواع التقويم التاريخى حتى وقتنا الحاضر تتصف بعدم الدقة وعدم القدرة على توجيه الباحث توجيها صحيحا . ذلك أن المعايير التى اتخذتها هذه التقاويم أساساً

كانت إلى حد كبير ترتكز عادة على حادث دينى أو قومى خاص مثل ميلاد المسيح أو الهجرة المحمدية أو قيام أسرة حاكمة محل أسرة أخرى فى الشرق الأوسط وليس لأى من هذه الأحداث من الموضوعية أو القيمة الثقافية العالمية ما يجعل منه أساساً مناسباً لتقويم التاريخ العالمى ، بل إن عدم كفاية هذه الأحداث من ناحية عنصر الزمن كفيل بأن يزيد الموقف تعقيداً . يضاف إلى ذلك أنها وقائع حديثة نسبياً إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن سنة ٦٠٠٠ ق . م هى أقدم ما افترض من تاريخ للخليقة فى أكثر التقاويم امتداداً وتساهلاً . ويمكن أن يعاد بناء تقويم التقدم البشرى على أساس ما تحقق من معرفة بيولوجية وأنثروبولوجية على النحو التالى : ذلك أن الأساس العـام للتقويم التاريخى يقوم غالباً على المعرفة الفلكيه ، لأن الفلك هو الأساس الذى يكشف عن الامتداد الهائل للكون وضآلة حجم كوكبنا وقصر عمره نسبياً . وهذه بلا شك أخطر المراحل وأقلها وضوحاً فى تطور البشرية . ثم يلى ذلك مرحلة العصور الجيولوجية فى تطور الأرض ، وهى الفترة السابقة على نشأة الحياة والتى تثبت بالتأكيد أنها أطول بكثير من تلك الفترة التى انقضت منذ بداية ظهور الأحياء الأولية . وبعد ذلك تأتى مرحلة بداية الحياة وأصلها . ولدينا بالنسبة لهذه المرحلة مرشد يتمثل فى سجلات علم الحفريات ، وهى فترة تتناول حقبة زمنية أطول من أن يجرؤ أى جيولوجى على التعبير عن طولها بالنسبه لأنها تزيد عن مليون سنة . ونأتى بعد ذلك مرحلة متأخرة جداً عن ذلك من وجهة النظر الجيولوجية وهى التى تمثل العصر الثلثى الذى خرج فيه الإنسان إلى الوجود وكان ذلك منذ حوالى خمسة ملايين سنة .

ومن الآن فصاعداً نجد تحت أيدينا التقويم الذى اعتمد حفريات عصر ما قبل الكتابـة والـذى يستند إلى البحـوث التى أجراهـا الباحثـون من « طومسـون » حتى « تـورتيليـه » ، « ديكليت » ، « ماكردى » . وينقسم هذا التقويم إلى العصر الحجرى وعصر المعادن . أما العصر الحجرى فينقسم بدوره إلى أقسام ثلاثة هى العصر الأيلوتى ــ الباليوتى ــ النيولوتى [القديم ــ الأوسط ــ الحديث] ولكل قسم منها فروعه التى يطلق عليها العلماء أسماء معقدة وصعبة . وأما العصر المعدنى فينقسم بدوره إلى عصور النحاس والبرونز والحديد والصلب . وتجرى الآن مراجعة تاريخ العصر الحجرى . وترجع بداية العصر الحجرى القديم إلى أكثر من مليونى سنة ، فى حين ترجع بداية العصر الحجرى الأوسط إلى أكثر من مليون سنة والحديث إلى ما لا يقل عن خمسة عشر أو عشرين ألف سنه . أما عصر النحاس فمن المرجح أن يكون قد بدأ فى مصر حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م . وظهر عصر البرونز الحقيقى فى منطقة بحر إيجة حوالى سنة ٢٦٠٠ ، ق . م ، بدأ

عصر الحديد فى الأناضول حوالى سنة ١٣٥٠ ق . م عند الحثيين . ويمكن أن يقال إن عصر الحديد يضم الحضارة الغربية ابتداء من القرن الرابع عشر ق . م حتى الثورة الصناعية التى انتجت العصر الحجرى للصلب بكل متضمناته وأقسامه . ولعل التقسيم الأساسى لتاريخ الجنس البشرى منذ بداية العصر المعدنى هو كما يلى :

١ — عصر الرعى والزراعة الذى يتميز أساساً بالعزلة النفسية والثقافية والركود والتكرار وهى الأمور التى تحكمت فى المجتمع حتى مجىء الثورة الصناعية

٢ — عصر الحركة المعاصرة الذى شهد الرأسمالية والتوسع وحياة المدن .

ومع ذلك فإنه من السهل جداً ملاحظة أن هذا الملخص المعقول للتقويم الأحدث والأكثر شمولاً ليس إلا موجزاً جزئياً غير تام حيث إنه يرتكز أساساً على الثقافة المادية . ففى مجال هذه الثقافة حدث أكثر تقدم كما أن فيه أيضاً يمكن بسهولة اقتفاء أثر التطورات والتغيرات . وهكذا سيتضح أنه بالنسبة لجوانب معينة أخرى من التطور الثقافى يلزم نظام آخر للتقسيم الزمنى . وعلى الرغم من أن النظام الذى عرضناه فيما سبق ربما يتضمن عدداً من جوانب التطور الحضارى أكثر من يتضمنه أى نظام آخر فإن التقويم المعروف به لا يزال يقوم على أساس الحادث الذى انفرد باختياره كل من ديونيزيوس اجزيجوس Dionysius Exigeus ، وبيد Bede . ونعنى بهذا الحادث على وجه التحديد ميلاد المسيح وإذا كان هذا الاختيار يفى بالأغراض العملية كأى اختيار آخر ؛ فإن الأسباب الخاصة التى دعت إلى استخدامه — كما تراءت لكتاب العصور الوسطى — لا تبدو معقولة أو وجيهة على الإطلاق بالنسبة لمعظم المؤرخين المتقدمين . أما التاريخ الذى يبدو أكثر صلاحية ليكون أساساً للتقويم فهو على الأرجح سنة ٤٢٣٦ ق . م أى التاريخ الذى اتخذ فيه قدماء المصريين التقويم الشمسى أساساً لحساب الزمن ، وهذا هو أقدم تاريخ مؤكد ثابت فى تاريخ البشرية ، ولا يمكننا أن نتوقع وجود تواريخ محددة سابقة عليه. وكل الذى نصادفه لا يتعدى فترات أو عصوراً وحقباً .

وينبغى أن يكون واضحاً لكل فكر أن هذه المفاهيم الجديدة الخاصة بالتقويم الزمنى كان له تأثير ثورى على الجهود التقليدية فى مجال تقسيم التاريخ إلى فترات ذلك أن طريقتنا الحالية لتقسيم التاريخ إلى عصور وفترات تنشأ بشكل عشوائى وبالتالى فليس هناك أساس معين لنجاحها أو استمرارها . ولم يكن عند الآباء المسيحيين سوى فترتين هامتين فى التطور البشرى .

١ - العصر الوثنى الذى انقضى منذ آدم حتى ميلاد المسيح والذى لا يخفف من وزره سوى وجود الثقافة اليهودية ذات التوجيه الإلهى .

٢ - العصر المجيد الذى لاح فجره بميلاد المسيح .

وكان أن استمر الأخذ بهذا التقسيم طوال العصور الوسطى وذلك بفضل ما فعله « اورزيوس » من أجل تثبيت التراث الثقافى الأوربى إذ ظل مؤلفه حول التاريخ العالمى هو الكتاب المقبول حتى وقت ظهور « سابيلكوس » فى عصر الحركة الإنسانية . ونلحظ فى كتابات« أوتو » المنسوبة إلى « فريزنج » الجمع بين نظرة « أوزريوس » والإدراك الضئيل لمغزى الفترة التى وصلت بين « أوتو » والعصر الآوغسطينى . أما فيلافيوس بلوندوس « فربما كان أول من نظر إلى العصور الوسطى على أنها فترة متميزة إلى حد ما ، فترة اتصفت بقيام الدول الجديدة فى شمال غرب أوربا فى أعقاب اضمحلال قوة روما .

وهناك أيضاً حنا بودين Jean Bodin الذى قسم التاريخ البشرى إلى التاريخ الشرقى وتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وتاريخ أوربا الشمالية . ويبدو أن التقسيم الحالى الثلاثى التقليدى الذى يقسم التاريخ إلى قديم ومتوسط وحديث إنما يعزى إلى تأثير كاتب هولندى من أتباع المدرسة الإنسانية هو كريستون كيلر » (كيلاربوس) .

ويبدو ما فى هذا التقسيم من نقص أمام كل مؤرخ عميق التفكير ، فهو فى المقام الأول يتجاهل اكثر من تسعة أعشار فترة الوجود البشرى على الأرض . وفى المقام الثانى فإنه لا يوجد توافق زمنى عام بين مختلف ثقافات شعوب الأرض مما يسمح بمثل هذا التقسيم المحدد للتاريخ العالمى ، فأية مقارنة بين حالة الثقافة فى كل من مصر وبلاد ما بين النهرين الهند والصين وبريطانيا وكاليفورنيا فى سنة ٤٠٠٠ ق.م سوف تظهر التنوع الهائل فى الثقافة التى تنطوى تحت قسم زمنى واحد . وكذلك تظهر نفس الحقيقة عند مقارنة حضارة اكس لا شابل بحضارة القسطنطينية سنة ٨٠٠ ميلادية ، أو عند مقارنة حضارة كل من انجلترا وروسيا والصين سنة ١٨٢٥ ميلادية . وفى المقام الثالث نجد أن مثل هذا التقسيم ليس كافياً حتى بالنسبة لتاريخ دولة واحدة كما يتضح ذلك من مقارنة ثقافة ألمانيا سنة ٥٠٠ ميلادية بثقافة بلاط الإمبراطور فيردريك الثانى . وكلا منهما تقع فى الفترة المسماة بالعصور الوسطى .

وإذا كنا سنختار الاحتفاظ بهذه الاصطلاحات والتقسيمات القديمة ، فإن علينا أن نوسع مجالها بحيث تغطى فترات أطول . فمن الأمور المنطقية بوجه عام القول بأن التاريخ القديم يتضمن الفترة من وقت ظهور الإنسان حتى نهاية العصر الحجرى الأوسط ، ويضم تاريخ العصور الوسطى فترة العصر الحجرى الحديث ، فى حين يضم التاريخ الحديث الفترة من عصر المعادن حتى الثورة الصناعية . أما التاريخ المعاصر فيشمل الفترة ما بين الثورة الصناعية ووقتنا الحاضر . ولكن المشكلة تكمن فى ما إذا كنا بحاجة على الإطلاق للاحتفاظ بهذا النظام العتيق لتنمية العصور . يضاف إلى ذلك أن أى تقسيم علمى للتاريخ فى المستقبل لابد وأن يكون متعدد الجوانب ، له حدوده المتميزة الفاصلة وخصائصه الواضحة . ففى بعض مراحل الثقافة مثل التكنولوجيا والنظم الاقتصادية تبدو أنماط معينة للتجمع والتقدم ولكن يبدو أن الدين والفن لا يخضعان لهذه القاعدة ولذا فإنه سوف يكون هناك دائماً تفاوت كبير بين ثقافات دول العالم المختلفة . وهكذا فإن تقسيم التاريخ فى المستقبل لابد وأن يقتصر على نمط معين من التطور الثقافى فى دولة معينة أو حقبة ثقافية محددة .[1] وقد يترتب على ذلك ارتباك فى ناحية التعليم ، ولكنه نظام أدعى إلى دقة تاريخية أكبر وتمييز أعظم . ويبدو اقتراح « لامبرخت » على قدر كبير من الوجاهة ، وهو الاقتدام الذى يقضى بنبذ الطرق القديمة لتقسيم التاريخ إلى فترات . ويدعو إلى الأخذ بطريقة جديدة تقوم على تتابع أنماط سائدة من السيكلوجية الجماعية . وهذا الاقتراح جدير بأن يزكى لدى المؤرخ سواء قبل أم لم يقبل رأى « لامبرخت » الخاص بالتقسيم الاجتماعى السيكلوجى للتاريخ . وأخيراً فإن مفهوم استمرار التاريخ يمثل تحدياً ظاهراً لأية خطة تستهدف تقسيم التاريخ إلى فترات محددة .

العوامل الجغرافية فى التطور التاريخى

ذكر الفيلسوف الألمانى « هردر Herder» أن التاريخ البشرى ليس فى أساسه سوى التعبير المتغير للفكر البشرى" Geist "كما حورته وعدلت منه الظروف الخارجية المحيطة . وأهم هذه الظروف الخارجية هى البيئة الطبيعية . ذلك أن المؤرخين تأثروا كثيرا بـ« هيجل » وبحماسته

(١) انظر كتاب الفنون والحضارة لمؤلفه ليون مانفرد Lewin Mumford (طبعة هاركويت براس ١٩٣٤) .

للمطلق والدولة ، كما تأثروا بـ « كارليل Carlzle » ورأيه القائل بأن عظماء الرجال هم مبعوثو العناية الإلهية . لذلك نجد التاريخ فى القرن التاسع عشر قد سيطرت عليه إلى حد بعيد ظاهرة التمسك بالمفاهيم الدستورية والقومية والتأثر بذكر أحداث البشر وقصصهم ، ولذلك لم يشعر بأهمية « كارل ريتر » سوى قلة قليلة ، كما لقى « باكل Buckle » كل استهزاء ، ولم يعبأ أحد . بـ « راتزل Ratzel » . بل إنه حتى فى أيامنا هذه كشف مؤرخ أمريكى النقاب عن انتقال المؤثرات الفكرية عبر القارة الأمريكية بصرف النظر عن المصالح الاقتصادية أو الفواصل الجغرافية[1] . وهكذا أصبح المؤرخون تدريجياً أكثر إدارة للحقيقة الخاصة بأن تصرفات الإنسان لا يمكن أن تفهم فهماً كاملاً أو توصف وصفاً دقيقاً إذا ما فصلت عن إطارها الطبيعى . ولدينا بعض الأمثلة الواضحة لازدياد تقدير المؤرخين لمغزى وأهمية المعلومات الهائلة التى وضعها تحت تصرفهم البـاحثون فى الجغرافية الطبيعية والجغرافيا البشرية .

والواقع أن الاهتمام بعلاقة العوامل الجغرافية بالنظم الاجتماعية والثقافة البشرية أمر قديم قدم التاريخ ذاته « فأبوقراط » أبو الطب ــ كان معاصراً « لهيردوت » و« ثيكوديدس » ــ كان أول من كتب عن هذا الموضوع ولو بشكل عارض عندما كان بصدد توضيح أثر المناخ وبعض العوامل الطبيعية الأخرى على أنواع الأمراض ومسبباتها ، كذلك فإنه تـوصل إلى اكتشـاف الأسباب التى جعلت الإغريق ــ وهم سكان منطقة المناخ المتوسط أو المعتدل ــ أرقى من الضعفاء فى الجنوب أو الشعوب الهمجية فى الشمال . وقد أعرب « أرسطو » عن اقتناعه بهذا التفسير كما عزا « شيشرون » عظمة الرومان وتفوقهم إلى نفس هذا السبب . وفى العصور الوسطى بعث « اكويناس » « مفاهيم » « أرسطو » وبعد ذلك أشار إليها « ابن خلدون » (١٣٣٢ ــ ١٤٠٦) فى كتاباته . وجاءت إشاراته أكثر وضوحاً بفضل معرفة المسلمين بعلم الجغرافيـا . كذلـك أوضح « بودان Bodin » كيف اتفقت الجغرافيا مع قدرة الله لتجعل من الفرنسيين أمة عظيمة ووضع بعض الاقتراحات التى تحدد كيف يستفيد الساسة من دراسة الجغرافيا فى تجنب قيام الثورات أما « ريتشارد ميدMead » و« حنا اربثنوت John Arbuthnot » وهما طبيبان إنجليزيان عاشا فى النصف الأول من القرن السادس عشر ــ قد استغلا الاكتشافات الجديـدة فى علوم الطبيعـة

(١) ارجع إلى E.D. Adans : The power of Idcals in American History ويعتبر الفيلسوف الإيطالى بـ . كروش هو أحد أتباع هيجل من ناحية رأيه فى التاريخ .

والأرصاد الجوية وفى وضع تفسيرات ممتعة وإن لم تكن مقنعة فيما يتعلق بتأثير المناخ والطقس على الإنسان .

وظهرت بعد ذلك جهود « مونتسكيه » العظيمة فى بناء فلسفة للتاريخ وعلم القانون على أسس جغرافية . وارتكزت هنا الجهود على نظريات «أربيثنوت» والمادة الوصفية التى احتواها كتاب الرحلات « تشاردن Cherdin » وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر أسس « كارل ريتار » علم الجغرافيا البشرية بمعناه الحديث وكانت القاعدة التي ارتكز عليها هى المعلومات السليمة التى تجمعت نتيجة للجهود التى بذلها مكتشفون أمثال « ألكسندر فون همبولدت Alexan-der von Humboldt » والتى كانت باعثاً على اهتمام من جاءوا بعده وأخذوا بمذهبه أمثال « بيشل Peschel » و« جيوت Guyot » « وبصفة خاصة » « فردريك راتزل » و« اليزيه ريكلو Elisee Reclus » وبالإضافة إلى العمل النظامى الذى قام به كل من « راتزل » « ريكلوس » وكتاب لاحقون أمثال « ريتشثو فن Ri chthofen برونيه Brunhes » ، فالوا Vallaux » ، فيدال دى لابلاش Vidal dela Blache » « سمبل Semple » « هنتجتون Huntington » فإنه كانت هناك إلهامات هامة فى نواح معينة من الموضوع أتى بها كل من « ديمولنز » ، كوان ، ميتشنكوف Metchinekoff » ، ماكنـدر ، « لى بـلاى Le play » « جيـدز Geddes » ، « هاهنHahn » ، هنتجتون ، وارد ، دكتسر » ، « هلباخ Hellpach » وغيرهم .

ويبدو تأثير هذه الأعمال على عرض التاريخ وتفسيره أمراً غاية فى الوضوح ، إذ عالج علماء الجغرافيا البشرية المذكورون آنفاً كل عوامل البيئة التى تؤثر على المجتمع ، وأمدونا بصورة دقيقة للعلاقة بين الإنسان والطبيعة ، ومن هؤلاء « ديمولنز » « وكوان » اللذان أكدا أهمية الطوبوغرافيا والطرق التى يسلكها المسافرون والمواقع الطبيعية التى تعترض الغزاة وتجعل الاتصال صعباً وشاقاً . أما « لى بلاى » و« جيدز » فقد حددا حوض النهر بوصفه أساساً للإقليم الجغرافى الطبيعى فى المجتمع الصناعى الحديث . كما أوضح « فاكندر » أهمية الموقع الجغرافى الاستراتيجى فى تاريخ التوسع القومى والعلاقات الدولية . وبالمثل فقد زودنا كل من « هان » ، ودارد بأبحاث تمس كل جوانب تأثيرات المناخ على الإنسان . أما ألزوارث هنتنجتون فأضاف إلى ذلك كله فرضاً جزئياً أصيلاً حول التذبذب المناخى الذى قد يكون مسئولاً عن كثير من موجات هجرة الشعوب واضمحلال الثقافات عبر التاريخ . وأما هلباخ ، و« ونكستر » و« هنتنجتون » و« ليفنجول Leffingwell» فقد بدأو البحث الخاص بتأثير الطقس والتغييرات الفصلية على

الطاقة البشرية والنشاط البشرى . وفى كتابه « الأرض والشمس » أتى « بهنجتنتون » بنظرية تأثير الشمس والمناخ والطقس على مجرى الحضارة .

وبالإضافة إلى هذه الأعمال التى تناولت التأثيرات الجغرافية العامة على مجرى الحضارة ظهر عدد من الجغرافيين الذين كرسوا أنفسهم لدراسة العلاقة المحددة بين عوامل البيئة والتاريخ من ذلك أن « ريكلو » و« فيرجريف Fairgrieve» أوضحا العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ العالمى وهو العمل الذى قام به مؤخراً جداً وبشكل أكثر شمولاً « برونز وقالوا » ، « لوسين فبفر Lucien Febvre . كذلك حلل « ليون ميتشنكوف » أهمية وضع وادى النهر بالنسبة للحضارات الشرقية المبكرة . أما فيليبون Philippon » فقد قام بدراسة تاريخية عظيمة لتأثير العوامل الجغرافية لحوض البحر المتوسط على التاريخ الشرقى والكلاسيكى . وتبعه فى نفس هذا الاتجاه كل من « سميل » ، « نيو بيجنNewbigin» .

وقد حلل الأخير بالتفصيل العلاقة بين جغرافية البلقان وتاريخها . وهناك أيضاً « نيسين Nissen الذى زودنا بدراسة دقيقة لجغرافية إيطاليا . هذا إلى أن «فيدال دى لابلاش » ، و« برونز » وضعا دراسة جغرافية لبريطانيا بينما وضع كل من « ريتنهوفن » ، « بارتش Partsch » ، بنك Penck » ، جوتز Goetz مؤلفات هامة عن الجغرافيا التاريخية لأوربا الوسطى . وبالمثل عالج كروبتكن Kropotkin وآخرون العوامل الجغرافية التى يتضمنها تاريخ أوربا السلافية . وفى أمريكا بُحث تأثير العناصر الجغرافية على التاريخ الأمريكى فى دراسات قام بها « سميل » « بريجهام Brigham » ، « ج . راسل سميث J. Russel Smith » . ولابد أن نشير كذلك إلى ما أسهم به الجغرافيون الاقتصاديون أمثال « شيزهولم Chisholm » ، وماكفارلين Mac Farlane » ، وجوتز ، ج. راسل شميث ، فى دراسة التاريخ الاقتصادى .

وسار المؤرخون على نفس نهج الجغرافيين فى الاهمام بالتأثيرات الجغرافية التى حددت صورة التطور فى مناطق لها خصائصها التاريخية المميزة أو فى دول قومية معينة . ومن ذلك أن هـ.ب. جورج ، ج.ك. رايتWright بذلا جهداً طيباً لبيان التأثير العام للجغرافيا على التاريخ وبصفة خاصة التاريخ العسكرى والسياسى . وقدم ج . ل . مايرز G.L. Myres عرضاً ممتعاً للأساس الجغرافى لقيام الحضارات التاريخية المبكرة . كذلك قام مؤرخو الحضارات الشرقية القديمة بدراسة دقيقة لبيئة وديان الأنهار التى شهدت نشأة هذه الحضارات بحيث أصبحت أودية أنهار النيل ودجلة

والفرات نماذج قديمة لأثر البيئة الجغرافية . وبالمثل فقد أوضح « كورتيوس » ، و« زيمرن Zimmern » بالتفصيل العلاقة بين جغرافية شبه الجزيرة اليونانية ونشأة الحضارة الإغريقية وطبيعتها أما دورى Duruy فقد أمدنا منذ نصف قرن مضى بعرض لجغرافية إيطاليا وعلاقتها بالتاريخ الرومانى . وبالمثل أوضح « هارناك Harnack » العوامل الجغرافية التى أثرت على انتشار المسيحية كما أمدنا « بيزلى Beazley » بدراسة قيمة تدور حول الأساس الذى قامت عليه الجغرافيا التاريخية للعصور الوسطى . وهناك أيضاً ميشليه ، جوليان Gullian اللذان وصفا بشكل كامل الأسس الجغرافية للتاريخ الفرنسى فى حين قدم « جرين Green » أعظم عرض لتأثير المعالم الطبيعية لبريطانيا على التاريخ الإنجليزى ، وأوضح « لوكاس Lucas » كيف أن العوامل الجغرافية أثرت على طبيعة وسير حركة التوسع الامبرالية الإنجليزية . وكذلك أوضح « ريهل Riehl » العلاقة بين جغرافية الوطن الجرمانى وتطور المجتمع الجرمانى وثقافته . كما أوضح « سبيل هاوس Spilhaus » الأصول الجغرافية للتوسع الأوربى واضطراد حركة الاستعمار . وفيما يتعلق بالولايات المتحدة وصف « باين Payne » العلاقة بين المعالم الطبيعية وفترة الاكتشافات والاستيطان كما أوضح « وندسور Windsor » الأهمية التاريخية لحوض نهر الميسسبى . وفى نفس الوقت أمدنا « هالبرت Hulbert » بتفاصيل وصفية عن المسالك التى استغلت فى غزو القارة . ثم جاء « فردريك جاكسون تيرنر » وتلاميذه الذين أوضحوا بتفاصيل مقنعة العلاقة بين الأقاليم الجغرافية للولايات المتحدة وبين تاريخها القومى والإقليمى . وأخيراً فإن هناك العلامة الألمانى « هلمولت Helmolt » الذى أصدر تاريخاً عالميا ممتازاً بناه على تقبل معتدل لآراء « راتزل » الخاصة بالعلاقة بين الجغرافيا والتاريخ .

وعلى الرغم من وجود مثل هذه البداية المبشرة على طريق إقرار أهمية البيئة الطبيعية بالنسبة للتطور التاريخى لكل شعب فإن معظم المؤرخين التقليديين لم يعنوا عناية كافية بالعوامل الجغرافية . والحق أننا نشك فيما إذا كان الكثير من المؤرخين يشعرون بوجودها أو بقوة تأثيرها . وحتى هؤلاء الذين أعطوا الموضوع شيئاً من الاهتمام ؛ قلما أدركوا أن الخريطة الطوبوغرافية والاقتصادية — وليست الخريطة السياسية — هى التى تساعد على كشف تأثير العوامل الجغرافية على التطور التاريخى . وإذا ألقينا نظرة على معظم المؤلفات التاريخية الحديثة فإننا نجد عشرين خريطة سياسة مقابل خريطة طوبوغرافية واحدة . فالجغرافيا التاريخية لازالت بالنسبة لمدرس التاريخ العادى شيئاً لا يزيد على كونه تلويناً للسياسات التى تعرضت وفق ترتيب زمنى . وتبرز بصفة أساسية التغييرات التى تطرأ على الحدود السياسية .

وإلى جانب الاهتمام السائد بالأحداث فإنه من المحتمل أن يكون السبب الرئيسى لهذه اللامبالاة بالجغرافيا ، إن لم يكن شعور النفور منها من قبل المؤرخين هو ذلك الانطباع الخاطىء بأن الاهتمام بالجغرافيا إنما يتضمن قبولاً للعقيدة المادية الخاصة بالحتمية الجغرافية . ولكن لا ينبغى أن تعالج المشكلة على هذا النحو ، إذ إن المسألة مسألة الإنسان والطبيعة كما يتطوران معاً أو على حد قول راتزل فإن : « كل مشكلة جغرافية يجب أن تدرس تاريخياً كما أن كل مشكلة تاريخية يجب أن تدرس جغرافياً ثم إن التأثيرات الجغرافية المتنوعة تبرز وتعمل بشكل مختلف فى كل فترة من الفترات المتعاقبة للتطور التكنولوجى . يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك أساس للاعتقاد بوجود حتمية جغرافية مطلقة ، كما أوضح الناقدون من علماء الأجناس البشرية الذين ينتمون لمدرسة « بوس » . ولا يمكن أن نصل إلى تعميم أبعد من قولنا بأن تصميمات الأزياء عند سكان الكنغو لا يمكن أن تناسب سكان المنطقة القطبية الشمالية . كذلك توجد ثقافات مختلفة اختلافاً كثيراً فى بيئات متماثلة إلى حد بعيد ، كما أن هناك حضارات قوية الشبه ببعضها مع أنها توجد فى بيئات طبيعية متباينة . ويبدو أن الثقافة هى العنصر الديناميكى أو الحركى فى التاريخ ، أى العنصر الذى يتفاعل مع عوامل أخرى كثيرة أقواها البيئة والموارد الطبيعية المحيطة .

وإذا كانت الاعتبارات الجغرافية لها اهميتها فى كل أوجه التاريخ فإنها تبدو أكثر أهمية بالنسبة للتاريخ الاجتماعى المتصف بالحركة والتغير . فالثقافة المادية وما يصاحبها من نظم اجتماعية هى فيما يبدو وليدة تطبيق تكنولوجيا معينة على الموارد الطبيعية ولا غنى أبداً عن كل من التكنولوجيا والموارد الطبيعية لازدهار الاقتصاد . فإيطاليا الحديثة مثال طيب لدولة متخلفة نسبياً من الناحية الاقتصادية على رغم من وجود فنيين ممتازين بين أبنائها . ويرجع هذا التخلف إلى افتقارها إلى الموارد المعدنية اللازمة لنمو وتطوير صناعات الحديد والصلب والعكس صحيح فى حالة روسيا قبل سنة ١٩١٧ (أو قبل ١٩٢٨) حيث كان السبب فى التخلف الصناعى هو الافتقار إلى تكنولوجيا حديثة يمكن بها استغلال الموارد المعدنية غير العادية منها . ولدينا كذلك مثال واضح لتغيير التأثيرات الجغرافية بفعل التطور العلمى والتكنولوجى وهو تأثير البحر المتوسط والمحيط الأطلسى اللذين كانا فى يوم من الأيام من أخطر العقبات فى سبيل السفر والترحال . ومن أكبر أسباب الانعزال الثقافى ، إذ أصبحا منذ اختراع فن الملاحة — أولاً بوساطة السفن العادية ثم بعد ذلك بالسفن التجارية — من أكبر البواعث المشجعة على نمو الحضارة ونشاطها وذلك اعتباراً من بداية الألف الثالثة قبل الميلاد حتى يومنا هذا . وبالمثل فإن مواقع القوى المائية التى كانت ذات

يوم عديمة الفائدة بسبب بعدها أو تعذر الوصول إليها يمكن أن تستغل الآن فى توليد ونقل الطاقة الكهربائية .

ومن أروع وأحدث أمثله التقارب المتزايد بين التاريخ والجغرافيا ذلك الاهتمام بالجغرافية الإقليمية والتاريخ الإقليمى ذلك أن الجغرافيين الفرنسيين ساروا على نفس نهج « فيدال دى لابلاش » وفعلوا الكثير من أجل الارتقاء بالدراسة المتعمقة للمناطق الجغرافية الطبيعية التى تمثل الأساس المنطقى والمثالى لنمو الوحدة الثقافية والاجتماعية . وكان أن لقى هذا المفهوم قبولاً واستحساناً من قبل تلاميذ « لى بلاى » فى فرنسا و « باتريك جيديز » فى اسكتلندا إذ اعتبر أساساً لنظرية خاصة بالإصلاح الاجتماعى . وعلى الرغم من أن كثيراً من المؤرخين الأوربيين أمثال « لامبرخت » ، « شمولر Schmoller » ، قاموا بتحليل العلاقة بين مناطق جغرافية معينة وبين الحياة الاقتصادية فيها ، فإن العالم الذى أسس هذا الفرع من الدراسة العلميه وخطا فيه خطوات بعيدة هو الأستاذ « فردريك جاكسون ترنر » الذى كان مفتاح تفسيره للتاريخ الأمريكى نظرية مؤداها أن هذا التاريخ كان أساساً عملية توسع فى اتجاه الغرب وإنشاء مجتمع رائد من ساحل الأطلسى إلى المحيط الهادى . وأوضح « ترنر » كيف أن هذه الحركة العامة تنوعت مظاهرها وتعددت فى الأقاليم الجغرافية الكثيرة التى تم اجتيازها . وإذا كان تطور الولايات المتحده يعتبر مسأله توسع فى المساحه والقوة فهو من ناحية أخرى يتميز بالتنوع الاجتماعى والاقتصادى والثقافى والسياسى ، وهو التنوع الذى يرجع بصفة أساسيه إلى الاختلاف فى الوضع الجغرافى والموارد . وكان هذا التنوع الإقليمى مصدراً من مصادر القوة لأنه ساعد على خلق تعاون وثيق ، ولكنه مع ذلك كان سبباً فى خلق كثير من الصعاب بالنسبة لمسأله الحفاظ على الوحدة السياسية والولاء للسلطه الحاكمة . ويمكن التنبؤ بأن المؤرخين فى المستقبل سوف يحولـون اهتمامهم من التركيز المطلق على الوحداث المصطنعة فى الولايات إلى التركيز على محاوله تتبع تاريخ الأقاليم الجغرافيه وإنجازاتها الاجتماعيه والثقافية والتفاعل بينها . وقد يحدث فى المستقبل أن نمسى تقسيم الوحدات السياسيه على الوضع الجغرافى الملائم بدلاً من تركه على هذه الصوره تحدده اعتبارات الاعتزاز القومى ومطامع الأسر الحاكمة .

وأخيراً ولكى ننتقل من الوحدة الجغرافية الأساسيه فى الإقليم الطبيعى إلى الطرف الآخر الذى يمثل الاتجاه العالمى ينبغى أن نذكر أنه منذ عهد التوسع الأوربى فيما وراء البحار ـــ اعتباراً من سنة ١٥٠٠ م فصاعداً وعلى الأخص منذ سنة ١٨٧٠ أصبحت جغرافية العالم مادة ذات أهميه

كبيرة ومتزايدة بالنسبة للمؤرخ . ولا يوجد هناك من يستطيع أو يأمل أن يكتب كتابة ممتازة عن التوسع الأوربى ما لم يكن على دراية تامة بمعالم وموارد المناطق التى تم اكتشافها واستعمارها واستغلالها ، وإلى حد ما يمكن القول بأن هذا الاهتمام بجغرافيه العالم قد ساعد على توسع مجال التاريخ ، بالضبط مثلما ساعدت علوم الجيولوجيا والأحياء والأجناس البشرية على توسيع نطاقه الزمنى .

تفسير التاريخ

سبق أن أوضحنا أنه تجمعت قرب نهاية القرن التاسع عشر مجموعات كبيرة من مادة المصادر التاريخية التى تم تنسيقها والربط بينها ، كما تم الوصول بمناهج البحث التاريخى وطرق علاج المعلومات التاريخية إلى مرحلة الكمال . كذلك سبق أن أوضحنا كيف تمت هذه التطورات وإن كنا نلمس فى معظم الحالات أن جهود المؤرخين اقتصرت على جمع الحقائق التاريخية . وهكذا فإن دارس التاريخ وجد نفسه فى موقف لا يختلف عن موقف الكيميائى أو أخصائى علم الفيزياء أو الأحياء إذا ماوزود بعدد هائل من المذكرات المرتبة المنمقة التى تحوى عدداً ضخماً من التجارب والملاحظات ولكنها لا تتضمن مع ذلك أيه محاولة حقيقية لتفسير مغزى هذه المادة الكبيرة أو استنباط قوانين علمية يمكن أن تكون لها صفة التعميم والحق إن إصرار معظم المؤرخين على مقاومة أى خروج عن الخط الرئيسى الذى اختاروه لأنفسهم — وهو الكشف عن الحقائق وسرد الحوادث المتعاقبة — كان له ما يبرره منذ قرن مضى عندما كانت ماثلة فى أذهانهم ذكرى تلك المحاولات المفتعلة من جانب الفلاسفة لاستغلال حقائق التاريخ فى دعم آرائهم الغريبة حول التطور التاريخى هذا بالإضافة إلى أن الحقائق التاريخية التى يمكن أن يبنى عليها أى تفسير سليم لم تكن قد تم جمعها على الوجه الأكمل .

ومع ذلك فإننا نجانب الصواب لو اعتبرنا أن جمع الحقائق بهذه الصورة تمثل نهاية عمل المؤرخ ، بالضبط مثلما يبتعد عالم العلوم التجريبية عن الصواب إذا ما اعتبر أن عمله ينتهى عند حد وضع مذكراته فى جداول . ذلك أن التفسير الدقيق المضنى لمادة التاريخ — وهو عمل علمى لا ينفصل عن مهمة المؤرخ — يمثل فى الحقيقة التطبيق السليم للمنهج العلمى فى التاريخ ويعطى

بعض المعنى والأهمية لذلك الحشد الهائل من الحقائق المتجمعة . ولقد عبر الأستاذ « جيمس هارفى روبنسون » ، « ا.ف. بولارد » عن هذه الحقيقة فى العبارة الآتية : « حتى يصبح التاريخ شيئاً علمياً كان لابد وأن يكون فى أول أمره شيئاً تاريخياً » . وإنه لأمر غريب حقاً أن ما نعتبره اليوم اهتماماً تاريخياً أيضاً كان بعيداً عن أذهان المؤرخين قبل القرن التاسع عشر عندنا كانوا يسردون أحداث الماضى بالطريقة التى اعتقدوا أنها ترضى لقارىء . وكانوا يعلقون على هذه الأحداث بهدف تعليم القراء . كذلك فإنهم لم يبذلوا كل ما فى وسعهم لكى يكتشفوا حقيقة الأمور فى الماضى . هكذا وإلى هذا الحد . كانوا علميين ولو أن دوافعهم كانت فى المقام الأول أدبية أو أخلاقية أو دينية . هذا إلى أنهم لم يحاولوا بصفة عامة أن يحددوا كيف برزت الأمور إلى الوجود . ولذلك فإن التاريخ ظل لفترة ألفين أو ثلاثة آلاف سنة مجرد سجل لأحداث الماضى . ولا يزال هذا التعريف للتاريخ يرضى البسطاء ، ولكن وصف ما حدث سيء ، ومحاولة تحديد كيف حدث شيء آخر .

« وإننى وأنا أجهر بهذا الرأى أخاطر لأننى سوف انعرض لسخرية أدعياء العلم ، أقول إن الحقائق من وجهه نظرى ليست إلا اعتبارا ثانوياً ولاينبغى أن تستخدم إلا كأمثلة . وقد لا أكون موفقا فى اختيار العباره التى قد تثير على الأقل شيئاً من الضحك البرىء . حقيقة إن الحقائق لابد وأن تكون صحيحه ولكن مغزى الحقائق التاريخية أعظم بكثير من الحقائق ذاتها . والذى يعنينى الآن هو مغزى الحقائق فعندما ننفذ من قشور الحقيقه التاريخية نستطيع أن نصل إلى لبها . والحقيقه فى حد ذاتها قد تكون قليله القيمة إذا لم تحمل فى طياتها معنى ما . وهناك بالتأكيد مغزى وراء كل الحقائق وواجبنا هو اكتساف هذا المغزى . ومع ذلك فإن اكتشاف مغزى الحقائق هو بصفة عامه آخر ما يهدف إليه مؤلفو الكتب الدراسية حيث نذكر الحقائق كما لو كان ذكرها أكثر أهمية من فهمها ، وكما لو كان غرض التعليم هو جعل العقل الناضج مخزناً للحقائق بدلاً من جعله أداة عالية الكفاءة وتدريبه على أداء واجبات الحياة واكتشاف معالم الحقيقة » .

وكما أوضح كل من « كومت » والأستاذ « سوبونل » فإن الأنماط السائدة فى تفسير التاريخ خلال العصور المتعاقبة قد عكست فى صدق الاهتمامات الفكرية الغالبة فى تلك العصور المتعاقبة . فالملاحم التى تناولت قوى الطبيعة الخارقة والتى سادت فى الشرق القديم ، حلت محلها التفسيرات الأسطورية والفلسفية التى وضعها مفكرو العصور الكلاسيكية القديمة . وما أن انتشرت المسيحية حتى استبدلت هذه الأساطير الكلاسيكية بمفهوم ثنائية العالم (الدنيا والآخرة) كما ظهرت فكرة الآخرة والوجود الإلهى المستقى إلى حد ما من الفكر الفارسى والتى سيطرت على عملية تفسير

التاريخ منذ « أوغسطين » حتى عهد « بوسويه » . وبالمثل فقد صحبت حركة التوسع الأوربي هزة هائلة تعرض لها الوضع الفكري القديم مماترتب عليه نشأة المدرسة العقلانية النافذة على يد « بيكون » ، « وديكارت » ، « وفولتير » « وهيوم » « وجيبون » . وبسبب سبق هذه المدرسة للجو الفكري العام لعصرها فإنها تحولت إلى ثنائية « كانط » ومثالية « هيردر » ، « فيخته » ، « وشليجل » ، « شلينج » ، « وهيجل » ، وقد لاحظنا فيما سبق أثر جميع هذه التغيرات على الكتابة التاريخية . هذا إلى أن نمو القومية في أعقاب الثورة الفرنسية ساعدت على إعطاء أولوية مؤقتة لتفسير التاريخ تفسيراً سياسياً وإن كانت التحولات العظيمة التي شكلت الثورتين العلمية والصناعية قد حكمت بالفناء على مثل هذه النظرة السطحية . فعمق المعرفة الحديثة وكذا الاهتمامات الفكرية أدت إلى عدد من التفسيرات للتطور التاريخي يمثل معظمها النمو الهائل لبعض الاتجاهات البارزة في المائة سنة الماضية .

وبنمو العلوم الطبيعية الحديثة وازدياد الاتجاه النافذ في تناول المعرفة قل الجهد المبذول لوضع وصياغة نظام فلسفي لنسق التطور التاريخي وعرضه وهو الجهد الذي اشترك فيه كل من « أوغسطين » و« أوتو » المنسوب إلى « فريزنج » ، « بوسويه » و« هيجل » . ويبدو أن التشكك في أية فلسفة شكلية للتاريخ كان أمراً مصاحباً لتزايد معلوماتنا عن التعقد المتناهي للظواهر الاجتماعية والتاريخية . وهذه الجهود العظيمة التي استهدفت وضع التاريخ في إطار بسيط كهذا إنما يشتم منها المنهج القائم على الإلهام والمعرفة السابقة على التجربة وهو المنهج المرفوض تماماً الآن .

وكان أن حل محل المذهب القديم لفلسفة التاريخ ما يمكن أن يسمى « تفسيرات الحقائق التاريخية » . وهذه التفسيرات تختلف عن فلسفة التاريخ الأقدم منها في عدم احتوائها على أي عنصر غرضي ليوضح الغاية والغرض منها .فضلا عن رفضها المنهج الاستقرائي . أما الهدف الوحيد لهذه التفسيرات فهو إبراز وتأكيد تلك العوامل التي تجمع مدارس التفسير المتعددة ، على أنها كانت عظيمة الأثر في إنتاج حضارات الماضي والحاضر . وبمعنى آخر فإن هدف التفسير هو محاولة إتمام بحث « رانكه » غير الهادف عما حدث في الماضي بإضافة جهد متواضع لشرح كيفية نشأة النظام الحالي . وهذا الجهد يمثل اكتمال المنهج العلمي في التاريخ ، تماماً كما تمثل صياغة القواعد العامة والقوانين في العلم الطبيعي التكملة المنظمة للمرحلة الخاصة بجمع المعلومات عن طريق الملاحظات الميدانية والتجارب العملية .

ونوجد فى الوقب الحاضر سبع مدارس محدده للتفسير البارىخى تتضح من خلال جهود ممثليها الذين درسوا الظواهر التاريخيه على نحو حدىث ، وقد أضاف كل من هده المدارس الكثير إلى معلوماتنا عن النطور التاريخى . ونظره بسيطه نلقيها على هذه المدارس تظهر أنها وإن كانت منفصلة فإنها تكمل بعضها البعض بدرجه كبيره . ويمكن تصنيف هذه المدارس كما يلى

١ ـ مدرسة التراجم الشخصيه أو نظريه (الإنسان العظيم)

٢ ـ المدرسة الروحانيه أو المثاليه .

٣ ـ المدرسه العلميه التكنولوجيه .

٤ ـ المدرسة الاقتصاديه .

٥ ـ المدرسه الجغرافيه .

٦ ـ المدرسة الاجتماعيه .

٧ ـ المدرسة التركيبيه أو النفسية الجماعيه .

وينبغى أن نذكر أن المؤرخ التقليدى يمسك إما بالنظريه المثاليه التى ترجع تطور التاريخ إلى أسباب سياسية أو بالنظرية القائلة بأن التطور التاريخى أمر لا ضابط له . ومن ثم فهو لا يخضع لأيه قوانين مؤكده .

وأشهر هذه المدارس ـ وهى الوحيدة التى أضفى عليها المؤرخون التقليديون كبيراً من الاعتبار هى تلك التى يمثلها اثنان من أبرز الرومانسيين هما « كارليل » ، و« فرود Froude » اللذان قالا بأن الشخصيات الهامه فى التاريخ هى المحاور الرئيسية فى عمليه التطور التاريخى ، بمعنى أن التاريخ ليس إلا تراجم مجمعة . وهذا الرأى يتفق إلى حد بعيد مع فكرة تفسير حدوث التاريخ فى ضوء ما يجرى من كوارث ، وهى الفكرة التى ساعت بين العقلانيين فى القرن الثامن عشر وأبرز مؤيدى هذا الرأى من المعاصرين هم : « إميل فوجيه » ، و . هـ . مالوك W.H Mallock » ، « كارل بيرسون : Pearson » ، « وليام روسكو » ، « ثاير Thayer » ، « وليام دانيخ » ، « أميل لودفيج » ، « كلود بوارز Claude Bowers » « آلان نفنز Allan Nevins » .

وفى ذلك التفسير المسمى بالتفسير الروحانى نجد صورة للنتاج المتأخر لمثالية سلنج ، شليجل » ويمثل هذا الاتجاه بحماسة بالغة كل من « رودلف اوكن Rodolph Eucken » « سلير ماتيوس Shailer Matheus » ، هـ . أ . تايلور H. A. Taylor » ، ر . و . ماكلوجن R. w. Mc laughlin » ويعرف الأستاذ « ماتيوس Mathews » هذا الرأى فى تواضع إذا نقول : « إن التفسير الروحانى للتاريخ لابد وأن يكمن فى اكتشاف العوامل الروحانية التى تتعاون مع العوامل

الجغرافية والاقتصادية فى إنتاج اتجاه عام نحو أوضاع هى فى حقيقتها شخصية وهذه الأوضاع لن توجد فى قواعد عامة متصلة بعالم الغيب وما وراء الطبيعة وإنما تبدو هذه الأوضاع فى جهود الرجال البارزين الذين عبروا عن جهودهم فى ميدان العلاقات الاجتماعية والذين كرسوا تلك الجهود لإخضاع عالم الطبيعة إخضاعاً تاماً لأجل رخاء البشريه (١) . واذا ما نظرنا إلى هذا النوع من التفسير فى ضوء هذه العبارة التى تبتعد كثيراً عن الفلسفة الاستعلائية السابقة ، فإنه يمكننا أن نحكم بأن هذا التفسير يتشابه إلى حد كبير مع نظرية الإنسان العظيم وأنه فيما يبدو يستهدف التوفيق بين هذه النظرية وبين التفسير الكلى الناقد تحت ستار اتجاه لاهوتى عام . ومن دعاة هذا النوع من التفسير د . آدمز » الذى حاول أن يربط التطور التاريخى للولايات المتحدة بعدد من المثل القومية المتعاقبة والغالبة التى لم يتم تفسير أساسها وأصلها تفسيراً كافياً . كذلك هناك « كروشcroce » ، الذى بذل جهداً للدفاع عن تفسير التاريخ تفسيرا مثاليا

أما كوندرسيه Condorcet ، فكان أول من حاول النظر إلى التقدم البشرى على أنه وثيق الصلة بالتقدم فى مجالات العلم الطبيعى والتكنولوجيا . وقد تبعه فى هذا الاتجاه وعمل على إحيائه كل من « كومت Comte » و« باكل » . وباستثناء العناية التى أولاها دارسو تاريخ العلوم أمثال « دانيمان Dannemann » ساراتون Saraton » ، « دوهم Duhem » ، « تانيرى Tannery » وغيرهم من اهتمام لهذا الجانب من تفسير التاريخ ، فإنه لقى إهمالاً مؤسفاً من جانب المؤرخين المعاصرين ، وإن كان « ف . س . مارفن » « لويس ، مامفورد » ، « لين ثورنديك » ، « س . هـ . هاسكنز » ، « أ . ولف A. Wolf » ، أ . ب . اوشر A.P. Usher وشارل سنجر Charles Singer » قد أوضحو جميعاً الآفاق الرحبة والإمكانيات الحقيقية لهذا النوع من التفسير . هذا فضلاً عن أن « لامبرخت » ، « سجنوبوس » ، « شوتويل » ، « روبنسن » ، « بريزرفدسميث » ، قد أكدوا هذا التفسير بشكل عابر فى تفسيراتهم الشاملة للتاريخ . ومع ذلك فإنه لم تتم الاستفادة من هذا التفسير بشكل كامل ، مع كونه أوسعها أفقاً . ويذهب دعاته إلى أنه ـ أى التفسير العلمى ـ يستحق أهمية أكبر من تلك التى يحظى بها التفسير الاقتصادى ، لأن الحالة السائدة للمعرفة العلمية وتفسيرها التكنولوجى هى التى تحدد أساليب الحياه الاقتصادية والنشاط الاقتصادى . وهذا الرأى هو الذى أقر « كارل ماركس » نفسه بصحته .

(١) Shailer Mathews:The Ivnterpretation of History (Harwerd press Uni 1916)

أما ما أسهمت به المدرسة الاقتصادية فى تفسير التاريخ ، وهو التفسير الذى وضع أساسه كل من « فيرباش » ، « ماركس » وتبعهما فى نفس الاتجاه عدد كبير من الكتاب اللاحقين أمثال « روجرز » ، « أشلى » ، « تونى Tawney » ، مدرسة « وب Webb » ، « هاموند) ، « شمولر» ، «جيد Gide » ، « لوريا Loria » ، « فيبلن Vebelen » ، مدرسة « سيمونس Simons » ، « بيرد Beard » « هاكر Hacker » « سيمكهوفيتش Simkhovitch » فأمر معروف لايحتاج إلى مزيد من الإيضاح وينادى أصحاب هذا المذهب ؛ بصفة عامة وفى أوضح صورة ، أن النمط السائد فى المجتمع من النظم الاقتصادية والنشاط الاقتصادى هو الذى يحدد وبدرجة كبيرة طبيعه النظم الاجتماعية والثقافية فى هذا المجتمع . وعلى الرغم مما شاب هذا التفسير الاقتصادى للتاريخ من مبالغات ، فإن أى تفسير آخر لا يدانيه إنتاجاً وأثراً .

ويتصل بهذا التفسير وبشكل مباشر التفسير الجغرافى الذى يرجع إلى عهد أبو فراط والذى يبدو فى أعمال الكتاب المتعاقبين ابتداء من « سترابو » حتى « فتروفيوس Vitruvius » « بودان Bodin » ، « مونتسكيه » ، « باكل » ، وقام بإحياء هذا التفسير وأضفى عليه صبغة علمية كل من « ريتر Ritter » ، « ريكلوس Reclus » ، « سمبل Semple » « برونهس Brunhes » ، « فالوا » ، « ديمولنس Demolins » ، « هنتنجتون » ومنذ أيام « ريتر Ritter » عنى المؤرخون التقدميون فيما عدا قلة قليلة بالوقوف على الأوضاع الجغرافيه لأى بلد من البلاد قبل محاولة كتابة تاريخه . وقد سبق أن أوضحنا أهميه ومغزى هذا الاتجاه .

أما التفسير الاجتماعى للتاريخ فإنه بدأ على يد العلامة العربى « ابن خلدون » ثم تطور على يد كل من فيكو وبيرجون وكومت وسبنسر وكان أقدر المفسرين . الاجتماعيين للتاريخ فى العصر الحديث هم «جيدنجز» « أوجيرن » ، « توماس » « هوبهوس » ، « مولرلاير » و« الفردويير » .

ويصف جيدنجز هذه النظرية ببراعة إذ يقول « إنها محاولة لتعليل أصل نشاط المجتمع فى ضوء أسباب طبيعيه وحيوية ونفسية وهى العوامل التى تشترك معاً فى عملية التطور » ويعمل علم الاجتماع باعتبار أحد العلوم الاجتماعيه على أساس التعاون التام مع علم الأجناس البشرية حيث إن كلاهما يعمل جاهداً لتفسير التكرار والتشابه فى تعليل أحداث التاريخ وتطوره .

وأحدث أنماط التفسير التاريخى وأكثرها شمولاً وأهمه هو التفسير الكلى أو السيكلوجى الجامع وهو التفسير الذى يمثل بشكل تام التاريخ الجديد . وطبقا لهذا التفسير فان نوعاً واحداً من المسببات لايكفى لتفسير كل جوانب وفترات التطور التاريخى . ولاأقل من أن تكون

السيكولوجية الجامعة لفترة ماهى التى لها من القوة ما يجعلها تتحكم فى التطور التاريخى لتلك الفترة . ولذا فإن واجب المؤرخ ينحصر فى اكتشاف وتقويم وعرض العوامل الرئيسية التى تخلق وتشكل النظرة الجماعية للحياة وتحدد طبيعة النضال الجماعى من أجل الوجود والتقدم . ولعل أحسن صياغة مختصرة لهذا الاتجاه هى أن الأحوال الفكرية العامة هى التى تحدد عادة الاتجاه السائد نحو العلم والتكنولوجيا . فالعلم والتكنولوجيا يخلقان النظم الاقتصادية ويتحكمان فيها وهذه بدورها تبنى تدريجياً مجموعة من نظم الربط أو الدفاع التى تكتسب طابعها المميز من خلفية الحياة الاقتصادية التى تستند إليها . ونظم الربط هذه هى العادات الاجتماعية وأشكال وسياسات الحكومات وأنماط التشريع والقضاء ونظريات التربية والراى العام والتعبير عن طريق الصحافة وأنماط السلوك المقبولة من المجتمع والمفهوم العام للحياة . وهكذا فإن كل عصر يضم تراث الماضى وبذور التغير بالنسبة للمستقبل ولكن أكثر العوامل حركة وهو تسرب الأفكار الجديدة عن طريق الاتصال الثقافات الخارجية . وأبرز قادة هذه المدرسة لامبرخت ، فيررو Ferrero ، تارد Tard ، ليفى بروهل Bruhl ، فولـلى Fowlli ، سيجنبوس ، دركهـايم Durkheim ، مارفن روبنسون ، شوتويل ، بيكر ، بريزرفد سميث ، راندال ، ج . ل . .هارت . ويلاحظ أن هناك اختلافات واسعة بين مبادىء ووجهات نظر هؤلاء المؤرخين على الرغم من انتمائهم جميعاً لنفس المدرسة .

التاريخ والعلوم الاجتماعية

من أعظم التطورات الحيوية فى دارسة التاريـخ تقدميـة ذلك الاهتمـام المتزايـد بالعلوم الاجتماعيه أو الدراسات الاجتماعية كما تعرف فى الأوساط التعليمية . وجاء هذا الاهتمام من جانب المؤرخين نتيجـة طبيعية لـظهور وجهـة أكثر حـركة فى مجـال كل من التـاريخ والعلوم الاجتماعية . فالعلماء الذين يشتغلون بالعلوم الاجتماعية لايمكنهم تجاهـل التاريـخ وذلك لأن المسائل المرتبطة بأصل الإنسان وتكوينه لها أهمية بالنسبة لكافة العلوم الاجتماعية فتاريخ النظم الاجتماعية والعمليات الاقتصادية وكذا تاريخ الدولة وتاريخ القانون وتـاريخ أنمـاط السلوك السائدة والمقبولة إنما هى من أكثر الجوانب الحيوية فى علوم الاجتماع والاقتصـاد وفى العلوم السياسية وعلم فلسفة القانون وعلم الأخلاق . وأية دارسة حقيقية يعتد بها لابد وأن تهدف إلى

تزويدنا بمعلومات كافية عن هذه الأمور ومن المؤكد أن كثيراً من الكتابات التاريخية فى الماضى لم تضع ذلك فى حسبانها كما أنه من المؤكد أن السعى وراء تحقيق هذا الغرض كان أمراً صعباً . ولكننا نتوقع أن عدداً أكبر من المؤرخين سوف يدركون تمام الإدراك أن عملهم سيكون غير مجد إلى حد ما إذا لم يلقوا الضوء الكافى على أصول النظم المختلفة المألوفة لنا اليوم .

وكذلك فإنه إذا كان على المؤرخ أن يصف تطور الأنماط الرئيسية من النظم فإنه لابد وأن يكون لديه معرفة كافية بالعلوم الاجتماعية التى ترتبط بتلك النظم . ومن بين الأسباب التى أدت إلى تفاهة عدم جدوى كثير من الكتابات الوطنيه لأحداث التاريخ السياسى فضلاً عن خروج بعضها عن الموضوع هى الحقيقة الخاصة بأن المؤرخين كانوا يجهلون بشكل يدعو إلى الأسف والحزن العلوم السياسية التى كانت بين أيديهم . ولو كان الأمر عكس ذلك لما أضاعوا وقتهم فى سرد الحوادث والقصص على ذلك النحو المسهب ، ولأعطوا شيئاً من الانتباه لتلك الجوانب التى تصور تطور مختلف النظم والدساتير وأجهزة الحكم ونظام الأحزاب وسائر جوانب الحياة السياسية . ولايعنى هذا بطبيعة الحال إهمال العنصر الشخصى فى التاريخ الوصفى إهمالا كلياً ، وإنما يعنى أنه ينبغى تخير الإنجازات الشخصية بشىء من الدقة والتمييز ، بحيث يكون لما يوصف بعض العلاقة بمختلف نظم الحياة ، وبحيث يصور نوعا معينا من رد الفعل بالنسبة للشخصيات . وباختصار فإنه من الضرورى بالنسبة للمؤرخ الذى يود أن يكتب كتابة طيبة عن تاريخ المجتمع والدولة والقانون أو عن الحياة الاقتصادية ، أن يكون ملماً بعلم الاجتماع والعلوم السياسية والقانون والاقتصاد ، بالضبط مثلما تتطلب الكتابة عن تاريخ علم الكيمياء بعض المعرفة عن هذا العلم ذاته . ويرجع السبب الذى عاق إدراك الحقيقة الخاصة بأن المعرفة بالعلوم الاجتماعية هى إحدى مقومات الكتابة التاريخية إلى انتشار فكرة القياس التقريبى ، والاجتهاد الشخصى فى مجالات التاريخ والعلوم الاجتماعية وهى الأمور التى لا يمكن تقبلها فى مجال العلوم الطبيعية ومن الممتع والمؤسف فى آن واحد أن نلاحظ :

١ ـ اصرار المؤرخ على ضرورة التدريب العميق الطويل فى علم المخطوطات وعلم المراسلات الدبلوماسية وعلم المعاجم ومبادىء النقد الداخلى والخارجى بقصد ضمان تقديم نصوص دقيقة وسرد سليم .

٢ ـ وفى الوقت نفسه تجاهل المؤرخ ضرورة تحقيق تدريب كاف فى مجموعة من الدراسات هى الوحيدة التى تمكن المؤرخ من أن ينظم مادته ويفسرها بطريقة حاذقة .

وأبرز الدلائل على حدوث تغير فى اتجاهات المؤرخين نحو العلوم الاجتماعية ، تشكيل لجنة للدراسات الاجتماعية فى المدارس سنة ١٩٢٩ تحت رعاية الجمعية التاريخية الأمريكية وبعد أن حصلت هذه اللجنة على مبلغ كبير من المال من مؤسسة كارنيجى بدأت فى تنفيذ برنامج هائل للبحث وأصدرت عدداً من الكتب الصريحة المليئة بالاقتراحات . وكان هذا الموقف يتناقض تماماً مع موقف المؤرخين سنة ١٩٠٣ عندما أظهروا عداءً واضحاً لحركة العلوم الاجتماعية التى عبر عنها الأستاذ فرانكلين هنرى جيدنجز فى خطاب ألقاه أمام المؤرخين بقوله ، هذه هى نظرية السببية الاجتماعية . وكان علم النفس فى وقت من الأوقات لا يعتبر واحداً من العلوم الاجتماعية ، وإنما يعتبر مجرد دراسة للعمليات الجارية فى عقل الفرد . ولكن لم يمض وقت طويل حتى ساد الاعتقاد بأن أية دراسة للعمليات العقلية الفردية لايمكن أن تكون كاملة أو مرضية إذا لم تأخذ فى الاعتبار النشاط العقلى المتداخل والتفاعل بين العقول بعضها وبعض داخل المجتمع . وأدى هذا الاعتقاد إلى نشأة فرع خاص من فروع علم النفس يركز على العلاقات بين العقول وهو على وجه التحديد علم النفس الاجتماعى .

ويستطيع التاريخ أن يستقى من علم النفس معظم المعلومات الهامة المتعلقة بطبيعة دوافع وأنماط وضوابط العقائد والتصرفات البشرية . فالعقل هو العامل الموحد والمنسق فى الفرد والمجتمع على السواء . وينبغى أن نتبين أنه يستحيل على المؤرخ أن يفهم أنماط سلوك الناس فى الماضى دون أن يكون مزوداً بقدر كاف من المعرفة عن السيكولجيه العامة للسلوك البشرى . حيث إنه لايبدو وأن ثمة تغيرات أساسية قد حدثت فى الأساس السيكلرجى للعقل ولا فى أنماط السلوك الرئيسية منذ فجر التاريخ المكتوب ، فإن سيكلوجية إنسان اليوم يمكن أن تفيد فى تحليل الشخصيات التاريخية التى عاشت فى الماضى ، فضلاً عن تحليل المواقف الجماعية . على أن هذا لايتأتى بدون معلومات وبيانات كافية . والواقع أنه لايعيب الكتابة التاريخية التقليدية أكثر من افتقارها المؤسف إلى المعرفة بعلم النفس العملى ، وهى الظاهرة التى تبدو واضحة فى معظم كتاب التراجم ، الأمر الذى ترتب عليه كثرة التفسيرات السطحية التى فسرت بها التصرفات والدوافع الشخصية . ولانبالغ إذا ذكرنا أن الترجمة التاريخية العادية لا تقل غرابة عن ترجمة فرويد لشخصية ليوناردو دافينشى ، وإن كانت الطريقة مختلفة تماماً . ويتضح تأثير علم النفس على التراجم فى كتابات ليتون ستراتشى Lytton Stratchey ، اندريه موروا Andre Maurois ، جماليل برادفور Gamaliel Bradford وغيرهم وإلى جانب مايقدمه علم النفس من معرفة

الـوصـول إلى فهم أفضـل للسلوك الشخصي ، فـإن علم النفس بـالاشتـراك مـع علم الاجتماع ـ يوضح كيف يتعدل السلوك الفردى تحت تأثير الأوضاع والاتصالات الاجتماعيـة والعادات والتقاليد .

وهذا التداخل بن التاريخ وعلم النفس ينبغى أن يكون مفيداً لكل من العلْمين ، فالتاريخ يزود المشتغلين بعلم النفس بكثير من المادة التى تصور السلوك البشرى فى الماضى من عصر الهمجية حتى يومنا هذا ، كما أنه يعطى أمثلة لكل صور الشخصية التى تهم علماء النفس ويزودهم بشىء من المساعدة من أجل التعرف على أنماط سلوك هذه الشخصيات تحت تأثير الظروف المتغيرة . وبازدياد المصادر فإننا نأمل أن يصبح التاريخ فى النهاية معملاً رئيسياً للمشتغلين بعلم النفس .

وبالقدر الذى عاش به الناس على هيئة جماعات كبيرة أو صغيرة ، نجد أن لعلم الاجتماع أو علم نشاط الناس داخل الجماعات قيمة كبيرة بالنسبة للمشتغلين بالتاريخ فهذا العلم يحاول أن يصنف ويحلل مختلف القوى الجغرافية والبيولوجية والسيكلوجية والاقتصادية التى تؤثر على مكان ما وشكل الحياة الاجتماعية فيه ، كما أنه يهدف إلى وصف وتفسير نتائج هذه الحياة الجماعية ، كما تبدو فى أنماط السلوك وفى العادات والضوابط التى توجهها النظم . وبما أن علم الاجتماع يتضمن كلاً من أسباب ونتائج الحياة الجماعية ، ولذلك فإنه العلم الاجتماعى الأساسى والوحيد الذى يمكن أن يعطى فكرة عامة عن التفاعل الاجتماعى وعن السببية الاجتماعية ككل ، ولما كان التـاريخ يهتم بـدرجة ليست ضئيلة بـوصف سلوك الجماعـات فى مختلف المواقف الاقتصـادية والسياسية والجمالية والدينية فإنه من الواضح أن دقة المؤرخ وبصيرته يزدادان لو أنه تعرف على المبادىء الأولية لعلم الاجتماع . ومن الناحية الأخرى فإن التاريخ يمكن أن يكون ذا قيمة عظمى بالنسبة لعلم الاجتماع لأنه يزوده ببيانات ومعلومات قيمة عن أى قطاع فى أى مجتمع فى عصر معين ، فضلاً عن الجوانب الحركية للتغير الاجتماعى وتبدل النظم . وإذا كان كثير من المؤرخين التقليديين ذوى الميل الأدبى يمقتون هذا الرأى الخاص بوظيفة التاريخ وعلاقته بعلم الاجتماع ، فإنه ليس هناك شك فى أن جمع المادة الخام لعلم الاجتماع الحـركى بطريقـة شعوريـة أو غير شعورية ، هو أحد الخدمات الجليلة التى يؤديها التاريخ وكلما ازداد التاريخ دقة وتمييزاً لما يتضمنه من حقائق ، كلما ازدادت اكتشافاته واستنتاجاته صلة بعلم الاجتماع . وكلما ازدادت قيمتها فى عملية تنوير الجنس البشرى والسير به قدما .

أما علم الاقتصاد فهو ينبثق عن علمى النفس والاجتماع وذلك بوصفه العلم الذى يعالج حصول الإنسان على الحاجيات المادية واستفاداته منها . فالدوافع البشرية التى تتصل بنشاط الإنسان الذى يستهدف الحصول على الثروة لا يمكن أن تفهم فهماً سليماً إلا على أساس من الإدراك الكافى للحوافز البشرية بوجه عام . وكذلك فإن العمل الجماعى من أجل الكسب المادى وزيادة الطاقة الإنتاجية ، يدعو إلى تحليل دقيق وفهم جيد للمبادىء والقوانين العامة المتعلقة بالعمل الجماعى . وإذا كنا لانستطيع أن نقبل نظرية التفسير الاقتصادى للتاريخ على علاته بمعنى أننا نرفض التسليم بفكرة الحتمية الاقتصادية الكاملة ، فإن أى شخص عاقل لا ساوره شك حول الأهمية العظمى للعوامل الاقتصادية فى المجتمع . وكان لهذه العوامل فى بعض العصور فعلاً صفة الحتمية وخاصة الفترة من سنة ١٧٥٠ حتى الآن . وعلى الرغم من أن التفسير الاقتصادى لنشأة المجتمع الحديث والمجتمع المعاصر لايتعرض لكثير من العوامل التنسويعيه ، فإنه بلا جدال أقرب إلى الحقيقة والواقع من أى تفسير آخر . وهكذا فإنه لا يمكننا بأى حال من الأحوال إنكار أو تجاهل تأثير العوامل الاقتصادية على المجتمع فى أى عصر من عصور تاريخ البشر .

وإذا كان الحال كذلك فإن المؤرخ لابد وأن يتعرض للنشاط الاقتصادى ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يكون لديه بعض المعرفة بذلك العلم الذى يبحث فى خلق واستغلال الثروة المادية . وهذا أمر ينطبق بصفة خاصة على التاريخ الحديث والمعاصر والحق أن المؤرخ الذى لا يلم بالنظريات والنظم الاقتصادية لايمكنه أن يقدم فى هذا الشأن أكثر من وصف سطحى لنظامنا الاقتصادى البالغ فى التعقيد . وبالمثل فإن التاريخ يقدم خدمات جليلة للمشتغلين بالاقتصاد ، إذ يضع بين أيديهم العوامل التى تحرك التطور الاقتصادى ، ليس فقط فى العصور الحديثة بل فى العصور القديمة أيضاً . فعلى سبيل المثال نجد أن معهد الدراسات الشرقية فى شيكاغو كشف حديثاً عن معلومات كثيرة خاصة بالأسعار والضرائب فى حقبة طويلة من التاريخ الاسورى ولهذه المعلومات أهمية كبيرة للمشتغلين بعلم الاقتصاد والمؤرخين الاقتصاديين . وكان أعظم ماأسهمت به مدرسة الاقتصاديين التاريخية فى ألمانيا هو إصرارها على فكرة ما للنظم الاقتصادية من طبيعة متغيرة ونسبية ، وهى الفكرة التى كانت بمثابة رد الفعل لما اتصفت به المدرسة الكلاسيكية من جمود عقائدى . والواقع أن النظريات الاقتصادية فى مجموعها تعتبر تفسيراً وتبريراً للأنظمة الاقتصادية المختلفة . وهذه النظريات نفسها ليست إلا مسائل نسبية ، فالتاريخ فى الماضى كان يتصف بسطحية مذهلة وبعدم وضوح الرؤيا لأنه أهمل الحياة الاقتصادية وركز اهتمامه على سرد الأحداث

الهامة والخطيرة ، مما جعله لايعنى إلا قليلاً بصغائر أمور الحياة اليومية . ومن بين الأشياء الهامة بالنسبة للاقتصاديين المهتمين بأصول الدوافع والنظم الاقتصادية تلك المادة التى وردت فيها أنتجه تلاميذ كليو من أبحاث ودراسات . وعلى الرغم من أن المعلومات المتوفرة لنا فى الجانب التاريخى قد تكون غير كافية ، فإنه من المتعذر أن نفهم الحياة الاقتصادية الحاضرة فهماً كاملاً دون الرجوع إلى الماضى ، أى بدون الاستعانة بما يقدمه التاريخ من معلومات هو وحده الذى يملكها . هذا إلى أن التاريخ يزود الاقتصاديين فى كثير من الحالات بأمثلة مفيدة توضح العلاقة بين النظم الاقتصادية وغيرها من النظم الأخرى . وقد أكد جوزيف دورفمان صحة ما أوردناه من مبادىء عامة حول هذا الموضوع فى كتابه الرائع « الفكر الاقتصادى فى الحضارة الأمريكية » .

أما العلوم السياسية أو علم الدولة وأجهزتها ووظائفها فهو أيضا من العلوم التى لابد وأن تقام على علمى النفس والاجتماع ، لأن أسس الولاء السياسى لايمكن اكتشافه وتفهمه إلا من خلال دراسة سيكلوجية الخضوع والعادات المرتبطة بالقيادة والمحاكاة والانصياع للنظم كما تتمثل فى ردود فعل المواطنين نحو الدولة ، مما يتطلب هو الآخر تدخل المشتغلين بعلم الاجتماع ، لكى يمكن تفسير الجذور الأساسية التى تشكل تلك العادات . هذا إلى أن الحياة فى المجتمعات السياسية لا يمكن تفسيرها دون فهم الطريقة التى تطورت بها الحياة الاجتماعية وكيف نشأت الدولة تدريجاً من النظم الاجتماعية الأولى . وقد أقر المؤرخون بما فيهم أولئك الذين ينتمون إلى المدرسة السياسية التقليدية أهمية العلوم السياسية بالنسبة لأى فرع آخر من العلوم الاجتماعية . وبينما ركز غالبية مؤرخى القرن الماضى البارزين اهتمامهم على أوجه النشاط فى المجال السياسى ، فإن قلة منهم هى التى تمكنت من العلوم السياسية المنهجية ، ومن جملة هؤلاء المؤرخين القانونيين والدستوريين وتيز ، برونر ، فلاشن ، فيوليت Viollet ، ميتلاند Maitland ، فينوجرادوف ، آدمز ، وهم الذين اهتموا فعلاً بتتبع تاريخ التطور السياسى . ولكن أغلب المؤرخين اكتفى كما ذكرنا بسرد الأحداث التى وقعت فى حياة رجال السياسة والدبلوماسيين . ومع ذلك فإن المؤرخ السياسى الذى يسير اليوم على منهج علمى يدرك تماماً أنه لمن السذاجة أن يحاول بأحث علاج النظم السياسية قبل التزود بمعلومات كافية عن طبيعة المبادىء السياسية والأشكال الرئيسية للنظم السياسة . وكذلك نتج عن طول فترة اتباع المنهج السياسى فى التاريخ أن غدا فى وسع المؤرخ أن يزود عالم السياسية بمعلومات عن أصل مادته أكثر مما يستطيع أن يزود المشتغل بأى علم اجتماعى آخر . ولكن حدث لسوء الحظ أن كثيراً من التاريخ السياسى ، الذى كتب فى الماضى كان على

درجة عالية من الإثارة والتركيز على الأحداث والقصص بحيث صار الجزء الأعظم منه قليل الفائدة من الناحية العملية .

وما يقال عن العلوم السياسية ينطبق بنفس القدر على القانون . فالقانون ليس إلا تعبيراً عن الإرادة الجماعية كما يعبر عنها كيان الدولة . ولما كان جزء كبير من كتابات المؤرخ السياسى التقليدى ينصب على معالجة موضوع التشريع ، فإن هذا المؤرخ لم يرتض لنفسه أن يكون جاهلاً بعلم القانون . وفى الوقت نفسه فان دارس القانون يمكنه أن يتحاشى عقم القانون الطبيعى ، والمدارس التحليلية إذا ما تمكن من إدراك مغزى أهمية الوقوف على أصل الإنسان وطبيعة نشأته وتطوره .

وأخيراً نتطرق إلى علم الأخلاق فنقول إنه مع أن السير على منهج تاكيتوس ، شلوزر ، لورد أكتون بالنسبة لإصدار أحكام حاسمة على شخصيات التاريخ على أسس أخلاقية شخصية بحتة لم يعد من مهام المؤرخ ، فإنه من الأفضل للمؤرخ أن يلم بالطرق التى يتم بها وضع وتطبيق معايير السلوك البشرى . ومما يؤسف له أن علم الأخلاق لم يصل بعد إلى المستوى الذى وصلت إليه علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة من ناحية الإنجازات الثابتة المؤكدة ، لأن كل ما تم فى مجال هذا العلم فى الماضى بلا استثناء يكاد يكون عديم القيمة ، لسبب بسيط هو أن مقومات العلم البيولوجية والسيكولوجية الاجتماعية وعلم الأجيال الوصفى لا وجود لها . وهكذا فإن ما بدا وكأنه علم للسلوك كان مجرد تخمين وكلام غير قائم على التجربة . وفى معظم الحالات نجد أن هذا العلم لم يتعد كونه دفاعاً عقلياً عن التعصب العقائدى والتحيز والعقد عند الكاتب المعين . ولكن بظهور كتابات أمثال ليترنو Letourneau ، راتزل ، سمر Summer ، وستر مارك Westermarck ، هوبهوس Hobhouse ، كروبوتكن Kropotk دخل علم الأخلاق عهداً جديداً ، إذ ظهرت مادة فى وصف الأجيال عظيمةالفائدة لما تحويه من تعدد اللوائح الأخلاقية وجذورها . هذا إلى أننا نجد فى أعمال ستيفن . دوبرات Duprat ، اليس Ellis ، ديوى ، هيز Hayes ، جروفز Groves ، جيلفر Gilver ، تافتس Tuftes ، دريك Drake وغيرهم محاولة لبناء النظرية الأخلاقية على حقائق مستمدة من علمى النفس والاجتماع . ويتضح هذا الاتجاه الجديد كذلك فى الهجوم على قواعد الفلسفة الاستشرافية والبيورتيانية التى بدت فى كتابات شو Shaw ، ومنيكن Mencken ، جود Joad ، الدوس هكسلى Aldovs Huxley وتلاميذتهم حيث نلمح فجراً جديداً لعلم السلوك . والواقع أنه من الخير للمؤرخ أن يظل على دوام الاتصال بهذا

العلم . وساعد المؤرخون وتلامذتهم المشتغلين بعلم الأجيال الوصفى مساعدة قيمة وذلك بتزويدهم بمعلومات قيمة عن مختلف أنماط السلوك التى سادت بين البشر . ولكن خدمات المؤرخين فى هذا المجال جاءت أقل مما كان ينبغى أن يكون ، إذ قلما اهتم المؤرخون بالسلوك والعادات ، فضلا عن أنهم لم يكونوا فى العادة موضوعيين عندما تناولوا السلوك الخلقى ، إذ كانوا يحكمون على السلوك بمعايير مصطنعة بدلاً من معالجته بطريقة غير عاطفية . يضاف إلى هذا أن المؤرخين طالما تمسكوا بالمبدأ الأخلاقى البروتستانتى البيوريتانى فى نظرتهم إلى الأخلاق بوصفها ظاهرة ترتبط بالجنس والجنس وحده . ثم كان أن توافرت مادة قيمة ليست شديدة الارتباط بالحماسة المسيحية فى مؤلفات ليكى ، ميارز ، ماك كيبMc. Cabe ، وغيرهم . وهناك أعمال عديدة للمؤرخين تناولت تاريخ السلوك فى عصور مناطق معينة على الرغم من أنه لا يوجد جهد منظم لإنشاء قسم خاص للدراسات التاريخية المتعلقة بتطور أنماط السلوك المتعددة وعلاقاتها بمفاهيم الجنس والملكية والترفيه والنظرة العامة إلى الحياة .

أحدث المناهج فى أسلوب تعليم التاريخ ودراسته

على الرغم من أن الجانب الرئيسى فى التقدم الذى طرأ على الكتابة التاريخية منذ عهد رانكه يبدو فى اتساع نظرة المؤرخ ، إلا أن هناك نواحى تحسن هامة فى الجوانب التقليدية القديمة من التطور . ففى المقام الأول نجد أنه على الرغم من أن مدارس البحث لم تأت بشىء جديد يذكر لم يتضمنه منهج رانكه ، ألا أن هناك أوجه تحسن هامة طرأت على مجال كل من النقد التاريخى وطرق تدريس التاريخ منذ أيام رانكه . هذا إلى أن المبادىء الرئيسية للنقد التاريخى هذبت كثيراً ونظمت فى تلك المؤلفات الممتازة التى وصفها برنهيم Bernheim، ولف Wolf، لانجـو Langois، سيجنبوس Seignobos، وغيرهم حتى أصبح المبتدىء فى الدراسة فى هذا المجال يجد تحت تصرفه أبحاثاً طويلة للمدارس التاريخية وطرق تدريس التاريخ . كذلك هناك فهارس كاملة بأسماء كتب التاريخ الخاصة بدول متعددة ، وصفها كل من بيتو١ Peatow، لانجلو Langlois، مولنير Molinier، مونود Monod، دهلمان ويتز Dahlman Waitz، جروس Gross، وليامز ، شاننج ، هارت ، ترنر Turner. وقد أضيفت إليها قوائم حديثة تضم كل الأعمال التى جدت فى هذا المضمار والتى ظهرت فى المجلات الدورية التاريخية التخصصية . وهكذا يستطيع طالب التاريخ

أن يلم بكل ما كتب فى مجال تخصصه . ومن أدق الكتب وأشملها التى ترشدنا إلى الحصيلة الهائلة لمصادر التاريخ القومى والدينى التى جمعت فى خلال القرن التاسع عشر تلك التى وضعها بوثاست Potthast، شيفاليه Chevalier، جروس Gross وغيرهم .

ويستطيع طالب التاريخ فى عصرنا هذا أن [illegible] فى دقائق قليلة يقضيها فى أى مكتبة كبيرة مصادر للتاريخ كانت تكلف الباحثين فى الأجيال الماضية شهورا من البحث المضنى غير المثمر . يضاف إلى ذلك أن الأرشيفات ودور الحفظ الخاصة والعامة على السواء فتحت أبوابها على نطاق واسع أمام الباحثين فى التاريخ وذلك منذ أيام الحرب العالمية الأولى ، وبخاصة بعد أن حدثت ثورة حقيقية فى اللوائح منذ سنة ١٩١٨ . هذا إلى أننا فى بعض الأحيان نجد كتبا إرشادية خاصة بهذه الأرشيفات أعدت بكل عناية وينبغى ألا ننسى ما حققه البحث التاريخى من زيادة كبيرة فى الدقة والكفاية والسرعة ، نتيجة لاستخدام الفهارس المعدة على بطاقات ونظام الحفظ وفى الملفات والمذكرات غير المنشورة والمشروعات المتقنة المتضمنة إعداد فهارس مزودة بالإحالات . وأروع من ذلك كله الوسائل الخاصة قبل تصوير الوثائق ونقلها على الميكروفيلم مما ساعد على اتساع نطاق توزيع وتبادل وحفظ الوثائق مما لا يعرضها للخطر .

ولا يقل التحسن الذى طرأ على مهنة التدريس فى التاريخ أهمية عن التقدم الذى حدث فى الحرث وسائر المساعدات الآلية الأخرى . فتحت اشراف وتوجيه الأساتذة المدربين ، أمكن خريجو أقسام التاريخ ــ مهما يكن من أمر مقدرتهم المحددة فى التأليف ــ أن يقدموا معلومات أكثر دقة فى مجال التاريخ من خلال أبحاثهم ووسائلهم العلمية الدقيقة ، أكثر مما فعلت فى الماضى مجلدات كثيرة عالجت التاريخ . وبوجه عام لم يطرأ سوى تغييرات طفيفة على الشكل الخارجى لتدريس التاريخ فى الجيل الأخير ومازالت طريقة المحاضرة وحلقات البحث تستخدم على نطاق واسع فى كل مراحل التعليم العالى . ولعل أهم تجديد حدث فى هذا المجال هو تطبيق الطريقة التى تسمى طريقة المشروع ، وهى التى تقوم على أساس فكرة أن تدريس التاريخ فى العصور السابقة ينبغى أن يوجه أساساً لتوضيح علاقة الماضى ، بالمشكلات الرئيسية للحاضر وتأثيره عليها . وعلى الرغم مما يمكن أن تنزلق إليه هذه الطريقة من مبالغة وتشوبه فإنها ــ إذا استخدمت بحذر ــ تضفى نوعا من الحيوية على دراسة التاريخ وتدريسه ما تعجز معه أى طريقة أخرى ومع ذلك فإنها لم تحظ بتقدم كبير فى الجامعات والكليات حيث استطاع الأساتذة أن يقاوموا أى اتجاه يقلل من قيمة التاريخ بدعوى جعله عمليا ومفيدا بدرجة أكبر فى تعليم الجنس البشرى وتوجيهه .

وعلى الرغم من أن أحداً لا يشك فى أن علم التاريخ قد أفاد كثيراً من النشاط المنظم والتعاونى الذى شهده مجال تعليم التاريخ فى الجامعات ، إلا أنه كسائر أشكال الجهد المهنى المنظم لا يخلو من جانب سلبى مؤسف . وأهم ما نلحظه فى هذا الشأن هو أن النظام الجامعى لتدريس مادة التاريخ يعرقل تقدم وانتشار المفاهيم الجديدة المتعلقة بطبيعة التاريخ وغرضه وأهم وأنجح الطرق لتدريسه . ويرجع هذا الموقف بصفة أساسية إلى الحقيقة الخاصة بأن الثورة العظيمة فى موقف العلماء من التاريخ ، كانت إلى حد كبير من عمل الشباب فى حين أن المؤرخين القدامى القائمين بالتدريس الآن كانوا قد أتموا تدريبهم وتعليمهم قبل حدوث هذه الثورة . وهكذا يجد المؤرخون الشبان أنفسهم قائمين بالتدريس فى أقسام يرأسها فى كثير من الحالات مؤرخون ذوو آراء ومعتقدات عتيقة ويبجلون تلك الآراء ويحترمونها ، مما يضطر الشباب فى كثير من الحالات إلى كبت آرائهم التاريخية غير التقليدية الخاصة بطرق تدريس التاريخ وتفسيره .

ومن بين الأمور التى استغلت فى تعجيز المدرسين التقدميين ذلك الإشراف الحثيث على أنواع الدراسات والمناهج التى يقترحونها ، مما يجعل من المستحيل إدخال كثير من المادة المستخدمة . ولكن بمرور الزمن سوف يتم معالجة هذا الموقف . وإنه لشىء له مغزاه أن نجد معظم الرجال الذين صاغوا أو يقومون بصياغة التاريخ الجديد لا يشتغلون بتدريس التاريخ فى الجامعات . وهناك جانب آخر لعملية فرض فضائل المحافظة والثبات على المؤرخين التقدميين من الشباب ، وهو ما يحدث من تفضيل أصحاب الذوق السليم من ذوى الآراء التى تنزل التاريخ منزلة رفيعة ، وتعطيه قدرا هائلا من الاحترام وذلك عندما تقدم الجمعيات التاريخية منحها الدراسية . وموقف التعليم الجامعى من مادة التاريخ ليس موقفاً فريداً إذ إنه يشبه ما يحدث فى كافة مجالات التعليم الأخرى ، فمنذ أيام ابيلارد والنجاح الرسمى يكون من نصيب أولئك الذين لا يأتون بأفكار جديدة مزعجة ، والذين يتقبلون الأوضاع كما هى ، أو أولئك الذين كان لديهم من الكفاءة واللباقة ما يمكنهم من تطبيق تلك القاعدة المفيدة الملائمة التى أخذها ديكارت عن أوفيدو والتى تقول «إن الذى يستطيع أن يخفى أفكاره بنجاح هو الذى يحيا كأحسن ما تكون الحياة .»

التكنولوجيا الحديثة والمستحدث فى كتابة التاريخ

من أروع وأبرز التطورات الحديثة فى ميدان التاريخ ما نجم عن جوانب متعددة من التكنولوجيا الجديدة . ومعظم هذه التطورات يتعلق باستخدام وسائل أكثر شمولاً وسرعة لتصوير الأحداث التاريخية مثل الصحف والإذاعة والصور المتحركة خاصة الحربية الناطقة .

فالصحيفة الحديثة تقدم عرضاً شاملاً للتاريخ الجارى المحلى والقومى والأجنبى على السواء ، وهى تعرض الأحداث للقارىء بعد وقت قصير جدا من وقوعها . ففى خلال أربع وعشرين ساعة يمكن للقارىء المعاصر أن يعرف عن شئون العالم الهامة من خلال صحيفة ، أكثر مما كان يمكن معرفته فى سنة كاملة فى وقت الحرب الأهلية الأمريكية . يضاف إلى ذلك أن اختراع الصور المرسلة بالراديو قد ساعد على تعزيز الأخبار بصور حية للأحداث والشخصيات . ومن الممكن الاعتماد نسبيا على المعلومات الصحفية . وعلى الرغم من السرعة المطلوبة من المراسلين مما يضطرهم إلى اختيار الأخبار قبل أن يتم صفها فى أعمدة الجريدة . وندين بهذه السرعة للتقدم التكنولوجى الهائل الذى حدث فى عالم الطباعة فضلاً عن الوسائل التى تساعد على إرسال المعلومات بسرعة والعمل المنظم الخاص بجمع الأخبار ، وهو الذى تقوم به وكالات الأنباء مثل الينويتدبرس والاسشيتدبرس وغيرها من تلك الوكالات التى ينتشر مراسلوها فى كل أرجاء العالم ، ويقفون على أهبة الاستعداد لكى ينقضوا كالصقور على كل ما يمكن أن يكون خبراً . وهكذا نتبين أن مؤرخ الشئون الجارية يجد تحت تصرفه أداة كاملة على درجة عالية من الكفاءة هى الصحيفة الحديثة ، وهذا أمر لم يتوفر لسلفه الذى عاش وكتب منذ قرن مضى . وحتى إذا لم يجد مؤرخ الشئون الجارية وقتا كافيا لتصفيف وترتيب ما يجده من معلومات فى الصحف ، فلا أقل من الرجوع إلى المجلات الأسبوعية التى تقوم بذلك العمل نيابة عنه حيث إنها تنهض بمهمة تفسير الأخبار اليومية بطريقة عارضة .

وتعتبر مجاميع الصحف فى الوقت الحاضر من أخصب مصادر المعلومات التى يستخدمها مؤرخو العصور التى تبدأ من الوقت الذى أصبحت فيه الصحف أداة هامة لجمع الأخبار . ويسوقنا هذا إلى مسألة الدقة النسبية للصحافة والتاريخ الرسمى . فكثيراً ما يستخدم المؤرخون عبارات مثل مجرد صحافة أو مجرد صحافى لوصف كثير من الانتاج والشخصيات الصحفية . ومع ذلك يمكن

الاعتماد على الكتابة الصحفية الجيدة بقدر الاعتماد على السرد التاريخى الذى ينسخ منها ، لأن الصحافى المدرب تدريباً جيداً يستطيع أن يجمع وينظم مادته بما له من خبرة طويلة فى الملاحظة السريعة والتسجيل الدقيق ، وبما له من خلفية وبصيرة وأساليب متخصصة تمكنه من أداء واجبه أداء ناجحاً كاملاً . ومن ثم فإن إنتاج مثل هذا الصحافى فى الظروف العادية يمكن أن يكون نقلاً أميناً للأحداث . وحتى فى وسط ظروف الاضطراب العام ــ كتلك التى تعقب الحروب العالمية ــ نجد أن الصحافى لا يزيد عن المؤرخ المحترف وقوعاً تحت رحمة العواطف . وهذا الإنتاج الصحفى يوضع فى ملفات أو مجلدات ويحفظ فى مكتبات الصحف ، حتى إذا ما مضى جيل أو نحو ذلك اتجه المؤرخون إلى هذه المجلدات يقلبون صفحاتها بعد أن يكون لونها قد اصفر بفعل الزمن . وينسخون ما شاء لهم النسخ ويعيدون كتابة ما يريدون من مادة وهكذا وعلى المدى البعيد يجد المؤرخون أمامهم خليطاً هائلا يمثل خلاصة جهود مئات المراسلين الصحافيين . واذا كان المؤرخ يمتاز بقدرته على إلقاء نظرة فاحصة على ما تتضمنه الصحف من أحداث ، وهى نظرة تفوق نظرة الصحافى كما أنه يستطيع مقارنة ما ورد فى الصحف المختلفة عن الحدث نفسه أو الموضوع ، فإن النتائج التى يتوصل اليها فى النهاية لا يمكن أن تكون أكثر دقة من المصادر التى استخدمها .

على أنه إذا كان للمؤرخ نظرة أفضل إلى الأحداث ، فإن للصحافيين بعض المزايا الخاصة أهمها أنهم شهود عيان للأحداث ، فهم أخصائيون فى فن مشاهدة الأحداث وأنهم يعيشون وقت وقوعها ويلمون تمام الإلمام بالإطار العام الذى يحيط بالأحداث التى تتضمنها تقاريرهم وتحقيقاتهم الصحفية . أما المؤرخ فإنه يظهر على المسرح بعد ذلك بكثير ولذلك فهو يفتقر إلى ذلك الاتصال النفسانى بالشعوب والأحداث المعينة . ولا يمكن أن يكون له أكثر من اتصال غير مباشر وبعيد بالقضايا والشعوب والأحداث التى يسعى إليها جاهداً لوضعها . وهكذا يبدو أن الصحافى المدرب يمتاز عن المؤرخ إذا ما قورن الاثنان من الموقع نفسه الذى يقف عنده كل منهما ولا يمكن لنظرة المؤرخ الأبعد فى مداها الزمنى أن تميزه وحدها عن الصحافى . لهذا كله فإن من العدل أن نقول إن التاريخ الذى يعتمد على الصحافة لا يمكن أن يكون دقيقاً ويمكن الاعتماد عليه مثل الصحافة المعاصرة الجيدة ذاتها .

ويمكننا أن نصور ميزة الأساليب الصحفية تصويراً أفضل إلى أولئك الصحافيين الذين تحولوا إلى مؤرخين مثل الأستاذ آلان نيفنز Allan Nevins (من جامعة كولومبيا) وهو الذى كان لعدة سنوات صحفياً بارزاً ولم يقدره المؤرخون المحترفون تقديراً جيداً ، إلا بعد أن أصدر عدداً من

المؤلفات التاريخية الممتازة ضمته إلى صفوفهم ، حتى أصبح يعتبر بحق وعن جدارة علماً بارزاً من أعلام المؤرخين . وقد ظل بين منصب أستاذ الصحافة فى جامعة كولومبيا ومنصب الصحافى فى صحيفة نيويورك ورلد Newyork World. وشبيه بحالته حالة الأستاذ هانز توهن .

وتعزز الجريدة السينمائية الناطقة العمل الصحفي ، حيث إنها من أسرع الوسائل لعرض الأحداث التاريخية فى صورة مرئية أمام ملايين الناس الذين يشاهدونها كل أسبوع فى إطار جذاب ، دون أن يبذلوا أى جهد ذهنى ويتجه المؤرخون فى الوقت الحاضر إلى السينما لتقديم العرض المسرحى التاريخى لا للأحداث الجارية فحسب ، بل إنهم يستخدمونها أيضاً فى عملية النقل الأمين للأحداث التى مضى عليها الزمان .

أما المذياع (الراديو) فقد دخل حديثاً إلى الميدان كوسيلة لنشر الأخبار نشراً سريعاً وقد ساعدت الإذاعة بدرجة كبيرة على نقل الأخبار العالمية فور حدوثها . وأحسن تصوير لفاعلية الإذاعة فى مجال نشر الأخبار هو ذلك الخبر الخاص برحلة أدميرال بيرد Byrd عبر القطب الجنوبى سنة ١٩٣٠ حيث استطاعت صحيفة نيويورك تايمز عن طريق محطتها اللاسلكية الخاصة فى نيويورك أن تعرف كل شىء عن مغامرة بيرد بمجرد أن علم بها رفاقه . وقد التقطت هذه المحطة رسالة بيرد التى بعث بها من طائرته إلى القاعدة التى أقلع منها . هذا إلى أن نشرات الأخبار التى تذاع مراراً كل يوم من محطات الإذاعة تنقل أنباء الأحداث المحلية والعالمية إلى ملايين الناس . دون الحاجة إلى خروجهم من منازلهم . ولا نجد فى البرامج الإذاعية مثل برنامج عملية الزمن March of Time عرضاً للتاريخ الجارى فحسب ، بل نجد أيضاً نقلا أمينا لأحداث التاريخ فى الماضى . واستمع مئات الملايين من الناس فى الإذاعة إلى مراسم الاحتفال بتتويج الملك جورج السادس وبعد ذلك بست عشرة سنة شاهد عدد أكبر من الناس على شاشة التليفزيون الاحتفال بتتويج ابنه .

وبدأت الجمعية التاريخية الأمريكية أخيرا ترعى برنامجاً إذاعياً تاريخياً . وإنه لشىء ممتع أن نلاحظ فى هذا الشأن أن التاريخ ــ وهو الذى بدأ فى صورة سرد شفوى وجزء من الحكايات الشعبية ــ يعود الآن ولو بشكل جزئى إلى طريقة التناقل باللسان . وعندما يحدث فى المستقبل تصوير عمليات اختراق الحدود وبدء الحرب وتصوير عملياتها وعمل تسجيلات صوتية لها ، فإننا سنتمكن على نحو أبعد مما وصلنا إليه فعلاً من حفظ الحقائق التاريخية ، مما يتيح للمؤرخين فرصة إعادة تصويرها .

وفى سنة ١٩٣٠ كتب كارل بيكل Carl Bickel مدير وكالة اليونيتدبرس آنئذ يقول « إن إدارة قرص أو مفتاح سوف يمكنك وأنت فى حجرة جلوسك أن تسمع وترى سباق كنتاكى . وأن تشاهد بوضوح المباريات الرياضية بل من أن تدور حول العالم وتحضر العروض المسرحية وتشاهد الأوبرات ، والولائم الكبرى وأن تجلس فى قاعة الكونجرس فى واشنطن وأن ترى استقبال طائرة فى أفريقيا وعندما كتب بيكل هذا التنبؤ بدا للناس غريبا كغرابة رحلة القمر ولكن كل ذلك وأكثر منه قد أصبح اليوم شيئا عادياً فى كل بيت به جهاز للتليفزيون .

وكذلك أحدثت التكنولوجيا ثورة هائلة فى طريق الحصول على معلومات عن الحضارات القديمة ، فطريقة البوتاسيوم ارجون تجعل من الممكن تحديد عمر البقايا حتى مليونى سنة مضت كما أن المسح الجوى يجرى قبل البدء فى عمليات التنقيب الهامة عن الآثار . والحق أن كثيراً من مواقع الآثار الهامة تكتشف فى أثناء الاسنطلاع الجوى . ومن ناحية أخرى فإنه حدث تقدم هائل فى عمليات الحفر ذاتها بعد أن حل الحفار البخارى محل الجاروف ، مما جعل العمل أكثر سهولة ونظافة وسرعة . وبالمثل فإنه يمكن أخذ صور جوية للآثار التى يتم الكشف عنها بالحفر وهذا يساعد بدوره على رسم صورة أكثر اكتمالاً ودقة للإنجازات فى ميدان الدراسات القديمة والآثار . وكان آخر مشروع تاريخى قام به المرحوم هنرى بروستيه هو جمع وعرض صور جوية لآثار الشرق الأدنى القديم .

وخلاصة القول أنه إذا كانت التكنولوجيا قد خلقت للمؤرخ عالماً اجتماعياً جديداً عليه أن يتناوله بالبحث فإنها أسدت إليه خدمات جليلة وساعدته فى معالجة الكثير من المشكلات التاريخية من عهود الحضارات القديمة فى أرض ما بين النهرين ويوكافان فى أمريكا الوسطى حتى آخر الأحداث فى القرن الحالى .

المراجع :

A HISTORY OF HISTORICAL WRITING
SELECTED REFERENCES

Robinson, The New History.
Shotwell, An Introduction to the History of History, chap. xxvii.
H.E. Barnes, Historical Sociology, Philosophical Library, 1948.
Tbe New History and the Social Studies.
H.E. Barnes and Howard Becker, Contemporary Social Theory. Appleton-Century, 1940.
Social Tbought from Lore to Science, Vol. II.
E.C. Hayes, ed., Recent Developments in the Social Sciences. Lippincott, 1927.
W.F. Ogburn and Alexander Goldenweiser. Tbe Social Sciences. Houghton Mifflin, 1927.
Pendelton Herring, Tbe Social Sciences in Historical Study. Social Science Research Council, 1954.
H.M. Parshley, Science and Good Bebavior, Bobbs-Merrill, 1928.
E.P. Cheyney, Law in History and other Essays. Knopf, 1927.
Dray, Laws and Explanations in History.
Patrick Gardiner, Tbe Nature of Historical Explanation. Oxford University Press, 1957.
Harlow Shapley, of Stars and Men. Beacon, 1958.
White, Tbe Evolution of Culture.
Jacques Barzun, Rate, A Study in Supersitition.
R.G. Hoxie et al., A History of the Faculty of Political Science, Columbia University. Columbia University Press, 1955.
B.F. Hoselitz, ed., A Reader's Guide to tbe Social Sciences. Glencoe Free Press, 1959.
Paul Tillich, Tbe Interpretation of History. Scribner, 1936.

Muzzey, Essays in Intellectual History Presented to James Harvey Robinson.
V.F. Calverton, ed., The Making of Man. Modern Library, 1931.
Goldenweiser, History, Psychology and Culture.
F.H. Hankins, The Racial Basis of Civilization. Knopf, 1926.
MacCurdy, Human Origins.
Grahame Clark, World Prehistory. Cambridge Univ. Press, 1961.
R.V.D. Magoffin and E.C. Davis, The Romance of Archeology. Holt, 1929.
Stanley Casson, The Progress of Archeology. McGraw-Hill, 1935.
C.R. Knight, Before the Dawn of History. McGraw-Hill, 1935.
J.C. McDonald, Chronologies and Calendars. London, 1927.
Franklin Thomas, The Environmental Basis of Society. Century, 1925.
Seligman, The Economic Interpretation of History.
R.W. McLaughlin, The Spiritual Elements in History. Abingdon Press, 1926.
C.A. Beard, A Charter for the Social Sciences in the Schools. Scribner, 1923.
,The Nature of the Social Sciences. Scribner, 1934.
P.V.N. Myers, History as Past Ethics. Ginn, 1913.
R.M. Tryon, The Social Sciences as School Subjects. Scribner, 1935.
Paul Klapper, The Teaching of History. Appleton, 1926.

الفصل الخامس عشر

التاريخ الجديد ومستقبل الكتابة التاريخية

اعتبارات تمهيدية

سنحاول فى هذا الفصل أن نعرض تقيبماً متفقاً عليه للتاريخ الجديد وأن نجمل البرنامج المقترح له والآمال المرجوة منه ونوضح ما ينبغى عماه لكى يزدهر هذا العلم وينمو . ومهما يكن من عيوب هذا العرض فإن ذلك أمر له أهميته نظراً لأن التاريخ الجديد لا يمكن أن يغرس بطريقة غير هادفة أو غير معتن بها ، فنحن لابد وأن نعرف ما نريد تحقيقه وكيف نتوصل إليه بنجاح .

وأول ما يواجهنا فى هذا الصدد هو ذلك التساؤل الذى أثاره بلباقة وقوة الأستاذ كارل بيكر عند استعراضه كتابا للمؤلف بعنوان « التاريخ الجديد والدراسات الاجتماعية » فى مجلة Saturday Review Literature فى عددها الصادر يوم الخامس عشر من أغسطس سنة ١٩٢٥ . وانصب تساؤل الأستاذ بيكر على طبيعة التاريخ الجديد ومجاله ومدى انطباق صفة « جديد » عليه . وهناك اعتقاد عام بأن التاريخ الجديد يعنى ذلك النوع من الكتابة التاريخية الذى يطرح جانباً المفهوم الذى يرى أن خير ما يناسب التاريخ هو أن يكون علاجاً « للسياسات الماضية » يقوم على أساس اختيار الأحداث وشرحها . وقد جرى الاصطلاح على أن يقصد بالتاريخ الجديد طريقة العرض التاريخى التى تحاول بصفة عامة أن تعيد صياغة تاريخ الحضارة ككل بوصفه على حد قول الأستاذ روبنسون كل ما نعرفه عن كل شيء فعله الإنسان أو فكر فيه أو أمل فيه وأحس به . ويعتبر هذا المفهوم للتاريخ الجديد كافيا ودقيقا على وجه العموم ، ولكن الشيء الجوهرى فى هذا الموضوع هو المفهوم القائل بأن التاريخ الجديد هو اتجاه للبحث عن الأصل Genetic Orientation .

ويحمل هذا المفهوم الموسع والمنقح لمجال التاريخ وعمله فى طياته متطلبات رئيسية ، وهى على وجه التحديد نوع من التدريب يمكن المؤرخ الطموح من أن يقوم بأعباء مهنته فى ثقة ونجاح . ولابد أن يشتمل هذا التدريب الموسع فى المحل الأول على إلمام كامل بطبيعة الإنسان وعلاقاته ببيئته الطبيعية والاجتماعية الأمر الذى يمكن المؤرخ من معالجة مشكلة صعبة ، هى إعادة صياغة الأوجه المختلفة لتاريخ الحضارة . كذلك لابد وأن يعد المؤرخ لتحليل التطور فى النظم ، وهو التطور الذى يحفظ سجل سيطرة الإنسان تدريجياً على بيئته المادية ونجاحه المضطرد فى تنظيم الجهود التعاونية لبنى جنسه . وبمعنى آخر فإن على هؤلاء الذين يتطلعون إلى العمل فى مجال التاريخ الجديد ، أن يكونوا مزودين بأساس من علم الأحياء وعلم الأجناس البشرية وعلم النفس وعلم الاجتماع . كذلك فإن عليهم أن يتدربوا تدريباً خاصاً فى العلوم الاجتماعية وفى بعض فروع العلوم الطبيعيه وعلم الجمال وهى الفروع التى تتصل بهذا الجانب أو ذاك من الكتابة التاريخية التى ينوون الاشتغال بها[1] .

وسوف نناقش فى جزء لاحق من هذا الفصل ما ينبغى إعداده للاستفادة الكاملة من التاريخ الجديد . ولكن يجدر بنا فى البداية أن نصر على حقيقة أن أفكارنا الجديدة عن طبيعة التاريخ لا تتطلب امتداداً بعيداً لمدى اهتمامات المؤرخ فحسب ، وإنما تتطلب كذلك توسعاً شاملاً فى الإعداد اللازم الاشتغال فى هذا المجال اشتغالاً يوحى بالثقة ويحظى بقيمة ثابتة . ولقد نادى البعض بأن كل ما يلزم لكتابة التاريخ الجديد هو تغيير القلب بمعنى أن على الفرد أن يغير من عقله إذا أراد أن يتحول من معالجة أصول الحلف المقدس أو انقسام حزب الأحرار إلى تحليل الصراع الطبقى فى العصور القديمة أو تاريخ العلم الطبيعى فى العصور الوسطى ، أو تحليل نفسانى لشخصية فولتير ، واقتصاديات النظام القارى ، أو تطور النظام القضائى الحديث ، أو التقدم فى علم الطب منذ سقوط المدرسة الأبوقراطية . وجاء فى الأسفار المقدسة أنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يزيد قامته ذراعاً واحدة بمجرد الشروع فى التفكير[2] فى ذلك ويمكننا أن نقول باطمئنان إنه من الصعوبة بمكان أن يحول الفرد نفسه من راوية تقليدى إلى مؤرخ للثقافة أو النظم وذلك بمجرد إمعان المفكر .

(١) ناقش المؤلف هذه النقطة بالتفصيل فى كتابه ، التاريخ الجديد والدراسات الاجتماعية .

(٢) انجيل متى الاصحاح السادس ، (المراجع) .

فالتاريخ الجديد يتطلب شيئين معاً : برنامجاً جديداً بمضمون التاريخ ومجموعة جديدة من المؤهلات اللازمة للاشتغال بالتاريخ .

هذا عن مجال التاريخ ، ولكن ماذا عن شرعية نعته بصفته جديد ؟ الواقع أنه لا يمكن أن يكون هناك شيء جديد أو فريد حتى فى اتساع مجال التاريخ وتعديه دائرة الأحداث السياسية . فأول عمل تاريخى شامل . وهو الذى وضعه هيرودوت تحت عنوان تاريخ الحرب الفارسية كان كما رأينا فى التاريخ الثقافى وفى كل عصر من العصور التى أعقبت عصر هيرودوت كان هناك كتّاب تعدى اهتمامهم بالماضى مجرد الحملات العسكرية والصراع بين الأحزاب والجماعات ، حتى ولو اقتصر نشاطهم على ذكر المعجزات التى جاء بها قديس أو الشرور التى جلبها ساحر . أما الشيء الجديد حقاً فى التاريخ الجديد من ناحية الموضوع ، فهو ازدياد قبول المفهوم الموسع للتاريخ فى العصر الحالى . ففى الأزمنة الماضية كان الكتّاب الذين يتناولون تاريخ الثقافة أناساً منعزلين ، يتعرضون لعدم التقدير . أما اليوم فإن الغالبية العظمى من المؤرخين الشبان الذين آمنوا باتساع مجال التاريخ الجديد ، فضلاً عن أن بعض مؤيدى الكتابة التاريخية التقليدية بدأوا يستسلمون للاتجاه الجديد أو بدأوا على الأقل يجاهرون بالتراجع ، وهو أمر يدعو للابتهاج والغبطة ، وأكثر أهمية من مجرد تحول تسعة وتسعين فى المائة من الشباب إلى الاتجاه الجديد . فانتصار وجهة النظر القائلة بالتطور والاتجاه نحو البحث عن أصل الإنسان ، وهى النواحى التى تتطلب من المؤرخ أن يكون مهتماً أساساً بتبيان كيفية مجيء النظام الحالى إلى الوجود يعتبر شيئاً جديداً وفريداً حقاً وهو يمثل التاريخ الجديد فى أبهى صوره . ولم يكن فى تاريخ هيرودوت من هذا القبيل سوى النزر اليسير .

وأصبح هناك بالنسبة للمفهوم الخاص بالإعداد الأولى اللازم لدراسة التاريخ وكتابته أمور جديدة لا خلاف حولها . ذلك أن الاعتقاد السائد حتى عصر فون رانكه هو أن الطموح الأدبى والأسلوب السليم يؤهلان أى فرد كى يضع نفسه على قمة التاريخ بصورة ناجحة . وكان على الرغم من ذلك قلة من الكتاب أمثال بولبيوس ، مابيلون ممن أصروا على تدريب المؤرخ تدريباً خاصاً وتزويده بمؤهلات معينة لابد من توافرها فيه . وكما أن أوضح رانكه ومن أتوا بعده أنه لابد من إعداد الفرد قبل أن يشتغل بالتاريخ وذلك بتدريبه تدريباً طويلاً على مبادىء نقد الوثائق وعمل الفهارس التاريخية . أما الرأى القائل بأن المؤرخ لابد وأن يلم إلماماً كاملاً بالعلوم الاجتماعية فهو اتجاه حديث نسبياً . ولم تصل هذه العلوم ذاتها إلى المستوى الذى يجعل مادتها

أساساً يعتمد عليه فى قوة الإدراك والتحليل التاريخى إلا حديثاً . ولم يتم التوصل إلى فكرة اعتماد التـاريخ عـلى العلوم الاجتماعيـة قدر اعتمـاده على العلوم السيـاسية والـديبلوماسيـة وعلم المخطوطات إلا فى وقت متأخر جداً . ونخرج من هذا كله بأن أكثر الأجزاء جدة وأصالـة فى الكتاب الذى أحدث ثورة كبرى والمعروف بالتاريخ الجديد للأستاذ روبنسون هو ذلك الفصل بعنوان « حلفاء جدد للتاريخ » وهو بيان واضح للنظام التاريخى الجديد . فالتاريخ الجديد يعتبر جديداً من حيث قبوله مجموعة أوسع وأكبر من اهتمامات معظم المؤرخين ، كما أنه جديد كذلك من حيث اتجاهه إلى البحث عن أصل الإنسان وإقراره ضرورة إعداد المؤرخ إعداداً شاملاً يمكنه من أداء مهنته بكفاية ونجاح .

بعض ملامح انتصار التاريخ الجديد

جاء تطور التاريخ الجديد فيما يبدو نتيجة لعوامل وتأثيرات عديدة مختلفة . فهناك فى المقام الأول عدد من الكتاب جمعت اهتماماتهم الفردية بين الشغف العميق بالماضى والنظرة إليه من زاوية أكثر اتساعاً من زاوية السياسة الديبلوماسية والاستراتيجية العسكرية أو من هؤلاء ويلهلم ريهلWilhelm Riehl الذى كان قاصاً خيالياً اهتم بالتاريخ القومى فى ماضيه ، وكذلـك فر Freytag الذى تناول التاريخ ببصيرة خلاقة نفذت إلى ماضى تاريخ بلده . أما بيركهاردت فإن اهتمامه بالتاريخ جاء فى صورة تقدير واستحسان للأعمال الفنية فى العصر الذهبى للفن الإيطالى . وأظهر كل من فولتير ورينان واندرو د. هوايت حباً يعكس حب العقلانيين الجارف بالحقائق المتعلقة بالتحرر الفكرى للجنس البشرى . وتطلع جرينGreen بروح حساسة وعقلية مثقفة للوصول إلى صورة أكثر دقة للأساس الاجتماعى لعظمة بلده . وأخيرا فإن ماكماسترMc Master أخذ الاهتمام بالتاريخ عنده صورة تقدير مهندس عملى الفكر للطبيعة الملحة لقصة التطور القومى كما تصوره مصالح كل الطبقات وحياتها .

أما التأثير القوى الثانى فجاء نتيجة لافتراض التطور وعلى الأخص اهتمام علماء الأحياء بمسألة أصل الإنسان . ذلك أن علماء الأحياء ــ كما أوضح ذلك الأستاذ روبنسون مراراً ــ هم الذين علموا المؤرخين مبدأ التطور والاتجاه نحو البحث عن الأصل ، وهو أمر لابد وأن يعتبر

حجر الزاوية للجوانب الأكثر حيوية من التاريخ الجديد[1] . ويعزى الاهتمام الكبير من جانب مؤرخ التاريخ الجديد بكيفية تطور الأمور ووصولها إلى ما هى عليه أساساً إلى تأثير فلسفة التطور على العقلية التاريخية الأكثر تفتحاً وتقبلاً لكل ما هو جديد . وهكذا نرى أنه لمدة ثلاثة آلاف سنة ظل المؤرخون بعيدين عن وجهة النظر التاريخية إلى أن جاء العلماء الطبيعيون وزودوهم بها . هذا على الرغم مما أمسك به مقدم دير القديس بطرس وتيرجو وكوندورسيه فى القرن الثامن عشر من خيوط ضئيلة لعلم يتناول التغيير الاجتماعى .

وجاء الاهتمام بتتبع أصول الأشياء فى وقت كانت الحضارة تموج بتغيرات ثورية بفضل التحول العلمى والتكنولوجى والاقتصادى العظيم . وهكذا لم يعد إيضاح تطور الثقافة والنظم يعنى مجرد التاريخ الدستورى وتطور الأحزاب وأصول المشكلات والمنازعات الدبلوماسية أو سلالة الأسر الحاكمة ، بل أصبح لابد من أن يشمل أموراً عديدة أخرى مثل اختراع المولد الكهربائى والتخدير الجراحى ، والمقايضات العالمية واشعاعات الراديوم ، وعلاج الزهرى والصحة العقلية ، والاختراعات الميكانيكية ونظام المصانع وآلة الاحتراق الداخلى ، وعملية بسمر فى صناعة الصلب وفن الطباعة ، وغير ذلك من الإنجازات التى لم تشغل قط فكر فريمان وهو الذى كان يعتد بما يعرف . وبمعنى آخر فإن الباعث على اكتشاف النظام الحالى جاء فى وقت لم تعد الحضارة السائدة فيه كما كانت من قبل تظهر متنكرة خلف جهود بعض السادة الذين يناضلون من أجل امتيازات اقتصادية أو هيبة سياسية أو قوة يحافظون بها على أنفسهم على حساب أولئك المساكين مسلوبى الإرادة الذين كانوا يشكلون الجيوش النظامية الثابتة لحكام مطلقين زاد أو قل كرمهم . وعن اتجاه البحث عن الأصل نجم اهتمام بتاريخ الحضارة .

وكان أن حدا منهج البحث عن الأصل وهو المنهج الذى تتبعه الدارسون الأذكياء إلى السير قدماً نحو الخطوة التالية والأخيرة فى تطور التاريخ الجديد ، وهى على وجه التحديد تفسير التطور التاريخى بطريقة تمكن من اكتشاف ما لتحول الحضارة وأصول النظم الاجتماعية من أهمية

(١) يجب أن يكون واضحاً أن تعليم وجهة نظر البحث عن الأصل من قبل علماء الأحياء وغيرهم من العلماء الطبيعيين كان تعليماً فى معظمه غير مباشر وغير مقصود وقليل من العلماء الطبيعيين هم الذين طبقوا مبادىء علمهم على الظواهر الأخيرة . وعندما يصل الأمر للمواد الاجتماعية نجد العلماء فلما يتحمسون بنفس الاتجاه وغالباً ما يكونون جامدين أو حتى رجعيين . وكان المرحوم هنرى برهفاند بورن خير مثال فى هذا الشأن (المؤلف) .

ومغزى . ولم يعد المؤرخون المحدثون يهتمون بـاكتشاف إرادة الله أو المصـير النهائى للجنس البشرى من واقع سجلات الماضى ، كما فعل السابقون الذين نظروا إلى التاريخ على أنه فلسفة تلقن عن طريق سرد الأمثال . ومع ذلك فإنه لابد من أن نقر بأن أهم أحداث الماضى هى التى لها شأن فى توجيه الأجيال الحاضرة أو المستقبلة . يضاف إلى ذلك أن القيمة الحقيقية للتاريخ فيما يمكن أن يقدمه عون مادى يساعدنا على التوصل إلى فهم أفضل لحضاراتنا ، ومن ثم إلى السيطرة عليها وإعادة توجيهها .

ومن أبرز الشخصيات التى أوضحت الدوافع المتعددة التى انبثق عنها التاريخ الجديد . نذكر أسماء كارل لامبرخت ، هنرى بير ، جيمس هارفى روبنسون ف . ت تيجارت ، ف . س . مارفن ، ارنولد توينبى ، والسيرج . أ . هامرتون .

أما مذهب لامبرخت فقد جاء وليد اهتمامه بعلم الأجناس البشرية ، وباتجاهات ونـدت Wundt السيكلوجية ومحاولة كومت Comte تفسير التقدم البشرى تفسيراً سيكلوجياً فضلاً عن الثقافة الشخصية الواسعة التى امتدت من التطور الاقتصادى إلى تاريخ الموسيقى . ومهما يكن حكمنا على مذهب لامبرخت وصيغه التاريخية فإن عمله كان أول الأشياء التى أثارت على نطاق واسع ذلك الجدل الذى انتهى بالانتصار المؤكد للتاريخ الجديد .

ولم يقتصر هنرى بير على الكتابة عن الجوانب النظرية للتركيب التاريخى ، ولكنه كما رأينا من قبل ـ أشرف على إصدار سلسلة عظيمة تحت عنوان تطور البشرية ، وهى التى كان الغرض منها فعلاً التوصل إلى هذا التركيب . وتكمن أساس نظريته فى وجهة نظره الاجتماعية عن التطور فى النظم ، ورغبته فى تقديم اتجاه علمى فيما يتعلق بالسياسة التاريخية ، ووضع منطق للتركيب التاريخى من وجهة نظر عالية . وكان حرياً بهذا كله أن يجعل مفهومه الخاص بالتركيب التاريخى يمتد جنباً إلى جنب مع دراسة تاريخ الإنسانية ككل .

أما جميس هارفى روبنسون فإنه على عكس لامبرخت ، وبير . ولم يخرج تيحارت بأى مذهب خاص يتضمن مبادىء نظريته فيما يتعلق بالتاريخ . وجاء تحوله إلى التاريخ الحركى تحولاً تدريجيا ويجد المؤلف تفسيراً لذلك فى الحقيقة الخاصة بأن روبنسون كان إنسانا فعلا يبحث عن الحقيقة دون ملل أو كلل . وما التاريخ الجديد إلا تاريخ متميز بغزارة الفكر . وقد تجلت بداية انفصال روبنسون عن التاريخ التقليدى فى نظرته الأصبلة إلى الثورة الفرنسية حيث وجد نفسه يعود إلى الوراء بحثاً

عن أصل الإنسانية . وعبر هو نفسه عن ذلك بقوله إنه فى العشرين سنة التى أعقبت وظيفته الأولى محاضراً فى جامعة بنسلفانيا انتقل من الاهتمام بزالق السياسة الحديثة إلى المادة الفطرية الأولى التى نشأت منها الحياة ذاتها . كذلك فإنه تأثر بدرجة كبيرة بالاتجاهات الثورية التى تسعى للبحث عن أصل الحياة والإنسان . التى نادى بها علماء الأحياء .وازداد اهتمامه بمغزى التطور التاريخى بازدياد تحسن فهمه لكيفية تطور الفكر والثقافة . وهذا هو الذى جعله يتحول إلى الرأى القائل بأهمية تفسير مادة التاريخ . وتعزيز أهمية وعظمة الدور الذى لعبه روبنسون فى حركة التاريخ الجديد فى الولايات المتحدة إلى ماحظيت به مؤلفاته الدراسية من قبول ورواج ، فضلا عن نجاحه كأستاذ فى أحد معاهد الخريجين الكبرى فى بلده وقدرته العظيمة على الإقناع بوصفه من دعاة الاتجاهات الجديدة ، هذا فضلا عن كثرة أتباعه وإخلاصهم له وصمودهم فى الدفاع عن آرائهم .

وليس هناك بين كافة كبار الكتاب الذين عالجوا موضوع المناهج والاتجاهات الجديدة فى التاريخ من حرم من التقدير مثلما عانى الاستاذ تيجارت . فعلى الرغم من أنه يأتى بلا جدال فى مقدمة الكتاب الذين عالجوا الأساس النظرى للتاريخ الجديد فى الولايات المتحدة ــ إن لم يكن العالم كله ــ إلا أنه ظل مجهولا وانعدم تأثيره خارج دائرة تلاميذه القلائل . ويرجع ذلك إلى تفضيله للعمل المستقل وإنكاره لأهمية مافعله معظم الآخرين ورفضه ربط نفسه بأولئك الذين نجحوا فى إرساء قواعد التاريخ الجديد .

ولم يكن ف. س. مارفن مؤرخاً محترفاً وإنما كان فيلسوفاً اجتماعياً مستنيراً ذائع الصيت ، ومع ذلك فإنه فعل الكثير من أجل إثارة الاهتمام بالتاريخ الجديد فى انجلترا ودفع عجلة تطويره وعلى أساس من إيمانه بواقعية التقدم وبمعرفة العلم والتكنولوجيا الهائلة فى تحقيق الرخاء البشرى ، والحاجة إلى علاقات دولية سليمة ؛ وضع مارفن سلسلة الكتب المعروفة بسلسلة الوحدة ، بالإضافة إلى ما كان قد ألفه من كتب أهمها « الماضى الحر » . وكان لهذا الجهد المرموق أكبر الأثر فى تعزيز موقف التاريخ الجديد . أما برنامج توينبى ونظريته الخاصة بمقارنة قيام وسقوط الحضارات فقد تحطمت على صخرة افتراضاته اللاهوتية المتطرفة التى جعلت عمله الضخم عملاً روحانياً أكثر منه تاريخياً . ونهض السير ج. أ. هامرتون بدور هام فى وضع حركة التاريخ الجديد قدماً من خلال عمله كناشر : وأشهر كتبه هو ذلك الذى أسماه التاريخ العالمى للعالم وهو الذى ظهر سنة ١٩٣٣ فى ثمانية مجلدات ويعتبر أقيم المطبوعات فى مجال التاريخ الجديد فى انجلترا .

وأخيراً فإن التاريخ الجديد لقى حديثاً تأييداً مدهشاً فى إيطاليا حيث بدت بشائره فى كتاب طالما كثر النقاش حوله هو عظمة روما واضمحلالها كما أنه لاقى تأييداً كبيراً من الفيلسوف البارز بندتوكروز. وقد سار المؤرخون الإيطاليون من أصحاب النزعة التقدمية وراء زعيمهم كواردو بارباجلو ــ الذى ألف واحداً من أعظم الكتب عن تاريخ الحضارة ــ وأنشأوا لهم فى سنة ١٩١٧ مجلة بارزة أسموها « المجلة التاريخية الجديدة » Nouva Revista Storica .

برنامج التاريخ الجديد

ساد اعتقاد فى وقت من الأوقات بان من لديه قليلا من المعرفة يمكنه أن يكون مؤرخاً إذا ما تمكن من نسخ بعض الكتابات والنقوش المدونة على الأحجار فى إحدى المقابر المحلية أو من كتابة مقال عن كليو باترا يقرؤه أمام ندوة محلية للحياكة . وهناك بين المؤرخين والمفكرين التقدميين فى يومنا هذا من يندد بأى جهد يبذل لتحديد مجال التاريخ بل ويشجعون كل من يقحم نفسه فى هذا المجال يتناول أية مشكلة تاريخية تروق له .

ويبدو لنا أن هذا الاتجاه لا يمكن أن نقبله بأى حال إلا إذا اعتبرنا كل شخص يقوم بخلط المساحيق طبيبا أو كل من زود نفسه بسكين حاد ينبغى أن يشجع على ممارسة الجراحة بل إنه حتى التاريخ فى الماضى ــ الذى لم يتعد مرحلة سرد الأحداث والقصص ــ كان يعانى من افتقاره لمنهج البحث السليم . وسيكون هذا هو وضع التاريخ الجديد إن لم يكن هناك اتفاق عام حول برنامجه وحول التدريب اللازم لتحقيق ما يرجى منه . ويحتاج الآن إلى اتفاق ووحدة وتعاون بالضبط كما هو الحال فى مهن أخرى كالطب والمحاماة والهندسة .

وللتاريخ الجديد فيما يتعلق بمجال اهتماماته برنامج شامل وذلك بحكم تعريفه بأنه تسجيل لكل ما حدث فى الماضى دون استبعاد أى شىء حدث فى الماضى بحجة أنه غير تاريخى بالمعنى الحرفى ، أو غير ذلك من الحجج . ولكن ليس معنى هذا أن تكون هناك لا مبالاة تامة أو فوضى عامة فالحقيقة الخاصة بأن المؤرخ الجديد يقرأ الطبيعة التاريخية ككل ما حدث فى الماضى ابتداء من تعاويذ البدائيين وعادات التزين عند زوجات سليمان إلى اختراع الآلة البخارية إلى نسيج الفراش الذى كان يتمدد عليه واشنطون بجسده الفارع ، وهو فى طريقه من فرجينيا إلى

ماساشوست كل هذا لا يعنى أبداً أن المؤرخ الجديد يطالب بأن يعطى قدرا متساويا من الاهتمام لكل هذه الأمور أو أنه يعتقد فى أنها متساوية الأهمية . ومما لا شك فيه أن الإنسان يأتى بنتائج طيبة إذا ما عمل فى الحقل الذى يفضله ويهتم به . فإذا ما أراد الفرد أن يكون مؤرخاً وكانت لديه حماسة كبيرة لتتبع تطور الاستراتيجية البحرية فى سويسرا فإنه ينبغى أن يشجع علـى ذلك . ولكنـه لا ينبغى أن يعتبر ذلك العمل على قدر مساو من الأهمية مع الدراسات المتعلقة بالثورة الصناعية ، أو مع الأبحاث الخاصه بتاريخ العلم الحديث . ومعنى هذا أنه لابد من أن يكون هناك قدر من حسن الإدراك فتتحدد الأهمية النسبية للمادة التاريخية بطبيعة الفترة التى تقع فيها ثم بمدى انعكاسها على الحياة المعاصرة . وفى كل من الحالتين يعتمد هذا التحديد بشكل مباشر وعملى على الغرض الماثل فى دهن الكاتب . وأما المهمتان الرئيسيتان للتاريخ الجديد فهما :

١ ـــ تصوير وإعادة بناء الحضارات فى العصور الرئيسية فى العصور الماضية تصويراً إجمالياً .

٢ ـــ تتبع جذور الثقافة والنظم الحديثة .

وتتحدد فى المهمة الأولى من هاتين المهمتين الأهمية النسبية للجوانب المتعددة للثقافة البشرية بما كان لها من مكانة واقعية فى العصر الذى نريد تصويره . فإذا أردنا على سبيل المثال أن نصور حضارة عصر بركليز ، فإن المعيار الذى نقيس به أهمية الأحداث والاتجاهات ينبغى أن يكون من واقع عصر بركليز نفسه وليس من عصر المؤرخ . وهذه الحقيقة هى التى تجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل على أستاذ ورع للتاريخ فى كلية من الكليات الدينية فى كانساس يتصف بالتدين والطهر والجحود والافتقار إلى الإحساس الجمالى أن يصور فى مهارة حضارة عصر الإسكنـدر أو أوغسطس . ذلك أن هذا الأستاذ سوف يصدم بالمعايير الجنسية عند الإغريق والرومان قدر اصطدامه بانعدام وجود مدارس الأحد أو القوانين التى تحرم الخمر وتفرض قيوداً على التدخين . وهذا هو أحد الأسباب التى جعلت المؤرخين المسيحيين يرسمون صورة مشوهـة عن الثقافـة الوثنية . إذ لا يمكن لعصر كان جل همه أن يعد الناس لكى يموتوا موتاً هادئاً آمنا من أن يقدر أو يستحسن حضارة كانت فلسفتها تهتم بتعليم الناس كيف يحيون حياة سعيدة .

ومن ناحية أخرى فإن علاج المهمة الثانية من مهام التاريخ الجديد وهى على وجه التحديد تتبع تطور السمات المميزة للحياة المعاصرة ونظمها يتطلب معياراً لقياس الأهمية النسبية للجوانب المختلفة للثقافة بما يتفق مع العصر الحاضر فالدين مثلا كان من أهم خصائص العصور الوسطى وكان دون شك أكثر أهمية من العلم ، ومع ذلك فإن من وجهة نظر الحضارة المعاصرة نجد أن تاريخ

العلم فى العصور الوسطى أكثر أهمية من دراسة الحياة الدينية فى تلك العصور . إذا كان علينا أن نعطى صورة حقيقية للحضارة الهيلينية ككل ، فإن علينا أن نختص المنجمين بقدر من العناية أكبر بكثير من تلك التى نخصها للفلكيين ، ولكن إذا كنا نهتم أساساً بتوضيح أصول الحضارة المعاصرة ، فإن أعمال اريستاركوس Aristarchus وهيبار كوس Hyparchusتكون أكثر أهمية من أعمال كافة منجمى العصور الوسطى الكلاسيكية جميعها . وإذا كان علينا كذلك أن نعطى صورة حقيقية للاهتمامات الفكرية فى حركة الإصلاح الدينى البروتسناتية فإننا نحتاج إلى التركيز على مسائل التبرير بالإيمان ، أكثر من التركيز على الآراء الاقتصادية المعارضة لكل من لوثر وكالفن وغيرهما من زعماء تلك الحركة . ومع ذلك فإنه من ناحية تطور ثقافة اليوم يبدو أن ابتعاد البروتستانت عن الآراء والعادات الاقتصادية الخاصة بالكاثوليك ، كان أمراً أعظم وأكثر أهمية من كافة المشكلات الدينية فى ذلك العصر بأكمله . فروجر بيكون كان يبدو فى نظر رجل العصور الوسطى شخصية تنتمى إلى تلك العصور فى اهتماماته ونشاطه ، ولكنه لا يبدو كذلك للمؤرخ الباحث فى أصل الإنسان لأنه يجد أن أبرز جوانب شخصية بيكون هى البصيص الضئيل من الجدة وإشاراته العابرة لفضائل طريقة الاستقراء والتجربة والملاحظة وتلميحاته الخاصة بالاختراعات الميكانيكية فى المستقبل .

وتكفى هذه الأمثلة القليلة لتوضيح أن الأهمية العلمية للأحداث التاريخية والظواهر الثقافية ليست أمراً مطلقاً ، وإنما هى ذات أهمية مزدوجة ، بل ربما كان لها أكثر من أهمية واحدة . ذلك أن كل حقيقة من حقائق التاريخ لها أهميتها النسبية من النواحى التالية :

١ - أهميتها فى العصر الذى كانت جزءاً منه

٢ - انعكاسها على جذور الثقافة المعاصرة .

وليس هناك باحث فى التاريخ يستطيع أن يتناول المشكلات التاريخية دون أن يدرك تماماً حقيقة تلك الأهمية النسبية للمادة التاريخية ودون أن يوجهه الغرض الماثل فى ذهنه هو . وثمة اعتقاد ساد بأن المؤرخ الواحد يستطيع أن يضطلع بكلتا المهمتين أى أن يعيد تصوير وبناء حضارة ما وفى الوقت نفسه يوضح علاقتها بالعصر الحاضر . ولكننا نشك فى صحة ذلك الاعتقاد لأن التباين فى الأهمية النسبية بالنظر إليها من هذه الزاوية أو تلك من زاويتى الاهتمام يحتمل أن يؤدى إلى تشويه خطير لهذا الجانب أو ذاك من جوانب العمل ذى الوجهين إن لم يكن للجانبين معاً .

كذلك لابد من أن يكون واضحاً أنه إذا كان الفرد مهتماً بأصول حضارة لا ينتمى إليها ، فإن معيار الأهمية النسبية للمادة ينبغى أن يتمثل فى صلة هذه المادة بالحضارة التى يجرى البحث عن أصولها . وهكذا فإن الوضع بالنسبة للمؤرخ الذى يبحث عن أصول الحضارة الإغريقية يكون الاهتمام بالمعلومات التى لديه عن مصر بقدر ما لها من مشاركة وصلة بالحضارة الهيلنية ، أكثر من اهتمامه بالحضارة المصرية فى حد ذاتها .

وقد يشكو البعض من أن هذا المقياس لاختبار أهمية المادة التاريخية أمر نسبى وعملى ويتساءلون عما إذا كان هناك مقياس آخر مطلق مثالىّ . وفيما يبدو ليس هناك مثل هذا المقياس المطلق ، وكل ما هنالك حقاً هو أنه فى التحليل الأخير نجد أن قيمة المادة التاريخية فى شرح حضارتنا المعاصرة تعلو أية قيمة أخرى بها .

وتقودنا هذه المناقشة الموجزة لأبعاد واهتمامات المشتغل بالتاريخ وفق نهج المدرسة الجديدة ، كما يقودنا هذا العرض المبسط للمعيار ذى الوجهين لاختيار أهمية المادة التاريخية بطريقة طبيعية إلى مشكلة تنظيم المادة التاريخية فى ضوء المفاهيم والاتجاهات الجديدة .

والواقع أن الأمر كان بسيطاً فى الأيام الغابرة عندما وجد هيكل للتاريخ السياسى والعسكرى واعتبر هذا الهيكل دائماً يكفى تماما ليكون إطاراً عاماً لنظْم الملحمة الكاملة للبشرية ، ولكن مفاهيم التاريخ الجديد كان لها من التأثير الهدام ما اتصفت به المدرسة التاريخية القديمة من بساطة بدائية ، مثلما كان لعلوم الطبيعة الفلكية والتطور البيولوجى ونقد الكتاب المقدس على ما اتصف به إيمان الآباء ومعتقداتهم المبسطة التى تبعث على الراحة والطمأنينة . وعلينا الآن أن ندرك أن الأحداث السياسية لا تكفى إطلاقاً لتشكيل البناء الكامل للتاريخ فحسب ، بل لا توجد مجموعة واحدة من الأحداث أو الحقائق التاريخية يمكن أن تستخدم لتنظيم المادة التاريخية . ذلك أنه لا يوجد مفتاح واحد يحل لغز السببية فى التاريخ . وقد يبرز فى بعض الأحيان عامل أو آخر يحظى بأهمية كبرى . ولكن لا يوجد هناك سبب أو تأثير واحد كانت له صفة الدوام على طول التاريخ البشرى بأكمله .

ويمكن القول بشكل نسبى وعام أن سلسلة السببية التاريخية إنما تسير على النحو التالى تقريباً : لدينا عاملان دائمان نسبياً فى التاريخ هما الطبيعة الأصلية للإنسان والبيئة الجغرافية لمنطقة معينة . ولكن هذين العاملين ليس لهما صفة الجمود التام ، لأنهما يرتبطان بعوامل مؤثرة أخرى

بحيث يتغير تفاعلهما بصفة مستمرة فى طبيعتهما ومداهما . فالطبيعة الأصلية للإنسان فى تفاعلها مع لون معين من ألوان البيئة الجغرافية تؤدى إلى نظرة خاصة للحياة . وهذه النظرة شأنها أن تتحكم بدرجة عظيمة فى مدى انبثاق وتطور العلم والتكنولوجيا . ثم إن المستوى التكنولوجى يحدد طبيعة الحياة الاقتصادية التى يمكن أن توجد فى أى عصر أو إقليم . هذا فى حين أن النظم الاقتصادية تتجه لترك أثر قوى إن لم يكن فاصلاً فى تكييف النظم والعناصر الثقافية الأخرى : « الاجتماعيـة والسياسية والقضائية والدينية والأخلاقية والتربوية والأدبية » .

على أن هذه فى الحقيقة مبالغة فى تبسيط العملية التـاريخية ، لأن السبب والأثـر ينشطان ويتفاعلان بصفة مستديمة . فعلى سبيل المثال نجد أن عدداً قليلاً من الاختراعات الميكانيكية مثل الطباعة أو الطرق الحديثة لتبادل المعلومات قد تحدث تغييراً فى حياة الإنسان من شأنه أن يسبب تحولاً كاملاً فى السيكلوجية السائدة لأى عصر ونؤكد مرة أخرى أنه فى بعض الأحيان قد تكون هناك عوامل سيكلوجية وثقافية معينة لها من القوة ما يكفى لعرقلة ما تفرضه المزايا الاقتصادية والرخاء المادى . وهكذا نرى أن نسيج التطور التاريخى شائك ومعقد ، وأن المؤرخ الذى يستطيع أن يحل مشكلات السببية التاريخية فى أى عصر بذاته دون أن يستعين بتفسير عالمى مقبول للتاريخ البشرى يكون مؤرخاً عظيماً حقاً .

وسوف يجد بعض من هم على قدر من اليقظة ما يمكنهم من ملاحظة انهيار الدعامة السياسية ـــ التى كانت تسند ظهر المؤرخ المجتهد ـــ شيئاً من العزاء فى فكرة أنه إذا تعذر علينا استخدام الأحداث السياسية كإطار للأعمال التاريخية ، فإننا يمكننا على الأقل أن نركز على الكيان القومى وأن نكتب قصة تطور الثقافة الفرنسية والإيطالية والثقافة الأسبانية وغيرها . ولكننا هنا نجد أنفسنا مرة أخرى وقد جردنا الحياة من بهجتها وذلك أن مفهوم التاريخ القومى بأكمله ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالأسطورة الرومانسية القائلة بالعبقرية القومية . وعندما ننظر إلى التاريخ من وجهة نظر تطور الثقافة والنظم يصبح واضحاً لنا أنه لا يمكن أن يوجد شىء اسمه التاريخ القومى . فتغير الأسر الحاكمة والسياسة الحزبية والدسائس الديبلوماسية ، يمكن أن تعرف أنها أدوار قومية على الرغم من أنها ليست كذلك من الناحية العملية . أما تطور الثقافة والنظم فلم ولن يمكن أن يكون مسألة قومية بحتة .

ولا يقل غرابة عن كتابة تاريخ بحث للثقافة الفرنسية أو الألمانية مجرداً من كل شىء آخر ، التفكير فى كتابة تاريخ للسيارات أو الطباعة أو المجهر من زاوية قومية . ويجد الباحث إرضاء

لفضوله التاريخي في دراسة تلك الجوانب من الثقافة ذات الأصل العالمي وكيفية نموها أو تقييدها داخل هذه الدولة أو تلك . والواقع أن أي تاريخ قومي للثقافة سيكون حتماً شيئاً تافهاً مصطنعاً إذا ما قورن بدراسة الأصول الثقافية دراسة لا تعترف بوجود حدود مصطنعة فرضتها طموح الأسر الحاكمة أو الحرص الاقتصادي .

وهكذا يتضح أننا نستطيع الاستمرار في دراسة الجوانب القومية في الثقافة ولكننا بالتأكيد لا نستطيع دراسة التطور القومي للثقافة . فالتاريخ القومي سوف يهوى إلى عالم النسيان في ظل التاريخ الجديد بدرجة لا تقل عن التاريخ السياسي ، وذلك إذا اعتبرناه الأساس الذي بني عليه تنظيم وعرض الحقائق التاريخية . وقد اعتبرت الأمة في يوم من الأيام كياناً سياسياً . ثم جاء رينان ، زانجويل ، زيمرن Zimmern وغيرهم فأنكروا ذلك الأساس واعتبروا الأمة وحدة ثقافية وربما كان علينا أن نذهب خطوة أبعد من ذلك ونصف الأمة بأنها وهم ثقافي مضلل أو نوع من البلاهة الثقافية . ولهذه الاعتبارات السابقة مغزى أعمق بالنسبة للمهتمين بمشكلة القومية ومسائل الحرب والسلام ولكننا لا نستطيع الخوض في هذه الأمور في هذا الفصل .

وإذا كان المؤرخ المبلبل الفكر الذي ينتمي إلى المدرسة القديمة الذي أبعد عن معقله السابق ـــ وهو الإطار السياسي للتاريخ والطريقة القومية في التبويب ـــ سيحتمي بالتقسيم التقليدي للتاريخ إلى قديم ووسيط وحديث . إلا أنه كما سبق أن أوضحنا سوف لا يهتم دعاة التاريخ الجديد بأن يعطوا ذلك الحل من اعتبارهم أكثر مما أعطوا لنظرية السببية التاريخية والاتجاه القومي في التاريخ إن لم يكن أقل .

ومن الواضح جيداً أن أي تاريخ يبنى ببساطة على تسلسل عدد من السنين الرئيسية يكون عديم الأهمية على الإطلاق . فصفة الاستمرار في التاريخ تثبت عدم جدوى التقسيم إلى عصور وفترات ، فضلاً عن أن علمي الأجناس البشرية والتاريخ الثقافي يثبتان أن العناصر المختلفة في التركيب الثقافي لا تخضع لأي قانون من قوانين التطور أو التقدم . وإذا كنا نعني بالتجديد الضبط الاجتماعي والدقة العلمية فإن أخلاقيات الإغريق كانت أحدث كثيراً من أخلاقيات جون س. سمرSummer Gohn S أو الأسقفماننج Manning . هذا إلى أن الحياة الفنية في عصر النهضة أغنى وأوسع من حياتنا الفنية اليوم . ويتضح من ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك أي نوع علمي من التاريخ ، يقوم على افتراض وجود معدل موحد للتطور والنمو لكافة أنماط الثقافة والنظم . وفضلاً عن ذلك فإن سرعة التطور الثقافي تختلف كثيراً من منطقة إلى أخرى . ولنتخيل مثلا أننا

نحاول فى موضوع تحت عنوان « الحضارة القديمة » أن نصف ثقافات الصين واسكندناوة وأمريكا الجنوبية وغاليا وأرض ما بين النهرين والهند فى سنة ١٠٠٠ ق.م . وأن نصف فى موضوع تحت عنوان « الحضارة المعاصرة » ثقافات الصين وانجلتره وألمانيا وروسيا والبرازيل فى سنة ١٨٩٠ ميلادية . وإنه ليبدو كما سبق أن أوضحنا فى الفصل السابق أن التاريخ الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه لابد وأن يكون على درجة عالية من التخصص ولا يبنى على أكثر من وصف تطور نواحٍ معينة ومحددة من الثقافات أو أنظمة محددة تقع داخل نطاق منطقة ثقافية متجانسة . وربما يرد المؤرخ التقليدى بأنه لا داعى بالمرة فى هذه الحالة لاستخدام أى تقويم ، وهو رأى قد يكون له ما يبرره .

وإذا احتج مؤرخ المدرسة القديمة فى شىء من اليأس على هذا الوضع بوصفه يؤدى إلى اضطراب وفوضى وتعقيد ليس من الممكن احتمالها ، فإن علينا أن نعترف بأن هذا صحيح فى الوقت الحاضر . ولكن دعاة التاريخ الجديد ليسوا بأى حال مسئولين عن هذا الموقف . وكل ما هنالك هو أن المؤرخين بدأوا ينتبهون إلى حقيقة الموقف الذى يواجهنا فى كل ركن من أركان الحياة اليوم . وهذا يعنى أن التاريخ صار معاصراً فى نظرته ، كما أنه فى سبيله إلى الاعتراف بما سبق أن أدركه واعترف به علماء اللاهوت والفلاسفة وعلماء الاجتماع ودارسو علم الأخلاق . ولن يؤكد هذا شيئاً أكثر من أن النعامة التاريخية الرمزية رفعت رأسها أخيراً من رمال العصور الوسطى والحركة الإنسانية . وأعطت عالم القرن العشرين حقه كاملاً . إن هذه الثقافة تشهد اليوم الحضارة المدنية الآلية وهى تتغير فى سرعة ، وحضارة العصر الصناعى التى حلت محل بساطة المعيشة الريفية لم تتغير إلا قليلا من قرن لآخر والتى تميزت بإحساس وهمى بالأمن والطمأنينة مصورة الاعتماد على الإيمان الأعمى بمفهوم بدائى للكون وعدد قليل من المعتقدات الدينية الساذجة . وتشهد هذه النعامة اليوم كوناً متسعاً ومراجعة شاملة جادة لكل الافتراضات التى وصفها الإنسان فى الماضى لتبرير مكانته فى الكون ، ولكل آرائه عن الطمأنينة فى عالم الأرض وعالم ما وراء الطبيعة . كذلك تبعث هذه التغيرات المذهلة فى الأحداث والمواقف التاريخية على ثورة مشابهة فى مفاهيم التاريخ وأهدافه . وليس بعجيب أن يكون الدافع الأول لدى هذه الثقافة التاريخية هو أن تغوص مرة أخرى فى الرمال .

وبمعنى آخر فإن المؤرخ يواجه متطلبات إتمام وتنفيذ مهمته فى ضوء علم القرن العشرين ، ومناهجه بنفس الشكل والقدر الذى نواجه به جميعاً التعديلات والتغييرات التى تفرضها علينا المدنية فى عصرنا هذا . فمنذ خمسين سنة مضت كان المواطن المثقف فى الولايات المتحدة يشعر

بالكفاية والأمن الكاملين فى ظل إيمانه باللغات الكلاسيكية ، وعقائد التفكير ، والتعريفة الجمركية الواقية ، والحزب الجمهورى . ولكننا نجد المواطن نفسه اليوم يواجه متناقضات واضطرابات يفرضها علم الطبيعة الفلكية المعاصر الذى أثبت ضآلة كوكبنا وبالتالى ضآلة الإنسان نفسه كما يفرضها عليه أيضا التشكك فى التركيب الاجتماعى الاقتصادى بأكمله ، وهو ذلك التركيب الذى يعتمد عليه نظام التعريفة الجمركية . ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نذكر مدى تأثير إدراك المواطن الأمريكى المتزايد لانعدام كفاية وقدرة الحزبين الجمهورى والديمقراطى على السواء إن لم يكن لانعدام قدرة الإنسان السياسية فى ظل الجو المعقد الذى ساد المجتمع المعاصر . فما بالنا إذن بالتغيرات فى الاتجاهات التى فرضتها على كل أستاذ جامعى فطن يشتغل بالتاريخ تلك التحولات العديدة التى حدثت فى الخمسين سنة الأخيرة . وإذا كان هناك من يزعم أن قليلا من العقول الممتازة فقط هى التى تستطيع التجاوب مع ما يتضمنه هذا الرأى حول مهام وواجبات المؤرخ ، فإن الرد عليه هو أنه على الرغم من أن ربة البيت لا تستطيع أن تمارس الطب أو أن الحلاق لا يستطيع أن يمارس مهنة الجراحة فإن الطب والجراحة ازدهرا بدرجة لم يكن يتوقعها أحد منذ أن فرضت قيود عملية فى ممارسة هذه المهنة أو تلك . وسيكون علينا فى المستقبل أن نميز بدرجة من الدقة بين المؤرخ الحقيقى وكاتب السجلات .

وفى تأكيدنا لأهمية اتجاه البحث عن أصل المجتمع البشرى ، فإننا نمس عدداً قليلاً من الدروس التى يلقنها التاريخ للجنس البشرى . ولابد من أن يكون واضحاً لكل ذوى الفكر أن المواقف الاجتماعية والثقافية فى الماضى تختلف عن مثيلاتها فى القرن العشرين ، إلى الحد الذى يجعل استفادتنا من خبرات العصور التاريخية السحيقة أمراً ضئيل القيمة . ومع ذلك فإن العودة إلى الوراء وتتبع ثقافتنا ونظمنا من بدايتها تجعلنا نتوصل إلى فهم أحسن لعصرنا ، وفى الوقت نفسه يمكننا ذلك من تحطيم ذلك الاتجاه الذى يقدس الماضى ويمجده ، والذى كان العقبة الرئيسية فى سبيل التقدم الاجتماعى والفكرى مما جعل منه أخطر تهديد يواجه المجتمع .

وينبغى أن نذكر هنا أنه إذا كان التاريخ سيهتم أساساً بتتبع أصول الثقافة والنظم المعاصرة ، فإن كثيراً من المشكلات التى ذكرت آنفا فيما يتعلق بالتنظيم العام للمادة التاريخية والنظريات المتضاربة الخاصة بالتقويم ، سوف تختفى تلقائياً لأن المشكلة فى كل حالة ستنصب على نشأة وتطور نظام بعينه ، أو جانب واحد من جوانب الثقافة ، على الرغم من أن تاريخ هذا النظام أو الجانب سيرتبط عادة بتاريخ النظم والجوانب الثقافية الأخرى .

التدريب المرغوب فيه بالنسبة للتاريخ الجديد

إذا كان للتاريخ الجديد أن ينجح فلابد أن تعد جماعات أكبر من العاملين المتحمسين فى هذا الميدان ، وأن يوجّه أعدادهم بحيث يجعلهم قادرين على القيام بأبحاث على درجة عالية من الكفاية والتكامل ، وإذا كان التاريخ فى المدرسة القديمة قد عانى كثيراً من عدم تدريب المشتغلين به تدريباً كافياً ، فإن التاريخ الجديد سيكون فى حال أسوأ إذا لم يدرب المشتغلون به تدريباً كافياً ، لأنه يتطلب دراسات دولية واسعة المدى . وقد ينادى البعض بأن الشخص الملهم يستطيع أن يقوم بأعمال عظيمة فى مجال التاريخ الجديد دون الحاجة إلى تدريب واسع المدى ، ولكن كلامنا هنا ليس عن العباقرة ، وإن كان نجاحهم فى هذا المجال أمراً بالغ الصعوبة . فالتاريخ الجديد تماما ـــ كالتاريخ القديم عليه أن يعتمد بدرجة كبيرة على تلك الفئات الجادة المخلصة من الباحثين الذين لابد وأن يدعموا ويوجهوا بتدريب شامل دقيق يؤهلهم لممارسة مهنتهم .

وعلينا أن نصر دائما على أن التاريخ الجديد هو أساسا علم إعادة بناء الثقافة والبحث فى أصل النظم . ومن ثم فإنه يمكن القول بحرية بأن المؤرخ الممتاز فى المدرسة الجديدة هو ذلك المؤرخ الذى يستطيع أن يضيف إلى الدقة العلمية والمعرفة قدرا أكبر من المهارة الفنية الخلاقة اللازمة لإعادة بناء الحضارات بناء دقيقا ، مع تتبع حريص لأصول الأفكار والنظم وذلك مثلما فعل روبنسون وبيكر وبيرد . ويطابق هذا القول فى وضوحه القول بأن الشخص العظيم فى ميدان الطب شىء أعلى وأكبر من الطبيب الفنى المدرب ، ولكنه لم يكن يرقى إلى هذه المكانة لولا أنه كان فى يوم من الأيام عالماً طبيباً . وينبغى ألا نخلط بين الفن الأدبى والمقدرة التاريخية[1] ، فالكاتب القدير لا يمكن أن يعتبر مؤرخا إلا بالقدر الذى نعتبر به الشخص الذى يرسم رسماً يحاكى فيها شكل القديس بطرس أو الملك شارل الأول فناناً . ففان ديك كان يستحق لقب مؤرخ بالقدر الذى يستحق به كارليل ذلك اللقب . كما أن هوجارث كان مؤرخا حقيقياً تماما مثله مثل ماكولى .

وقد قيل إن السبب الرئيسى فى ضعف تاثير التاريخ على الحياة العامة والرأى العام هو افتقار الكتاب المحدثين إلى الأسلوب الممتاز . ولكن هؤلاء الكتاب يدفعون بأن السبب الحقيقى هـو

(١) انظر للرأى المناهض ، كتاب تريفليان كلبو : الإلهام (المؤلف) .

العقبات التى تفرضها المفاهيم العتيقة الخاصة بطبيعة الكتابة التاريخية ومجالها وهدفها ، مثلما يفرضها كذلك ادعاء المعرفة ، والحرص على استعراض المعلومات ، واختيار موضوعات غير مألوفة ، فضلاً عن المجاملة فى الكتابة واستغلال الكتابة التاريخية فى تحسين الأوضاع الأكاديمية والصداقات المهنية بدلاً من محاولة تنوير البشرية وتحقيق مزيد من التقدم لها . ولن يكون للكتاب أمثال سومبارت ، فيبلن جمهور من القراء إذا لم يكن هناك مكافأة مادية تعوض عن الجهد المبذول فى قراءة كتبهم . حقيقة إنه لا سبيل إلى إنكار الحاجة إلى كتابة ممتازة ، ولكن المطلوب هو كتابة ممتازة بأقلام مؤرخين ممتازين ، أى أن المطلوب هو كتابة تاريخية ممتازة بأفضل ما تحمل الكلمة من معان .

ولابد على وجه الخصوص من مناقشة ما تتصف به المواقف التاريخية الهامة من طبيعة خاصة فريدة وغامضة فى الوقت نفسه وهى النظرية التى تقر الطابع الفريد الخداع ، للحقائق التاريخية التقليدية . إن ذلك الشيء الذى يسمى مسرحية التاريخ ليس إلا سجلاً لاستجابات الوجود الكيميائى الحيوى للمؤثرات الأرضية وليست الاستجابات البشرية فريدة فى نوعها أو أكثر غموضاً من سلوك الحيوانات الأخرى ، أو سلوك الأنسجة العضوية والمواد غير العضوية كما تدرس فى المعمل فمداولات الجمعية الوطنية التأسيسية فى عهد الثورة الفرنسية كانت نتاجاً طبيعياً تماما يشبه استجابة القردة فى حديقة حيوان برونكس بارك وقد يكون الموقف التاريخى فريداً فى معناه الزمنى البحت . ولكنه لا يمكن أن يكون فريدا من وجهة النظر العلمية ، لأنه نتاج السلوك الإنسانى الذى يمكن تحليله علمياً . يضاف إلى ذلك أنه ليس باستطاعتنا أن نؤكد أن تلك الجوانب من الموقف التاريخى التى يزعم البعض أنها فريدة هى الجوانب الهامة فيه . فالظواهر التاريخية لا تفهم إلا بمقدار انطوائها تحت لواء التحليل العلمى المقنع الذى زودتنا بـه العلوم الطبيعية والاجتماعية الثابتة .

ولايمكن أن نأمل أنه يكفى لإعداد المؤرخ مجرد القيام بأبحاث فى الماضى أو تحصيل قدر كبير من الحقائق التاريخية التقليدية . فالشخص الذى يقوم بجمع وتحرير عدد كبير من النقوش لا يعتبر مؤرخاً مهماً تبلغ قيمة خدماته بالنسبة لتعلم التاريخ . إنه لا يزيد عن ذلك الشخص الذى يجمع قطع الأثاث القديم ويصنفها لوضعها وعرضها فى متحف للفنون الجميلة . كذلك فإن الشخص الذى يعى ويحفظ كتاب و . ل . لانجر ــ دائرة معارف التاريخ العالمى ــ لا يصبح مؤهلا بفضل هذا العمل وحده لكى يكون مؤرخاً .

وسيظل أساس كل التدريب الفنى فى المدرسة الجديدة فى التاريخ هو الدراسة التقليدية الخاصة بأسلوب البحث فى الوثائق وتناولها . كذلك إن التدريب فى هذا المجال سيزداد بكل تأكيد اتساعا وشمولاً عن ذى قبل . فدارس التاريخ القديم اليوم مطالب بالتعرف على كل ما أمكن جمعه من نقوش ، وأكثر من ذلك فهو مطالب بأن يكون ملماً إلماماً كاملاً ثابتا بآثار ما قبل التاريخ وبكل ما يتعلق بأوراق البردى . وهى النواحى التى لم يكن يهتم بها كورتيوس وموسن مثلا . وقد يكون على المؤرخ المبتدىء كذلك أن يلم بأساليب الحفر الميكانيكى والتصوير الجوى ، ومعنى هذا كله أن هناك حاجة ملحة فعلية عند دراسة التاريخ الجديد لقدر من المعلومات الفنية يفوق كثيراً ما كان مطلوبا لدراسة العصور الوسطى عندما كان أهم شىء هو اتقان اللغتين اللاتينية واليونانية ، فضلا عن الإلمام باللغة العربية والعلوم الثانوية الأخرى اللازمة لدراسة الوثائق ونقدها . واذا ما توفر ذلك يستطيع الفرد أن يمضى قدماً فى التاريخ مستعيناً بقائمة مصطلحات اللاهوت وكتاب دى كانج ليرشده إلى مصطلحات العصور الوسطى . أما الباحث الذى يبحث فى التاريخ المعاصر فسوف يواجه عدداً أكبر من المطالب ، اذ لابد وأن يكون ملما بمسك الدفاتر والمحاسبة وبأسس التكنولوجيا وأركان النظام الحالى للمؤسسات وبمصطلحات العلوم السياسية المعاصرة وأسس النقل ومبادىء علم التطور البيولوجى وأسس علم الطبيعة الكهربائية العلمية ، فضلاً عن عدد كبير آخر من مظاهر الحضارة المعاصرة . هذا إن أراد أن يقرأ بشىء من التمعن تلك الوثائق التى تحتوى على المادة الخاصة بمهنته .

ثم يلى هذه الخطوة الأساسية الخاصة بالإلمام بأسلوب البحث فى الوثائق ، خطوة أخرى هى اكتساب النظرة التاريخية الحقة . والسبيل السليم لهذه النظرة هو الإلمام الكامل بوجهة النظر الخاصة بالتطور . فالمؤرخ لابد وأن يفكر وفى ذهنه صورة واضحة لأصل الحياة البشرية بالضبط مثلما يقوم الطبيب بالعلاج فى ضوء التشخيص والأعراض معروفة له . ومن ثم فإن المؤرخ لابد وأن يكون ملما إلماما كاملا بعمليات التطور الكونى والبيولوجى والثقافى فضلا عن تطور النظم . كذلك عليه أن يعود نفسه على التفكير فى الإنسان فى ضوء عمليات ومصطلحات التطور . فالتطور اذا بالنسبة للمؤرخ شأن الديناميكا . أو علم القوى بالنسبة لعالم الطبيعة . وبمعنى آخر فإننا ينبغى أن نصر على أن الشخص الذى يريد أن يكون مؤرخا لابد وأن يكون من البداية ذا عقلية تاريخية .

وبعد ذلك فإنه على المؤرخ أن يلم بالمبادىء والحقائق الرئيسية لعلم الأجناس البشرية من الناحية الجغرافية ؛ أى كما يفسرها أحدث علماء الجغرافيا الأقليمية الذين يشاركون علماء الفرع

الثقافى لعلم الأجناس فى وجه نظرهم . ويوضح كتاب المدخل الجغرافى للتاريخ . ما تعنيه العبارة ؛ فالمؤرخ لابد وأن يدرس جيداً وبإمعان الجغرافيا الطبيعية والاجتماعية للمنطقة التى ينوى التخصص فيها . وعلى أساتذة التاريخ الجديد أن يدركوا من البداية أن ما كان يسمى بالجغرافيا التاريخية فى الماضى وهى التعرف على التغييرات التى طرأت على الحدود السياسية ، والتعرف على الأماكن التى شهدت المعارك لا يعتبر بأى حال دراسة جغرافية للتاريخ مهما تكن قيمة وفائدة المعلومات التى زودتنا بها هذه الدراسة . كذلك على المؤرخ فى هذا الصدد أن يعتاد التفكير فى ضوء المراحل الثلاث الرئيسية لتأثير الجغرافيا على التاريخ كما بينها ليون متخنوف Leon Metch-nikoff والأستاذ ج . ك . رايت J.K.Wright ونعنى بهذه المراحل المرحلة النهرية والمرحلة القارية والمرحلة المحيطية هذا فضلاً عن أنه على المؤرخ أن يعطى اهتماما كافيا لنظرية س . س . جلفيلان S.C.Gilfillan المتعلقة بأن التقدم مرتبط بالمناطق الباردة ويضاف إلى ذلك ضرورة إلمامه بالأهمية التاريخية الأساسية باتصال الثقافات على المستوى العالمى وهو الأمر الذى وصفه بإيضاح الأستاذ و . ر . شيفرد W. R. Shepherd فى دراسته عن الأهمية التاريخية لحركة التوسع الأوربى .

وينبغى أن يلم دارس التاريخ الجديد إلماماً كاملاً بالإنسان وسلوكه العادى والشاذ ، وأن يلم كذلك بأسس علم الكيمياء الوظائفية وعلم الغدد الصماء . فالشخص الذى لا يدرى شيئا عن الأساس العادى للسلوك الإنسانى لا يستطيع أن يفسر هذا السلوك تفسيراً سليماً فى الماضى أو فى الحاضر سواء . ولابد من أن يلم دارس التاريخ بعمل وتأثير الغدتين فوق الكليتين قدر إلمامه بغيرها من غدد الإنسان . إذ من المحتمل أن تكون الغدة الأردنالية (فوق الكلية) قد لعبت دورا فى قرار سازانوف بإعلان الحرب فى يوليو ١٩١٤ لا يقل عن الدور الذى لعبته حركة التضامن السلافية فى إصدار القرار نفسه ولابد من أن يعد المؤرخ الحصيف والمعد تماما لمهنته بأنماط من السلوك غير العادى الأكثر شيوعاً والتى ترتبط بالأنواع المتعددة من الحالات المرضية لدى الإنسان . ولما كان رجال السياسة والدبلوماسيون ورجال القضاء عادة من المتقدمين فى السن . فإنه ليس من الممكن فهم سلوكهم إلا فى ضوء أنواع السلوك المرتبطة بالأمراض البشرية الرئيسية المتعددة كذلك فإن أى شخص لا يعلم شيئاً عن تأثير مرض الزهرى لا يمكنه أن يعطى تفسيراً كافياً لأعمال وتصرفات بعض الملوك والساسة والدبلوماسيين الأقدمين . فأمراض مثل الالتهاب المزمن وعسر الهضم كثيراً ما تساعد عادة على تفسير سلوك الشخص أكثر من معرفة تعليمه أو ديانته أو سياسته أو نشاطه الاقتصادى . كذلك فإنه لا غنى للمؤرخ عن فهم كاف لأنماط

السلوك المرتبطة بالأمراض النفسية والعصبية . ولا يمكن فهم السلوك البشرى إذا فصل فصلاً تاماً عن سلوك الحيوانات الأخرى وعلى الأخص عن سلوك القردة . وهكذا يبدو ضرورة الإلمام الكامل بعلم النفس المقارن ، وهنا نجد أن كتاب (إنسان تقريبا) Almost Human للكاتب يرك Yerke يعتبر أحسن عرض لسيكلوجية القردة يمكن الاعتماد عليه ، وهو كتاب لا غنى عنه لأى فرد يبغى الوصول إلى تفسير واقعى للسلوك الإنسانى وينبغى على المبتدىء الذى يمتلك قدراً كافياً من خفة الدم والروح أن يضيف إلى هذا الكتاب كتاباً آخر هو « عالم القرود » The Simian World لمؤلفه كلارنس داى Clarence Duy فالحقيقة الثابتة القائلة بأن الإنسان ليس إلا حيواناً فى مرتبة أعلى من القرود حقيقة ذات أهمية خاصة ومغزى هام بالنسبة للمؤرخ ، لأنها تفوق فى أهميتها ومغزاها التأكيد بأن الإنسان أقل درجة من الملائكة . ثم إن سيكلوجية السلوك بما تؤكده من التأثير الاجتماعى عنصر هام جداً بالنسبة للمؤرخ الذى يرغب فى تفسير شخصية الفرد فى ضوء حياته المبكرة والظروف الاجتماعية المحيطة به . ولابد أن يضاف إلى ذلك عنصر آخر هو علم النفس التحليلى الذى يلقى كثيراً من الضوء على الحركة اللا شعورية للسلوك . والذى يصر على البحث حول الحقائق الخاصة بحياة الفرد الشخصية واليومية من أجل التعرف على الدوافع الخفية لسلوك أى فرد . وأخيراً فإنه لابد من أن يكون المؤرخ ملماً إلماما كافياً بحقائق علم النفس الاجتماعى حتى يتمكن من توضيح تأثير سيكلوجية الجماعات على الإنسان وإبراز التفاعل المتعدد الجوانب بين الجماعة والفرد .

أما علم الأجناس البشرية فينبغى على المؤرخ دراسته ولما يحتويه من تأكيد لأساس تطور الإنسان ونظمه ، وما يتضمنه من توضيح النظرة الزمنية الجديدة للتطور والنمو البشرى . ولكن علاوة على هذا وذاك لما يحتويه من إيضاح لقوانين التقدم الثقافى وعملياته . وتزودنا كتب مثل كتاب (تطور الثقافة) لهوايت White وكتاب (الإنسان والثقافة) لويزلر Wissler وكتاب (التاريخ وعلم النفس والثقافة) لجولدن ويزر Golden wiser وكتاب علم الأجناس البشرية لكروبر Kroeber بقدر من المبادىء الرئيسية للتطور التاريخى يفوق ما تزودنا به أحسن الكتب التى ظهرت حتى الآن فى موضوع المنهج التاريخى .

والواقع أن علم الأجناس البشرية يفوق غيره من العلوم الفرعية الأخرى فى أهميته كمدخل للتاريخ وذلك من ناحيتى المنهج والتقويم الزمنى .

ولا يمكن للفرد أن يشتغل بكفاءة بالتاريخ الجديد دون أن يكون على دراية بعلم الاجتماع سواء أسس هذا العلم أو مبادئه وذلك بوصفه مقدمة للعلوم الأخرى كذلك لابد من أن يلم بالعلوم الاجتماعية الخاصة مثل الاقتصاد والسياسة والقانون والأخلاق وما إليها فالتاريخ ليس إلا سجلا لتطور الإنسان كما كيفته بيئته الاجتماعية ومن ثم فإنه يتعذر تماماً فهم هذا السجل فهماً سليما دون أن تكون هناك معرفة علمية بحقائق الحياة الجماعية وتفاعلاتها كما يشرحها علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الخاصة ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه إذا كان الشخص ينوى القيام بعمل يتطلب أكثر من مجرد معرفة متوسطة بواحد أو آخر من العلوم الاجتماعية الخاصة ، فإنه لابد له من أن يكون متمكنا من هذا العلم . فعلى سبيل المثال لا يمكن لأى شخص أن يحاول القيام بوضع مؤلف تفصيلى عن التاريخ الاقتصادى ودون أن يكون قد ألم إلماماً كاملاً بكل فرع من فروع علم الاقتصاد والحديث فضلاً عن الإحصاء الاقتصادى ، كذلك إذا أراد الفرد أن يكتب عن تاريخ العلم أو الجمال فلابد أن يضيف إلى تدريبه العام تدريباً خاصاً فى العلوم الطبيعية أو الفنون الجميلة .

وكثير ممن يقرون سلامة هذا البرنامج الطموح لإعداد المؤرخ فى المدرسة الجديدة للتاريخ سوف يذهبون إلى أنه من المتعذر أن تتوافر كل هذه الشروط والمتطلبات فى فرد واحد . ولكن هذا الاعتراض يبدو للمؤلف صاحب هذا الكتاب خداعاً وغير دقيق ، فمن السهولة بمكان تحقيق مثل هذا الإعداد إذا ما أدركت ضرورته بالقدر نفسه الذى ندرك به ونقر ضرورة الإعداد الخاص لمن يمارس مهنة الطب أو الهندسة . فهناك فى جامعات كالولايات المتحدة الأمريكية مناهج تعد الطالب للإقدام على دراسة الطب . ثم هناك ما يلى هذه الدراسة من تدريب طبى مهنى . وبمرور الزمن سوف تكون لدينا مناهج (ما قبل الإقدام فى دراسة التاريخ) فضلا عن مدارس التاريخ المحترفة ومدارس العلوم الاجتماعية التى يمكن فيها وبواسطتها تحقيق ذلك البرنامج التعليمى الذى سبق أن تحدثنا عنه . ولن يحتاج الأمر إلى وقت أكثر مما يضيع فعلا فى تلك الجهود غير المخططة أو غير المنسقة التى تبذل فى الكليات والجامعات . وكل ما هو مطلوب من طالب التاريخ الناجح أن يمكن فى سهولة فى فترة السبع سنوات التى يقضيها دارسو التاريخ فى دراستهم التقليدية للحصول على درجة الليسانس أو درجة الدكتوراه . وسوف يكون فى أيدينا شيء مادى عندما نبدأ هذا البرنامج الإعدادى . وعندئذ لن يكون طلاب الدراسات العليا فى التاريخ على درجة من ادعاء العلم وضيق الأفق مثلما وصفهم كلارنس ليتل المدير السباق لجامعة ميتشجان ، إذ قال عنهم إنهم يعلمون عن حملات هنرى الثامن أكثر مما يعلم أى شخص آخر على قيد الحياة ، ولكنهم لا يهتمون بمعرفة أى شيء آخر .

وقد يقول البعض على سبيل الاعتراض بأن قليلاً من دعاة المدرسة الجديدة فى التاريخ أنفسهم هم الذين يستطيعون اجتياز الإعداد المرغوب فيه للمؤرخ وهو الإعداد الذى وصفناه آنفا . وربما كان ذلك صحيحاً ولكن لا يوجد شك فى أن الأستاذ روبنسون ربما كان أول من أقر أنه لم يكن سوى مبتدئاً متواضعاً فى كل جانب من جوانب الإعداد الخاص بطلاب التاريخ فى المدرسة الجديدة كما سبق أن أشرنا ، ولكنه كان يتمنى لو عاش حياته مرة أخرى ليعد نفسه إعداداً كافياً . وربما أضاف كذلك فى إنصاف أن ما أنجزه عن إعداد غير كاف يعتبر دليلا على النتائج الممتازة التى لنا أن نتوقعها فى المستقبل من الطلاب المدربين تدريباً كافياً وتاماً .

خلاصة القول فيما يتعلق بالتاريخ الجديد

فيما يلى النقاط الرئيسية التى حاولنا إبرازها فى هذا الفصل :

أولا : أن التاريخ الجديد أكثر من مجرد مفهوم جديد حول التاريخ وهدفه لأنه يحمل معه إلزاما بضرورة إعداد المؤرخ لمهنته إعداداً أكثر عمقاً وتنوعاً .

ثانيا : أن التاريخ الجديد جديد من ناحية قبول مبدأ اتساع مفهوم التاريخ ، وازدياد الاعتراف بأهمية العلوم الاجتماعية فى تدريب المؤرخ وإعداده ، وكذلك من ناحية غزو التاريخ لاتجاه البحث عن أصل الإنسان وهو الاتجاه المأخوذ عن علماء البيولوجيا وفلاسفة التطور .

ثالثا : ويجد دعاة التاريخ الجديد حتى وقتنا هذا ضرورة القيام بحملة دعاية وتعليم حقيقية ، وارتبطت هذه الحملة ببعض الأسماء مثل لامبرخت ، بير ، روبنسون ، تيجارت ، مارفن . وكان أن حقق دعاة التاريخ الجديد نصراً مؤكداً ، ومن ثمّ فهم يستطيعون الآن أن يركزوا جهودهم للوصول بأساس التاريخ الجديد إلى مستوى الكمال ولتعليم وتدريب أولئك الذين سوف تكون لهم القدرة على ممارسة التاريخ الجديد .

رابعا : أما المهمتان الرئيسيتان للتاريخ الجديد فهما تصوير حضارات الماضى وإعادة بنائها على خير صورة ثم تتبع تطور النظم الاجتماعية الرئيسية القائمة اليوم . وتعتبر المهمة الثانية أهم بكثير من الأولى لأن ما يرجى منها أساساً هو ما يمكن أن تسهم به فى الوصول إلى فهم أفضل لعصرنا الحالى ، إن لم يكن هو الشىء الحقيقى الوحيد المطلوب من التاريخ . وقد يضيف البعض مهمة ثالثة وهى صياغة نظرية السببية الاجتماعية أو عمل دراسة عامة

للتغير الاجتماعى . ولكن الأفضل أن ينطوى هـذا النوع من البحث تحت لـواء علم الاجتماع التاريخى .

خامسا : لا يمكن اعتبار فئة واحدة من الأحداث التاريخية كافية لوضع إطار لتنظيم القصة الكاملة للتطور التاريخى للثقافة البشرية ، وينطبق هذا الكلام بصفة خـاصة عـلى الأحداث السياسية ، إذ لابد وأن يذوب فى عالم النسيان ذلك الإطار السياسى للتاريخ ، وكذلك التاريخ التقليدى الخاص بالأمم ونظام التقويم الزمنى السائد والمعترف به ليفسح المجال أمام نشأة تاريخ الثقافة والنظم .

سادسا : لا يوجد هناك سبب واحد يحدد مجرى الأحداث التاريخية . وعلى المؤرخ أن يتخذ موقفاً تجريبياً من السببية التاريخية وأن يتقبل النظرة ذات الجوانب المتعددة .

سابعاً : لابد من التخلى عن النظرة الساذجة غير الواقعية والقائمة على أساس غير تاريخى ، وهى نظرة المدرسة القديمة إلى التاريخ .

كذلك فإن ما يواجه مؤرخ اليوم من مشكلات حية وتعقيدات ، وحـالة الضيـاع والاضطراب التى يجد نفسه فيها ليست إلا مظاهر للعصر بأكمله ككل ، والنتيجة الحتمية لأن المؤرخ اكتشف أنه يعيش فعلا فى القرن العشرين .

ثامناً : من الضرورى عند تدريب من يرغبون ممارسة التاريخ الجديد أن نستبعد من البداية فكرة أن التاريخ فن أدبى أو ترفيهى يستهدف البحث فى سجـلات الماضى . فـالأديب الذى يستخدم المادة التاريخية لا يمكن اعتباره مؤرخاً شأنه شأن الرسام الذى يرسم منظراً لموقف تاريخى . فالتاريخ هو علم تفسير الحضارات الماضية والكشف عن أصل ثقافة اليوم . ومن ثم فإن على هؤلاء الذين يرغبون الدخول فى مهنة المؤرخ أن يلموا إلماماً تاماً بكل أنواع المعلومات اللازمة لتصوير ماضى البشرية وتتبع التطور الذى أتى بحاضرهم . ويتطلب ذلك تخطيطا جيدا للدراسات منذ أن يلحق الطالب بالجامعة فصاعدا كما هو الحال فى إعداد الأطباء والمهندسين . وباختصار فنحن لا نستطيع أن نستمر فى كتابة التاريخ وتعليمه دون أن نأخذ فى الاعتبار طبيعة الإنسان وسلوكه[1] .

(١) إذا أراد القارىء شيئاً مفصلا عن التاريخ الجديد فعليه الرجوع إلى مقال للمؤلف ماكرين برنتون فى مجلة « الفلسفة الاجتماعية » عدد يناير ١٩٣٦ . (المؤلف)

الاتجاهات الحديثة والاخطار التى تتعرض لها الكتابة التاريخية

لقد جرى العمل فى إعداد الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سنة ١٩٣٦ - ١٩٣٧ بعد فترة وجيزة من صدور كتابى (تاريخ الحضارة الغربية) وهو الكتاب الذى حظى بقدر من الاهتمام وأثار من الجدل والمناقشات فى الولايات المتحدة طوال الثلاثينيات مثلما كان لكتاب ويلز Wells (موجز التاريخ) . وبعد أن قرأت مئات التعليقات عن كتابى هذا اقتنعت بأن أكبر خطر يهدد سلامة الكتابة التاريخية يكمن فى الصراع القائم بين العقائد المتعارضة . وستظل هذه الحقيقة قائمة طالما أننا ننظر إلى العالم المتحضر ككل . واذا ما نظرنا إلى الصراع بين الدول الرأسمالية والدول الشيوعية سنجد أن الصراع الأيدلوجى يزداد حدة ومرارة . والواقع أن الضغوط الأيدلوجية التى تأثرت بها فى سنة ١٩٣٦ كانت فى داخل العالم الغربى ذاته بين الفاشية والشيوعية .

وكان الحكم على الكتب التاريخية يتم بصفة رئيسية عندئذ فى ضوء ما إذا كان مضمونها يتمشى مع مبادىء الفاشية أو مبادىء الشيوعية . ولما لم يكن فى الولايات المتحدة من العلماء من يؤيد الفاشية ، فإن التقدير الأيدلوجى لكتابى هذا بنى أساساً على مدى تمشيه مع العقيدة الماركسية . وهذا الحكم ينطبق بصفة خاصة على نظرة المؤرخين الشبان للكتاب . ولا أبالغ إذا ذكرت أن نصف من تعرض من النقاد لكتابى (تاريخ الحضارة الغربية) باستثناء ما يتعلق بالتفاصيل الجدلية إنما أخذوا علىَّ فشلى فى اتباع ماركس بإخلاص . هذا على الرغم من أننى أعطيت كثيراً من الاهتمام للعوامل والقوى الاقتصادية ، وهو أمر لم يرض عنه كثير من المؤرخين التقليديين .

والآن اختفى تماماً وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية هذا التهديد الأيدلوجى المتنوع للكتابة التاريخية الموضوعية وهو التهديد الذى كان سائدا فى الثلاثينيات . وإذا كان هناك مؤرخون لا يزالون يحترمون الأيدلوجية الفاشية ، فإنهم يحتفظون بأفكارهم ولا يعلنونها . كذلك فإن الحرب الباردة وضعت حداً للاتجاه الخاص بجعل التوافق مع الماركسية مقياساً لسلامة الكتابة التاريخية خارج الستار الحديدى .

ولما كان الجزء الأول من هذا الفصل قد خصص لمعالجة نشأة التاريخ الجديد وتطوره ، فإنه يجدر بنا وقد وصلنا إلى هذه النقطة أن نوضح أن الحماسة للشكل والمضمون الأوسع للتاريخ قد تضاءلت بوضوح فى الخمسة والعشرين سنة الأخيرة .

وتعزى الشعبية المتزايدة للتاريخ الجديد فى أواخر العشرينات وفى خلال الثلاثينيات فى الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد ما إلى حركة العلوم الاجتماعية التى كان يطورها بقوة مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية ، وهو الذى كان يحصل على معونة من صندوق روكفلر ومنحة مؤسسة كارنيجى وهى تلك المنحة التى كان الغرض منها تمويل الدراسات الخاصة بعلاقة العلوم الاجتماعية بالكتابة التاريخية وتعليم التاريخ بصفة عامة . وكان أن شجعت حرية الجيل الجديد واهتماماته الاجتماعية على الاهتمام بالحضارة ككل .

وبقيام الحرب العالمية الثانية بدأ الانغماس فى الشئون الحربية والسياسية والميل العام نحو الأخذ بالاتجاه المحافظ ينعكسان فى اتجاهات المؤرخين . وبانتهاء الحرب أصبح أكثر الكتب الدراسية عن تاريخ الحضارة رواجاً وشهرة هو ذلك الكتاب الذى يحمل فى صدر صفحاته كلمة الحضارة والتى تعتبر مناهجه أقل بكثير فى تمثيلها للتاريخ الجديد من كتاب جيمس هارفى روبنسون الذى ظهر سنة ١٩٣٠ بعنوان (تاريخ أوربا الغربية) يضاف إلى ذلك أن الصحف بزعامة نيويورك تايمز هاجمت الميل نحو الدراسات الاجتماعية ودعت فيما يتعلق بتدريس التاريخ وكتابته إلى العودة إلى الجوهر والإطار السياسى السليم .

على أننا نبتعد عن الحق والصواب إذا قلنا إن نهر التاريخ الجديد قد جف ونضب وإن كنا نعتبر أنه من المؤكد أن سرعة النهر وشدة تياره قد تضاءلا بشكل ملحوظ . ومن العجيب أن يزداد الإعجاب بالعسكرية والاهتمام بالشئون الحربية فى ضوء افتتان المؤرخين بالحرب الأهلية فى عقدها المئوى . ومع ازدياد التعصب الوطنى الذى تميزت به فترة ما بعد الحرب نجد تأكيدا ملحا على التاريخ المعاصر الذى يمثل النقيض لاتجاه المدرسة القديمة التى تدعو للوقوف بالتاريخ عند الثورة الفرنسية أو الوصول به حتى سنة ١٨٧١ .

والحق أن ما اعتبر منذ الحرب العالمية الثانية أنه التهديد الرئيسى للتكامل والثبات التاريخى أمر لا يتعدى دائرة الخيال والوهم لأنه نتج عن الهروب من الواقع والاحساس بالذنب الذى نشأ لدى المؤرخين نتيجة لعدم رغبتهم فى الاعتراف بالأخطار الحقيقة التى تهدد التكامل التاريخى وعدم استعدادهم للإفصاح عنها . وأشير هنا إلى ما يعرف عند المؤرخين (بالنسبية التاريخية) إذ يقال إن الشخصيتين الرئيسيتين على هذا الطريق الخاطىء هما المؤرخان البارزان اللامعان كارل ل . بيكر وشارل أ . بيرد وهما من الرؤساء السابقين للجمعية التاريخية الأمريكية .

وتتلخص أسس هذه (النسبية) اللعينة عند بيكر وبيرد وغيرهما ممن يعطف على وجهة نظرهم فيما يلى :

١ - أن الأحداث التاريخية على درجة عالية من التعقيد والخداع لدرجة أن المؤرخ مهما يكن تدريبه وإخلاصه واجتهاده فلن يتمكن من تحقيق حلم ليوبولد فون رانكه الخاص بتصوير الماضى تماماً كما كان .

٢ - أن ما يقبله المؤرخون والجمهور على أنه حقيقة تاريخية فى أى وقت إنما يتوقف على المناخ الفكرى الذى يسود ذلك العصر . فضلاً عن صلابة الحقائق التاريخية نفسها .

٣ ـ أن ما يقبل على أنه حقيقة تاريخية من قبل المؤرخين والجمهور سوف يتغير من وقت الى آخر طبقا لعوامل عاطفية .

٤ ـ تكمن القيمة الرئيسية لمثل هذه الحقائق فى مدى ما يمكن أن تقدمه لنا من عون لفهم الماضى والحاضر والتخطيط للمستقبل . ولم يتحمس بيكر للحديث عن هذا البند الرابع على الإطلاق وذلك عند تقديمه لتلك النظرية النسبية ولكن بيرد فعل ذلك وخاصة فى السنوات المتأخرة من حياته .

وقد سبق أن رأينا بيرد Beard يفصح سنة ١٩٢٦ عن معتقداته الخاصة بالطبيعة المخادعة غير المكتملة والمعقدة التى تتصف بها الحقائق التاريخية[١] ولكنه عبر عنها بشىء من التفصيل والشرح فى خطابه الرئاسى أمام الجمعية التاريخية سنة ١٩٣٣[٢] كما أنه تولى توضيحها فى مقالات لاحقة[٣] .

(١) القى بيرد بياناً أمام الجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٣١ بعنوان Everyman His Own Historian ثم أعد هو نفسه بحثاً لم ينشر يتضمن تفصيلاً لما ألقاه أمام الجمعية التاريخية وقد سمى هذا البحث Histoircal Evidence وارجع كذلك لما كتبه صاحب هذا الكتاب ومعه Crane Brinton بعنوان The New History Twenty Years After ونشر فى مجلة Journal of social Philosophy يناير ١٩٢٦ (المؤلف)

(٢) نشر هذا البحث فى مجلة الجمعية التاريخية الأمريكية يناير ١٩٣٤ بعنوان :
Written History as an Act of Faith

(٣) منها مقال بعنوان ذلك الحلم الجميل فى المجلة التاريخية الأمريكية أكتوبر ١٩٣٠ ومقال آخر بعنوان ما جدّ على الكتابة التاريخية عدد أبريل ١٩٣٧ أحسن المراجع عن ما كتبه بيرد ما كتبه G.P. Nash: Self Education in Historiorography: The Case of charles A. Beard Pacific North West Quercterly July 1961.

وكان شائعاً فى أوساط العلوم الاجتماعية وخاصة بين علماء النفس الاجتماعى ، أن المتعارف عليه بأنه الحقيقة التاريخية هو ما يقبله الناس فى أى وقت على أنه الحقيقة ، وظل ذلك طيلة جيل بأكمله على الأقل قبل أن يناقش بيكر (الحقائق) التاريخية فى سنة ١٩٢٦ . ففى سنة ١٩١٣ ذكر وليم أ . داينج William A.Dunning فى خطابه الرئاسى أمام الجمعية التاريخية الأمريكية أن ما يظنه عصر أو شعب معين أنه الحقيقة فهو كذلك بالنسبة لذلك العصر أو « الشعب » وأن أى مؤرخ يدعى أن المؤرخين ليس لهم أن يأخذوا بهذا الذى أجمع عليه الرأى العام ليس له أن يتوقع أكثر من سخرية أولئك الذين يعرفون جيداً سلوك المؤرخين منذ عام ١٩٢٤ ، أى بعد أن أرسيت قواعد التاريخ العلمى الموضوعى ، وتم قبوله طوال ربع قرن . ومن الصعب أن نفهم لماذا تسوء أى فرد معرفة هذه الحقيقة .

وإنها لمسألة رأى تلك التى تتعلق بالنظر إلى الحقائق التاريخية سواء أكان تقديرها لما لها من دور عملى فى مساعدتنا على فهم الماضى والحاضر والتخطيط للمستقبل ، أم لما تثيره من فضول وكبرياء مهمّين لدى المؤرخ . ولكن المؤكد أن الاتجاه العملى هو الأكثر فائدة وتنويراً . وقد قطع روبنسون شوطاً أبعد من بيرد فى تأكيده النظرة النفعية العملية للحقائق التاريخية حيث أوضح أن المؤرخ الموضوعى هو ذلك الذى لا هدف له . ومن ثم فهو إلى حد ما إنسان لا يرجى منه فائدة إلا إذا ظهر شخص آخر يستطيع استغلال ما جمعه من حقائق .

وفى رأى مؤلف هذا الكتاب أن كل ذلك الخلاف حول النسبية لم يكن سوى زوبعة فى فنجان هدفها إلى حد ما تحويل الانتباه عن عدم رغبة المؤرخين فى مواجهة التحديات الخطيرة الحقيقية التى تجابه مهنتهم . ويشبه هذا الأمر انزعاج الفرد إزاء ظهور حالة حصبة ألمانية أو جديرى فى الوقت الذى ينتشر فيه التيفوس أو الطاعون . ونجد وصفا رائعا لتلك الطبيعة غير المعقولة للتيارات الفكرية التى كثيرا ما تؤثر على الأحكام العامة والتاريخية فى الخطاب الرئاسى الذى ألقاه وليم ل . لانجر عن (المهمة التالية) أمام الجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٥٧[١] .

(١) لمناقشة مسألة النسبية ارجع إلى الأبحاث التى نشرتها المجلة التاريخية الأمريكية أكتوبر ١٩٥٦ لكل من :
Perez Zagoru, Loe Coershy.W.A. Willian

وإلى ما كتبه Cushing Strout بعنوان الثورة العملية فى التاريخ الأمريكى Pragmatic Revolt in American History

ارجع كذلك إلى Carle Becker. Charbie Beard yale uni, pren

B.T.William : Carl Becker

C. W. Smith : Carl Becker: On History and the Climate of Opinion

وهذا الكتاب الأخير من أحسن الكتب التى حاولت أن توائم وتحدد التشابه بين النسبية عند بيكر وعند Ingsoc

وهناك تهديد أشد خطراً على الدقة والبصيرة التاريخية والصالح العام يتمثل فى الاتجاه نحو النكوص إلى الظروف التى سادت زمن انحلال الامبراطورية الرومانية عندما فقدت الطبقة الرومانية المثقفة المفكرة السيطرة على أعصابها على حد وصف جلبرت مراى إذ تحولت تلك الطبقة إلى دعاة ديانات عصرية غامضة تبشرهم بتخليصهم وتطهيرهم من خطايا الدنيا وتعدهم بالنعيم الدائم فى الآخرة ، فضلاً عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التى شاعت وأدت إلى نبذ العقل والإقلال من شأن العلم وتمجيد العقيدة والإيمان . ونستطيع اليوم أن نرى ميلاً مماثلاً لدى المفكرين المضطربين الذين يحتمون بفلسفة معينة كالوجودية أو الديانة المتزمّتة . وأدى انهيار فكرة وجود قوى غيبية خارقة للطبيعة من ناحية ، والأخطار التى تواجه الاتجاهات القوية والديمقراطية المعاصرة إلى خلق اضطراب فكرى ، لا يختلف كثيراً عن ذلك الذى صحب سقوط الحضارة الكلاسيكية القديمة .

وخير مثال لهذا الاتجاه فى مجال التاريخ هو ذلك الكتاب الذائع الصيت الذى ألفه أرنولد توينبى بعنوان (دراسة التاريخ) وعلى الرغم من الحقيقة المعترف بها بأن توينبى هو دون شك أكثر المؤرخين الأحياء علماً ، فإن الإطار التاريخى لأعماله يرتكز على الانحراف الدينى والاعتماد تماماًعلى الشواهد الغريبة مما ينفر منه أى باحث جامعى واسع الاطلاع كذلك تنكشف تماماً ضعف الدعامة الفكرية اللاهوتية للتاريخ فى كتابين للمؤرخ الهولندى بطرس جيل Pieter Geyl أولهما (فوائد الحضارة ومضارها) وقد صدر سنة ١٩٥٥ وثانيهما (مناظرات مع المؤرخين) وقد صدر سنة ١٩٥٧[١] .

وثمة تهديد أكثر خطورة لمستقبل التاريخ يكمن فى الطريقة التى بعثت بها الحماسة للحرب وما صاحبها من عواطف تجييش فى صدور المؤرخين منذ سنة ١٩٣٩ . ولم يسمح المؤرخون هذه المرة لتلك العواطف أن تفتر وتسترد حالة التوازن مثلما حدث بعد سنة ١٩١٨ ، وهو الموقف الذى تناولناه بالتفصيل فى صفحات سابقة . وفيما يلى ما كتبه مؤرخ البحرية الإنجليزية البارز رسل جرنفيل Russel Grenfell موضحاً تأثير ذلك الموقف على صحة المثل التاريخية وسلامتها . « سوف يبدو لى ولك ــ نحن الذين عشنا فى العالم المنحدر فكرياً إلى هنا عالم ما قبل ١٩١٤ ــ اندفاع المؤرخين المتعمد إلى بحر الزيف والتشويه مما يعتبر ظاهرة خطيرة . من منا كان يستطيع أن

(١) أحسن المراجع عن توينبى ما كتبه المؤلف بعنوان مقدمة للتاريخ وعلم الاجتماع ونشرته جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٨ .

يصدق فى العقد الأول من هذا القرن أن القيم التى كانت تبدو راسخة فى أعماق مهنة التاريخ سوف تختفى بهذه السهولة وهذه السرعة تاركة وراءها فئة قليلة من المحتجين الذين لا يعبأ بهم أحد ، والذين يبكون على ضياع هذه القيم ؟ »[١].

والسبب الرئيسى فى عدم تماثل أى فرصة أمام المؤرخين للعودة إلى الموضوعية المعقولة منذ سنة ١٩١٩ هو أنه ما أن وضعت الحرب الساخنة أوزارها سنة ١٩٤٥ ، حتى بدأت الحرب الباردة فى أوائل سنة ١٩٤٧ أى فى خلال حكم الرئيس ترومان . وبهذا امتد تحيز المؤرخ بسرعة من ألمانيا وإيطاليا إلى روسيا والصين الشعبية وغيرهما من الدول الشيوعية . وكانت معظم هذه الكراهية أصيلة غير مفتعلة على الرغم من أن بعضها كان بالتأكيد مصطنعا قصد به تحقيق أغراض وقائية وعلى الأخص من جانب المؤرخين ذوى الميول الشيوعية القوية قبل سنة ١٩٤٥ .

وقد أوضح المؤرخ البريطانى البارز أ.ج.ب. تايلور مؤلف كتاب (أصول الحرب العالمية الثانية) تأثير ذلك الاتجاه على استقلال التاريخ ورحابة أفقه . ففى تعليقه على كتاب «بين الحرب والسلام» للكاتب هربرت فيز Feis وهو من أبرز من يعرفون بمؤرخى البلاط فى هذا العصر وأكثرهم إنتاجاً . كتب تايلور يقول : «أمامنا مذكرة حكومية ترجمت إلى مصطلحات تاريخية أكاديمية . إن استنتاجات دكتور فيز لا تستند إلى أدلة حيث إنه افترض فيها ذاتية الوضوح قبل أن يبدأ فى تأليف الكتاب . وكان هناك حين من الوقت نفض فيه المؤرخون عن أنفسهم التزامهم القومى ، وكتبوا كما لو كانوا يرقبون الأمور من كوكب آخر . والواقع أنه عندما كان المؤرخون الأمريكيون يكتبون عن أصول الحرب العالمية الأولى أخذوا يعودون إلى الوراء وابتعدوا كثيراً إلى حد أنهم انحازوا إلى الجانب الألمانى . ولا نعرف اليوم حتى لدى العلماء الباحثين انفصالا عن الحرب الباردة ، إذ إننا نجد المؤرخين الأكاديميين فى الغرب يؤكدون استقلالهم العلمى حتى ولو كانوا يعملون فى إدارة حكومية . ولكنهم «مرتبطون» إلى الحد الذى يجعلهم يبدون وكأنهم يرتدون الأزياء الأنيقة التى أعدها دكتور جوبلز خصيصاً للأساتذة الألمان»[٢] .

(١) فى رسالة منه إلى المؤلف فى ٢٣ من ديسمبر ١٩٥٢ وارجع كذلك لمقالة المؤلف فى مجلة Liberation سنة ١٩٥٨ .

(٢) ارجع إلى المانسستر جارديان الأسبوعية ١٩ من يناير ١٩٦١ ، وارجع كذلك إلى ملاحظة مؤرخ انجليزى بارز آخر هو هربرت تبرنيلد عن التاريخ الرسمى فى كتاب History and Human Relations (McMillan 1952 pp. 182-224)

ويتمثل أكثر الجوانب خطورة لهذه السيطرة البيروقراطية على الكتابة التاريخية ، وهذا الربط بين الحقيقة التاريخية والسياسة الحكومية فى أن هذين الشيئين يمثلان الخطورة الأولى والهامة نحو الانزلاق إلى حالة سيئة للتاريخ ولما سيصبح عليه سنة ١٩٨٤ . فنجد هنا توافقاً كاملاً من جانب الكتابة التاريخية مع الاتجاهات والآراء اليومية التى تخلقها النزوات والرغبات والأمزجة الحربية والتى قد تتطور إلى تزوير الحقائق وحجبها أو حتى تدمير الوثائق من أجل الوصول إلى نتائج معينة . وتوضح الفقرة الآتية من كتاب جورج أورويل George Orwell الروح التى تسيطر على الكتابة التاريخية فى ظل مبادىء اينجسوك Ing-soc الذى يمثل الإطار الايدولوجى للنظام القائم فى سنة ١٩٨٤ : «تعاد كتابة التاريخ باستمرار ، وهذا التزوير الذى يتم يوماً بعد يوم والذى تقوم به وزارة الصدق والحقيقة» ضرورى بالنسبة لاستقرار النظام القائم بالضبط مثل ضرورة أعمال الكبت والتجسس التى تقوم بها «وزارة الحب» . فأحداث الماضى ليس لها وجود موضوعى . وكل ما هنالك أنها تعيش فى سجلات مدوّنة وفى ذاكرة البشر . والماضى هو كل ما تتفق حوله السجلات والذاكرة . وحيث إن الحزب مسئول عن كافة السجلات ومسيطر على عقول أعضائه ، فإنه يترتب على ذلك أن الماضى هو كل ما يختاره الحزب ليكون كذلك . وقد أصبحت عملية التأكد من أن كافة السجلات تتفق مع ما تفترض أنه الصواب فى حاضرنا عملية ميكانيكية . ومن الضرورى كذلك أن نتذكر أن الأحداث وقعت فعلاً بالشكل المرغوب فيه . وإن كان من الضرورى أن نعيد ترتيب ذاكرتنا أو نقلب فى السجلات المدونة ، فإن علينا أن ننسى «أننا قد فعلنا ذلك» .

ويتضح بعد هذا الإجراء التاريخى عند انجسوك Ingsoc أن المصادرة والتدمير المتعمدين لكل الوثائق التى تتعارض مع ما يؤخذ على أنه الحقيقة التاريخية فى أى وقت من الأوقات ستكون سمة العصر .

وقد يشعر كثير من القراء أننا مازلنا بعيدين جداً عن مثل هذا الموقف . ولكن الحقيقة هى أننا نعيش فعلاً فى جو تاريخى أشبه ما يكون بهذا الموقف . والفرق فى الدرجة وليس فى النوع . فباستثناء عدد قليل من كتب التاريخ التى صادفت كثيرا من الاحتقار لا توجد كتابة تاريخية منذ سنة ١٩٣٩ حتى فى العالم الحر الذى تحدى ونبذ سيطرة الدولة على الكتاب . وإنها لحقيقة ثابتة أن أهم الوثائق المتعلقة بدبلوماسية الحرب العالمية الثانية قد صودرت أو دمرت . وهناك حوالى أربعين

مجلداً تحوى وثائق خاصة بالسياسة الخارجية الأمريكية فى الفترة الأخيرة ، كلها تنتظر الطبع والنشر ولكن لم يتم شىء يذكر من أجل تنفيذ ذلك البرنامج على الرغم من المال الكافى الذى رصد له وعلى الرغم من أن المسئولين وعدوا رسمياً فى مايو ١٩٥٣ بالعمل على سرعة طبعها ونشرها . كذلك نضيف أن الوثائق التى تم نشرها أخيراً عن مؤتمرات القمة فى وقت الحرب مثل مؤتمرى يالتا وطهران جاء مشوهة وبعضها حجب تماماً ، فضلاً عن أن التحقيق فى كارثة بيرل هاربر كشف عن حجب وتشويه وتدمير بعض الوثائق الدامغة التى تتعلق بالمسئولية عن تلك الكارثة التى حلت بالأسطول الامريكى .

وقد لا يكون الموقف على درجة تثير الفزع فى صفوف المشتغلين بالتاريخ . وهذا هو الواقع فعلا ، لأنه لا يوجد اتجاه عام لدى المؤرخين للاتجاهات الجارية . ولكن سيكون من المزعج حقاً للمؤرخين الذين يتمسكون بالمثل القديمة الخاصة بالتكامل والصدق أن يستسيغوا الآراء المتطرفة التى يتضمنها هذا الكتاب .

نبذة عن تاريخ تأريخ التاريخ

أبدى أحد أصدقاء المؤلف عندما علم بمشروع وضع سطور هذا الكتاب ملاحظة مؤداها أنه لن يمر وقت طويل حتى يظهر من سيكتب تاريخاً لتأريخ التاريخ . والواقع أن مقالة عن هذا الموضوع تظهر فى مجلة تاريخية محترفة ستكون حتما مفيدة وذات أهمية ثقافية ونأمل أن نراها فى وقت قريب . وليس هناك ختام أفضل وأنسب لهذا العرض المختصر لتكريخ الكتابة التاريخية من أن نلخص ما تم إنجازه فى هذك المجال حتى يومنك هذا .

ظهرت الخطوة الأولى نحو مناقشة الكتكبة التكريخية فى عهدها الأول فى كتاب بوليبيوس عندما استعرض ونقد مناهج الكتابة السابقة على عصره ، والتى كتبها الأقدمون عن التاريخ الرومانى ونتكتج تلك الكتابات . وكانت الغالبية العظمى من الكتابات التاريخية الإغريقية والرومانية ـــ كما سبق أن أوضحنا ـــ عبارة عن تاريخ معاصر ، ومن ثم لم يكن هناك سوى قليل جدكً من الكتاب ممن شغلوا أنفسهم بالكتابة عن العصور السابقة على عصرهم . وبالتالى فإنه لا يمكن مناقشة أعمال المؤرخين الأوائل ونقدها بطريقة منظمة . ثم ظهرت بعد ذلك من المؤرخين المسيحيين ابتداء من بوليوس افريكانوس حتى جيروم من تناولوا أعمال المؤرخين الوثنيين

واليهود . كذلك دأب مؤرخو المدونات التاريخية والحوليات فى خلال العصور الوسطى على دراسة الأعمال التاريخية على الأقل بهدف الاستفادة منها فى كتابة مخطوطاتهم . وفى عصر حركة الإصلاح الدينى والحركة المضادة لها ظهرت أبحاث على أعلى مستوى من التنظيم حول الكتابة التاريخية عن المؤرخين القدامى . هذا إلى أن مؤلف كتاب (مئويات ماجدبرج) والكاردينال باروفيوس وآخرون غيرهم تناولوا بالنقد الكتّاب الذين اشتغلوا بالتاريخ الدينى منذ أيام رسل المسيحية والحواريين حتى القرن السادس عشر . كذلك قام كتاب المدرسة الإنسانية منذ فلافيوس بلوندوس حتى سيجنوبوس وليفسك دى بويلى Leves wue de Pouilly بتحليل مؤلفات الكتّاب الذين عالجوا التاريخ القديم والوسيط ، أما ناقدو الكتاب المقدس ابتداء من عزرا حتى استروك وريما Astruc and Reimarus فقاموا ببحث المصادر التاريخية الكتاب المقدس .

ثم تابع المؤرخون العقلانيون وأصحاب المدرسة الرومانسية هذه الدراسات الناقدة إلى أن أصبحت أمراً منظماً وجهداً موجهاً ، فى الفترة التى ظهرت وتمت فيها حركة جمع مصادر التاريخ القومى والمدرسة الناقدة والمدرسة الناقدة الحديثة فى التاريخ ، ونهض كبار الكتاب أمثال موراتورى Munatori ، ويتز Waitz جيزو Guizot ،مولينير Molinier جيراد Guerard، ستبس Stubbs ومن إليهم بعملية نقد وتقييم الكتاب المسيحيين الأوائل ومؤرخى العصور الوسطى . وقد فعل الشىء نفسه علماء أمثال نيبوهر Neibhur ، وويتز Waitz، فون رانكه بالنسبة لمؤرخى العصور القديمة والعصور الوسطى وعصر النهضة .

وكان أن ترتب على جهود الناشرين ظهور أول حصيلة مرموقة من الكتب التى تعتبر بحق تأريخا للكتابة التاريخية . وكانت هذه الكتب المرشد الأساسى فى التاريخ القومى حيث أعطت نبذات مختصرة عن أبرز المؤرخين الذين كتبوا عن ماضى الشعوب ، وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى العصور الوسطى ومستهل العصر الحديث ، وكان أول هذه الكتب ذلك الذى أصدره فردريك داهلمان Fredrich Dahlaman سنة ١٨٣٠ بعنوان « مصادر التاريخ الألمانى » الذى تولى جورج وايتز مراجعته وظهرت منه عدة طبعات . وتعتبر الطبعة الثانية التى أشرف عليها بولس هير Paul Herre فى سنة ١٩١٢ مجلداً عظيما فخماً ، إذ صنفت فيه باختصار كل الأعمال المتعلقة بالتاريخ الألمانى والتى صدرت باللغة الألمانية قبل سنة ١٩١٢ . وهناك أيضا كتاب « مصادر التاريخ الألمانى فى العصور الوسطى » الذى وصفه ويلهلم واتنباخ ، اوتوكار لورنز وهو كتاب أكثر تكاملاً من سابقه فيما يتعلق بالعصور الوسطى .

أما فى فرنسا فلقد أسدى كتاب « مصادر التاريخ الفرنسى » خدمة جليلة لا تقل عما أسداه لألمانيا كتاب ويتز عن مصادر تاريخها . كذلك خدم أوغسط مولنيير August Molinire ، هنرى هاوزر Henri Hauser ، اميل بورجو Emil Bourgeois، أندريه لويس Andre Louis التاريخ الفرنسى فى عملهم العظيم بعنوان (مصادر تاريخ فرنسا) وهو ما يشبه ما فعله واتنباخ، لورنز للتاريخ الألمانى . ويصل هذا الكتاب الفرنسى فى قائمته ونقده حتى ١٧١٥ . وأعد العلامة الأمريكى شارل جروس Charles Gross عرضاً لا يرقى إلى صحته شك للمؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى وذلك فى كتابه « مصادر وكتكبة التاريخ الإنجليزى » وهو الكتاب الذى قام جودفرى ديفز Codfrey Davis بإكماله . فتناول فترة حكم أسرة استيوارت . كذلك اهتمت معظم الدول الأوربية الأخرى بنشر كتب مماثلة عن تاريخ الكتابة التكريخية فيها . ويمكن أن نجد بيانا بهذه الكتب (المرشد إلى الكتابة التاريخية) . أما فى أمريكا فقد قام شاننج Channing ، هارت Hart ، تيرنر Turnerبإعداد كتاب مرشد ممتاز عن الكتابات الخاصة بالتاريخ الأمريكى .

ونجد فى سلسلة كتب (أوائل المؤرخين فى أوربا) ، التى يصدرها جيمس جردنر ، جوستاف ماسون ، أوجو بالزانى ، عرضا رائعا لتاريخ الكتابة فى العصور الوسطى فى كل من انجلترا وفرنسا وإيطاليا — كما تعطى هذه السلسلة نبذة عن المؤرخين الألمان فى العصور الوسطى وذلك لما كان من علاقات وثيقة بين إيطاليا وألمانيا فى تلك العصور . وإذا ما أراد الباحث تفاصيل أكبر عن الكتابة التاريخية الألمانية فى العصور الوسطى فعليه بالرجوع إلى كتب واتنباخ ، لورنز . كذلك نجد فى كتاب العلامة الفرنسى شارل ف . لانجلو Charles V. Langlois واسمه « بحث فى الفهارس التاريخيةManual of Historical Bibliography » عرضا مختصرا وتقييما لكافة الكتابات التاريخية منذ نهاية العصور الوسطى .

وهناك كتاب مفيد مثل سابقه ألفه شارلز كندال آدمزCharles Kendall Adams بعنوان (بحث فى المؤلفات التاريخية) يضم قائمة بأهم الكتب عن التاريخ الإنجليزى والفرنسى والألمانى كما يحوى وصفا لها ويكمل هذا الكتاب الذى ظهر قبل ١٨٨٩ كتاب هام آخر (المرشد إلى الكتابة التاريخية) الذى وضع خطته وأشرف على تحريره جورج م . دوتشر George M.Dutcher ، وليم هـ. اليسون Allison وآخرون . ويعطى هذا الكتاب اهتماماً خاصاً للأعمال التى ظهرت فيها بين سنتى ١٨٨٩ ، ١٩٣٠ وظهرت طبعة جديدة فى سنة ١٩٦١ تحت إشراف ج . ف . هو G.F.Howe .

وإذا كانت هذه المؤلفات التى ذكرها آنفا تعتبر جهداً خالداً ، فضلاً عن أنها تزودنا بمداخلَ للكتابة التاريخية ، فإنها مع ذلك ليست إلا تاريخاً عابراً للكتابة التاريخية . ولعل أول عمل هام يمكن أن يقال بحق إن مؤلفه قصد به أن يكون فعلاً تاريخاً للكتكبة التاريخية ، هو كتاب (فلسفة التاريخ فى أوربا) . « فرنسا وألمانيا » الذى ألفه روبرت فلنت سنة ١٨٧٤ . وقد عكف مؤلفه فى خلال العشرين سنة التى أعقبت ظهوره على توسيع الجزء الخاص بالمؤرخين الفرنسيين وجعل منه مجلداً كاملاً مستقلاً . ولكنه لم ينشر رسالته المطولة عن المؤرخين الألمان . وكان هذا الكتاب أكثر من مجرد تاريخ لفلسفة التاريخ حيث إنه تناول الكتابة التاريخية عند العقلانيين والمدرسة الرومانسية والقومية ، فضلاً عن الكتكبة التاريخية فى مدراس البحث الأولى ، ومدارس فلسفة التاريخ المعترف بها . وكانت هناك فى الفترة التى أعقبت صدور كتاب فلنت مؤلفات عديدة عن تاريخ الكتابة التاريخية . ولما كانت كلها قد ظهرت فى السنين الأخيرة فإن الأفضل أن نتناولها من حيث الفترات التاريخية المتعاقبة التى تتعرض لها وليس وفق تاريخ صدورها .

فبالنسبة للعصر القديم بأكمله لا يوجد كتاب أفضل من كتاب جيمس ج . شوتويل « مقدمة لتاريخ التاريخ » الذى تناول الكتابة التاريخية منذ المجتمع البدائى حتى عصر المؤرخين المسيحيين . وكان الأستاذ شوتويل ينوى إصدار كتاب عن تاريخ التاريخ كله كما يدل على ذلك بحثه الرائع عن التاريخ فى دائرة المعارف البريطانية ولكن لم يصدر للآن إلا ذلك الجزء الأول الذى لا يدانيه أى عمل مماثل كتب بلغة أخرى . وفيما يتعلق هنا بالشرق الأدنى فإن أقيم كتاب فى هذا المجكل هو كتاب (الفكر الاجتماعى للحضارات القديمة) الذى وصفه عالم الاجتماع جويس أ. هيرتزلار Joyce o. Hertzler وكذلك كتاب (السجلات المصرية القديمة) الذى ألفه جيمس برستيد ، وهو الذى يزودنا بعرض لأهم الكتابات التاريخية عن قدماء المصريين . ويساويه فى الأهمية كتاب ادولف إرمان Adolf Erman بعنوان (الكتابة الأوربية عند قدماء المصريين) . أما فيما يختص بالكتابة التاريخية فى أرض ما بين النهرين فى العصر القديم فتوجد عنها المقدمة الممتازة فى كتاب أ . ت ، أولمستيد عن كتابه « التاريخ عند الأشوريين » . ولا يوجد كتاب تاريخى مماثل يبحث فى الكتب التاريخية والبابلية . وإذا كانت هناك ترجمة لكثير من النصوص التاريخية فى كتاب « الكتابة عند الأشوريين والبابليين » مؤلفه روبرت ف . هاربر وكتاب « النقوش الملكية » عند السومريين والأكاديين للمؤلف د : د . لوكنيل . وهناك عدة كتب تعتبر مداخل لتاريخ الكتابة التاريخية العبرية أبرزها كتاب « أدب العهد القديم » لجورج فوت مور George Foote Moore

كذلك لدينا عن تاريخ الكتابة عند الإغريق القدماء ، ذلك الكتاب الرائع الذى ألفه جون . ب . بيورى تحت عنوان « المؤرخون اليونانيون القدماء » وهو أيضا يضم عرضاً مختصراً عن الكتابة التاريخية عند الرومان . ولدينا عمل مماثل عن تاريخ الكتابة التاريخية الرومانية لويلهلم سولتو Wilhelm Soltau ، هذا إلى جانب العديد من الأبحاث الفنية لمصادر التاريخ الرومانى مثل تلك التى وردت فى كتاب مقدمة للتاريخ الرومانى ومصادر مادته لآرثر روزنبرج وكتـاب « الكتابـة التاريخية للإمبراطورية الرومانية حتى عهد ثيودوزيوس الأول » لمؤلفه هرمان بطرس Hermann Peter . وقد وضع كتاباً آخر يوضح فيه السيطرة التامة للبلاغة على الكتابة التاريخية فى العصور القديمة وهو كتاب « الحقيقة والفن » ، هذا فضلاً عن كتب كثيرة تتنـاول المؤرخين اليـونكنيين والرومان منفردين مثل كتاب جلوفر Glouer عن هيرودوت وكتب كل من جراندى Grundy، أبوت Abbott ، كورنفورد عن ثيكوديدس وكتاب بوسيير Bossierعن تاكيتوس .

أما أحسن المداخل فى علم الكتابة التاريخية فى المسيحية فهو كتاب جوستاف كروجر بعنوان (الكتابة المسيحية فى عصرهـا الأول ، وكتاب بـطرس دى لابرويـل Pierre de Labriolle (التاريخ والأدب المسيحى) كذلك يحوى كتاب اندريه لاجارد ، «الكنيسة اللاتينية فى العصور الوسطى» عرضاً مختصراً لابأس به للمؤرخين الكنسيين فى العصور الوسطى .

ويعتبر كتاب الكتابة التاريخية فى المسيحية والعصور الوسطى لمؤلفه مورتز ريتار Moritz Ritter أكثر تكاملاً من سابقه . وقد نشرته أول مرة المجلة التاريخية الألمانية . ولقد كان من الطبيعى أن تتعرض الكتابة التاريخية عن العصور الوسطى للمؤرخين المسيحيين . وقد أصـدر بطرس جليداى كتاباً قيماً يحوى نبذات عن المؤرخين الكاثوليـك منذ ايـزيبيوس حتى مؤرخى النصف الثانى من القرن التاسع مثل دينفل Denifl . باستور Pastor . أما أحسن المداخل لتاريخ الكتابة التاريخية فى أوائل العصور فهو كتاب س.جـ . هـ هايز C. J. H.Mayes بعنوان (المدخل للمصادر المتعلقة بالغزوات الجرمانية) وهناك عدد من الكتب الجيدة تعتبـر مقدمـات للكتابـة التاريخية التى كتبها مؤرخو العصور الوسطى يأتى عـلى رأسها مـا كتبه تـاوت Tout ، جنكنز Jenkins وستانلى لين بول . هذا فضلاً عن الأبحاث الممتازة عن المنهج التاريخى فى العصـور الوسطى التى كتبها هينزكويرين Heinz Qurin والآنسة شولز Schulz . وقد سبق أن أشرف على سلسلة المؤرخين الأوائل فى أوربا . وتعتبر هذه السلسلة مع كتب كويرين qurin وواتنباخ Wattenbach أحسن عرض للكتابة التاريخية فى العصور الوسطى فى العالم المسيحى الغربى . أما

المدخل الوحيد المكتوب بالإنجليزية للمؤرخين البيزنطيين فهو كتاب « تاريخ الامبـراطوريـة البيزنطية » الذى الفه أ . أ . فاسيليف A. A. Vasiliev ويضم هذا الكتاب كذلك عرضاً جيداً لكل الكتابات التاريخية الحديثة عن الإمبراطورية البيزنطية فى العصور الوسطى (فى الفصـل الأول من ص ١٣ - ٥٤) . والكتاب الوحيد الذى يتناول بالتفصيل موضوع الكتابة التاريخية البيزنطية هو كتاب كارل كرومبشر Karl Krumbecher تحت عنوان History of the Byzantine Literature From Justinian to the End of The Eastern Roman Empire . «تاريخ الكتابة الأدبية فى الامراطورية البيزنطية منذ جستنيان حتى نهاية الامبراطورية الشرقية» أما عن المؤرخين المسلمين فلدينا الكتاب المختصر لمارجوليوث (محاضرات عن المؤرخين العرب) والبحث الرائع عن ابن خلدون الذى كتبه ناثانيل شميدت والمعروف أن ابن خلدون هو أقدر كتاب التاريخ المسلمين .

وليس هناك عمل منفرد شامل عن الكتابة التكريخية فى عصر النهضة على الرغم من أن هناك بعض الكتب الجزئية التى عـالجت ذلك المـوضوع والتى وصفهـا شيفل ، مـورلى ، جبهارت ، جرفينوس عن المؤرخين الفلورنسيين فضلاً عن كتابات جويكامسن عن المؤرخين الألمان فى عصر الحركة الإنسانية .

كذلك لا يوجد هناك مختصر شامل عن الكتابة التاريخية فى عصر حركة الإصلاح الدينى وإن كان هناك عرض فنى رائع لمصادر تاريخ ذلك العصر فى كتاب جوستاف ولف Gustav Wolf « مصادر تاريخ حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا » . أما عن العصر الحديث بأكمله فهناك كتاب العلامة السويسرى الفذ المرحوم إدوارد فيوتر وعنوانه « تاريخ الكتابة التاريخية الحديثة » وهو كتاب يضم نبذة ممتازة عن الكتابة التاريخية فى عصرى النهضة والإصلاح الدينى . وقدم أدولف رين Adolf Rein خير بحث عن تأثير التوسع فيما وراء البحار على الكتابة التاريخية الأوربية ذلك فى كتابه « صدى مشكلة التوسع الأوربى فى الكتابة التاريخية » . وعالج جون ب . بلاك John B. Black فى كتاب « فن التاريخ » مؤرخى عصر التعقل البارزين مثل فولتير ، هيوم ، روبرتسون ، جيبون . ويعتبر هذا الكتاب على الرغم مما فيه من اقتضاب من أحسن الكتب وأمتعها التى تناولت تاريخ الكتكبة التاريخية . ويوجد فى مؤلفات روبرت فلنت التى سبقت الإشارة إليها دراسة لتاريخ الكتابة التاريخية عند المدرسة الرومانسية . كذلك قام فيوتر بعمل موجز رائع عن أولئك الكتاب الرومانسيين . ثم إننا نجد وصفاً ممتازاً وتقبيماً سلبياً لتاريخ الكتابة التاريخية القومية ونشأة المدرسة

الناقدة فى الكتابة التاريخية فى كتاب جورج بيبودى George Peabody الذى عنوانه « التاريخ والمؤرخون فى القرن التاسع عشر » . كذلك عالج لويس هالفن وآخرون بالتفصيل الفترة الحديثة جداً ــ وهى الفترة التى مر عليها جوش Gooch مرّاً سريعاً ــ وكان ذلك فى كتـاب بعنوان « التاريخ والمؤرخون فى الخمسين سنة الأخيرة » وصدر هذا الكتاب سنة ١٩٢٧ كما عولجت الفترة نفسها فى الكتاب الذى أشرف على إخراجه ستنبرج بعنوان ' The Historical Science Of The Present In Individual Exposition.

وهناك عدد من المؤلفات التى تناولت تاريخ الكتابة التاريخية فى دول الغرب المتقدمة . وقد حظيت ألمانيا بأكمل وأحسن ا ا ـ فى هذا الشأن ، فنجد عرضاً كاملاً لتاريخ الكتابة التاريخية فى ألمانيا فى العصور الحديثة فى كتاب .رانز فون ويجل Franz Von Wegle كما أن أنطوان جويلاند Antoine Guilland ناقش فى كتابه (ألمانيا الحديثة ومؤرخوها) تاريخ الكتابة التاريخية عند المدرسة القومية . كذلك تناول جورج بيلو George Below فى إلمام كامل الكتابة التاريخية فى القرن التاسع عشر فى كتابه الكتابه التاريخية الألمانية من حرب التحرير حتى يومنا هذا) . ويوجد أحسن عرض لتطور التاريخ القومى وتاريخ مدارس البحث فى فرنسا . فى كتاب (التاريخ فى فرنسا فى خلال المائة سنة الأخيرة) الذى ألفه لويس هالفن . وكتب بنيتو كروز نبذة مطولة عن الكتابة التاريخية الإيطالية فى القرن التاسع عشر .

أما عن انجلترا فليس هناك عرض كامل للكتابة التاريخية فيها . ولكن هناك مادة حول المؤرخين الإنجليز فى القرن التاسع عشر وذلك فى كتاب جوش Gooch أما أهم المؤلفات الخاصة التى تناولت الكتابة التاريخية الإنجليزية فمنها كتاب « المواطن الإنجليزى وتاريخه » لهربـرت بـاترفيلد Herbert Butterfield وكتـاب فترة الأنتقـال فى الكتابـة التـاريخيـة الإنجليـزيـة (١٧٦٠ - ١٨٣٠ م) . وكتب بطرس بلوك Petrus Block كتاباً هاماً عنوانه ، الكتابة التاريخية فى هولندا . وفى روسيا كتب بولس ميليكوف Paul Miliukov أبحاثاً عدة عن الكتابة التاريخية الروسية منها بحث « التيارات الرئيسية فى الكتابة التاريخية الروسية » . وكتب ج . فـرانكلين جيمسون J. Franklin Jameson منذ عدة سنوات كتابا بعنوان (تاريخ الكتابة التاريخية فى أمريكا) ووصل بهذا التـاريخ حتى تنـاول المؤرخين الأدبـاء العظام أمثـال جوفـلى وباركـان وبرلسكوت وبانكروفت ومن إليهم . وقد عالج هذه المجموعة نفسها من المؤرخين جون س . باست Johns. Basseth فى كتابه المجموعة الوسطى من المؤرخين الأمريكيين كما عالج داود ليفن

David Levin فى كتابه (التاريخ كفن رومانسى) . وأوجز . ثيودور كلارك سميث ردليام أ . واننج ، والان نيفنز ، أ .م . شلزنجر ومساعدوه تاريخ الفترة الحديثة فى أمريكا . واستطاع مايكل كراوس Micheal Kraus لأول مرة فى كتابه « تاريخ التاريخ الأمريكى » ، أن يتناول تاريخ الكتابة التاريخية بأكمله . كذلك عالج هذا التاريخ كله ماركوس و . جيرنجان Marcus W. Jer-negan فى كتابه.(أبحاث فى الكتابة التاريخية الأمريكية) ، ويوجد العرض المطول الوحيد لنشأة تاريخ الثقافة والنظم وطابعها فى كتاب للمؤلف بعنوان ، (التاريخ الجديد والدراسات الاجتماعية) كذلك هناك بحث رائع لفكرة أن التاريخ علم اجتماعى فى مؤلفات ف . ج . تيجارت F. J. Teggart التى تحمل أسماء (المدخل إلى التاريخ) و (نظريات التاريخ) . ولم يتم التوصل إلى عرض كامل بدرجة معقولة لتاريخ الكتابة التاريخية إلا بعد صدور الطبعة المنقحة من هذا الكتاب سنة ١٩٣٨ وضمه إلى كتاب (تاريخ الكتابة التاريخية) الذى ألفه وستفول طومبسون Westfall Thompson وهو يقع فى جزئين وصدر سنة ١٩٤٢ وكتاب (كتابة التاريخ الأمريكى) الذى صدر سنة ١٩٥٣ لمايكل كراوس والنبذة التى عنوانها (تطور كتابة التاريخ) ، الذى أشرف على إخراجه م .ا . فيتزسيمونز A. Fitzsimons M. ا .ج . بندت A.G. Pundt ، س .ا . نويل C.E. Nowell .

المراجـع :

SELECTED REFERENCES

Robinson, The New History.

"New Ways of Historians," Loc. cit.

H.E. Barnes, ed., An Introduction to the History of Sociology, chaps. XXXvii

xlvi. University of Chicago Press, 1948.

Tbe New history and the Social Studies.

History and Social Intelligence.

Barnes and Becker, Contemporary Social Theory.

Jacques Barzun, The House of the Intellect. Harper, 1959.

Smith, Carl Becker: On History and the Climate of Opinion.

B.T. Wilkins, Carl Becker. Harvard University Press, 1961.

For an excellent summary survey of the literature on the history of history and historiography, see the bibliography in the Encyclopedia of the Social 15 Vols., Macmillan, 1932, Vol. VII, PP, 389-91. See also Fitzsimons et al., op.cit., PP. 44 ff. Aconsiderable number of desirable additions to the list books mentioned in the above brief review of the history of history writing will be found in the Supplementary Bibliography at the end of this volume.

Lee Benson, Turner and Beard. Glencoe Free Press, 1960.

Dexter Perkins and J. L. Snell, Tbe Education of Historians in tbe United States. McGraw-Hill, 1962.

E. T. Gargan, ed., The Intent of Toynbee's History. Loyola Univ. Press, 1961.

R.G. Collingwood, The Idea of History. Oxford University Press, 1946.

Allan Nevins, The Gateway to History. Appleton-Century, 1938.
Louis Gottschalk, Understanding History. Knopf, 1950.
Geoffrey Barraclough, History in a Changing World. University of Okla homa Press, 1956.
Pieter Geyl, The Use and Abuse of History. Yale University Press, 1955.
,Debates with Historians. Philosophical Library, 1957.
George Orwell, Nineteen Eighty-four. Harcourt, Brace, 1949.
C. L. Becker, Everyman His Own Historian. Crofts, 1935.
Karl Lamprecht, What Is History? Macmillan, 1905.
Odum, American Masters of Social Science.
Schaumkell, Geschichte der deutschen Kulturgeschichtschreibung.
Karl Heussi, Die Krisis des Historismus. Tubingen, 1932.
E. H. Carr, What Is History? Knopf. 1962.
P. L. Snyder, ed., Detachment and the Writing of History. Cornell University Press, 1958.
Charles Samaran, ed., L'Histoire et ses methodes. Paris, 1961.
J. H. Hexter, Reappraisals in History. Northwestern University Press, 1961.
Cushing Strot, The Pragmatic Revolt in American History. Yale University Press, 1958.
Donald Sheehan and H. C. Syrett, eds., Essays in American Historiograpby. Columbia University Press, 1961.

فهرس كتاب تاريخ الكتابة التاريخية

الفصل الرابع عشر : التاريخ وعلوم الإنسان

الفصل الخامس عشر : التاريخ الجديد ومستقبل الكتابة التاريخية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٣٠/١٩٨٧

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٢٣٨ - ٠

يتناول الجزء الثانى من هذا الكتاب الذى ألفه العلامة المؤرخ الراحل هارى المر بارنز وهو الكتاب الذى يذكر مؤلفه أنه الوحيد من نوعه بكافة اللغات دراسة للمدارس التاريخية منذ نشوء الكتابة القومية وما كان لها من رد فعل تمثلت فى نشأة المدرسة التاريخية النافذة التى تزعمها ليوبولد فون رانكه صاحب الموضوعية فى الكتابة التاريخية

ويتناول المؤلف التأثير الخطير الذى تعرضت له الكتابة التاريخية من جراء الحربين العالميتين الأولى والثانية .

ويختم المؤلف كتابه بدراسة لبرنامجه الطموح لما ينبغى أن يدرب عليه المشتغلون بعلم التاريخ وكتابته والاتجاهات والأخطار التى تتعرض لها الكتابة التاريخية فى عصرها الراهن .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب